



مطبوعات أكاديمية المملكة المغربية

سلسلة «الندوات»

ثقافة الصحراء :
مقوماتها المغربية وخصوصياتها

ندوة لجنة القيم الروحية والفكرية

الرباط

27-26 نو الحجة 1422

12-11 مارس 2002

أكاديمية المملكة المغربية

أمين السرّ الدائم عبد اللطيف بريش
أمين السرّ المساعد عبد اللطيف بنعبد الجليل
مدير الجلسات أبو بكر القادري
مدير الشؤون العلمية أحمد رمزي

العنوان : شارع الإمام مالك، كلم 11، ص. ب. 5062

الرمز البريدي 10100

الرباط - المملكة المغربية

تليفون (037) 75.51.13 / (037) 75.51.24

(037) 75.51.89 / (037) 75.51.35

فاكس (037) 75.51.01

الإيداع القانوني 2003/0445

ردمك : 9981-46-032-X

الآراء المعبر عنها في هذا الكتاب

تلتزم أصحابها وحدهم

التصنيف الضوئي - أكاديمية المملكة المغربية

السحب : مطبعة المعارف الجديدة - الرباط

سنة 2003

أعضاء أكاديمية المملكة المغربية

- هنري كيسنجر و.م. الأمريكية.
موريس دريون فرنسا.
نيل أرمسترونغ و.م. الأمريكية.
عبد اللطيف بن عبد الجليل المملكة المغربية.
عبد الكريم غلاب . المملكة المغربية.
أوطودو هابسبورغ النمسا.
عبد الوهاب بن منصور المملكة المغربية.
محمد الحبيب ابن الخوجة تونس.
محمد بنشريفة : المملكة المغربية.
أحمد الأخضر غزال المملكة المغربية.
عبد الله عمر نصيف : م.ع. السعودية.
عبد العزيز بن عبد الله . المملكة المغربية.
عبد الهادي التازي . المملكة المغربية.
فؤاد سزكين تركيا.
عبد اللطيف بريش المملكة المغربية.
محمد العربي الخطابي . المملكة المغربية.
المهدي المنجرة المملكة المغربية.
أحمد الضبيبي : م.ع. السعودية.
محمد علاء سينا مصر المملكة المغربية.
أحمد صدقي الدجاني : فلسطين.
محمد شفيق المملكة المغربية.
لورد شالفونت المملكة المتحدة.
أحمد مختار امبو - السينغال.
عبد اللطيف الفيلاي : المملكة المغربية.
أبو بكر القادري . المملكة المغربية.
جان بيرنار فرنسا.
روبير امبروكجي فرنسا.
عز الدين العراقي المملكة المغربية.
عبد الهادي بوطالب المملكة المغربية.
إدريس خليل المملكة المغربية.
عبّاس الجراري المملكة المغربية.
بيدرو راميريز فاسكيز المكسيك.
محمد فاروق النبهان المملكة المغربية.
عبّاس القيسي : المملكة المغربية.
عبد الله العروي المملكة المغربية.
برناردان كانتان الفاتيكان.
عبد الله الفيصل م.ع. السعودية.
ناصر الدين الأسد م. الأردن الهاشمية.
أناتولي كروميكو روسيا.
جورج ماطي فرنسا.
إدواردو دي أرانطيس إي أوليفيرا البرتغال.
محمد سالم ولد عدود موريتانيا.
بوشوشانغ الصين.
إدريس العلوي العبدلاوي المملكة المغربية.
ألفونسو دولاسيرنا المملكة الإسبانية.
الحسن بن طلال م. الأردن الهاشمية.
محمد الكتاني : المملكة المغربية.
حبيب المالكي المملكة المغربية.
ماريو شوارييس . البرتغال.
عثمان العُمير م.ع. السعودية.
كلوس شواب سويسرا.
إدريس الضحّاك المملكة المغربية.
أحمد كمال أبو المجد . ج. م. العربية.
مانع سعيد العتيبة الإمارات.ع.م.

أندريه أزلواي المملكة المغربية.
صاحب زاده يعقوب خان الباكستان
محمد جابر الأنصاري مملكة البحرين
الحسين وكآك المملكة المغربية

إيڤ بوليكان
شاكر الفحأم سوريا.
عمر عزيمان المملكة المغربية.
أحمد رمزي المملكة المغربية.
عابد حسين الهند.

الأعضاء المرسلون

ريشارب. ستون و.م. الأمريكية شارل ستوكتون و.م. الأمريكية
حاييم الزعفراني المملكة المغربية

مطبوعات أكاديمية المملكة المغربية

I - سلسلة «الدورات» :

- 1- «القدس تاريخياً وفكرياً»، مارس 1981.
- 2- «الأزمات الروحية والفكرية في عالمنا المعاصر»، نونبر 1981.
- 3- «الماء والتغذية وتزايد السكان»، القسم الأول، أبريل 1982.
- 4- «الماء والتغذية وتزايد السكان»، القسم الثاني، نونبر 1982.
- 5- «الإمكانات الاقتصادية والسيادة الدبلوماسية»، أبريل 1983.
- 6- «الالتزامات الخلقية والسياسية في غزو الفضاء»، مارس 1984.
- 7- «حق الشعوب في تقرير مصيرها»، أكتوبر 1984.
- 8- «شروط التوفيق بين مدة الانتداب الرئاسي وبين الاستمرارية في السياسة الداخلية والخارجية في الأنظمة الديمقراطية»، أبريل 1985.
- 9- «حلقة وصل بين الشرق والغرب أبو حامد الغزالي وموسى بن ميمون»، نونبر 1985.
- 10- «القرصنة والقانون الأممي»، أبريل 1986.
- 11- «القضايا الخلقية الناجمة عن التحكم في تقنيات الإنجاب»، نونبر 1986.
- 12- «التدابير التي ينبغي اتخاذها والوسائل اللأزم تعبئتها في حالة وقوع حادثة نووية»، يونيو 1987.
- 13- «خصاص في الجنوب وحيرة في الشمال تشخيص وعلاج»، أبريل 1988.
- 14- «الكوارث الطبيعية وأفة الجراد»، نونبر 1988.
- 15- «الجامعة والبحث العلمي والتنمية»، يونيو 1989.
- 16- «أوجه التشابه الواجب توافرها لتأسيس مجموعات إقليمية»، دجنبر 1989.
- 17- «ضرورة الإنسان الاقتصادي من أجل الإقلاع الاقتصادي لدول أوروبا الشرقية»، مايو 1990.
- 18- «اجتياح العراق للكويت ودور الأمم المتحدة الجديد»، أبريل 1991.
- 19- «هل يُعطي حق التدخل شرعية جديدة للاستعمار؟»، أكتوبر 1991.
- 20- «التراث الحضاري المشترك بين المغرب والأندلس»، أبريل 1992.

- 21- «أوروبا الإثنى عشرة دولة والآخرين»، نونبر 1992 .
- 22- «المعرفة والتكنولوجيا»، مايو 1993 .
- 23- «الاحتمائية الاقتصادية وسياسة الهجرة»، دجنبر 1993 .
- 24- «رؤساء الدول أمام حق تقرير المصير وواجب الحفاظ على الوحدة الوطنية والترايبية»، أبريل 1994 .
- 25- «الدول النامية بين المطلب الديمقراطي وبين الأولوية الاقتصادية»، نونبر 1994 .
- 26- «أي مستقبل لحوض البحر الأبيض المتوسط والاتحاد الأوروبي؟»، مايو 1995 .
- 27- «حقوق الإنسان والتشغيل بين التنافسية والآلية»، أبريل 1996 .
- 28- «وماذا لو أخفقت عملية السلام في الشرق الأوسط؟»، دجنبر 1996 .
- 29- «العولمة والهوية»، ماي 1997 .
- 30- «حقوق الإنسان والتصرف في الجينات»، نونبر 1997 .
- 31- «لماذا احترقت النور الأسيوية؟»، ماي 1998 .
- 32- «القدس أنقطة قطيعة أم مكان التقاء؟»، نونبر 1998 .
- 33- «هل يشكل انتشار الأسلحة النووية عامل ردع؟»، ماي 1999 .
- 34- «فكر الحسن الثاني أصالة وتجديد»، أبريل 2000 .
- 35- «السياسة المائية والأمن الغذائي للمغرب في بداية القرن الواحد والعشرين»، نونبر 2000 . (مجلدان باللغة الفرنسية).
- 36- «السياسة المائية والأمن الغذائي للمغرب في بداية القرن الواحد والعشرين»، نونبر 2001 . (مجلد واحد باللغة العربية).
- 37- «أزمة القيم ودور الأسرة في تطور المجتمع المعاصر»، أبريل 2001 .
- 38- «أي مستقبل للبلدان المتنامية في ضوء التحولات التي تترتب عن العولمة»، نونبر 2001 .
- 39- «العلاقات الدولية في العشرية الأولى من القرن الحادي والعشرين، أي أفق؟»، أبريل 2002 .

II - سلسلة «التراث» :

- 40- «الذيل والتكملة»، لابن عبد الملك المراكشي، السفر الثامن، جزءان، تحقيق محمد ابن شريفة، 1984 .
- 41- «الماء وما ورد في شربه من الأداب»، تأليف محمود شكري الأوسي، تحقيق محمد بهجة الأثري، مارس 1985 .
- 42- «معلمة المأحون»، تصنيف محمد الفاسي، القسم الأول والقسم الثاني من الجزء الأول، أبريل 1986 ، أبريل 1987 .

- 43- «ديوان ابن فرُّكون» تقديم وتعليق محمد ابن شريفة، ماي 1987.
- 44- «عين الحياه في علم استنباط المياه» للدمنهوري، تقديم وتحقيق محمد بهجة الأثري 1409هـ/1989.
- 45- «مَعْلَمَةُ المَلْحُون»، تصنيف محمد الفاسي، الجزء الثالث، «روائع المَلْحُون» 1990.
- 46- «عمدة الطبيب في معرفة النبات»، القسم الأول والقسم الثاني، لأبي الخير الإشبيلي، حققه وعلق عليه وأعاد ترتيبه محمد العربي الخطَّابي، 1411/1990.
- 47- «كتاب التيسير في المداواة والتدبير»، لابن زهر، حققه وعلّق عليه محمد بن عبد الله الروداني، 1411/1991م.
- 48- «مَعْلَمَةُ المَلْحُون»، تصنيف محمد الفاسي، الجزء الثاني، القسم الأول، «معجم لغة المَلْحُون»، 1991.
- 49- «مَعْلَمَةُ المَلْحُون»، تصنيف محمد الفاسي، الجزء الثاني-القسم الثاني وفيه : «تراجم شعراء المَلْحُون»، 1992.
- 50- «بغيات وتواشي الموسيقي الأندلسية المغربية»، تصنيف عز الدين بناني، 1995.
- 51- «إيقاد الشموع للذة المسموع بنغمات الطبوع»، لمحمد البوعصامي، تحقيق عبد العزيز بن عبد الجليل، 1995.
- 52- «معلمة الملحون، مائة قصيدة وقصيدة في مائة غانية وغانية»، تصنيف محمد الفاسي، 1997.
- 53- «رحلة ابن بطوطة»، خمسة أجزاء، تحقيق عبد الهادي التازي، 1997.
- 54- «كنّاش الحائك»، تحقيق مالك بنونة، مراجعة وتقديم عباس الجراري، 1999.

III - سلسلة «المعاجم» :

- 55- «المعجم العربي-الأمازيغي» الجزء الأول، تأليف محمد شفيق، 1990.
- 56- «المعجم العربي-الأمازيغي» الجزء الثاني، تأليف محمد شفيق، 1996.
- 57- «الدارجة المغربية مجال توارد بين الأمازيغية والعربية» تأليف محمد شفيق، 1999.
- 58- «المعجم العربي-الأمازيغي» الجزء الثالث، تأليف محمد شفيق، سنة 2000.

IV - سلسلة «الندوات والمحاضرات» :

- 59- «فلسفة التشريع الإسلامي» الندوة الأولى للجنة القيم الروحية والفكرية، 1987.
- 60- «وقائع الجلسات العمومية الرسمية بمناسبة استقبال الأعضاء الجدد»، دجنبر 1987 (من 1401هـ/1980 إلى 1407/1986).

- 61- «محاضرات الأكاديمية»، 1988 (من 1403هـ/1983 إلى 1407/1987) .
- 62- «الحرف العربي والتكنولوجيا» الندوة الأولى للجنة اللغة العربية، فبراير 1408 / 1988
- 63- «الشرعية والفقه والقانون»، الندوة الثانية للجنة القيم الروحية والفكرية 1409/1989
- 64- «أسس العلاقات الدولية في الإسلام»، الندوة الثالثة للجنة القيم الروحية والفكرية 1409/1989 .
- 65- «نظام الحقوق في الإسلام»، الندوة الرابعة للجنة القيم الروحية والفكرية، 1410/1990
- 66- «الثقافة الإسلامية والثقافة الغربية الأخذ والعطاء»، الندوة الخامسة للجنة القيم الروحية والفكرية، 1412/1991 .
- 67- «قضايا استعمال اللغة العربية»، الندوة الثانية للجنة اللغة العربية، 1414/1993
- 68- «المغرب في الدراسات الاستشراقية»، الندوة السادسة للجنة القيم الروحية والفكرية، مراكش 1413/1993 .
- 69- «الترجمة العلمية»، الندوة الثالثة للجنة اللغة العربية، طنجة 1995
- 70- «مستقبل الهوية المغربية أمام التحديات المعاصرة»، الندوة السابعة للجنة القيم الروحية والفكرية، تطوان / 1417 / 1997 .
- 71- «هجرة المغاربة إلى الخارج»، الناظور / 1419 / 1999 .
- 72- «الموريسكيون في المغرب»، الندوة الثانية، شفشاون / 1421 / 2000 .
- 73- «الأمثال العامية في المغرب، تدوينها وتوظيفها العلمي والبيداغوجي»، دجنبر 2001 .

V - سلسلة مجلة «الأكاديمية» :

- 74- «العدد الافتتاحي»، وفيه سرد لوقائع افتتاح جلالة الملك الحسن الثاني للأكاديمية يوم الإثنين 5 جمادى الثانية عام 1400هـ، الموافق 21 أبريل 1980 .
- 75- «الأكاديمية» العدد الأول، فبراير 1984 .
- 76- «الأكاديمية» العدد الثاني، فبراير 1985 .
- 77- «الأكاديمية» العدد الثالث، نونبر 1986 .
- 78- «الأكاديمية» العدد الرابع، نونبر 1987 .
- 79- «الأكاديمية» العدد الخامس، دجنبر 1988 .
- 80- «الأكاديمية» العدد السادس، دجنبر 1989 .
- 81- «الأكاديمية» العدد السابع، دجنبر 1990 .
- 82- «الأكاديمية» العدد الثامن، دجنبر 1991 .

- 83- «الأكاديمية» العدد التاسع، دجنبر 1992.
- 84- «الأكاديمية» العدد العاشر، شتنبر 1993.
- 85- «الأكاديمية» العدد 11، دجنبر 1994.
- 86- «الأكاديمية» العدد 12، سنة 1995.
- 87- «الأكاديمية» العدد 13، سنة 1996.
- 88- «الأكاديمية» العدد 14، سنة 1997.
- 89- «الأكاديمية» العدد 15، خاص بالموريسكيين في المغرب، سنة 1998.
- 90- «الأكاديمية» العدد 16، سنة 1999.
- 91- «الأكاديمية» العدد 17، سنة 2000.
- 92- «الأكاديمية» العدد 18، سنة 2001.
-

ثقافة الصحراء : مقوماتها المغربية وخصوصياتها

(الرباط، 11- 12 مارس 2002)

أولا : مدخل تمهيدي

ثانيا : المقومات المغربية لثقافة الصحراء :

- 1 - الأصول والروافد : إبراز المشترك بين شمال المغرب وجنوبه.
- 2 - الظواهر : الدراسة - التأليف العلمي .. الخ.
- 3 - محطات من التاريخ المغربي برزت فيه رجالات من الصحراء.
- 4 - ثقافة الصحراء من خلال مقوماتها المغربية لدى الفقهاء والشعراء والمتصوفة والعلماء المؤلفين والنقاد.
- 5 - الصحراء المغربية في المصادر الأجنبية.

ثالثا : خصوصيات ثقافة الصحراء .

- 1 - البيئة الطبيعية والبشرية - النظام الأسري - نظام التربية والتعليم.
- 2 - الأعراف والتقاليد.
- 3 - الابداع في الفنون والصناعات التقليدية وغيرها.
- 4 - اشعاع ثقافة الصحراء في الجنوب المغربي.
- 5 - اشعاع ثقافة الصحراء في افريقيا السوداء.

الفهرس

- 19 - خطاب افتتاح أعمال الندوة
- أبو بكر القادري
عضو الأكاديمية ومدير الجلسات

1 - البحوث

♦ عرض تمهيدي :

- 25 دور علماء الصحراء المغربية وأدبائها في تثبيت الوحدة الوطنية
- عباس الجراري
عضو الأكاديمية

- 35 ♦ نظرات تاريخية حول الصحراء المغربية
- حَمْدَاتِي شبيهنأ ماء العينين
رئيس المجلس العلمي الإقليمي لجهة الشراردة بني أحسن

♦ الصحراء بين تقريرين لمبعوثين أمريكيين بالمغرب :

- 49 باركلي و ماتثيوس
- عبد الهادي التازي
عضو الأكاديمية

♦ عبد الله العلوي مؤسس الحركة الشعرية المغربية بالصحراء 59

أحمد مقدي

أستاذ بكلية الآداب والعلوم الانسانية - فاس

♦ مكونات الكتابة الشعرية عند شعراء الصحراء المغربية

نموذج : ماء العينين محمد مصطفى مربيه ربه..... 97

ماء العينين النعمة علي

أستاذ باحث - تيزنيت

♦ المقدسات والوحدة الوطنية في شعر الصحراء المغربية 131

محمد عيناق

رئيس الجمعية المغربية للدراسات الجهوية - أسفي

♦ ثقافة الصحراء من خلال مقوماتها المغربية لدى العلماء 145

محمد المختار ولد باه

أستاذ بدار الحديث الحسنية - الرباط

♦ المدارس العلمية في الصحراء ومساهماتها في إغناء الثقافة المغربية .. 161

محمد الطريف

أستاذ بكلية الآداب والعلوم الإنسانية - المحمدية

♦ التجديد أو النظر الفقهي عند علماء الصحراء 179

أحمادو ولد المختار حمين

أستاذ باحث - موريطانيا

- ♦ ثقافة الصحراء من خلال مقوماتها المغربية لدى الفقهاء والشعراء
والمتصوفة والعلماء المؤلفين والنقاد 195
- الحسين وكاك
عضو الأكاديمية
- ♦ ثقافة الصحراء من خلال مقوماتها المغربية لدى الفقهاء والشعراء
من 1912 إلى اليوم 231
- خديجة أبي بكر ماء العينين
أستاذة باحثة
عضو مؤسسة مربيه ربّه
للدراسات والأبحاث الحسانية - العيون
- ♦ من خصوصيات ثقافة الصحراء الصناعة التقليدية نموذجاً 267
- لعتيگ الطالب بویا
مندوب وزارة الثقافة والاتصال
مدير مركز الدراسات والأبحاث الحسانية
العيون
- ♦ المحاضرة الشنقيطية من عهد ابن ياسين إلى اليوم 275
- أحمد ولد عبد القادر
أديب وشاعر وروائي من موريطانيا
- ♦ النظام الأسري داخل مجال ثقافة الصحراء 283
- العالية ماء العينين
أستاذة باحثة
محافظة الخزانة الجهوية - العيون

297 ♦ الأعراف والتقاليد من خصوصيات ثقافة الصحراء
الدوّى حمادة
أستاذ باحث - السمارة

325 ♦ ملامح من إشعاع ثقافة الصحراء في افريقيا السوداء
ماء العينين مربيه ربه
باحث في ثقافة الصحراء
وزارة الثقافة والاتصال - الرباط

341 ♦ الصحراء المغربية والمناورات الأجنبية
ماء العينين محمد تقي الله
أستاذ بجامعة محمد الخامس - الرباط

349 ♦ محطات من التاريخ المغربي برزت فيه رجالات من الصحراء
لأرباس الشيخ ماء العينين
رئيس المجلس العلمي - العيون

375 ♦ بيعة أهل الصحراء المغربية للملوك العلويين
محمد المختار المداح
أستاذ باحث - بني ملال

2 - قراءات شعرية

387 ♦ مهلا حبيبي
خديجة أبي بكر ماء العينين

- لما البعد 389
ماء العينين ماء العينين
- أحبائنا الأهل 391
أحمد ولد عبد القادر
- أمة وسط 397
محمد الكبير العلوي
- اللاهث وراء السراب 401
حبيبة البورقادي
- حسن المجد والعللا 405
محمد المختار ولد باه

3 - المناقشات

- 1 - محمد بنشريعة 411
- 2 - إدريس العلوي العبدلاوي 415
- 3 - حمداتي شبيهننا ماء العينين 417
- 4 - أحمد ولد عبد القادر 419
- 5 - أحمد مفدي 421
- 6 - العالية ماء العينين 423
- 7 - خديجة أبي بكر ماء العينين 425
- 8 - تقي الله ماء العينين 426
- 9 - ماء العينين النعمة علي 428
- 10 - أحمادو ولد المختار حمين 432
- 11 - أمنة اللوه 434

- 445 عبد الكريم غلاب 12 -
- 448 حمداتي شبيهننا ماء العينين 13 -
- 452 خديجة أبي بكر ماء العينين 14 -
- 452 المصطفى القباچ 15 -
- 453 العالية ماء العينين 16 -
- 453 تقي الله ماء العينين 17 -
- 454 عبد الكريم غلاب 18 -
- 454 تقي الله ماء العينين 19 -
- 455 أحماڤو ولد المختار حمين 20 -
- 457 الحسين وگاگ 21 -
- 457 ماء العينين مربيه ربه 22 -
- 459 ماء العينين النعمة علي 23 -
- 462 أحمد وُلد عبد القادر 24 -
- 463 ♦ خطاب اختتام أعمال الندوة

أبو بكر القادري

عضو الأكاديمية ومدير الجلسات

خطاب افتتاح أعمال الندوة

أبو بكر القادري

مدير الجلسات

الإخوة الزملاء أعضاء أكاديمية المملكة المغربية، والإخوة الخبراء،

حضرات السادة والسيدات،

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته،

بسم الله نفتح هذه الندوة من سلسلة الندوات الفكرية والثقافية التي تنظمها لجنة القيم الروحية، في أكاديمية المملكة المغربية، في إطار اهتماماتها، وفي نطاق اختصاصاتها، هادفة من وراء ذلك، إلى الإسهام في إغناء التفكير والحوار، والبحث والدراسة، حول القضايا ذات الطابع الفكري، والثقافي، بالمعنى العميق والشامل للفكر والثقافة، وساعية في الوقت نفسه، إلى بلورة المفهوم العلمي الصحيح لجملة من القضايا والمشكلات المطروحة على العديد من المستويات، قصد الخروج بتصوّرات شاملة وعميقة للحلول العملية التي تساعد على الاستثمار الأمثل، للملكات المغربية، والمواهب الفكرية، في الارتقاء بالحياة العقلية، وفي خدمة المجتمع، وفي تعزيز القيم الروحية، ذات التأثير في تطور الإنسان، والرفع من مستواه عقلياً ووجدانياً.

في هذا الإطار، اختارت لجنة القيم الروحية في أكاديمية المملكة المغربية، أن تعقد هذه الندوة التي ستتناول قضية نراها جديرة بكل العناية والاهتمام،

خصوصاً في هذه المرحلة الدقيقة التي يجتازها الوطن، تأكيداً لمبدأ سام من مبادئ الوطنية المغربية، ألا وهو تعميق الوحدة الوطنية المغربية، وترسيخ الوحدة الترابية للمملكة، وتعزيز الإجماع الوطني حول قضية هي من أقدس القضايا الوطنية دون أدنى شك .

إن موضوع هذه الندوة إذن، هو «ثقافة الصحراء : أي ثقافة المغرب ككل، فأى ثقافة؟، وأي صحراء؟، ما المقصود بهذا التركيب؟ «ثقافة الصحراء»، هل المراد هو المعنى الجغرافي المحض؟، أم المراد هو المعنى الوطني الخاص؟، بعبارة أخرى، هل القصد من عنوان هذه الندوة، الحديث عن مطلق ثقافة، لمطلق صحراء؟، أم إن الهدف الذي حُدد لهذا الموضوع المهم، هو إدارة الحديث حول ثقافة مخصوصة، لصحراء معلومة لدينا، وعزيزة علينا؟

إن الصحراء التي تُضاف الثقافة إليها في عنوان هذه الندوة، هي - بدهة - ذلك الجزء العزيز الغالي من الوطن المغربي، هي الصحراء المغربية الغربية، ونؤكد على وصف (الغربية) هنا، لأمر ذي بال، لأن للمغرب صحراء الشرقية أيضاً، مما نعرفه جميعاً، ومما يشكل موضوعاً لم يحن أوان إثارته بعد.

الصحراء إذن، هي الصحراء المغربية الغربية : الساقية الحمراء، ووادي الذهب، الجزء الذي لا يتجزأ من التراب الوطني المغربي، هي صحراء المغرب الجنوبية، الامتداد الطبيعي للوطن المغربي، هذه الأقاليم التي دافع عنها العرش المغربي والشعب المغربي، والذي تم استرجاعها إلى الوطن الأم، بعد احتلالها من طرف الاستعمار الإسباني البغيض، بالمسيرة الخضراء المظفرة، التي دعا إليها وقادها جلالة الملك الحسن الثاني قدس الله روحه، والذي أكد - في الأسبوع الماضي - جلالة الملك محمد السادس، حفظه الله ونصره، على الحفاظ عليها وعلى رفض أي مساس بها، تحت أي دعوى من الدعاوي المغرضة، أو عرقلة من العرائل التأميرية.

أما الثقافة : فهي اصطلاحاً، وكما تعلمون، مجموعته الأعراف والطرق، والنظم، والتقاليد، والأساليب الحياتية، التي تميّز جماعةً أو أمةً أو سلالة عرقية عن غيرها. والثقافة بمعنى آخر، وكما لا يخفى عليكم، هي حصيلة كل النشاط البشري الاجتماعي في مجتمع معين، النشاط الاجتماعي الذهني، والفني، والمذهبي، والثقافة في الجملة، هي مجموع العادات، والفنون، والعلوم، والسلوك الديني والسياسي، كما يستخدم لفظ (الثقافة) للدلالة على الجوانب العقلية والفنية للحياة .

ويذهب علماء البيولوجيا، إلى القول إنَّ للسّمات الثقافية قدرةً هائلةً على البقاء والانتقال عبر الزمن. ويؤكد هذا المفهوم، أن ثقافة الصحراء المغربية، هي ثقافة الوطن المغربي ككل، انتقلت سماتها الثقافية، إلى هذا الجزء من الوطن، مثل ما انتقلت إلى الأجزاء الأخرى من الوطن، فاكتمست طابعاً محلياً زادها ثراءً وتنوعاً، ولكنه لم يفقدها الجوهر والعمق، والأساس الذي تقوم عليه الثقافة المغربية بصورة عامّة .

إنَّ دراستنا لتاريخ الثقافة المغربية في جميع العصور، تؤكد لنا أن ثمة عنصرين اثنين، هما النواة الصلبة لهذه الثقافة : العقيدة الإسلامية أولاً، ثم لغة القرآن الكريم. ثانياً وحتى في المناطق التي تسود فيها اللهجات المحلية، مثل الأمازيغية، والحسانية، فإن اللغة العربية بقيت دائماً لغة الثقافة، والقالب الذي يعبرُ منتج الثقافة ومبدعها عن أفكارهم، ومشاعرهم، وأحلامهم، وهمومهم، وآمالهم. ويكفي أن نذكر أن الثقافة العربية الإسلامية، قد ازدهرت في الصحراء المغربية، بقدر ازدهارها في المدن الداخلية، كما ازدهرت في سوس، وفي الريف، وفي بلاد جباله بالشمال، وبقيت دائماً معبراً صريحاً عن وحدة المغرب والمغاربة خلال العصور التاريخية.

هذان العنصران هما جوهر الثقافة في المغرب عموماً، ويمكن أن نقول دون مبالغة، إن الثقافة في الصحراء المغربية، حافظت على رسالة الإسلام، وعلى

اللسان العربي، في أزمنة متطاولة، وفي ظل ظروف تاريخية صعبة. ومع ذلك، فإن ثقافة الصحراء ذات خصوصية، تجعل لها مكانة متميزة ضمن منظومة الثقافة المغربية، بصورة عامّة.

نحن إذن، بإزاء التنوع الثقافي في إطار الوحدة المغربية؛ التنوع في الشكل، والمظهر، والقالب المحلي، والوحدة في المضمون، والجوهر، والروح الوطنية. وتلك خاصية من خصائص ثقافة الصحراء المغربية.

حضرات السادة والسيدات،

إن ثقافة الصحراء المغربية تقوم على الدعائم التي يركز عليها الكيان المغربي، وتعبّر عن الروح المغربية، وتغترف من منابع الثقافة العربية الإسلامية، وهي رافد من روافد الثقافة المغربية، في تجلياتها ومكوناتها ومقوماتها. ولقد أردنا من هذه الندوة أن تُدرس هذه الجوانب جميعاً من خلال العروض القيمة التي سيلقيها أكاديميون وخبراء ومختصون، وأن تبحث في هذه الموضوعات المتفرّعة عن هذه القضية. وستكون حصيلتها هذه الندوة، دعماً وتعزيزاً لثقافة الوحدة المغربية، بقيادة العرش المغربي الضامن للسيادة الوطنية، والحامي لحماها، في ظل العقيدة الإسلامية التي هي الجامع المشترك لثقافة هذا الوطن.

فعلى بركة الله نبدأ أعمالنا، ومنه سبحانه نستمدّ العون والحكمة والسداد، ونسأله تعالى التوفيق في كل أعمالنا.

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

البحوث

عرض تمهيدي :

دور علماء الصحراء المغربية وأدبائها في تثبيت الوحدة الوطنية

عباس الجراري

يسعدني أن أشارك في هذه الندوة القيمة التي تعقدها لجنة القيم الروحية والفكرية بأكاديمية المملكة المغربية لتناول موضوع يكتسي أهمية خاصة، وهو موضوع الصحراء. وعلى الرغم من أن قضية الصحراء منتهية بالنسبة للمغرب والمغاربة، لأننا في أرضنا ولأننا لم نعد في حاجة إلى أن نثبت مغربيتها فإن الظروف الطارئة التي تواجه المغرب وتريد أن تتحدى شعور المغاربة، تفرض علينا أن نظل معبئين لمواجهة هذه التحديات.

والأكاديمية إذ تنظم ندوة عن الثقافة في الصحراء، فانطلاقاً من أن الثقافة تُعتبر مقوماً أساسياً في هوية كل شعب وكل أمة، وحين نتحدث عن الثقافة، نتحدث عن أشياء كثيرة، لكننا هنا وفي هذا العرض لن أتحدث إلا عن جانب من الثقافة المدرسية وفق ما يبلوره دور العلماء والأدباء في تثبيت الوحدة، عبر التواصل الثقافي الذي لم ينقطع قط بين المغرب وأقاليمه الجنوبية من القديم إلى الآن.

الموضوع واسع وسيغنيه الإخوة المشاركون بعروضهم ، وسوف أكتفي بإلقاء بعض الأضواء على مظاهر من هذا التواصل.

كمظهر أول يلفت نظرنا التصريح بالانتماء إلى المغرب، نجد هذا في تراجم علماء الصحراء الذين يذكرون في نسبهم أنهم مغاربة. وأكتفي بمثال واحد أو مثالين : «حرمة بن عبد الجليل ابن القاضي العلوي المغربي». هكذا يؤرخ له الولائي في «فتح الشكور». ومثله عالم آخر هو عبد الله البوحسني الذي يشار في تسميته إلى أنه «المغربي». كذلك عندنا عدد من الشناقطة ينسبون أنفسهم للمغرب. يقول التجاني بن بابا بن أحمد في «منية المرید» :

قال ابن بابا العلوي نسبه المغربي المالكي مذهبه

وهكذا أمثلة كثيرة لعلماء يذكرون في نسبهم ويفخرون بأن ينسبوا إلى المغرب.

الأمثلة كما قلت متعددة ولا أريد أن أطيل بها، ولكن أنتقل إلى جانب آخر من جوانب هذا التواصل بين الشمال والجنوب عبر الثقافة، فأقف عند عمق الوحدة في البعدين الديني والفكري.

هناك وحدة التوجُّه الديني والمذهبي عبر العقيدة وعبر المذهب سواء في الفقه أو في التصوف. نحن نعرف بالنسبة للمغاربة أن العقيدة أشعرية وأن المذهب مالكي وأن التصوف سني على طريقة الجُنيد. هذه العناصر الثلاثة نجدها متبادلة ومتداولة عند علماء الصحراء وعند المتصوفة ورجال الفقه والعقيدة. يتجلى ذلك من خلال المتون التي كانت تدرس وما زالت تدرس في الشمال وفي الجنوب، إذا نحن استعرضنا ما كان يدرسه منها وما زال يدرسه الطلبة الصحراويون وفقهاء الصحراء نجد أنها هي نفسها التي كانت موجودة عندنا ؛ متن ابن عاش ، وشرح مِيَّارَة و«الشفا» لعياض و«دلائل الخيرات» و«حكيم» ابن عطاء الله، وإضاءة الدجنة للمقري، وحتى خارج الفقه والتصوف والعقيدة فإن المتون هي هي، كما في النحو وفي اللغة والعروض، إذ نجد «الأجرومية» و«شرح الألفية» للمكودي وشرح السبتي على الخزرجية الخ.

بل إن علماء الصحراء لا يكتفون بتدارس هذه المتون ولكن يشرحونها اهتماماً منهم بها. ولا أريد أن أطيل بذكر العلماء الصحراويين الذين شرحوا مؤلفات مغربية في هذا المجال ويكفي التذكير ببعض هذه الأسماء . الشريف محمد بن الإمام الحسيني الإدريسي المتوفى سنة ثمان ومائتين وألف للهجرة (1208 هـ) يضع شرح «البسط والتعريف في علم التصريف» للمكودي. عبد الله البوحسيني يشرح «إضاءة الدُّجَّة في عقائد السنَّة» للمقري ابن الحاج لمين التواتي يشرح نظم المقنع للمرغيتي. وهكذا نجد علماء الصحراء يقفون عند هذه المتون التي ألفها المغاربة ويشرحونها وكذلك بالنسبة للتصوف يكفي أن نقف عند ما وضعه سيدي العربي بن السايح المتوفى سنة تسع وثلاث مائة وألف للهجرة (1309 هـ) يضع على منظومة «منية المرید» للطالب العلوي الشنقيطي شرحاً هو المعروف بـ «منية المستفيد من منية المرید».

جانب مهم آخر في هذا الارتباط هو جانب الطرق الصوفية. يكفي هنا أن أشير إلى بعض الزوايا التي أقيمت في الصحراء والتي كانت صلة وصل بين مثيلاتها في الشمال. تُذكر الزاوية البكائية المنسوبة لسيدي عمرو بن الشيخ سيدي أحمد البكاي المتوفى سنة ستين وتسعمائة للهجرة، لها مرجع في ملازمته للشيخ عبد الكريم المغيلي الذي كان معاصراً له وأخذ عنه القادرية. كذلك تذكر الزاوية الفاضلية المنسوبة للشيخ محمد فاضل بن مامين وهي قادرية ينسب أخذها للشيخ زروق عن البعض وللشيخ الثعالبي عند غيره، ولا أريد أن أعدد أسماء هذه الشخصيات التي كانت في نطاق هذه الزوايا تركز الوحدة ولكن يكفي أن أشير إلى الزوايا التيجانية بمختلف طوائفها، لاسيما الحافظية المنسوبة لمحمد الحافظ العلوي المتوفى في منتصف القرن الثالث عشر للهجرة في أدرار، وترجع إلى الشيخ أحمد التيجاني مباشرة وإلى سيدي العربي بن السايح.

ثم إن هناك زوايا أخرى متقلصة النفوذ بالنسبة لغيرها، مثل الناصرية المنسوبة للشيخ محمد بن ناصر الدرعي المتوفى سنة ست وثلاثين وألف للهجرة، إذ نجد لها كذلك نفوذاً عن طريق مجموعة من العلماء الذين زاروا تامكروت أونالوا إجازات شيوخها. وهي كلّها تدل على هذا الترابط وهذا التواصل الذي كان بين المتصوفة وبين أقطاب التصوف في الشمال.

إذا أردنا أن ننظر بعد هذا في بعض المظاهر التي تبرز هذا التواصل بين علماء الشمال وعلماء الجنوب يُصادفنا في البداية بعض العلماء الصحراويين الذين أقاموا في الشمال، يُذكر من بينهم محمد محمود البيضاوي الشنقيطي العالم الكبير الذي هاجر إلى مراكش وكان يُدرّس بها، توفي سنة تسع وأربعين وثلاثمائة وألف هجرية، - أنا أتعمد في بعض الأمثلة أن أشير إلى التواريخ لأنها تدلّ على الصلاة القديمة وليست الصلات الحديثة كما قد يظن البعض - تُذكر أخته خديجة بنت البيضاوي أيضاً هاجرت إلى مراكش واشتغلت بالتدريس وكانت عالمة مستحضرة للسيره ولغة العربية والنحو، وهي والدة الأديب العالم محمد البيضاوي الشنقيطي الذي كان له حضور قوي في الشمال حيث أقام في الرباط وتولى مناصب وكانت له مساهمات في التدريس وفي التأليف، وهو شاعر من كبار شعراء المغرب؛ وقد خصه المتحدث إليكم ببحث خاص سيُنشر قريباً إن شاء الله.

يذكر كذلك من الذين أقاموا في الشمال محمد بابا الصحراوي المتوفى سنة اثنتين وأربعين وثلاثمائة وألف للهجرة، فقد استقر سنين عديدة في إلغ في سوس حتى صار كأحدهم كما يقول صاحب «المعسول» المختار السوسي رحمه الله. كما يذكر محمد سالم الصحراوي والشيخ سيدي يا بن الشيخ سيدي أحمد ولد اليماني وماء العينين بن العتيق، واللائحة طويلة بأسماء العلماء الصحراويين الذين أقاموا في الشمال وكان لهم حضور قوي في التدريس والوظائف، وبالتالي في تمتمين الروابط.

كذلك تذكر الوفود الرسمية التي كانت تتبادل الزيارات بين الشمال والجنوب سواء من هذا الاتجاه أو ذلك. وتكفي الإشارة إلى الوفد الذي كان قد زار الساقية الحمراء في عهد المولى عبد العزيز، وكان الهدف من هذه الرحلة هو استخلاص طرفاية من الإنجليز. وعندنا نصوص شعرية تدل على الترحيب الذي لقيه هذا الوفد وكان يتكوّن من خمسة أفراد، ويحضرني هنا مطلع قصيدة قالها العلامة إبراهيم البوارى يقول فيه :

أهلاً بهم من خمسة أعلامٍ بل خمسة كقواعد الإسلام

ولا بدّ في هذه المظاهر أن نذكر اتصال علماء الصحراء وأدبائها بملوك المغرب وأمرائه، وهي ظاهرة نسجلها منذ العصر الموحدى أي في القرن السادس الهجري. فعندنا الشاعر أبو إسحاق بن يعقوب الكانمي، كان قد اتصل بالمنصور الموحدى ومدحه بقصيدة أذكر منها هذين البيتين .

أزال حجابهُ عنيّ وعيني ترأه من المهابة في حجاب
وقربني تفضُّله ولكن بعدت مهابة عند اقترابي

كذلك يذكر، ونحن نظوي المراحل، الشاعر عبد الله بن الحاج إبراهيم العلوي، اتصل بالخليفة سيدي محمد بن مولاي عبد الله، وكان بينهما تبادل كتب وغير ذلك، كما يذكر الشاعر محمد المجيدري بن حبيب الله الذي كانت له حُطوة عند السلطان سيدي محمد بن عبد الله، وكان يدرس ويُدرس كذلك في فاس، يذكر عبد الله العلوي المعروف بابن رازكة الشاعر الكبير، توفي حدود الثلاثين ومائتين وألف للهجرة، كان من خاصة محمد العالم وله قصائد كثيرة فيه وفي مكناس. ومثله المختار بن الهيبة الأبيري، كان كاتباً للسلطان المولى عبد الرحمن، ومحمد بن سيدي محمد حفيد ابن رازكة الذي سبقت الإشارة إليه، أيضاً كان متصلاً بالمولى عبد الرحمن وكانت له فيه مدائح كثيرة. لا بأس في هذا

الاستعراض أن نشير إلى الشاعر معاوية بن شدّ التندغي، إذ له قصائد في المولى اليزيد ابن سيدي محمد بن عبد الله وإلى الشاعر الأمين بن محمد المختار اليماني الذي له قصائد في مدح المولى عبد الحفيظ، والنماذج كثيرة. هذا إلى جانب الأدباء والشعراء الذين كانوا يكتبون نصوصاً ويبدعون قصائد في مدح بعض أسيخ الطرق ولاسيما في سيدي أحمد التيجاني وسيد العربي بن السايح، وهذا عنصر مهم في التواصل، متمثل في الذين سجلوا هذا الارتباط وهم شعراء كثيرون يكفي أن أشير منهم إلى محمد الحسن بن عبد الجليل العلوي (في القرن الثالث عشر) ومحمد العلوي أيضاً في نفس القرن وأيضاً يذكر الشاعر محمد فال أباه بن بابا الذي هو والد صديقنا الأستاذ المختار ولد أباه.

هذا، وإن من المظاهر التي لا بد من تسجيلها والتي تثبت هذا التواصل الذي كان بين الشمال والجنوب أن ملوك المغرب كانوا يعنون بطبع إنتاج علماء الصحراء منذ دخلت المطبعة في منتصف القرن التاسع عشر ميلادي. والكتب التي طبعت لعلماء الصحراء هي أكثر من أن يشار إليها، ويكفي أنه طبعت كتب كثيرة لأحمد بابا التمبوكتي والمختار الجكني وعبد القادر الشنقيطي ومحمد الصغير الشنقيطي ومحمد النابغة الشنقيطي ومحمد فال اليماني وعبد الله بن إبراهيم العلوي الشنقيطي ... الخ. أما ما طبع للشيخ ماء العينين ولأفراد أسرته فهو أكثر من أن يعد أو أن يستعرض في هذه العجالة. ودائماً في نطاق هذا التواصل كان الأدباء والشعراء المغاربة في الشمال يتوجهون بمدائحهم إلى بعض الشخصيات الصحراوية ولاسيما الشيخ ماء العينين، فكثيرون هم شعراء الشمال الذين مدحوا الشيخ ماء العينين كالتاهر الإفرائي وأحمد بن المواز وعبد الرحمن بن زيدان وأحمد بن المامون البلغيثي وأحمد سكيرج وعبد الله القباچ ومدائحهم موجودة في دواوينهم وفي بعض المصادر ولاسيما في «الأبحر المعينية» الذي جمعه محمد بن ماء العينين والذي حققه زميلنا الأستاذ أحمد مفدي.

ثم إن من المظاهر التي أودُّ الإشارة إليها كذلك الرسائل التي كانت تتبادل وخاصة تلكم التي كان يوجهها علماء الصحراء إلى ملوك المغرب، وهي رسائل كثيرة لا مجال لحصرها، يكفي التذكير ببعضها مثلاً رسالة الشيخ ماء العينين إلى المولى عبد العزيز يطمئنه فيها على أحوال الصحراء ويبلغه ولاء قبائلها.

بمناسبة الحديث عن الولاء، لاحظتم لاشك أنني في إطار موضوع الثقافة لم أتحدث عن جانب مهم وأساسي وهو جانب البيعات التي كانت ترفع إلى ملوك الدولة. فقد اعتبرته من المفروغ منه ومما يدخل في الإطار السياسي الذي قد يتناوله بعض الزملاء في عروضهم.

في موضوع الرسائل كذلك تذكر رسالة من الشيخ ماء العينين إلى المولى عبد العزيز يطلب منه إمداد المجاهدين الصحراويين لمواجهة تحرك القوات الفرنسية نحو أدرار ويطلب منه أن يستخلف نائباً عنه لقيادة الجهاد في الأقاليم الصحراوية. الرسائل كثيرة من هذا النوع. ومثلها الرسائل الصوفية وكذلك الرسائل الإخوانية، وكيفيني هنا أن أشير إلى الدراسة الهامة التي أنجزها زميلنا الأستاذ محمد الظريف، فأطروحته عن التصوف والرسائل التي تدخل في هذا الإطار كثيرة ويمكن الرجوع إليها في كتابة المطبوع.

من المظاهر التواصلية التي أريد الإشارة إليها تبادل الإجازات العلمية بين علماء الشمال والصحراء. وهناك العلماء الذين كانوا يعطون إجازات أو يتلقون إجازات، وهناك الذين كانوا يتدبجون أي يتبادلون الإجازات فيما بينهم. وتكفي الإشارة إلى بعض الإجازات المبكرة : محمد بن محمد بن أبي بكر التواتي (توفي سنة عشر وألف للهجرة، أي في أوائل القرن الحادي عشر) وأحمد بن القاضي تبادل الإجازة بينهما، والتواتي هذا كان مبرزاً في الفقه وفي الحديث. كذلك يشار إلى أسماء أخرى كسيدي عبد الله بن الحاج إبراهيم العلوي الذي أقام في فاس وتلقى على البناني، محشي عبد الباقي، وتلقى البناني عنه أيضاً. ويشار

كذلك إلى إجازة محمد سداتي الكنتي لمحمد الاماني السوسي. وهكذا تبدو اللانحة طويلة.

أستسمحكم في سياق استعراض هذه المظاهر أن أشير إلى تبادل الأحاجي وتبادل الألغاز. وهذا باب معروف في الأدب العربي. وتكفي الإشارة هنا إلى عبد الله العلوي المعروف بابن رازكة - المشار إليه سابقاً -، فقد وجه إلى علماء فاس وإلى عالم بالذات وهو ابن زكري، وجه له لغزاً بأبيات في قوله تعالى من سورة يوسف : ﴿ فَبَدَأَ بِأَوْعِيَّتِهِمْ قَبْلَ وِعَاءِ أَخِيهِ ثُمَّ اسْتَخْرَجَهَا مِنْ وِعَاءِ أَخِيهِ ﴾ لماذا لم تقل الآية : مِنْ وِعَائِهِ ؟ للتمثيل أقرأ جزء منه إذ يقول :

أَسْأَلُكُمْ مَا سِرُّ إِظْهَارِ رَبِّنَا تَبَارَكَ مَجْدًا مِنْ وِعَاءِ أَخِيهِ
فَلَمْ يَأْتِ عَنْهُ مِنْهُ أَوْ مِنْ وِعَائِهِ لِأَمْرٍ دَقِيقٍ جَلَّ ثَمَّ يَخِيهِ

أجاب على هذا اللغز مجموعة منهم محمد بن سعيد اليدالي الديراني الذي يقول .

فَلَوْ قَالَ فَرَضًا رَبَّنَا مِنْ وِعَائِهِ فِدَا لَكُمْ بَعْدَ التَّفَكُّرِ فِيهِ
يُؤَدِّي إِلَى عَوْدِ الضَّمِيرِ لِيُوسِفَ فَيُفْسِدَ مَعْنَاهُ لِمُخْتَبِرِيهِ

كذلك إلى جانب تبادل الألغاز كان هناك تبادل الفتاوي في الفقه وفي غيره وعندني أمثلة كثيرة لا أريد أن أطيل بها، على نحو ما وقع في القرن العاشر بين أبي محمد عبد الله العسنوني المتوفى عام سبعة وعشرين وتسعمائة، ومحمد بن عبد الكريم المغيلي المتوفى سنة تسع وتسعمائة حول نقض ذمة يهود توات ولعلنا ألا ننسى في هذه المظاهر التواصلية تبادل الإخوانيات بين الشعراء في المناسبات. فمثلاً ابن رازكة وهو علم من الأعلام لا يمكن أن نتحدث عن التواصل دون أن يكون حاضراً بواجهات متعددة. يتحدث عن جلسة مع بعض علماء أهل مراكش وما كان فيها من مساجلات وأيضاً محمد البيضاوي الشنقيطي الذي أقام هنا في الرباط وله مساجلات مع عدد من شعراء الفترة.

ثم إن مما يتبنت كذلك هذه الحركة التواصلية ما كان بين الأدباء والشعراء والملوك العلويين، يكفي أن أشير إشارة لها دلالتها متمثلة في القصيدة التي قالها محمد البيضاوي الشنقيطي في رثاء المولى يوسف ومدح المغفور له محمد الخامس إذ هي في نفس الوقت رثاء ومدح، وأنا شخصياً في بعض الدراسات اعتبرت أنها أول قصيدة عرشية قيلت في محمد الخامس رحمه الله، ونعرف أهمية عيد العرش وأهمية ما قيل بمناسبة في عهد الحماية. ويكفي أن أقرأ مطلع هذه القصيدة .

ذَهَبَ الْإِمَامُ أَبُو الْمَحَاسِنِ سَيِّدٍ وَمَحَمَّدٌ كُفُوَ الْإِمَامِ السَّيِّدِ

أما بعد هذه المرحلة فكثيرون هم الشعراء الصحراويون الذين قالوا قصائد في المغفور له محمد الخامس وفي المغفور له الحسن الثاني، ثم في جلالة الملك المنصور بالله سيدي محمد السادس، فالنماذج كثيرة والدواوين متعددة وبعضها منشور، ولا أريد أن أشير إلى الأسماء حتى لا أكون مقصراً ولكن معنا حول هذه المائدة بعض الإخوة الذين قالوا قصائد تؤكد كلها هذا التواصل وتتبت الوحدة.

في ختام هذا العرض التمهيدي، ونحن سنستمع إلى عروض كثيرة في موضوع الثقافة وأهميتها بالنسبة لتثبيت الوحدة لابد أن أذكر ونحن جميعاً نعرف هذا، أن العنصر الذي كان حاسماً لدى محكمة العدل الدولية في لهاي وهي تنظر في القضية وفي تبعية الصحراء للشمال كان هو المتمثل في روابط البيعة والصلات المذهبية، إذ لا يخفى أن السؤال الذي طرح . هل أهل الصحراء نفس المذهب الذي هو عليه أهل الشمال ؟ وحين تبين للقضاة في المحكمة أن المذهب المالكي هو الذي يجمع بين الشمال وبين الجنوب إضافة إلى روابط البيعة كان الحكم الذي نعرف جميعاً، ولهذا فاهمية الثقافة واضحة في تأكيد الوحدة وفي تثبيتها من خلال مختلف المظاهر، هذه المظاهر التي مررت عليها مرّ الكرام والتي ستغنيها لا شك العروض التي سيقدمها الزملاء الكرام ما أحوجنا إلى أن

نستحضرها الآن في هذه المرحلة وأن نعبيء بها، لأننا في حاجة إلى تعبئة دائمة، طالما أن التحديات دائمة.

أيها الإخوة الأعزاء هذه بعض المظاهر التي تثبت التواصل الذي كان بين الشمال والجنوب عبر الثقافة المدرسية. ولها مثيلاتها في الثقافة الشعبية، من خلال الأمثال والأحاجي والحكايات والعادات والتقاليد، إضافة إلى التراث الحساني، مما لاشك سيتعرض له مشاركون آخرون في هذه الندوة. أشكر لكم حسن إنصاتكم والسلام عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته.

نظرات تاريخية حول الصحراء المغربية

حمداتي شبيها ماء العينين

إن هاته المناسبة لتشكل فرصة لاستعراض الملاحم التي خاضها الشعب المغربي بقيادة العرش لأخذ العبر من تلك الملاحم من جهة، ومن جهة أخرى لشد الأجيال الصاعدة إلى التاريخ بجسور من الإعجاب، توجههم إلى التصدي لتحديات المستقبل بقوة وضمود يؤهلان لحفظ المكاسب .

ومن هذا المنطلق أصبح استعراض بعض المشاهد القديمة لا يعتبر من باب إعادة التاريخ لنفسه، لأن الوقائع إذا تشابهت من حيث الأهداف التي يراد تحقيقها عن طريقها، فإن تغيير الأوضاع والأشخاص المنفذين لحتميات تجعل كل حدث إذا تشابهت أسباب ميلاده، فإن ظروف التعامل كفيلة بإظهاره في إخراجة على مشهد مغاير، ولعل هذا هو سر استمرار تنوع مضامين سجل تاريخ الأمم، إذ ينطلق من نفس الأهداف، لكن تغيير أليات التطبيق تقدمه لكل جيل على النمط الذي يلائم مشاهد حياتهم، وهذا هو السبب في أننا ملزمون بتذكير كل جيل بحقائق تاريخ أسلافه، حتى يستطيع إخراج مشاهد عصره غير منقطعة الصلة بقيم أسلافه، هذا هو الشفيح لنا في تكرار سرد بعض الملاحم البارزة عندما تحين الفرصة التي نذكر بها، حتى لا يستبد جيل بأهمية الاطلاع عليها دون بقية الأجيال المتتابة بعده.

أيها السادة، نجتمع اليوم في ذكرى من أبرز المعالم التي تفخر بها أمة من الأمم، ذلك أنه بعد أن قضى شعبنا زهاء ستة قرون يصارع التكالبات الاستعمارية من شماله وشرقه، وغربه وجنوبه، على امتداد هذه القرون لم تترك المحاولات فرصة استقرار للشعب المغربي بقيادة العرش أن تتصرف فعالياته للبناء والتشييد، بل ظلت لقرون لا تخرج من معركة إلا ودخلت في أخرى، ولا تنتهي من دحر جيش من المتسلطين إلا وفوجئت بأخر أقوى منه يهدف إلى نفس الهدف، مما جعل الدول المهتمة باستعمار الشعوب لم تلتجئ للتنسيق فيما بينها أكثر مما فعلت من أجل استعمار المغرب، وقد يكون هذا التكالب المبكر من بين العوامل التي أصلبت شكيمة المقاتل المغربي، وجعلته يخرج منتصرا من جميع الحروب التي خاضها سواء في أراضيه، أو التي خرج فيها لنصرة المظلومين في أية جهة من جهات العالم.

وإذا كانت أطراف كل بلد من بلاد العالم تشكل النقط الأمامية بالنسبة لكل محاولة من طرف الظالمين لاغتصاب حقوق غيرهم، فإن السواحل المغربية شماليه وغربيه، والحدود الشرقية نضرت سجلات التاريخ المغربي بما خلده أبنائها من بطولات ستبقى مفخرة من مفاخر أمتنا الغنية بالأمجاد، إلا أنه وفي نفس هذا الاتجاه تكاد الجهات الجنوبية تكون من بين أكثر الثغور في العالم التي قدمت من أجل وطنها مواجهات تمتد على طول ستة قرون أو يزيد.

وبما أننا لا نستطيع كتابة الموسوعة التاريخية إلا إذا اطلعت الأجيال على تاريخ جميع الملاحم، وإسهاما في هذا الواجب الوطني، أقدم هاته المحاضرة اليوم عن جهود العرش والشعب من أجل استمرار وحدة الوطن واستكمال وحدته، وسأخصص الحديث لصحرائنا المغربية حتى يطلع ما أمكن من أجيالنا على بعض المحطات البارزة في تاريخ نضال العرش المغربي أحرسه الله بكامل رعايته، وعلى الأشواط التي عرفها الملف المغربي عبر مجموعة من التعقيدات، لا يمكن أن يبرز فيها الاتجاه السليم إلا لمن ألهمه الله التوفيق، وهذا ما حصل في

كل موقف من مواقف العرش العلوي المجيد أيد الله استمرار ملكه، وهكذا سنتناول هاته المحاضرة المواضيع التالية

- 1 - بداية الغزو
- 2 - جهود العرش والأمة من أجل صد المحاولات الأولى
- 3 - محاولات التقسيم وبداية المؤثرات
- 4 - التحولات التي أحدثتها خطاب جلاله المغفور له محمد الخامس طيب الله ثراه.
- 5 - المواجهات : تكوين جيش التحرير وتأطير الكفاح.
- 6 - استمرار جهود العرش على كل الواجهات من أجل استرجاع الوحدة المغربية (المسيرة الخضراء)
- 7 - عناية صاحب الجلالة نصره الله برعاياه في هذه الربوع.
- 8 - واجب المواطن نحو وطنه ودينه وملكه.

1 - بداية الغزو :

قليلون هم أولئك الذين يرجعون محاولات الغزو الأجنبي للجنوب المغربي إلى بدايتها الحقيقية التي دفعت بالاستعماريين الإسباني والبرتغالي، ثم يلحقها الإنجليزي والفرنسي فيما بعد إلى محاولة السيطرة على الأقاليم الصحراوية المغربية، التي لم تكن آنذاك أكثر إغراء من غيرها من بقية أقاليم المملكة الأخرى، غير أن من تتبعت تلك المراحل وحاول إيجاد بعض الأسباب، لا بد أن تذهب به الذاكرة إلى دور المغرب في دخول الإسلام إلى الأندلس أولا، ثم الحفاظ على بقاءه عدة قرون، بعد أن عجز مسلمو الأندلس عن إمكانية صمودهم في وجه انتصارات النصارى على ملوك الطوائف، ثم يأتي السبب الثالث من هذه النقطة في دور المغرب أيضا في إيواء كل من خرج من أولئك المسلمين الذين تجذروا

في جسم الدولة المغربية، والحنين لم يبارحهم إلى الجوهرة المفقودة، فلقد خلف هذا الصمود المغربي حقدا دفيناً لدى رجال الدين بذاك البلد، وهاجسا قويا لدى رجال السياسة، فبقي ذلك شبحاً ماثلاً أمام مختلف جهات الرأي الإسبانية، فجعلهم يتخيلون ماردا مغربيا يمكن أن ينقض عليهم من حين لآخر، ولا أظن أن هذه العُقْد بارحت رواسبها التفكير الإسباني حتى اليوم، ولعل هذا الشعور جعلهم يتحركون خوفاً من إحياء روح الجهاد لرد الحق المغتصب وإعلاء كلمة الدين، فهم شاهدوا المغرب استطاع أن يُطوق بسرعة المشاكل الناجمة عن إدماج مسلمي الأندلس في جسمه، ولمحاولة قطع الطريق على أية جهود يتابعها هذا البلد لإرجاع الإسلام إلى بلاد الأندلس، وقبل أن يتأتى له ذلك، توالى مناوشات الجيوش الإسبانية قبل حكم دولة السعديين على كل الأطراف المغربية بالشمال والغرب والجنوب والشمال الشرقي، فكانت المحاولات تتبع أولاً بتحركات تجارية يقوم بها بعض رجال الدين، متظاهرين بمظهر التجار مثل "كينز" الراهب الذي تعاطى التجارة بطرفاية لعدة سنوات والمهمة الأولى لتلك التسلات هي معرفة طبيعة البلد، وقدرة أهله الدفاعية، وخصوصاً بالسواحل الجنوبية المغربية التي تشكل متنفساً حيويًا بالنسبة للوضع الاستراتيجي المغربي، لأن المسيطر عليها مستحوذاً على القدرة الكاملة لحجب المغرب عن البلاد الإفريقية، وخبائنا أنفاسه البحرية، وجاعلا كل التراب المغربي في قبضة كماشة إسبانية، إذا تذكرنا وضع الجزر الخالدات على الخريطة بالنسبة للصحراء.

لكن اهتمام إسبانيا بالسيطرة على المغرب، سواء تعلق الأمر بأهميته الإستراتيجية، أو الحقد الناجم عن انتصاراته السالفة، لم تكن هذه الأسباب تنفرد بها إسبانيا وحدها، فهناك البرتغال التي تتحرك هي أيضاً لنفس الغايات، ولها مدة تتسلل على الشواطئ الإفريقية.

وقد أدى هذا الاهتمام المزدوج إلى تدخل الكنيسة لتشرع بصفة دينية، تلافياً لأي خلاف يمكن أن ينجم عن تحركات استخبارات الدولتين، فتدخلت بينهما

حتى تم عقد اتفاقية الكوس باس سنة 1479، والتي تحدثت عنها جميع المصادر التي اهتمت بهذه الأحداث، والمهم مما ترمي إليه، هو أنها شرعت للبرتغاليين السيطرة على الجنوب المغربي ابتداء من الحدود الشمالية لجهة وادي الذهب، وقد جرههم ذلك على السيطرة حتى على بعض المناطق من موريتانيا الشقيقة، وقد أدت تلك الاهتمامات إلى تكوين شركة إسبانية أطلق عليها اسم الشركة المختلطة لصيد السمك وتصدير الصمغ، ورغم ضعف دور هذه الشركة، فإنها تعد من أول المحاولات الاستكشافية في طريق رغبة إسبانيا في بسط نفوذها على الجنوب المغربي.

لكن التجاذبات والمنافسات الحادة بين الدولتين الغازيتين إسبانيا والبرتغال، كل ذلك حد من إمكانية انفراد إحداهما بالغنيمة المنتظرة، ولما ضعفت البرتغال بسبب هزائمها المتكررة أمام الجيش المغربي في معركة وادي المخازن، عندها انفردت إسبانيا ولو لمدة قصيرة بمحاولة السيطرة على الجنوب المغربي، وهكذا انقض المستعمر الإسباني «ديبكو كارسيا أريرا» على نقطة ما بالساحل الصحراوي سماها «سانتا اكروزديما ربيكينيا» (الصليب المقدس للبحر الصغير)، وهذه التسمية نفسها، تكرر ما أشرت إليه سابقا من أن جميع التجار والبحارة في بداية الأمر، كانوا تابعين لتوجيهات رجال الدين، لأننا أحببنا أم كرهنا، فإن دور المسجد والكنيسة، سيظل في تسابق لنشر التعاليم التي يؤمن كل واحد منهما أنها واجبة وعليه تبليغها، وعملية كرسيا هاته، نجم عنها خلاف حاد بين الإسبانين والبرتغاليين، لم يحله إلا تدخل البابا الكسندر الثالث، مستعملا سلطته الدينية لفصم النزاع سنة 1494، وعلى إثر ذلك، توالت جهود البرتغاليين لإمكانية السيطرة على ما أمكن من السواحل الواقعة في الوسط المغربي، والتي أجلاهم عنها في مدة لاحقة السلطان المرحوم سيدي محمد بن عبد الله في منتصف القرن السابع عشر.

ثم توالت الاتفاقات الأجنبية في شأن اقتسام التراب المغربي دون أي سند قانوني، سوى الروح الاستعمارية التي أصبحت آنذاك طابع العمل الأوروبي، وقد

حددت رقعة الأرض التي تعنى بها تلك الاتفاقيات ابتداء من سواحل البحر الأبيض المتوسط، حتى الرأس الأبيض الذي هو لگوييرة حاليا، مثل اتفاقية سانطرا سنة 1508 التي اعترفت للبرتغال باحتلال الساحل الجنوبي المغربي، باستثناء سانتا أكادير، في حين تتخلى البرتغال للإسبانيين عن بقية الساحل المغربي، وخصوصا الواقع على البحر الأبيض المتوسط، لكن لم يستطع الإسبانيون ولا البرتغاليون تنفيذ ما تطمح إليه نفوسهم من تركيز السيطرة على السواحل المغربية سواء في الصحراء، أو في الوسط، أو في الشمال.

ويستمر انفراد الأسبان والبرتغال بالاهتمام بالسيطرة على المغرب حتى مطلع القرن السابع عشر، حيث دخل إلى حلبة الاهتمام الاستعماري طرفان آخران هما : إنجلترا وفرنسا، كما انزوت البرتغال بسبب الانتكاسات والهزائم التي تلقته على يد القوات المسلحة المغربية درع المغرب الحصين، ونتج عن هذا الانزواء تشدد إسبانيا في محاولة السيطرة على الأماكن التي كانت البرتغال تحاول السيطرة عليها ابتداء من جنوب أكادير حتى الرأس الأبيض، مستعملة في ذلك جميع الوسائل.

فالتحركات التجارية، والاتفاقات الثنائية، أدعت بعمل دبلوماسي مكثف، امتاز بالتشدد واللين تارة، والمراوغات تارة أخرى، حسب الظروف العسكرية للمغرب، فإذا ما ضعف بسبب هجوم أجنبي عليه، عندها يلح الملك الإسباني على ضرورة تعيين مركز "سانتا اكروز" الذي اتخذته إسبانيا آنذاك ذريعة لاستعمار ما أمكن من الحدود الجنوبية، ثم تخف المطالب الإسبانية، إذا قوي المغرب على المواجهة.

سنة 1766 عين ملك إسبانيا شارل الثالث سفيره المسمى خورخي اخوان لدى ملك المغرب، وجعل أول مهامه تصفية مشكلة سانتا اكروز، ولكن السلطان العظيم سيدي محمد ابن عبد الله جنب البلاد التصادم مع إسبانيا، أو تقويت أي

شبر من الأرض تحت خرافة سانتا اكروز المذكورة، وفي سنة 1799 أبرمت اتفاقية مغربية تسمح ببناء معمل السمك، ولا شيء غير ذلك في مكان سانتا اكروز، وحال المغرب بقيادة العرش دون تنفيذ هذا الاتفاق لعدم معرفة مكان المصنع المذكور، لأن الاسم الجغرافي غير معروف على طول السواحل المغربية، ولذا فلم ينفذ السلطان كفه من المذاكرة حول الموضوع حتى لا تهجم عليه إسبانيا، ولم يسلمها أي مكان من الشاطئ المغربي لأنه ليس سانطا اكروز، وتكررت نفس الأطماع الإسبانية في عهد السلطان العالم مولاي اسليمان، فمنعهم العرش أيضا من ذلك، ثم استغلت إسبانيا ظروف معاهدة تطوان سنة 1860، فما رست كل الضغوط على المغرب منها تكوين لجنة عليا إسبانية للبحث عن ذلك المكان، ولم يطرأ جديد حتى سنة 1878 عندما اتفق البلدان على معاينة تجريها لجنة مشتركة من البلدين، تقوم باستكشافات ميدانية عن مكان 'سانتا' المشار إليه، فأبحرت باخرة من الصويرة حاملة الوفدين، فلم يحصل بينهما اتفاق بعد أن ذهبوا إلى الداخلة، ولكن الوفد الإسباني وقع بمفرده على المحضر، معتبرا أن سيدي إيفني هو نفس سانتا اكروز، وسيبقى الباحثون ورجال القانون يستخلصون من هذا الإجراء تساوي كل الشواطئ المغربية آنذاك في اعتقاد الأطماع الإسباني، لأنها لم تستطع الدفع بأن بوجود أو الداخلة أو لكويرة أماكن غير مغربية.

سنة 1883 نزلت الشركة الإسبانية الإفريقية بشاطئ الداخلة، وسارع الأسبان على إثر ذلك بتوجيه مذكرة مؤرخة بيوم 20 ديسمبر 1883 يخبرون بواسطتها دول العالم بأنهم تم لهم بسط النفوذ على الساحل الجنوبي المغربي، لكن فرحتهم بهذا الادعاء لم تطل، إذ انقض أبطال المجاهدين أبناء المجاهدين أباة الضيم، أبناء دليم على تلك المنشآت، واسروا أحد الأفراد الإسبانين، ثم قدموه للسلطان على يد خليفته في الصحراء جدنا الشيخ ماء العينين، وقد ألق الشيخ ماء العينين على هذه المعركة كتابا سماه «هداية من حارى من أمر

النصارى» طبعه المؤرخ الصالح الوطني الشيخ محمد ماء العينين بويا بتنسيق مع جمعية الشيخ امربيه ربه لنشر وطبع التراث. ورغم الهجمات المتتالية التي أصبحت تتعرض لها التسلاات الإسبانية من طرف كل المجاهدين المغاربة، فإن قلقها تضاعف مما قامت به بريطانيا لدى السلطان مولاي عبد العزيز تطلب منه منحها مكانا تقيم عليه منشأة تجارية في الساحل الجنوبي.

وحتى تتمكن إسبانيا وفرنسا من ضبط تحركاتهما دون أي تصادم ، وبعد انكماش البرتغال لجأتا إلى اتفاقيات أكثرها سرية تتقاسم فيها الغنيمة الجديدة وهي البلاد المغربية دون علم أهلها، وفي غيبة منهم.

ففي اتفاقية 27 يونيو 1900، حددت الأماكن التي يطلق فيها كل طرف اليد لصاحبه عليها، على أن تتظاهر جهود قواتهما لكسر شوكة المقاتلين المغاربة الصحراويين، وبسبب هذه الاتفاقية تركت الصحراء وسيدي إفني لإسبانيا، وبعد هذا بأربع سنين، ستنضم إسبانيا لخطة العمل الفرنسي الإنجليزي، ولكن الاتفاقيات التي أبرمت بين مختلف الأطراف، سواء كانت سرية أو علنية، كانت تعترف بوحدة المغرب تحت سيادة السلطان بحكم البيعة التي لها مفهومها حتى في القانون الدولي.

ففي يوم 3 أكتوبر 1904 أبرم اتفاق بين الجمهورية الفرنسية والمملكة الإسبانية وضعت فيه الخرائط لأماكن النفوذ لكل من البلدين في المغرب، ولكنهما اعترفتا بوحدة كل التراب المغربي تحت حكم وسيادة السلطان، وفي سابع أبريل 1906 تم انعقاد مؤتمر الجزيرة الخضراء وكل الدول الستة عشر التي حضرته، ركزت على ضرورة احترام إخضاع كل التراب المغربي من طنجة إلى لگوية لحكم السلطان.

هذه نماذج من محاولات بداية الغزو من أجل استعمار الصحراء، فهل يا ترى ظلت تتحرك في الساحة بدون رد ؟ أم أن العرش كان لها بالمرصاد ؟ ذلك ما ستبينه الفقرة التالية .

2 - جهود العرش لصد أي تحرك استهدف اختزال أي شبر من هذه الأرض. بما أن الوقت ضيق جدا، ففسأشير إلى رؤوس أقلام من أمهات المواجهات الأساسية، مع أنني شرحت بعض هذه الملامح في كتابي عن قبائل الصحراء وكتابي عن جهاد الشيخ ماء العينين.

إن العرش العلوي المجيد من عهد السلطان مولاي إسماعيل قدس الله روحه وأرواح جميع شهداء العدل والحق ملوك هذه الدوحة الشريفة، ظل واقفا في الواجهة يذب عن الحق المغربي، وستوضح قائمة الرسائل والمذكرات والمحاضر هذا الواقع الذي أصبح من القيم الحضارية الخالدة للمغرب.

فكما أسلفنا، فإن الصدر الأعظم المغربي وجه رسالة بتاريخ 30 أكتوبر 1877 يقول فيها لنظيره رئيس الحكومة الإسبانية بأن السلطان استدعى أعيان القبائل الصحراوية والسوسية، فاتفقوا على عدم معرفة مكان سانتا اكروز، ولذا فلا يمكن قبول استعمال أي ثغر من الثغور المغربية مكانه، ثم صدر أمر ملكي إلى قواد قبائل الشرفاء والعرب وتكنة بالمنطقة يلزمهم بعدم السماح لأي متسلل بالاستقرار في نقطة مغربية، وقبل هذه الفترة تم استرجاع السلطان المقدس مولاي الحسن الأول لمدينة طرفاية من يد الإنجليز، وفي هذه الفترة ظلت الجبهة الصحراوية والباعمرانية موحدة لصد المتسللين عن أية نقطة من تخوم أراضي الجنوب المغربي.

وفي هذا الاتجاه، وجه السلطان المقدس مولاي الحسن الأول رسالة للقائد الحبيب بن بيروك التكني، وهو من أسرة تسلسلت فيها قيادة كلميم يخبره فيها أن المخزن لم ولن يتنازل عن أية حبة من رمال الصحراء وماسة وسوس (الرسالة مؤرخة في يوم 2 من المحرم عام 1294).

كما تم أيضا في هذه المدة، إرسال بعثة ملكية إلى نائب السلطان في الصحراء بالسمارة، للوقوف على عين المكان، وتنظيم الأمور وإشعار كل الدول

المهتمة بحضور المخزن في كل شبر من أراضيه، كما تسلمت طرفاية من يد الإنجليز، إضافة إلى أن السلطان العظيم مولاي الحسن زار الصحراء.

ولما أتى دور السلطان المرحوم مولاي عبد العزيز، تم تعيين كثير من الولاة على مختلف الثغور الصحراوية تجسيدا لحضور المغرب في جميع الشأن العام في المنطقة، كما أمر بعقد مؤتمر عام يحضره عليه القوم في السمارة، فانتخب وفدا يضم زهاء ألف وستمائة شخص، ليمثلوا جميع السكان لدى السلطان المقدس، كما ظل خليفة السلطان يتنقل بين العاصمة والسمارة كل سنة ناقلا للمخزن جميع التطورات ومزودا من عنده بكل التوجيهات التي أصبحت تتطلبها الحالة، ونلاحظ في هذه الفترة تطورا جديدا في خطاب المخزن لرجاله، بحيث انتقل من تحديد المسؤولية على القبائل، إلى تحديد أماكن النفوذ للقياد، وهذا ما نقرأه في الرسالة التي وجهها السلطان مولاي عبد العزيز لاثنتين من قواد المنطقة.

وتقول تلك الرسالة . إلى القائد إبراهيم بن امبارك اشتوكى التكني تقول :
بعد السلام والدعاء لك بالتوفيق، وبعد، فقد أسندنا لك وللخديم محمد بن البلال البوسعدي النظر في رد الببال لكوشطة سواحل رعايانا السعيدة من طرفاية إلى أبي الجدور، والكون منها على بال وتطبير الأعلام لجانبنا، فنأمرك أن تقوم معه على ساق الجد والاجتهاد في رد الببال بها برا وبحرا، وبالاعتناء بصيانتها سرا وجهرا ... إلى آخر هاته الرسالة التي بقيت محفوظة عند أبناء القائدين بمدينة العيون إلى اليوم.

ثم أوفد بعثة إلى السمارة تضم عدة مختصين، وعلى رأس تلك البعثة إدريس بن عبد الجليل خليفة باشا فاس، ونيابة رئاستها للمرحوم العالم محمد الحسن ابن القائد إدريس الذي تولى مهمة الحجابة زهاء ثمانين سنة، وقد استعرض هذه الرحلة وعلق عليها العالم الجليل الشاعر الكبير مؤرخ المملكة

أستاذنا عبد الوهاب بن منصور بدراسة نشرت بجريدة صحراء المغرب سنة 1958.

ثم يأتي دور السلطان مولاي احفيظ، فيأمر أهل الصحراء باتباع خطة الجهاد لصد أي تسلل استهدف اقتصاص بعض التراب المغربي، فقبل بسط النفوذ الأجنبي تحت ذريعة توقيع عقد الحماية، وجه رسالة إلى القائدين المذكورين تقول بعد السلام، إنه بلغ على العلم الشريف أن نصرانيا نزل بالصحراء إلى أن تقول فعليكما أن تحذرا القبائل من البيع والشراء معه، وترغمه إلى الرجوع إلى حال سبيله، وتحذروهم شؤم ذلك، وتعجلوا بدفعه من هناك، ونحن من وراء ما نسمعه عنكم في ذلك (الرسالة مؤرخة في 29 جمادى الأولى عام 1328).

ولما تحكّم الاستعمار في جميع أنحاء الوطن، رفض أبناء الصحراء التعامل معه إلا إذا أتاهم بوثائق تثبت تعامله مع المخزن، فاضطرت السلطات الإسبانية إلى الإتيان بظواهر تعين نائبا للخليفة في الصحراء، ثم قائدا من كل قبيلة أو جدع مهم من قبيلة إلا آتاه ظهير تعيين من خليفة السلطان بتطوان، وظلت المنطقة تسير فيها الأمور باسم السلطان عن طريق خليفته بتطوان، إلى أن قدم نائب الخليفة في الصحراء الشيخ محمد الأغظف ابن الشيخ ماء العينين بيعته للمحرر المنقذ محرر إفريقيا جلاله الملك محمد الخامس طيب الله ثراه. وإن الوقت لا يتسع لسرد كفاح أبناء الصحراء من أجل مغربيتهم حتى سنة 1934، ولم يستطع الإستعمار الإسباني فصل السكان عن وطنيتهم المغربية، حتى جلاء آخر جندي إسباني عن الصحراء المغربية، ولما صدر التصريح المشترك بين المغرب وإسبانيا عقد السكان أكبر مؤتمر عرفته المنطقة عند نائب الخليفة الشيخ محمد الأغظف، فانتخب ذلك المؤتمر وفدا كنت أصغر أعضائه سنا، قدمنا البيعة لجلالة المغفور له محمد الخامس يوم فاتح ماي سنة 1956، وبما أن إسبانيا كانت تلك المدة في معركة سياسية مع شيوخ وأعيان الصحراء من أجل دفعهم العشور

إليها وحملهم أوراق التعريف والحالة المدنية، فرفض الجميع، ولقد لعب المرحوم خطري ولد الجماني دورا بارزا في زعامة رفض هذا الإجراء، وظل هو ونائب الخليفة وجميع شيوخ القبائل يتذرعون بأن أي إجراء لا يمكن أن يقع إلا بأمر من جلالة الملك الشرعي لبلاد محرر إفريقيا والعالم الثالث محمد الخامس طيب الله ثراه.

ولما مثلنا أمام جلالة المغفور له محمد الخامس طيب الله ثراه، خاطبنا قائلا لن يهدأ لنا بال ولن يستقر لنا قرار إلا إذا عم تحرير المغرب كل التراب المغربي، ولما تم استرجاع طرفاية، أسرع جلالة عظيم الإنسانية الحسن الثاني أسكنه الله فسيح جنانه بالدخول إليها، مفوتا على الضباط الاستعماريين فرصة أية لعبة في الموضوع، ثم كون رحمه الله جيش التحرير وهو ولي للعهد، ولم تبق نقطة من نقاط تواجد الجيش الإسباني إلا وشن عليها جيش التحرير هجوما حتى تحرر جميع الصحراء، وأرغم الجيش الإسباني على الانكماش داخل مدينتي العيون والداخلة، ولولا عملية أكوفيون الشهيرة لكانت الصحراء التحقت بوطنها سنة 1958، وقد سبق أن أكد مواصلة الكفاح حتى يتم استرجاع الصحراء في خطابه 26 فبراير 1958 بقرية المحاميد.

وعندما تم إجلاء السكان عن آخرهم، وتم تواجدهم بمدينة كلميم، زارهم جلالة المغفور له محمد الخامس طيب الله ثراه، وباشر جلالة عظيم العالم ولي عهده أنذاك جلالة الملك الحسن الثاني أسكنه الله فسيح جنانه، أمر تسهيل مهمة إدماجهم في وطنهم، وهكذا انفرد المغرب بفضل عبقريته بتطويق مشاكل أكثر من أربعين ألف مهاجر طردوا من دورهم وأموالهم وأرضهم، ثم عوضتهم الدولة كل شيء ومنحتهم كل الفرص.

ولنؤكد تشبث أبناء الصحراء بمغربياتهم، أشير إلى أنه خلال الخمسينات وأثناء مصادمات جيش التحرير مع الإسبان، لم تعرف الصحراء ولا خائنا واحدا

تنكر لمغربيته، ولم تبق أسرة إلا وافتقدت شهيدا أو مسجوناً في سبيل الدفاع عن مغربيته، وفي سبيل الحفاظ على وشائج الترابط بين العرش ورعاياه في الصحراء ظل صاحب الجلالة الملك الباني جلالته الحسن الثاني ماسكا زمام ملف الصحراء بيده، فبالموازاة مع الاعتناء المادي والمعنوي، واصل في خطبه وندواته الصحفية ورسائله لحاكم الدولة الإسباني الجنرال العجوز افرنكو، فكل من خطابات عيد العرش وكل الندوات الصحفية واللقاءات الدولية والبلاغات المشتركة، والجهود المغربية في كل المؤتمرات الدولية كلها، تبرز تشبث المغرب بكل المناطق الصحراوية، وبالرغم من التعقيدات الدولية التي أصبحت تحف بالمغرب آنذاك كمهدد دائم للمد الشيوعي، مما جعله هدفا أساسيا لكل زعماء الاشتراكية، بينما يواجه المعسكر الغربي الإمبريالي في شخص إسبانيا أقرب حليف لأكبر دولة تناهض الشيوعية، ورغم جسامته الموروث الاجتماعي الذي تلقاه الملك الشاب، فإنه استطاع أن يحافظ على تماسك المغاربة داخل بلدهم، وينجو من محاولات الخصوم، ويضمن للمغرب مكانة مشرفة منحته تأييد جل دول العالم، عندما نظم أعظم معجزة عرفها الزمن المسيرة الخضراء على إثر صدور حكم محكمة العدل الدولية لصالح المغرب، مجسدا في روابط البيعة التي ظلت وما زالت هي معيار وحدة أية دولة تحت سلطة قائدها، ولو اختلفت وسائل التعبير التي تترجم تلك الوشائج، المهم أن جلالته لما نادى بالمسيرة الخضراء، وجد العالم كله مؤيدا، ولما تمادى الخصوم في طلب الاستفتاء، أربك جهودهم بقبوله، وأفسد خدائهم بعبقريته، وأخذ نار حقدهم بحكمته، فلم تثنيه كل عراقيلهم عن بناء أقاليمه المسترجعة، لم تدفعه حماقاتهم إلى إدخال المنطقة في ويلات الحروب، فكل مؤامرة ظن الخصم أنه واصل على هدفه من ورائها، كان جلالته يستخرج منها نصرا جديدا ومكسبا فاعلا لصالح الوحدة الترابية.

إن جلالته المغفور له الحسن الثاني طيب الله ثراه، إذا كان سجله التاريخي ستقف عنده الأجيال القادمة ممجدة فذا ما عرف له العالم مثيلا على شتى

الأصعدة، فإن أعظم إنتاج خلفه للمغرب هو تربيته وإعداده لوارث سره ملك الفقراء، مجدد الإسلام على رأس القرن الواحد والعشرين، جلالة الملك أمير المؤمنين محمد السادس أحرسه الله بعينه التي لا تنام، وبحفظه الذي لا يضام.

ويكفينا فخرا أنه في هاته الفترة الوجيزة، استطاع أن يقنع العالم بالبحث عن حل في إطار السيادة المغربية، وهكذا تسامى بالمغرب بحكمة عالية ورزانة مثالية، وكفاءة نادرة وشجاعة خارقة، إلى أن يريح كل الرهانات، ويصبح الأمين العام للأمم المتحدة يطرح على مجلس الأمن الملف من وجهة نظر أقرب ما تكون إلى الإنصاف والعدل، وهذا نجاح أتى نتيجة الجهود الشخصية لجلالة الملك العظيم الذي أنزل المغرب المكانة اللائقة به وفتح فيه عهد التجديد والإصلاح والاستقامة بأسلوب إسلامي متفتح، وتخطيط علمي متبصر وجرأة هاشمية نادرة.

وإننا بهذه المناسبة، في هذه الندوة التي تنظمها أعلى مؤسسة علمية بهذا البلد المجاهد، نقف إجلالا لروح محمد الخامس طيب الله ثراه، الذي ضحى بعرشه وأسرته من أجل حريتنا، ونكبر ونعترف بعجز الكلمات عن وصف قدرات الملك الباني الحسن الثاني قدس الله روحه، ونترحم على كل شهداء التحرير والوحدة، ونرفع الرأس عاليا وباعتزاز بالمنجزات الضخمة والسريعة التي افتتح بها أمير المؤمنين محمد السادس عهده الزاهر أمد الله في عمره وخلد في صالح الأعمال مسيرته وذكره، وأجرى الأقدار وفق أماله، وأقر عينه بصنوه السعيد المولى رشيد وسائر أفراد أسرته الكريمة إنه سميع مجيب.

الصحراء بين تقريرين لمبعوثين أمريكيين بالمغرب : باركلي وماثيوس

عبد الهادي التازي

حُبب إلي أن يعتمد تدخلي حول (ثقافة الصحراء) على تقريرين دبلوماسيين: الأول يعود لتاريخ 1786 حرَّره أول سفير للولايات المتحدة الأمريكية لدى المملكة المغربية : طوماس باركلي الذي وقَّع المعاهدة الأولى التي تربط المملكة المغربية بالولايات المتحدة (1).

والتقرير الثاني يعود لتاريخ 1881 حرَّره القنصل الأمريكي فيليكس ماثيوس عن الحالة في إقليم الصَّحراء، باعتبار أن الإقليم يدخل في دائرة المملكة التي كان يقوم فيها المبعوث الأمريكي بتمثيل بلاده.

وبما أن تدخلي في ندوة الصحراء كان يعتمد أكثر على تقديم الوثائق التي أعتبرها الأساس في فهم الحقيقة، فقد رأيت أن أكتفي بعرض ثلاث وثائق هامة وأعلق عليها ...

الأولى ملخص لتقرير باركلي.

الثانية صورة لرسالة تاريخية بعثها الملك محمد الثالث إلى ملك فرنسا وفيها يتحدث له عن إنقاذ البحرية المغربية لقطعة من الأسطول الفرنسي حرثت

في الساحل الصحراوي، ويخبر العاهل الفرنسي بأنه أي الملك، يبعثها هديةً إلى العاهل الفرنسي كدليل على صفاء المودة بين البلدين.

الوثيقة الثالثة ملخص لتقرير فليكس ماطيوس.

1. تقرير طوماس باركلي المحرر بطنجة يوم 10 شتنبر 1786

تناول التقرير أحد عشر موضوعا : التجارة، الموانئ المغربية، القوات البحرية - الأسرى، المعاهدات، القوة البرية، الدخل الحكومي، اللغة، الحكومة، الدين، الغنائم البحرية.

تحدث في الموضوع الأول عن المواد المصدرة من المغرب : الصمغ العربي، والشمع والنحاس، والجلد، واللوز والتمر والتين والجوز والبرتقال والليمون والخشب وزيت الزيتون وأركان ... والبالغ وأنياب الفيل، وريش النعام، والقمح والتبغ والفرو والسلك والصقلي، والحايك، والسجاد والقرمز، يصدرها إلى مرسيليا وانجلترا وإلى أمريكا.

ويستورد المغرب من إسبانيا والبرتغال وإيطاليا، وانجلترا ملابس الحرير والكتان والصوف والحرير والأواني النحاسية والخمر الذي يستعمله الأجانب، ولا يخضع للديوانة، كما يستورد الروز من المشرق.

رسوم السلع المستوردة 10 في المائة مع بعض الاستثناءات

يعاقب الملك على التلاعب والرشوة والفساد.

وهنا يعلق السفير قائلاً : لا استغناء لنا عن المغرب.

وعن الموانئ تحدث التقرير عن اثني عشر ميناء : فيها ما لم يشهده مثل أكادير، ثم الصويرة، أسفي، الجديدة، الدار البيضاء، الرباط، سلا، المعمورة العرائش، أزيلا، طنجة، تطوان، ويلاحظ أنه لم يذكر ميناء فاس. وقد علق على كل

ميناء بتاريخه وخصوصيته وعدد سكانه وعن حاميته، وتحدث عن جزيرة الصويرة القريبة من الميناء، كما تحدث عن أسفي والجديدة، والدار البيضاء والرباط وسلا، وقراصنتها الذين يضايقون السفن المسيحية، ثم تحدث عن المعمورة.

وعند حديثه عن العرائش استطرد بذكر الهجوم الفرنسي على المدينة عام 1768 - 1769 هذا الهجوم الذي كان له رد فعل قويّ وعنيف من لدن المغاربة أدى في النهاية إلى إلحاق هزيمة كبرى بفرنسا، وينقل السفير الأمريكي أنه اجتمع بعددٍ من المغاربة الذين شاركوا في المقاومة، وكانوا يتحدثون باعتزاز كبير.

ثم تحدث عن أزيلا وطنجة بما في ذلك خليج سبارتيل الذي سيشتيد فيه مرصد يحتفظ بفعالته إلى اليوم.

ثم تطوان ... ومركز الديوانة والجمارك.

وبعد الموانئ يتحدث التقرير عن القوات البحرية، وهنا يجد الفرصة لتقديم الأسطول المغربي بما يحتويه من قطع ويؤكد الرغبة الملكية في أن يصل المغاربة إلى ما وراء المحيط الأطلسي، ويشير إلى الغنائم البحرية.

ويتخلص إلى قضية الأسرى واهتمام العاهل بتحريرهم أينما كانوا، ومن المهم أن نقرأ في التقرير أن الصحراء توجد بكاملها في طاعة تامة للسلطان، وأنه أي العاهل يحب العدالة والإنصاف، ويعمل على أن لا يكون على أرضه مظلوم ... ويتحدث بعد هذا عن المعاهدات التي قال عنها - كانت للملك بهذا التاريخ نحو من عشرين يحترمها ملك المغرب ويلتزم بمضامينها، ولم ينس أن يذكرّ بالغضب الذي ينتاب العاهل عندما يبلغه سوء معاملة الحجاج من لدن السفن الأوربية¹

وفي حديثه عن القوات البرية ... لم ينس عبيد البخاري "الذين عرفوا النور أيام السلطان مولاي إسماعيل وأن الملك مهتم بتحرير الثغور التي ما تزال محتلة مشيرا، على الخصوص، إلى حركة الملك نحو تحرير مليلية لولا ما جد على الساحة من خذلان جيرانه.

وإن من أهم ما جاء في تقرير السفير ما يتصل بالدخل الحكومي : رسوم الصادرات والواردات، ضريبة الحبوب والتبغ، "الغرامات" على المخالفات، عائدات القرمز - الهدايا المشروعة ... وبهذا رفع الحيف الذي وصمنا به بعض المعلقين الذين يقولون إن المغرب كان يعيش على القرصنة !

وعند حديثه عن اللغة التي نتكلم بها قال . إنها اللغة المغربية التي لا تختلف عن اللغة العربية مع تغيير بسيط، هذا علاوة على اللغة البربرية، واللغات الأجنبية الأربعة المستعملة : الإسبانية والفرنسية والإيطالية والانجليزية.

وفي حديثه عن الحكومة ذكر أن السلطان هو الحاكم التنفيذي الأعلى لما يتمتع به من سلطةٍ روحيةٍ ودنيوية ... ومع ذلك فإن أبسط المواطنين لا يمس بظلم إلا في حالات خاصة ... وقد لاحظ التقرير أن المغرب يتمتع باستقلاله، وأنه لا تبعية له للعثمانيين !

وفي حديثه عن الدين يؤكد أنه لا دين غير الإسلام ... وأن السلطان قد يجتهد في بعض الأحكام إذا اقتضت المصلحة ذلك (قضية بيع الحبوب للأجانب...) وقد كشف التقرير عن أن ما يقوم به "القرصنة" المغاربة ضد السفن الأجنبية ليس مرده إلى محاربة الدين المسيحي أبداً ولكن لأن الإسبان طردوا المسلمين من ديارهم بالأندلس ... هذا إلى محاولة بعض الدول الأجنبية احتلال بلاد المغرب ! ويختم العرض بالحديث عن الغنائم البحرية وهنا يتعرض لبعض السفن التي يُعترض طريقها لكنها لا تلبث أن تتحرر بعد الحوار بين الطرفين.

وهنا تأتيه الفرصة ليذكر أن المغرب على عهد هذا الملك لم تكن له اتفاقية مع الروس لما كان بينهم وبين العثمانيين من حروب كانت تمنع ملك المغرب من مناصرة أعداء العثمانيين !

2. رسالة من عاهل المغرب الملك محمد الثالث إلى ملك فرنسا لويس السادس عشر بتاريخ 1777/09/04 (أول شعبان 1191) : يخبره كما أسلفنا بنجدة البحرية المغربية لسفينة فرنسية.



رسالة من عاهل المغرب الملك محمد الثالث إلى ملك فرنسا لويس السادس عشر بتاريخ 1777/09/04 (أول شعبان 1191) يخبره بنجدة البحرية المغربية لسفينة فرنسية حرثت بساحل الصحراء المغربية، ويعرض عليه مشروعه حول حقوق الإنسان مقترحا على سائر الدول الانضمام إلى التصريح الملكي.

3. تلخيص تقرير فيليكس ماثيوس F. Matheus ممثل الولايات المتحدة الأمريكية المغربية، من عام 1879 إلى 1881⁽²⁾.

يتعلق هذا التقرير بالساحل الغربي بما في ذلك سوس ووادي نون وما يتبعهما من الفضاء الذي سماه الممثل الأمريكي "الأربعون قبيلة المنتشرة بين المغرب وتونبوكتو".

ونحن إذ نلخص تعريب هذا التقرير نقصد أولاً إلى تقديم فكرة عما كان بالأمس مشغلة للدبلوماسيين المقيمين بطنجة ثم ثانياً إلى تقديم دليل آخر - إن كنا في حاجة إلى ذلك - على أن تلك المناطق - بالرغم من وضعها النائي نسبياً - عن السلطة المركزية إلا أنها كانت تدين بالولاء والطاعة للعاهل المغربي، ولا بد أن القارئ سوف يستمتع بالحديث عن بعض المواد التجارية في هذه الأقاليم بما فيها الريش والسكر الخ كما أن القارئ سيستمتع بالمعلومات التاريخية والزراعية التي اهتم بها الدبلوماسي الأمريكي.

وهذا الساحل تسكنه عدة قبائل عربية هاجرت في فترات مختلفة من داخل الصحراء وحطت بخيامها حيث يوجد المرعى لماشيته، وعلى طول هذا الساحل الخطير والخداع توجد صخور على صفحة الماء أو على عمق ضعيف. فيها تتكسر أمواج الساحل الأطلسي، كما أن هناك تيارات سريعة تدفع نحو القارة، وقد دفعت فعلاً بعدد من المراكب حتى الساحل.

ونرى هناك أناساً مع جمالهم وجيادهم ودوابهم يعيشون مجتمعين رجالاً ونساءً وأطفالاً، وهم أحياناً في حرب ضد جيرانهم، وهم يقطعون الصحاري باستمرار من المغرب حتى السودان... باستعدادات لا تتجاوز الاستعدادات التي نقوم بها لكي نذهب من نيويورك إلى فيلاديلفيا!! وهم يتوفرون على أنواع عديدة من الصمغ واللوز والشمع والصوف والجلود وريش النعام.

وهناك جواد الصحراء الملقب عندهم (شارب الريح)، وهو يتغذى فقط بحليب النوق، ويستعمل خصوصا لصيد النعام الذي يحتاج لاستعدادات مدروسة.

وهكذا يركب حوالي عشرين صحراويًا هذه الخيول، ويقتفون أثر النعام حتى يجدها، ونحن نعلم أن هذه النعام تجري بسرعة كبيرة، ولكنها حين تشعر بأن أجنحتها تعوق سيرها أمام الريح تغير اتجاهها وتسير نحو الرجال الذين يعترضونها مصطفين الواحد تلو الآخر.

وقد تستطيع النعام الإفلات من الأول أو الثاني لكنها تقع في قبضة الثالث أو الرابع أو من يتبع هؤلاء.

وأهل الصحراء يحملون بنادق ... ولكنهم حين يتابعون النعام يفضلون استعمال "الزرواطة"، وهي عبارة عن عصا يبلغ طولها نحو القدمين، مصنوعة من عود شجرة يستخرج منها الصمغ في السينغال، وهم يرمونها بمهارة عجيبة بين قوائم النعام كي تتعثر وتقع على الأرض فيسهل عليهم الارتماء عليها !

وبعد ذلك يذبحونها على الطريقة الإسلامية، يقول التقرير، ثم يوزعون ريشها بينهم كما يوزعون هيكلها، والريش في العادة، يُباع لممثلي التجار في الأسواق في وادي نون.

ومما يذكر أن للتجار طريقة في المتاجرة بريش النعام في جنوب المغرب ترجع إلى أعراف ضاربة في أعماق التاريخ.

ومن المعلوم أن الريش من نوع زومار Zumar أفضل من الريش الأسود إلى آخر التقاليد والأعراف المتداولة فيما بينهم.

والمنافسة بين اليهود في احتكارهم لهذا المنتج رفع من قيمته ... وفي سنة 1879-1880 مرت ثلاثة وثلاثون قنطاراً فقط من الريش عبر الديوانة المغربية

وقدرت بنحو 105750 دولاراً. ونفترض أن قدرأً آخر قد خرج بطريق التهريب الغير الشرعي من المغرب وقد يمر ريش النعام إلى الجزائر عن طريق وجده.

وينمو في الخط بين سوس وتارودانت قصب السكر على نحو ما ينمو في واحات الصحراء ولكن الأهالي لم تعد تعرف كيف تصنع السكر.

وهنا يستطرد فيليكس ماثيوس بذكر الطريقة الخاصة بغراسة قصب السكر حسبما نقله عن ابن العوام الذي قال في سنة 1140م نقلاً عن مؤلف آخر يدعى ابن حجاج كتب عام 1073م.

قال : يجب أن يغرس القصب في مارس في سهلٍ محفوظٍ من الرياح الشرقية وبمقربة من الماء، ويجب أن تغطي الأرض بغبار البقر وأن تسقى مرة كل أربعة أيام حتى تصل النبتة إلى علو شبر ... وفي هذا الوقت يجب تقليب الأرض واستعمال غبار الخروف وتسقى مرة كل ثمانية أيام حتى شهر أكتوبر، وفي شهر يناير يقطع القصب قطعاً صغيرة ويسحق ويغلى بعد ذلك العصير في قدر جديد حتى يصفى لونه ويغلى من جديد ويوضع في قوارير بخارية على شكل هرمي دائري ويوضع في الظل حتى يتجمد، وبعد ذلك يسحب السكر من القوارير لكي يبرد.

ويستعمل بقايا القصب لتغذية الخيل والجمال التي تقبل عليها بكثرة.

وهذه الأقاليم صالحة لزراعة القطن والتبغ، ويمكن أن يغرس فيها كل أصناف الخضر المعروفة في الولايات الجنوبية بالولايات المتحدة.

وبما أن التربة رملية فأشجار اللوز والزيتون كثيرة، ويصنع الأهالي الزيت من الزيتون وشجر أركان ... وهذه الشجرة : أركان لا تُعرف كثيراً في أوروبا، وهي معدومة في أمريكا ! وهي تشبه شجرة اللوز وتعطي فاكهة تشبه اللوز، وحبها مكسوة بقشرة ناعمة ... والأهالي يجمعونها ويسحقونها فتعطيهم زيتاً تميل إلى الصفرة.

أما النخلة فتوجد منها أنواع جيدة خصوصاً في المناطق القريبة من الصحراء ... وأفضل نوع هو بوطوب (Butube) ويأتي بعده بوزكري.

وينتج اللوز في منطقة وادي نون أكثر من جميع أقاليم إفريقيا الشمالية مجتمعة. لكن نظراً للمسافة الطويلة التي يجب قطعها على ظهر الجمال للوصول إلى إحدى الموانئ جعل من المتعذر تصديرها بكمية كبيرة إلى أسواق أوروبا.

والشمع ينتج بكميات مرتفعة ورغم كلفة النقل بالجمال وبعد المسافات فإنه يصدر إلى الخارج بكثرة نظراً لجودته ورائحته المحببة كذلك فهو نور وعطر في أن واحد.

ويختم التقرير بأن هذه المنطقة تمتد حتى تومبوكتو وجيني JINNIE (عاصمة سنغاي قديماً). والتجارة بين هذه الجهات وبين الولايات المتحدة الملك محمد الثالث.

ويلاحظ الدبلوماسي الأمريكي أن التجارة بين الجهتين تأثرت بالخلاف الذي شب بين أمريكا وبين ليبيا عند ما ساعد المغرب طرابلس في بداية القرن التاسع عشر ... والمراكب التي تعلق من ميناء مدينة (سالم) ومدينة (بوسطون) الأمريكيتين، ومن جهة أخرى في الولايات المتحدة الأمريكية التي تحمل منتوجات أمريكية تتوقف بميناء الصويرة وتتسلم المقابل منتوجات من إفريقيا الشمالية.

وهكذا استطاع التجار الأمريكيون المستقرون بالصويرة أن يبيعوا أرخص من البريطانيين.

وبالنسبة للأحداث التي قد تتعرض لها المراكب الأمريكية على الساحل فإنه بفضل مساعدة السلطة المركزية، أمكننا أن نتغلب على مختلف المصاعب والمتاعب.

الهوامش

- 1) عبد الهادي التازي التاريخ الدبلوماسي للمغرب، ج 9 ص 297 وما بعدها. رقم الإيداع القانوني 1986/25 - مطابع فضالة - المحمدية - المغرب.
- د. علي تابلت مغرب السلطان سيدي محمد بن عبد الله من خلال تقرير طوماس بيركلي - مجلة البحث العلمي - العدد 47-2001، ص 10 وما بعدها.
- 2) عبد الهادي التازي ساحل إفريقيا الغربي سوس، وادي نون، الصحراء في تقرير دبلوماسي أمريكي، مجلة البحث العلمي 31 - ذو الحجة 1400 = أكتوبر 1480.
- التاريخ الدبلوماسي للمغرب، ج 10 ص 134 وما بعدها (مصدر سابق).

عبد الله العلوي

مؤسس الحركة الشعرية المغربية بالصحراء

أحمد مفدي

ثقافة ابن رازكه الصحراوية وخصوصيتها الوطنية

ابن رازكه عالم فذ، وشاعر كبير ملأ عصره، وشغل الناس عقوداً كثيرة. شارك في تحريك الوجدان الوطني إبان تأسيس الدولة العلوية، وعمل على تجذير هذا الحس في كل من سوس والساقية الحمراء وبلاد القبلة بالصحراء. فمن هو إذن ابن رازكه؟ هو عبد الله بن محمد المعروف بابن رازكه⁽¹⁾... وفي الذهب الإبريز، هو سيد عبد الله بن محمد... وترجم له أحمد بن الأمين الشنقيطي في الوسيط⁽²⁾ بأنه عبد الله بن محمد بن عبد الله بن الطالب بن حبيب بن ابيج... وفي شعراء موريطانيا⁽³⁾ : هو محمد بن سيدي عبد الله بن الفغ سيدي أحمد بن محمد بن القاضي العلوي... وفي النبوغ⁽⁴⁾ المغربي : هو أبو محمد عبد الله بن محمد بن عبد الله بن الطالب العلوي.

مولده ونشأته ووفاته

يرى صاحب الوسيط أنه ولد بقبيلة التراززة المعروفة ببلاد القبلة، وبها نشأ، «إلى أن ترعرع فطمحت نفسه إلى العنوم، فاشتغل بها حتى تضلّع»⁽⁵⁾ في حين يرى صاحب الديوان : أن ابن رازكه ولد حوالي 1060 هجرية.

إلا أننا نجد في حديث ابن الأمين الشنقيطي عن أيام الحروب بين «إدوعلي» - البيض والكحل - خبراً مفاده أن جد ابن رازكه عبد الله بن الطالب العلوي، خرج إلى أرض القبلة، لما اشتدت الحروب، وحمي أوارها على الناس. فأسس هناك مدرسة علمية ساهمت في تخريج كثير من العلماء الذين شاركوا - فيما بعد - في إنكاء الحركة الفكرية والعلمية بالصحراء الكبرى كلها، وبقي هناك - ما فضل من حياته - يعلم الناس، في حين خلفه ابنه محمد على المدرسة الأصلية، التي كانت محطة للوافدين من علماء فاس إلى إفريقيا، كالسينغال والنيجر ومالي ونيجريا.

وهذا الرأي الذي ذهب إليه صاحب الوسيط، يؤكدده محمد سعيد بن بهاه. إذ يرى أن عبد الله جد ابن رازكه، غادر «قبيلته إلى أرض القبلة، بسبب كثرة الحروب التي كانت تقع بين أفراد قبيلته. وعندما وصل إلى أرض القبلة - حيث احتفى به أهلها، وأكرموا مثواه، لما علموه من مزاياه - أسس بها محضرة مشهورة، تخرج منها كثير من العلماء والأدباء»⁽⁶⁾.

وإذا كان الجد قد انتحى جهة القبلة، وأسس بها مدرسة علمية ساهمت في ربط الصحراء الغربية منها والشرقية بالوطن، وكان ابنه محمد والد ابن رازكة، هو الذي خلفه في المدرسة الأم، فإننا لا نستبعد أن يخلف الولد أباه في المدرسة الجديدة، ولا سيما أن الظروف التي دفعت «الأغالل» إلى الهجرة نحو الحوض، ودفعت «العلويين» نحو القبلة، كانت ما تزال قائمة.

إلا أن الذي لا خلاف فيه، هو أن شاعرنا العلوي توفي سنة 1144 هجرية، كما هو ثابت عند الشاعر باب بن أحمد بيب⁽⁷⁾ العلوي، في بيتين من الشعر، يؤرخ بهما لوفاة ابن رازكه، على الطريقة الفشتالية. في حين يرى البعض⁽⁸⁾ أنه توفي سنة 1143 هـ.

قبيلته وامتأؤه الاجتماعي

ينتمي ابن رازكه إلى أعرق أسرة في الصحراء، حيث يتخذ نسبه المغربي في خارطة المجد إلى قبيلة «إدو علي» العلوية. والعلويون سادة الصحراء وأيمتها. اختاروا السماحة والنبل والشهامة، فانقادت لهم السيادة المهيبة، وعنت لهم الوجوه الكريمة، راضية بعلو شأنهم، وطيب أخلاقهم، مستبشرة بشمائلهم التي أربت فائثرت لتُظِلّ النفوس من قيظ ما حل بها من حر الخلاف، ولهيب الحروب.

فالسادة العلويون قضاة الصحراء وعلماءها... يفتنون فيما يشكل على القوم من أمور دينهم، ويرسمون خطوط المستقبل في وجدان الإنسان المغربي أنى كان مقامه أو ترحاله. لا يبخلون بما يدخرونه من علم نافع، ولا يتأخرون عن السعي بالخير فيما يشجر من خلاف بين القبائل. ديدنهم تحصيل العلوم وبناء المدارس، وسمتهم الورع والتقوى. فإذا نشبت الحروب، وكان لا بد مما ليس منه بد، كانوا فوارس الميدان. حيث ظلّت سيادتهم الفكرية، وزعامتهم السياسية والاجتماعية، العنصر البارز في حياة الصحراء المغربية، يذكي مشاعر الوحدة، ويغذيها بنمير مائها الذي يجري في العروق وشيخة حية دافقة، لا يفصمها الضعف السياسي، ولا يزعزعها عاصف يتسرب حين تنام عيون الرقباء، فالضمير الوطني ظل الفتيل المتقد، تحمله الأسرة العلوية في الصحراء رغم ما يعتريها من هزات عنيفة.

وكانت قبيلة «إدو علي»⁽⁹⁾ العلوية المنحدرة من محمد بن النفس الزكية، تتماًلاً اعتزازاً بالشرف الأثيل، والمجد العلمي الطريف، وتفيض شعوراً بالسيادة الفكرية، التي أكسبتها ريادة وسيادة، وشموخاً في الاستعلاء عما يخوض فيه الخائضون، مع سلوك محمود. تعدل إذا حكمت، وتسود بالحسنى إذا حازت الزعامة... فهي بيت الشرف في الصحراء. فأصبح الشرفاء العلويون أهل سؤدد ومجد، وعلم وعدل. وقد امتد هذا الشعور بالتفوق إلى الشاعر ابن رازكه.

أسرته

ينتمي عبد الله بن محمد العلوي إلى أسرة عالمة كريمة، توارثت إهاب المعرفة، وجلال الانتماء الوطني كابرأ عن كابر. فأبوه «محمد... عالم متفزن، وخاصة في الفقه وعلوم اللغة العربية، وهو الذي خلف أباه على محظرتة عندما غادرها متوجهاً إلى أرض القبلة⁽¹⁰⁾. كما كانت موهبة أبيه نسيجاً متفرداً فيما أدركه من أفانين «العلوم والإصلاح، وله اليد الطولى في العربية والفقه والبلاغة.. وكان غاية في جودة الشعر. ولولا ما هو متصف به من العبادة والاشتغال بطريق الصوفية، ما اشتهر في قطره أحد سواه بالشعر⁽¹¹⁾.

فهو عالم صوفي، إذن، أوتي عقلاً راجحاً، وذوقاً شفيفاً قادراً على إدراك ما ترشح به الروح من دقائق البواطن، وغوامض النفوس. مما رشحه إلى تدريس الطريقة التيجانية. وممن درس عليه، مؤلف أرجوزة (منية المرید) الشاعر التيجاني⁽¹²⁾ بن باب بن أحمد بيب العلوي، لأنه يعترف بأخذه، أورد وأسرار الطريقة التيجانية، عن والد ابن رازكه «العلامة الأوحده والفاضل الأمجد... الملقب بالخليفة، لقيامه بالخلافة في إعطاء الطريق، بعد وفاة شيخه سيدي محمد الحافظ رضي الله عنه، وله خمسة جدود، كل واحد منهم أعلم أهل زمانه. وهم أبوه سيدي عبد الله بن سيدي أحمد الفغ، بن سيدي عبد الله المعروف بالقاضي بن علامة الصحراء سيدي الطالب⁽¹³⁾.

كان لوالده ابن رازكة، إذن، «باع في العلوم»⁽¹⁴⁾، كما كان شاعراً كبيراً. إلا أن طريقته شغلته عن الخوض في أغراض الشعر، حيث قصر شعره على ما هو به مشتغل... ينافح عن طريقته، ويتصدى للناقمين عليها، حتى سمي بحسان الطريقة لقوله :

وإني لحسان الطريق وأهلها أود أباً جهل النكير وأزجر⁽¹⁵⁾
أقيس ذراعاً كلما قاس أصبعا أخب إذا يسعى عليهم وأحضر

وكانت له مع الشاعر الهجاء «أديبج» مهاجاة ومناقضة. وخاصة عندما هجا
بشارُ الصحراء الشيخ أحمد التيجاني، فتصدى له يقارعه بقوله :
«أديبج» إذ صار كالعصفور مال على باز حديد شبا ، منقاره قرم⁽¹⁶⁾

أما جدّ ابن رازكه «فهو عبد الله بن الطالب القاضي ... اشتهر بالعلم، وقد
كان صاحب مدرسة، يدرس فيها جل العلوم»⁽¹⁷⁾، سافر إلى الشرق العربي،
واتصل بكبار علمائه، وأخذ عنهم، وخاصة الشيخ أبا الحسن. فأصبح «أعلم
أهل زمانه، وإليه المرجع في إقليمه»⁽¹⁸⁾. يقول في مدحه ومدح قبيلته «إدو علي»،
الشاعر محنض باباه الديماني :

دع المدح يغدو في مسارحه ترعى ولا ترعه إلا كلا طيب المرعى⁽¹⁹⁾
فعمم به في إدو علي وخصصن بني شيخنا قاضي القضاة تجد مرعى
فإن لهم في سالف الدهر رتبة علت بعلي تفرع المرتقى فرعا
تعالت فما تنفك ثم كواكب تضيء لياليها حنادس أو درعا⁽²⁰⁾
لهم من هجان الفكر أي نجائب تجوب قفار العلم تذرعهما ذرعا

أما أم الشاعر، فهي رازكه بنت أحمد العلوي، تنحدر من أسرة شريفة، ذات
صلاح ومروءة ونباهة، تلتقي مع والده في الجد الأعلى - أبيع - وعلى أي، فإن
أسرة الشاعر متميزة بالعلم ، متفردة بالوقار، مختصة بالاحترام والنباهة والذكاء.
فانقادت لشاعرنا الريادة والسيادة.

في هذا الجو العلمي المتقد، نشأ ابن رازكه، ينغب مما خلفه الآباء في روية.
يزيد من شدة استيعابه السريع، ما درجت عليه الأسرة من الدربة والمران
العلميين. يذكي فيه حماسَ التزود ما تختزنه الذاكرة الجماعية من ماض مشع،
وموروث حي، يفجران في نفسه سعياً لاهتياً إلى امتلاك ما أدركه السلفُ من
حظوة لدى الملوك والوجهاء والعلماء. فإذا هو يتنقل بين مدارس الصحراء يتزود

من مدارس أبائه بالعلوم الأساس ... فإذا أصبح يافعا ، انتقل إلى مدرسة «العالم الطالب محمد بن بلعمش التي كانت محط رحال طلبة العلم من مختلف أنحاء القطر... وقد تلقى فيها بعض المعارف، وخاصة بعض الفنون التي لم تكن معروفة في ذلك الوقت، مثل الحساب والمنطق.. والطالب محمد - هذا أي ابن الأعمش - كان صاحب أنظام فقهية وألغاز.. كما أنه كان يمارس قرص الشعر... ولعل صاحبنا أخذ عنه المعارف من جملة ما أخذ»⁽²¹⁾.

ونستشف من كتاب الوسيط ، أن الشاعر درس أيضاً بمدينة «وادان» في مدرسة «إدو الحاج» الشهيرة وذلك لقوله :

لقد شمختُ أنفا علينا خديجة وقالت بآزارٍ لها إدارن⁽²²⁾
ونحن الأنوف الشامخات على الورى تقاصرُ عنا كل أنف وماران

وله مع أستاذه وشيخه الكبير، الفقيه «مينحن» - الذي كان يقر بذكائه وتفوقه - مساجلات أدبية ، أو بعبارة أدق ، ممانحات فنية لطيفة ، منها هذان البيتان اللذان يمازح بهما أستاذه .

لسيدنا مينحن برذونة إذا خطت أخطأت سير المواضي الأمال⁽²³⁾
تُباهي ذرى الأعراف منها ذؤابةً على نافع بن جني التونسي بن صالح
فيجييه أستاذه في اسماح وتفضل .

لئن كان عبد الله قد عاب عرفها وأخطأها سير المواضي الأمال
فقد زانها تبغيلها واصطلاؤها إذا ارتكبت يوماً أمام الممالح
عليها فتى لا ينتنني لكريهة وليس بذى سيف وليس برامح

على أن حلوة المزاح، واستساغة الأستاذ لها ، دفعنا الشاعر إلى جسارة القول ، حيث أخذ يشنع علي أستاذه فتواه بتكفير من لا يعرف - عن علم وبصيرة - الصفات الواجبة والمستحيلة في حقه تعالى ، فجاءت قصيدته الميمية - وهي

طويلة جداً - تقطر غيرة على الدين، وحمية في الدفاع عنه سُنِيًّا مالكيًّا أشعريًّا.
حيث يقول :

فتوى قضى الدين الحنيف بأنه منها بريء ، فهي زلة عالم⁽²⁴⁾
طيف من الشيطان مس فمن لها بتذكر فتكون طيف الحالم
مرقت على الإجماع والنصين والفق له الذي بهما مروق مصارم

وهذا يعني أن الشاعر ابن رازكه، كان عالماً بأمر الدين. فقيهاً في علوم الإفتاء، متمكناً من أصول علم الكلام... لا يجد في تخطئة أستاذه - مع ما في ذلك من حرج - غضاظة، ما دام الأمر يتعلق بالثوابت الدينية. وإن كان بالتماع ذكائه، وصفاء نباهته، عرف كيف يلتمس لأستاذه عذرا، حيث اعتبر الفتوى - التي يرفضها الدين الحنيف وهو منها براء - زلة عالم. والعظيم من العلماء من تعد زلاته، إذ لا تعدو أن تكون مسا من الشيطان، يدرأها العالم الصالح بتذكر الأحد الصمد، فإذا هو مبصر السوي من الطرق، مضمناً في ذلك قوله تعالى : ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ﴾⁽²⁵⁾.

كما درس ابن رازكه في كل من مراكش ومكناس وفاس والزاوية الناصرية ، ومدارس سوس . وله مع علماء هذه المدارس إجازات⁽²⁶⁾ ومساجلات وألغاز علمية متناهية التعقيد، ففي كتاب «فتح الشكور» نجد «أنه أخذ عقائد أهل السنة، وعلم المعاني والبيان والمنطق، عن عدة من الشيوخ الأجلة الذين أدركهم، كالسيد أحمد العطار، وأبي مدين القاضي الأكبر، والسيد أحمد بن يعقوب الولالي»⁽²⁷⁾. وظل في ذلك موزع الهوى بين العواصم التي درس بها وبين مسقط رأسه .

ومن تلامذته الأعلام، الذين أسهموا بنصيب وافر في إثراء الثقافة العربية في الجنوب المغربي، نذكر الحاج إبراهيم العلوي، والد الشاعر المبدع عبد الله بن الحاج إبراهيم. وهو سمي أستاذاً⁽²⁹⁾ والده، وأحمد بن سيد محمد بن موسى

أستاذ الطالب محمد، صاحب فتح الشكور، والمختار بن بون⁽³⁰⁾ الجكني عالم اللغة في الجنوب بدون منازع.

ونخلص إلى أنه كان من أعاجب الدهر في⁽³¹⁾ التحصيل وسرعة البداهة، والذكاء المتقد، ونباهة الفطنة، عازفاً عن سفاسف الأمور. جاداً مجتهداً، منصرفاً إلى العلم الذي يرى أنه سلّم المعالي. فبرز علماً فذاً، فاز على أقرانه بما حاز من المعارف. وطفى ظله حتى حجب غيره من الشعراء. ولذلك وجدنا الحركة الشعرية في الصحراء المغربية، حية نابضة⁽³²⁾، تبتدىء بآبن رازكه في شموخها وتنوع فنونها. وكان شاعرنا امرؤ القيس يحمل لواء الشعراء في الجنوب نحو التجدد المستمر والتوحيد الروحي في المساق المعرفي.

مكانة الشاعر

إن مكانة أي شاعر، لا يستقيم الحكم عليها، ولا يصحّ تقويمها أو تقييمها، إلا إذا وضعت في إطارها الزمني والمكاني، لاستبعاد التعسف، واجتتاب النزوع إلى الهوى ما أمكن. وفي هذا الإطار سنحاول أن ندرس شعر آبن رازكه الذي ينتمي إلى القرنين الحادي عشر والثاني عشر الهجريين.

فآبن رازكه، إذن، وهو الشاعر المغربي، كان كما يقول صاحب الوسيط : «المقدم على أهل قطره من غير نكير... وانتشر صيته في تلك الصحاري والأقطار، حتى صار كالشمس في رابعة النهار. وضرب بفهمه المثل، واستوى في معرفته السهل والجبل»⁽³³⁾. كما كان «متقناً في فنون شتى، منها النحو والعربية والبيان والمنطق والفقه، والهندسة والرياضة والتربيع وغير ذلك»⁽³⁴⁾.

وإذا كانت دلالة العبارة، تحمل في فحواها كثيراً من الإطراء والمدح، فإنها لا تخلو من إشارة دالة على موقف المثقفين في عصره، مما تميز به شعره من جزالة اللفظ، وسلامة العبارة، واستقامة البناء، حبكة وصياغة، وتعدد أغراض.

لأنه «أول من اتجه بالشعر إلى الأغراض التي كان القدماء يطرقونها : من مدح ورتاء وغيرهما»⁽³⁵⁾.

أما من حيث السبق التاريخي إلى تطويل القصائد، والابتداء بالنسيب، وتوزيع الأغراض، فقد كان ابن رازك «أول شاعر عُرف في هذه البلاد بالمعنى المتعارف عليه للشعراء»⁽³⁶⁾. وهذا لا ينفى أن يكون قد اتكأ على نماذج سابقية، أو أخذ منها زاده، واستوحى ما يلائم اللحظة التاريخية، إلا أنها ضاعت ولم تصلنا. والذي وصلنا هو تقرّيب معاصريه لشعره، وتقديمهم له، بل مبايعتهم له بإمارة الشعر، قبل أن يبائع حافظ إبراهيم الشاعر أحمد شوقي عليها، رغم ما في المعاصرة من عداة وإخفاء لمنزلة المعاصرين. والظاهر أن هؤلاء الشعراء الذين بايعوه، أصغر منه سناً، فهو شيخهم وأستاذهم، يقول الشاعر محمد اليدالي :

فالحق أضحى محلي	به بأبهي المِحَال ⁽³⁷⁾
ومهيع الشرع يزهو	مطرز البُرْد حالي
قد صانته فهود أبا	عن نصه غـير آل
وذَبَّ عنه ببـيض	من الهدى والنضال
حتى غدا مستقيما	ميزانه باعتدال
به العلوم تحللت	أبهي حلي وجلال
قد فاز منها بمالم	يخطر لأنس ببـال

إلى أن يقول :

فأهناً فقد نلت تاج الشعر العزيز المنال
فأنت حامل أعبـا ء المهمات الثقـال

الصنعة، أن يكون القصيد المُعَارَضُ أو المسمط، من عيون الشعر. ومن ثم اعتبر شعراء القرنين الثالث عشر والرابع عشر الهجريين شعر ابن رازكه، «مثلاً أعلى، كشعر الطبقات المعتمدة من الشعراء القدامى الجاهليين والإسلاميين والعباسيين»⁽⁴²⁾.

إذ لا يجوز للأحقين أن يأتوا بما لم يأت به السابقون، كما لا يجوز لهم أن يبكوا أو أن يقفوا إلا على ما سنه القدماء، حيث يقول شاعر مدرسة السمارة الكبير محمد فال بن باب⁽⁴³⁾ :

وقد سن عبد الله ذلك قبلنا وما كان شنجيط يضيف له غدرا⁽⁴⁴⁾
فهل بغميم كان مسقط رأسه فالأحباب قدما والمواطن قد تطرا

كما نجد الشاعر محمد بن فتي يميل إلى تضمين أبيات ابن رازكه ، التي يقول فيها ، مفتخراً بما يصبو إليه من المعالي والتعلق بالعلم ، والإعراض عن الدنيا ، وما تزخر به من حطام المادة :

إذا جلت فكراً في العلوم عويصها ومادت بي الأفراح كل مميد⁽⁴⁴⁾
تصاغرت الدنيا لدي وأهلها وجئت بما يشفي غليل مريد
ونلت لذيق الذوق بالعلم وحسده وكل لذيق غيره كهبيد⁽⁴⁵⁾

حيث يضمن هذه الأبيات «ابن فتي في شعره الذي يقول فيه :

تقول أميم الكتب دع واسع للغنى غنى الكتب دون المال غير مفيد⁽⁴⁷⁾
فقللت دعيني انظر الكتب ساعة ألم تسمعي أبيات عمي سيدي

ثم يذكر الأبيات السابقة، ليحتج بها على صواب ما اختاره لنفسه، واتخذة مذهباً بديلاً لما تعلق به غيره، وتهالك في امتلاك ناصيته.

ويستمر هذا التقدير لدى الدارسين المحدثين، حيث يرى الدكتور عباس⁽⁴⁸⁾ الجراري في دراسته الأكاديمية المنشورة في مجلة المناهل تحت عنوان :

«الصحراء مهد أصيل للثقافة» إنه من رواد الحركة الأدبية والمغرب، ويرى الأستاذ عبد الله كنون في كتابه «النبوغ»، أن ابن رازكه، من أهم شعراء المغرب الذين صوروا عصرهم، وشاركوا في صنع أحداثه.

كما اعتبره من زعماء الحركة الأدبية في أوائل عصر الدولة العلوية. إن يقول : «إن نفسه في شعره نفس شنقيطي، وإن تفوق أهل شنقيط في علوم العربية، والنبوغ الذي ظهر منهم في ذلك العصر، وخاصة في نظم الشعر العربي المتين، مما لا يخفاء به على أحد»⁽⁴⁹⁾. ويرى الدكتور محمد المختار بن أباه : إنه زعيم⁽⁵⁰⁾ معاصريه ورائدهم المقدم فيما ابتدعه من أغراض لم يألّفوها من قبله. كما اعتبره رائد الاتجاه البلاغي، وزعيم من جاء بعده، من الشعراء الكبار.

وبعد : لقد أسلفنا ما يدل على أن الشاعر ابن رازكه، احتل مكانة مرموقة في نفوس الأجيال اللاحقة، عبر المغرب كله. وأنه كان علامة مضيئة في درب الوحدة، مهد منها ما استعصى على الساسة. حيث جاء في ديوان الشاعر أنه لعب دوراً بارزاً في الحركة الأدبية، في العصر الذي عاش فيه وفي العصور اللاحقة... وأنه كان شاعراً له مميزات وخصائص تطبع شعره، وتجعله في المكان المرموق، الذي لم يستطع بلوغه أحد من معاصريه⁽⁵¹⁾.

شعره

مما يثير تساؤل الدارسين شعر ابن رازكه، أنه لم يقتحم بفضائه الشعري كل الأغراض والفنون في قصائد مستقلة، وإنما اقتصر في ذلك على ما كان يراه ذا أهمية، مثل المديح والرتاء والشكوى والعتاب، ثم الشعر التعليمي، بما فيه من ميل إلى نظم الأحاجي والألغاز.

أما الأغراض الأخرى مثل الهجاء والغزل والوصف، فلم ترد في شعره إلا عرضاً، أي باعتبارها من وسائل الأداء في اكتمال البناء الشعري على غرار

المدرسة الجاهلية. ولكن الذي يستوقفنا هو عزوفه عن الفخر. على الرغم من توفره على عنصرين أساسيين مؤثرين في شعر الفخر، عبر الحقب التاريخية .

العنصر الأول : إن الشاعر - كما سبق - ينحدر من بيت كريم النجار، عريق المحند، له من السيادة والريادة ما سوده، ومن الجاه والحظوة ما قربه من رجال الدولة.

العنصر الثاني : أن الشاعر كان المؤسس لمدرسة إحيائية - قبل المدرسة الإحيائية في المشرق بما يزيد عن قرن - وفي تأسيسه هذا، اعتمد على احتذاء عيون الشعر العربي القديم، ونسج قلائده على منوال الجيد مما قالته العرب.

فلما هذا العزوف إذن؟ فهل يعني أن الشاعر اكتفى بالواقع الحاصل الذائع بين الأقران والمعاصرين، من المجد الأثيل، والذكر الأسر، أم أن شعره في الفخر ضاع فيما ضاع من شعر شعراء الصحراء؟

إن تناولنا أغراضه الشعرية إذن، ستكون حسب أهميتها في الديوان، معتبرين أن الأهمية تنحصر في حرارة العاطفة التي تنسكب ملتاعة لمعالجة قضايا عصره، مبتدئين بالمدح. ولكونه مدحاً متميزاً غير لاهث وراء الكسب، ولا متهاك على العتاب. وإنما مسعاه مدح القيم التي يراها شاخصة فيمن يمدحهم.

أولاً : المدح

يتجاوز المدح في شعره نصف الديوان. وهو ينقسم إلى قسمين : قسم يمدح فيه الرسول عليه السلام، متأثراً في ذلك بمن سبقه من الشعراء، أو معارضاً إياهم كقوله :

مضى سلف في خدمة النعل صالح	فكن خلفاً فيما تعاطوه لا خلفاً
رأوا تلك في الدنيا الدنية قريبة	إلى الله في الأخرى مقربة زلفى (52)
يذيعون ذكر البان والحقف ذي النقا	ويطرون ذات الخشف بالقول والخشفا
فها أنا في تمثال نعلك سيدي	مضيت على التحقيق في الوصف كي أشفي

أما القسم الثاني فيمدح فيه الفضائل المجردة ، التي يرى أنها حلي تليق بمن تمحضت روحه وحياته لخدمة البلاد وصيانة وحدتها ، أمثال المولى إسماعيل والأمير المولى محمد العالم ، والشيخ أحمد التيجاني ، وبعض علماء وصلحاء الصحراء .

أ - مدح النبي عليه السلام : وتتصدر أشعاره قصيدته الفائية - التي يمدح بها الرسول الأكرم - عليه السلام وهي تقطر لوعة وحسرة ، وتسيل عذوبة ورقة ، حيث يستحضر جلال النبوة ، فيغرق في إهاب الأحاسيس النبيلة ، فإذا بنياط نفسه الجريحة بلفح العشق ، تتقطع دون وصال من يجب :

غرام سقى قلبي مدامته صرفاً ولم يقم للعذل عدلاً ولا صرفاً (53)

قضى فيه قاضي الحب بالهجر مذ غدا مريضاً بداء لا يطلب ولا يشفى

إننا لا نكاد نجد سبباً لهذه الزفرات النافثة حرارة اللوعة ، وشدة الوجد ، إلا حبه لرسول الله ، واشتياقه لزيارة قبره الشريف ، لعله يطفىء ما يضطرم في أحشائه من حب جامع . وما أروع قوله : «جريح سهام الحب عاث به الهوى ! » حيث يختلط الألم باللذة ، وتسود الحسرة جو القصيدة ، فيشرق الأمل وضاء ... لكي يلتبس الزمان حيث يصبح ليله جارفاً يبعده عن واقع الناس ، ونهاره غمماً موصولاً ، ولا سيما أن جراحه من فعل سهام الحبيب . حيث يشيم الفرح في عينيه لكنه يأسى لما تتركه في نفسه من جراح . وأنى له أن يرى من عشق ؟ فقد شط المزار ، وشطحت به الديار عن المبتغى - ألا يكفيه ما به من حزن مرير ، وإعراض قاتل ؟

فحسب المحب الصادق الود قلبه جفاء بشكواه مرارة ما يخفى

فالشاعر في نبل عاطفته صادق الانفعال، يعبر عن شعور عارم بالوفاء، فهو من كبار علماء المالكية، صوفي الطريقة، أبوه أستاذ الصوفية، وجده الطالب من

أعظم شيوخ الإسلام في المغرب. ف جاء مدحه للرسول عليه السلام، ولآثاره الكريمة نابغاً من وجدان يفيض بالمحبة، ومن قلب تغمره نفحات روحية، لا تغرب عن نفس المؤمن، لذلك يقول :

لئن فانتنا عين الحبيب فإنما بآثاره الحسنى اكتفاءً من استكفى

وأثار النبي - عليه السلام - هنا، نعله الشريفة التي مدحها شعراء سبقوه، من أشهرهم في المغرب أبو الحسن علي بن أحمد الشامي، شاعر المنصور السعدي الذي امتدحها بفائيته⁽⁵⁴⁾ المشهورة والتي عارضها ابن رازكه.

وتسترسل القصيدة في تعداد أوصاف النبي ﷺ وأخلاقه ومعجزاته وما تعرض له عليه السلام، من تبكيت الكفار وإذابتهم، وكيف انتصرت له أرضة لا تكاد ترى بالعين المجردة. لتظهره عليهم، ولتبين معجزة رسالته... أتيا على ذكر ما رأته حليلة السعدية من شق الملكين جوفه الكريم، وتنقيته من ادران قد تعلق بقلوب بني آدم.

غير أنه يدرك أن كل هذه الأحداث، قد أتى على ذكرها الشعراء السابقون، فلم يبقوا له جديداً يستجده، ولا طريفاً يستحدثه. وكأنه يردد ما قاله الشاعر القديم عنتره :

هل غادر الشعراء من متردم أم هل عرفت الدار بعد توهم

مع فارق في الدلالة والقصد، إذ أن الشاعر القديم، يرى أن القدماء استنفدوا معاني الوقوف على الآثار، فلم يبقوا له غير الوهم يستعين به على تلمس الطريق. وهو يعني في هذا المنزع، أن أجيالاً من الفحول غيبت أشعارهم رمال الصحراء، فأصبحوا خبراً منسياً، وماضياً مغيباً.

أما شاعرنا فقد أدرك أن سابقيه، لم يبقوا له ما يطرب بجذته، لكنهم لم يحرموه من لذة التأجج العاطفي ، ورقة الطفح الوجداني ، رغم أنه متقف آثارهم.

وحسبه في ذلك أن يَصْقِلَ فطرته الدينية، وأن يغذي روحه الصوفية، من نبع نبوي ضواع، ونفخ شفيف، وعشق زلال ثر لا ينضب. وسيلته عاطفة جياشة، وحب صادق، في لغة جزلة، وعبارة مشرقة، تتم عما انطوت عليه النفس.

ب - مدح الأمير محمد العالم

إذا كان الشق الأول من المدح عنده، تعلق بالرسول الأكرم عليه السلام، باعتباره منزعاً صوفياً يتساقق في شعره مع سموق الروح الدينية، فإن الشق الثاني ذو منزع وطني، يزاور عن كل ما هو قبلي، منحاشاً إلى الجماعة، مهتبلاً بالبيعة، منافحاً عما يضمن العروة الوثقى للمغاربة.

وهكذا اصطفى الشاعر لمدوحه الأمير محمد العالم بن السلطان المولى إسماعيل، أجمل الصفات وأروعها. وخصه بمثل ما خص به المتنبي ممدوحه، الأمير الحمداني سيف الدولة. ومن أجمل ما قال شاعرنا في المدح، قصيدته الحائية التي تنقسم إلى محاور ثلاثة :

المحور الأول : يستغرق خمسة أبيات، حيث يتحدث فيها عن معاناة الرحلة، وما كابده الراحلة، مقلداً نهج الجاهليين، إذ يلتقط من أشعارهم ما يرصف به بناءه الشعري، ويقوي وسيلته التعبيرية كقوله :

دع العيس والبيداء تذرعها شطحا وسمها بحور الآل تسبحها سبحا⁽⁵⁵⁾
ولا ترعها إلا الذميل فطالما رعت ناضر القيصوم والشيح والطلحاً

المحور الثاني : (من البيت 6-36) يتناول فيه صفات الأمير ، وما تميز به من إقدام وشجاعة . فهو يعرف كيف يشنت شمل المارقين والكفار الحانقين على الإسلام ، حتى إذا حمل عليهم ، أصبحوا في قبضة يديه بين أسير وقتيل ، ويذيقهم مرارة الموت جزاء جحودهم :

هزبر غدا في شرعة الرمح، والعدى غدوا بقرأ يستعمل النحر والذبحا(56)
أمير، ملوك الكفر أضحوا لسيفه كما تتبغى الذبح في عيدها الأضحى

فالشاعر يستكنه نفسية الأعداء، ويستبصر ما توحى به حالتهم المضطربة،
ويستقرىء اللحظة الشعورية وغير الشعورية التي يحيونها. فإذا هم يتحركون في
هلع، يأخذهم الفزع كل مأخذ، حين يساقون إلى الموت سوق الأضاحي. لأن
ممدوح الشاعر هو الأمير محمد العالم، وليس أي ممدوح !

وهو فتى عربي، تملأ حمية على الدين، وأمن الناس في ديارهم من كيد
المرجفين :

كلا الدين والدنيا به ازدان وازدهى وأمن شر المبطل المتمرد(57)
فريد العلى يقوى لرقعة طبعه على الجمع بين الماء والنار في اليد

فممدوحه متفرد في خصاله. لم يجاره أحد في الكرم والنبيل، والتودد إلى
الأحبة، مع رجاحة في العقل، ونفاذ في البصيرة، وسبق في المجد. إذا نafسه في
ذلك منافسون، لم يدركوا ما أدرك، ووقعوا دون ما سعوا إليه لاهثين :

سعى وسعوا للمكرمات فاقصروا ولم يرض حتى استكمل الكرم القحا(58)

فيه اجتمع، إذن، سداد الرأي، وقوة الحزم، وآيات العلم، فبدا علما سامقا،
دالاً عليها، إن بدا ظهرت تطله، وإن غاب توارت، لانعدام الند اللائق بها. أليس هو
الذي وسع صدره الدنيا كراماً ونبلاً، وعلماً وحلماً، ونباهة ذكر وعلو همة، حتى
انتشر به الدين، وأمسى مكيناً في النفوس التي مرقت من قبل :

وآيات علم اغمد الجهل نورها وغايات جد ليس تطلابها مزحا(59)
ورأي يريه اليوم ما في حشا غد ويكشف عنه من دجى ليله جناحا
وحزم يهز الراسيات ثباته وعزم يحاكي الزند ماضيه قدحا

فيه من الشهامة والسماحة والصباحة وبشر المحيا، ما علم نسيم الصبا
كيف يتنفس ، والمطر كيف ينهمي، كما علم النار كيف تنقح وتتأجج. والصبح
الوضاء كيف يشرق ندي السني. يقول الشاعر :

وكف تري وكف الحيا كيف ينهمي إلى خلق يرى نسيم الصبا النفع⁽⁶⁰⁾
وبشر محيا علم الصبح ما السني وقبض أرى النار التأجج واللفحا
وتأليفه اشتات كل فضيلة ومكرمة غراء تعجزنا شرحا
كفانا اتخاذ الفأل في القصد يمنه فلسنا نخط الرمل أو نضرب القدحا

إقدام الأمير الممدوح، لم يترك للجبن مكاناً في نفوس من رآه. كما أن
جوده علم البخيل التخلي عن بخله وشحه، فأذعن له الأعداء، وألقوا السلاح، ليس
محض مودة، وإنما اتقاء جياده المواصلة حبل الجهاد. والظاهر في مدحه الأمير،
هو هذا التشابه الكبير بين ما يخص به الشاعر ممدوحه، وبين ما كان يخلعه أبو
فراس الحمداني على ابن عمه الأمير الشجاع سيف الدولة.

ولا أجد في العلاقة بين الشاعرين ما يومية إلى المعارضة أو التقليد، بقدر
ما هي كامنة في العلاقة الروحية، ووشيجة الدم اللتين تميلان بهما إلى تفجير
النص الشعري، وتوليد الدلالات المثيرة، بإشارة إلى اللحظة الزمنية وحاجتها إلى
رجل شهم شجاع لا يغمر له جانب، يختزل المسافات، ويتفجر فتوة للذب عن
الحياض، وردع الأعداء. ثم إن الشاعرين فارسان يسوسان قومهما ، ويتقدمان
كتائبهم، وأن الأميرين الحمداني والعلوي من الفوارس الكبار، ثم إن كلا منهما
يرتبط بأميره برابطة العمومة. لذلك جاء شعرهما تعبيراً عما بنفسيهما. حيث تم
لهما تفجير اللحظة الشعرية التي طفت فيها عاطفة المأمول المنتظر على الأنبي
المعقول.

أما المحور الثالث، فهو أخطرها، وكأنه لغز معمي، انغلق عن الدوافع، إذ لا
يليق بالشاعر، وهو المبدع والعالم والذكي الأعمى، أن ينقاد إلى حب أعمى

غامض المرمى (من البيت 37-50) حيث يحرض الأمير على الثورة والخروج عن الطاعة، مبيناً أن الأمير لم يخلق ليكون أميراً وحسب، وإنما ليكون ملكاً تنقاد له الدنيا، فليس فيه ما يقف به دون أعتاب الخلافة. ولا سيما أنه ولي العهد، وليس هناك من يساميه في الأمر :

أبوك لحكم الشرع ولاك عهده فلم تلق كذا في السؤال ولا كدحا (61)
وأعطاكه إ ليس غيرك أهله وللعقل نور ميز الحسن والقبحا

ألم يكن الشاعر يدعو أميره إلى التوغل في إفريقيا ؟ سؤال طرحه لعله يجد من يستقصي ما يرمي إليه. لأن تحريض الشاعر الأمير تجاوز حد المروءة، حيث حرصه على أن يسامي أباه في الملك، ولأنه في نظره ليس أقل منه شأنًا، فهو شبيه له في الأخلاق والأوصاف :

أيا ابن أمير المؤمنين وسيفه وصمصامه أن يرفع الضرب والنطحا (62)
تشابهه خلقا وخلقاً فسامه إلى الفلك الأعلى، فإنك لا تلحى

وعلى أي فإن ابن رازك يستفيد من معارفه الهندسية، التي لم يكن أمثاله من شعراء الشرق يجروون على اقتحامها، إذ يرسم لممدوحه صورة هندسية لها حدودها ونقطة ارتكازها وسطحها الذي يمتد على خارطة الوطن، وكأنه يريد أن يقول : لم يخلق الله الخلافة في الأرض بجلالها وعظمة مسؤوليتها، إلا لتنقاد للفتى الأمير، الذي زينه العلم والحزم، والذي تهندس ليستقبلها. فلماذا لم يأخذها أخذاً كريماً ؟ وإذا استعصى الأمر، أخذها أخذاً لما، كقوله :

تهندست العليا فأحرزت جسمها لإحرازك النقاط والخط والسطحا (63)
فكم من حديث كان يسند للندی ولكنه لولا نوالك ما صحا

أما قصيدته الدالية - وهي في مدح الأمير - فيلتزم فيها عمود الشعر العربي : بكاء ونسيباً، وذكر كل ما يستوجب الوفاء ذكره، ثم يتخلص كما يتخلص - القدماء - إلى الغرض. ورغم أن موضوعها هو المدح، فإن نفتحها صوفية، تفيض حينئذ روحياً، وإيقاعاً موسيقياً، يسوده الانفعال المتوتر، وكأن القارئ أمام فيض غامر من الوجد الشفيف، يغرق فيه صاحبه، فأغرقه هذا الاندفاع في الحيرة القاتلة.

فهل النفحة الصوفية نافذة يطل منها الشاعر على عالم أفسح، يتملأ حبا وخيراً، حيث يهرب من فضائه الشعري، بعواطفه من أنقاض المادة وندس المنفعة، أم أن المدح الصادق يمتح من حب خاص، وينغب من نبع صفت مشاربه، فعذب ما يعتصر منه، حين رقت حاشيته ؟

وعلى أي، فإن الشاعر يظهر في القصيدة الدالية، موزع الهوى بين الملك الذي هو مطوق ببيعته، وملزم شرعاً بالوفاء بها، وبين ولده الأمير، الذي تملكه الإعجاب به إلى حد المروق. يقول :

فأعتادُ منه ما تعودت من يديُّ أبيه أمير المؤمنين المؤيد⁽⁶⁴⁾
هما والد ما توجُّ الملكُ مثله ومولود صدق بالمكارم مرتدي

ونستنتج ممَّا سبق

أولاً : أن الشاعر لم يكن يلهث في مدحه وراء ما كان يجري وراءه الناغبة في العصر الجاهلي، وتلامذته في العصر العباسي خاصة، بقدر ما كان يعمل على ترسيخ القيم، وتركيز المكارم في النفوس . يظهر هذا واضحاً في مدحه العالم محمد سعيد⁽⁶⁵⁾ اليدالي، وفي مدحه العالم محمد الكريم⁽⁶⁶⁾ بن الفال بن الكوري.

ثانياً : إنه شاعر فارس وزعيم، يريد أن يؤسس أخلاق الفروسية في الشعر المغربي بالصحراء، وهو لا يستثني من ذلك أحداً. إذ بوّده أن يجدها تورق في كل من المدرسة والزاوية والقصر. ويطرب كل الطرب، عندما يراها كلها مجسّمة في أميره الذي عشقه عشقاً قاتلاً.

ثالثاً : إن حب الشاعر أميره، وشدة كلفه به حتى الهيام الضائع، ضيعه وضيع صاحبه أيضاً. فكانت ثورة الأمير محمد العالم في سوس مؤشراً عجل بنهايته، وانتهت مع الثورة البذرة الواعدة بالعتاء الشعري الذي أئنع نبتته في رحاب مهياة للعتاء الثر.

رابعاً : إن الشاعر ينحو في مدحياته منحى الشعراء الفحول في الشعر العربي، مزوراً عما ألفه معاصروه في الصحراء، من أنظمة تعليمية، تعتمد الأحاجي وبعض النوازل الفقهية موضوعاً لها.

خامساً : إن الشاعر لم يعمد في مدحياته إلى توشيحها بما كان يستحسن من ألوان البديع، لاعتقاده أنه مسؤول عن نقل قيم اختزنتها ذاكرة قومه، وعن إشاعة أخلاق تشربتها الأجيال المتعاقبة، وينبغي أن تنقل من غير احتيال لفظي، ولا تزويق فني، يفقدان العبارة دلالتها ويغرقانها في إهاب من الصنعة والتنميق. وخاصة إذا كان الأمر يتعلق بكرامات الأولياء وفروسية الأمير الذي لا يبارى. لذلك كان لفظه على قدر ما يحمله من دلالة دون أعمال التلوين الموسيقي، أو الزخرفة اللفظية، لأن المقام يقتضي الصدق، ولا شيء غير الصدق، يعبر عن الوجدان، وينقل شحاته وهاجة، فيها دفء الإيمان، وحرارة الإخلاص.

وهنا نسأل : لماذا لم يمدح الشاعر السلطان المولى إسماعيل، وهو السلطان القوي الموحد والمجاهد ؟ فهل وجد في ولده الأمير ما يستعيز به عن التقرب منه، أم أن الأمير بعد أن عنت نباهة الشاعر ضن به على والده ؟ أم أنه مدحه لكن فتنه سوس ، أودت بكل ذلك وغيبته فيما يغيب من الأشياء حينما

يستنزّل الشيطان المغرضين، الذين سعوا للوقية بين الشاعر والسلطان من جهة، وبين السلطان والأمير محمد العالم من جهة ثانية ؟

ولا سيما ان الشاعر ابن رازكه لا يذكر السلطان، في معرض مدحه الأمير - إلا بما ينم عن الإجلال والإكبار، والاعتراف بجميل ما حققه من أمن للرعاية، ووحد للوطن، وسيادة للدولة، وعز للدين . وعلى أي فالأسئلة مطروحة، ولعل الزمن يكشف في المستقبل عما يجب عنها. وخاصة أن جملة من الوثائق المغربية قد سرقت أو أحرقت، والباقي منها ما يزال مطموراً دون دراسة.

ثانياً : الرثاء

أما غرض الرثاء، فيتبدى فيه ابن رازكه شاعراً تقليدياً : وهو في تقليده أميل إلى النزعة التأبينية منه إلى التفجع. حيث يعدد المزايا ، ويبكي مناقب المرثي، ويسرد ما كان له على الخلق من فضل عميم، وغدق فياض كريم، ممهداً له بالحديث عن الموت الذي لم يُبق أحداً من أكابر العلماء، وعظماء الملوك الذين سلفوا، وبأن الله خلق الحياة وقدر الموت على الذين يحبونها. فلا محيص، إذن، مما قيض للخلق من تجرّع كأس المنايا، سواء عليهم إن أجلوا أم عجلوا. فالمكتوب حال لا محالة.

وعلى الرغم من هذا المنزع الذي نهجه الشاعر، فإن رثاءه لا يخلو من ظهور الأسى والحسرة. حيث يحرك الشعور بهما في قلبه أوتار الحزن، فنحس بالدمعة المسكوبة، والزفرة الحرى تلهب العاطفة في دبيب نكد، لكنه خافت. وتذكي في الوجدان أهات التفجع، وتمس نياط القلب في الأعماق.

فهو في - فائيته التي يرثي بها العالم الصالح : أحمد بن يوسف بن الغال⁽⁶⁷⁾ الشقوري، يستهلها بمحور أخذ العبر من التاريخ، والدعوة إلى التأسي بالمكتوب، باعتباره قضاء واقعاً لا محالة، كقوله :

هو الأجل الموقوت لا يتخلف وليس يرد الفائت المتأسف⁽⁶⁸⁾
 رضيت قضاء الله جل جلاله وإن ضل فيه الجاهل المتعسف
 إلى أن يقول :

وليس يفي فيما يفيد سرورها بأحزانها فيما تبديد وتتلف
 فلا ترضها جمعاء كتفاء جملة تحلة ما تولي عليه وتحلف
 ولا دار سكنى وهي قصر مشيد فكيف وهذا قاعها وهو صفصف

ثم ينتقل إلى محور ثان ، يتحدث فيه عن مزايا المرثي العلمية والأخلاقية ،
 وما اكتسبه من قدرة المكاشفة والخرق ، متجاوزاً ما اعتاده الناس في كبار
 الشيوخ العلماء :

بصير بحمل المشكلات كأنما يكشف عن أسرارها ثم يكشف

فرتاؤه أحمد بن يوسف، إذن، ليس تفجعاً سائباً، وإنما هو خطاب تأييني
 يعدد ما امتاز به ابن يوسف، وينحى باللائمة على المنايا التي هي قدر الله، وهذا
 اللون يتكرر عنده في رثائه «أعمار أكجيل»⁽⁶⁹⁾ المعروف بالتروزي، مع شيء من
 الحسرة البادية التي تزيد النبوة المتميزة والإيقاع الخفي الرائع، شدة أسر،
 وقوة تأثير، كقوله :

هو الموت غضب لا تخون مضاربه وحوض زعاف، كل من عاش شاربه⁽⁷⁰⁾

وما الناس إلا وارده فسبق إليه ومسبوق تخب نجائبه
 يجب الفتى إدراك ما هو راغب ويدركه لا بد ما هو راهبه

وكانه لا يرثى الأمير - «أعمار أكجيل» أو هو لا يهتم بالرثاء، بقدر ما يهتم بإعادة تحريك المراثيات القديمة في الشعر العربي. إذ لا يختلف نَفْسُ مراثيته هذه كثيراً، عن مراثية لبيد بن ربيعة في أخيه أربد، التي يقول فيها :

بلينا وما تبلى النجوم الطوالع وتبقى الجبال بعدها والمصانع⁽⁷¹⁾
وما الناس إلا كالديار وأهلها بها يوم حلوها وغدواً ، بلا قع
وما المرء إلا كالشهاب وضوئه يصير رماداً بعد إذ هو ساطع

كما لاختلف عن مراثية القاضي أبي يعلى حمزة بن عبد الرزاق في أبي المتوج الكناني :

ألا كل حي مقصدات مقاتله وأجل ما يخشى من الدهر عاجله⁽⁷²⁾
وهل يفرح الناجي السليم وهذه خيول الردى قدامه وحبائله

وهذا يوضح أن الشاعر المغربي كان على صلة وثيقة بعيون الشعر العربي في المكتبات العامة والخاصة. يؤكد ذلك ما يذكره في قصيدته «الحائية» من أن الأمير محمد العالم، أهده كتاب وفيات الأعيان لابن خلكان، فيما كان أهده .

فأعطيتني الأعيان والعين والكسا وبيض الطبا والنوق والخيل والطلحا⁽⁷³⁾

ثم إن مراثيته في «أكجيل» هي من الشبه، بل من المعارضة الحرفية، لقصيدة أبي يعلى في رثاء ابن منقذ الكناني الملقب بمخلص الدولة، ما يصح افتراض هذا القصد عند الشاعر، ولا سيما أن المعارضة عند الشعراء المؤسسين، وشعراء عصر النهضة الإحيائيين، لم تكن تعني القصور عن الخلق، أو احتداء السلف - عن عجز - فيما أبدع، بقدر ما كانت تعني التحدي للنموذج الأكمل، أي تحدي المثال الذي اكتمل فناً وإيقاعاً في ذاكرة الأجيال من التراث. حتى إن الشاعر منهم - أي من شعراء الصحراء - كان ينزع إلى معارضة الفحول، كما فعل محمد بن الطلبة، حين عارض جيمية الشماخ بن ضراره وهو

يرجو من الله أن يحتكم هو ومن عارضه إلى نازلي الفردوس، ليحكموا أيهما أشعر، حيث قال : «أرجو من الله أن أقف أنا والشماخ بن ضرار في ناد من أهل الجنة، وننشد بين أيديهم قصيدتنا، لنعلم أيهما أحسن» (74).

وكأنه لم يعجبه حكم معاصريه الذين عشقوا القديم، فقدموه لكونه قديماً وإن أجاد معاصروه. فالشاعر ابن رازكه العلوي، لا يكاد يزيد شيئاً عن تكرار ما ورد في مرثية أبي يعلى، إلا ما كان من استبداله أعلاماً بما يماثلها في الجاه والسلطان. كما أنه يغني الصور القاتمة، بما يلتقطه من وسائل تؤدي المعنى نفسه. وكأنه لا يريد أن يحيد عنه - لا عجزاً - وإنما طموحاً منه إلى التدليل على تمثله للقديم، وقدرته على إعطاء مثل ما أعطى القدماء، ويسترسل على هذا النحو في هذه القصيدة أربعاً وستين بيتاً، دون أن يخل بمنهجه الذي ارتضاه لنفسه، فاحتذاه حرفياً.

لذلك يغيب عنا في رثائه - ولعله عن قصد - ما ألفناه عنده في الأغراض الشعرية الأخرى. كما يَضمُر - في هذا الغرض نفسه - ما كنا نريد أن نتلمسه من عاطفة جياشة، وانفعال شديد، وانبهار روحي أمام الفاجعة. وقد يكون ذلك راجعاً إلى أنه وضع - كما وضع أبو يعلى - لقصيدته الرثائية، إطاراً يكسب فيه ما لا يهز المشاعر، ولا يحرك الانفعال، إلا بالقدر الذي يتقبل به المسلم المؤمن قضاء الله .

فالموت حق، وقدر مكتوب، والإنسان في هوس الحياة عابر جسراً يفضي به إلى نهاية محتومة، وما يلبسه من نعم الدنيا، ليس إلا ثوباً معاراً مديناً به. والمدين قاض دينه لا محالة. ومن ثم يبقى الرثاء عنده دعوة إلى أخذ العبرة، وجميل التأسى، وليس دعوة للحسرة والتفجع على الفقيه .

وهنا نتساءل : هل يتوفر في شعر ابن رازكه الرثائي عنصر الصدق ؟ وإذا ذهبنا إلى أنه توفر - نظراً لما كان يربطه بالمرثي من علائق - فهل الصدق وحده

في التجربة الأدبية كاف، أم أنه لا بد من توفر عناصر أخرى ، لها أهمية قصوى وحضور فاعل، في أي عمل إبداعي ؟

إن من أهم العناصر الأخرى، ما يكمن في تشكيل البنية الفنية الدالة بنفسها على معناها من رشاقة العبارة، وجزالتها، وطلاوة الجرس وانسيابه من جهة، وصدوره عن عاطفة جياشة ملتهبة، تهز الشاعر هزا عنيفاً، حتى تستولي على مجامع قلبه. حيث تدفعه - دفعاً جارفاً لا يستطيع مقاومته - إلى إبداع ما أبداع من جهة ثانية.

ومن هنا نخلص إلى أن الأدب الرفيع، لا يكتسب قيمته من الموضوع الجليل، بقدر ما يكتسبها من الرجة العنيفة التي تهز الشاعر، ثم من ملامحة هذا الارتجاج النفسي مع الإحساس بالقدرة على التحكم في وسائل الأداء، التي تصبح لديه لحمية وصوراً تترى محبوكة النسيج، عميقة الدلالة، لا تنقاد في يسر إلا لمن يعاني ويكابد، مثلما عانى الشاعر وكابد.

فليس كافياً - إذن - أن تكون القصيدة - رثاء أو مدحاً - في صديق حميم، أو شيخ عزيز كريم، أو في سلطان عظيم مهيب، حتى تكتسب القيمة من موضوعها. كما أنه ليس كافياً «أن تكون القصيدة في مدح النبي عليه السلام، وتمجيد فضائله العظيمة، ومناقبه السامية، حتى نخدع بغرضها النبيل، فنُدخلها في دائرة الأدب . بل ليس يكفي أن يكون ناظمها مسلماً - والمسلمون جميعاً بطبيعة الحال يحبون النبي عليه السلام ويجلونّه - بل لابد من أن يكون الناظم قد مر بتجربة شعورية خاصة قوية ملتهبة، ازداد فيها حبه للرسول، وانفعاله بشخصيته، من القدر العادي - للمسلم العادي، وانصهر انصهاراً في بوتقة هذا الشعور الطاغي، فعاش فترة معه وتم امتزاجه مع الشخصية النبوية، واستجابته لها. وانتهى به هذا إلى نظم قصيدته حيث استطاع أن يضبط عاطفته، وينظمها ويتأمل فيها» (75).

وشاعرنا عبد الله العلوي المعروف بابن رازك، توفر له من العناصر الثلاث، ما ضمن لقصيدته الثبات والبقاء، إلا أنه التوفر الذي يستمد خلوده وإشراقه من استيحاء الماضي، لا من اعتصار العاطفة وحدها، أو مكابدة التجربة الفذة المتميزة ... وذلك ديدن الشعراء المؤسسين الذين انشغلوا دون غيرهم بهاجس الإحياء، أكثر من انشغالهم بغيره.

ثالثاً : عتاب الزمن

إن شعر العتاب والشكوى من تقلب الدهر في الأدب العربي قديم، وقد ازدهر في العصر العباسي عندما اختلط العربي بغيره من الأجناس، وامتزجت الحضارات، ودخلت عقائدٌ مشبوهة المجتمع العباسي المسلم، وتمكن البرامكة والأتراك، من بعدهم، من إحكام قبضتهم على رقاب الرعية، واستضعفوا الأخيار والوجهاء، وعمامة الشعب، وتجبرت السلطة في أيديهم، وتجبر معها المال الذي أصبح له بريق خاص، يتخطف الأبصار، ويقود إلى الانحراف والابتذال والانهيار في القيم الاجتماعية والأخلاقية والسياسية على السواء. فكثرت التكاليف على المال، والسعي وراء الجاه والسلطان، وساد الإحباط النفسي حيث اغتنى الشحيح اللئيم، وافتقر الجواد الكريم. وساد العبد الجبان الرعيد، وتخلف عن قيادة قومه الفارس الخريت بمسالك الأمور.

في هذا الجو المحموم، لم يبق للشاعر الذي عاش مرارة التجربة، ولعنة الوعي، إلا أن ينحي باللائمة على الدهر العاهر الذي أسعف بالسعد، الخسيس القاصر، وأزور بطالعه عن القادر المتمرس، الذي سودته نفسه ليسود. كما أنه امتلك عقد المجد من أطرافه. وخير من مثل هذا الاتجاه - في كبرياء العارف - أبو الطيب المتنبي الذي يقول :

أود من الأيام ما لا توده وأشكو إليها بيننا وهي جنسده (76)

إلى أن يقول متحسراً على ما آل إليه أمر المسلمين :

فلا مجد في الدنيا لمن قلّ ماله ولا مال في الدنيا لمن قلّ مجده
وفي الناس من يرضى بميسور عيشه ومركوبه رجالان والثوب جلده
ولكن قلبا بين جنبي ماله مدى ينتهي بي في مراد أحده

أما الشكوى في شعر ابن رازكه، فتنساق، مع الإبداع في الأدب العربي، وتحذو حذو الشعراء الكبار، حيث تمحور حول ثلاثة محاور.

المحور الأول : يبكي فيه الشاعر مصير المسلمين، وما أصبحوا يغطون فيه من ليل حالك، يحفه التخلف والانحطاط. فقد تنامت في نفسه حتى أدمتتها وبهذا الدم القاني التقط صور اليأس التي يرسف في أغلالها مجتمعه الإسلامي. بل إن العلماء ساهموا في خلق هذا الوضع، بعدما نضب الإيمان الشفيف، والجارف أحياناً، من نفوسهم، فانقادوا لما انقاد له المجتمع.

فالدهر - عند ابن رازكه - مسؤول عن انزواء معاصريه في زوايا مظلمة، حرمتهم من التلمي بنور اليقين الذي يملأ الأفاق. ولولاه - أي الدهر - ما ظهر في ربوع المسلمين من يفسد فيها أكثر مما يصلح. يظهر ذلك في قصيدته «الميمية»، التي يرد فيها على فتوى أستاذه وصديقه «مِنْحُن» رداً عنيفاً، لأنما إياه على ما بدر منه :

ياعاصمي ياسالمي يا قاصمي للألزم الجدع الذمول الراسم⁽⁷⁷⁾
وظهور دهد الدين سعد القين في قوم تلقوه بثغر باسم
فيه ابتداع ما سمعنا مثله من فاتح الدنيا لهذا الخاتم
أحببت لو قامت وما أبصرته في الرق مسطورا على ماتمي

فتوى قضي الدين الحنيف بأنه منها بريء ، فهي زلة عالم
 طيف من الشيطان مس فمن لها بتذكر فتكون طيف الحالم
 فالشاعر يصرخ صرخة حرى، متمنياً لو قامت ماتمه قبل أن يدركه الدهر
 ببلاياها فيما يراه من البدع والكذب الصراح، والافتراء على الدين الحنيف.

وهو يرى أن ما أدركه من افك الدهر وضلاله، لم تَطْلُع عليه الشمس منذ
 بدء الخليقة حتى عهد خاتم الرسل والأنبياء عليهم السلام. فلماذا العيش بين
 ظهران من لا رجاء في صلاحهم أو إصلاحهم. حيث استزلهم الشيطان، فعشقوا
 الزيغ والهوى، واتخذوا البدعة شرعتهم، والنكوص عن الحق ديدنهم...

المحور الثاني : يؤسس فيه موقفه على عتاب العلماء الذين تزعموا أمور
 الإفتاء - والذين من فتاواهم بريء - وهنا لا يتحرج من إنذار من يساهمون في
 إفساد الدين على الناس. ولا سيما أنه كان ينبغي أن يكون العلماء مصابيح الأمة،
 بهم يهتدى، وعلى نهجهم تسير العامة، حيث يخيرهم الشاعر بين العودة عما هم
 فيه سائرون من الضلالة، وبين أن يرتقبوا - وهو معهم من المرتقبين - عاقبة ما
 اقترفوا في حق الدين والأمة من سوء :

إن راجع المفتي الصواب تراجعت فيه اعتقاداتي، وكنت كخادم⁽⁷⁸⁾

ولئن تمادى أن يعيش ليقر عن وليقر عن، إن مات بسن النادم

الله ينصر دينه ويحسوطه ويردّ عن أهله كيسد الظالم

فالشاعر يتحسر ألماً على ما انقاد له العلماء، إذ نحس بانفجار عاطفي،
 وفيض روحي، يذوب من شدة الكمد والحزن على ما آل إليه العلماء، راجياً أن
 يتراجعوا عما أفتوا بغير ما أقره الشرع، ليعود اعتقاده الذي اهتز بانحرافهم عن
 الحق المبين.

المحور الثالث : أما المحور الثالث، فهو يتناول فيه يأسه من أن ينجبر ما انكسر، بصلاح أمر هذا الزمن الفاسد، ولا سيما إذا كان لأهله قابلية الفساد - حسب المنظور الفلسفي للمفكر الإسلامي مالك⁽⁷⁹⁾ ابن نبي - وهو يعني بأهله، العلماء الذين تهاونوا، فأدركتهم آفة السكوت عن الباطل - والسكوت بدوره باطل - فأخلوا السبيل لكل أفاك أثيم، لكي يعيث في الأرض فساداً بما يعلم وبما لا يعلم ، حين حجبوا علمهم - الذي علمهم الله - عن الناس.

وعبارته في هذا المحور، تقطر سخرية لاذعة، حيث يسخر فيها ممن يملك الأداة ولا يوظفها فيما يسرها الله له. مستغلاً هذا المنحى استغلالاً ناجحاً منذ مطلع القصيدة «الضادية» التي يقول فيها :

سقى دمن الحي الحيا المتغائض وفي وجهه برق من البشر وامض⁽⁸⁰⁾
يصب عليهن المياه كأنه لما دنس العصران منهن راحض
معاهد أرام الأنيس فأصبحت وفيها لأرام القضاء مرابض
رياض لوى بيض العمائم حسنهما كما قمصت خُصرَ الملاء الربائضُ

إذ لولا سقيا الله الحي بواكف أمطاره، ورحضه ما دنس الدهرُ به أرضه، لأصبحت الحياة في هذا الزمن عبئاً ثقيلاً. فهو زمان رديء، تواني أهله عن المصالح، وتراكضوا وراء المفاسد، وانساقوا لاهتين ينشدون المنفعة الآنية، ويعرضون عن الحق، لأنه في نظرهم لا يغني ولا يجدي في عهد تقزم أهله، لماً سادت الفتن ممتزجة بالمفاتن، يقول الشاعر :

زمان تواني في المصالح أهله وكلهم نحو المفاسد راکض
يقولون خير الدين والعلم سعيهم وسعيهم للدين والعلم هائض

وقد زاد من إيلام الشاعر ، حكمُ أحد القضاة عليه في نازلة غيابياً ، ولم يكن الحكم عادلاً يتساق مع الشريعة الإسلامية ، وإنما فيه ميل عن الحق وحيث

كبير. وعلى الرغم من إحساسه بالضيم، فقد تجرعه على مضض، وقبل فيه الحكم الصادر عن قاض من قضاة المسلمين، حفظاً لحرمة القضاء، واحتراماً لمن صدر الحكم باسمه وهو سلطان البلاد.

فقال متفجعاً : - والظلم فجيعة على أي حال - :

عجزت فأظهرت القبول كتابع عجزاً يصلي خلفها وهي حائض⁽⁸¹⁾
 فلو كنت أرجو الود منهم توخياً وما منهم إلا عدو مباغض
 لكنت كراج للنوافل حفظها لى من مضاعفات لديه الفرائض

وفي هذه الأبيات، تمتزج السخرية اللاذعة، بالقسرة الجارحة، على ما هو عليه أهل زمانه، إلا أنه - وعلى الرغم من قساوته على شيوخه وقضاة عصره - فقد ظل محافظاً على الجوهر، الذي يدافع عنه، إذ لا يحيد عما رسمه لنفسه، متساوياً مع المذهب المالكي الذي يلتزم العمل به أهل المغرب - وهم أهله طبعاً - وقد كان لحملة ابن رازك هذه - على من كان يراهم مارقين - أثر كبير، وصدى واسع، في نفوس من جاء بعده من الشعراء المغاربة في الصحراء.

أما الألغاز والأحاجي⁽⁸²⁾ الفقهية، فهي كثيرة في شعره، دالة على سعة معرفته، وشمول ثقافته الدينية : فقهاً وأصولاً ولغة. وهو لون من ألوان الأصالة المغربية في وحدة الثقافة. وقد أشار الدكتور عباس الجراري إلى هذا التلاحم في وحدة الفكر بين أقاليم المغرب قبل أن يعثب بها المستعمر بقوله : «ومثله تبادل الألغاز العلمية». ومن الأمثلة عليه، ما فعل عبد الله العلوي المعروف بابن زاركة - حين خاطب علماء فاس وابن زكري خاصة، ملغزاً في قوله تعالى : ﴿ تَمَّ اسْتَخْرَجَهَا مِنْ وِعَاءِ أَخِيهِ ﴾⁽⁸³⁾.

ويرى محمد سعيد بن بهاه «أنه استخدم الشعر في هذا النوع، لا لغرض فني، وإنما لمجرد استعراض العضلات العلمية. وقد رأينا عنده قصيدتين وبعض

الأبيات، يلغز فيها، منها هذه القطعة التي أشرنا إليها آنفاً، والتي هي من حيث الصياغة الفنية، لا تقل عن شعره الآخر جودة»⁽⁸⁴⁾ حيث يذكر وجهاء فاس، وخاصة العالم ابن زكري :

شيوخ البيان الذائقين حلاوة من العلم لم تُطعمْ لغير ذويه⁽⁸⁵⁾
سلام من الله السلام ورحمة يعمانكم من خامل ونبيه
قِراه لديكم أهل فاس جوابه بنص جواب في البيان وجيه
سما بكم علم البيان ، وحقه إذا ما هوى ظنُّ بمختلجيه
أسائلكم ما سر إظهار ربنا تبارك مجدداً من وعاء أخيه
فلم يأت عنه منه أو من وعائه لأمر دقيق جل ثم يخيه
فإن تك أسرار المعاني خفية فمرآتها أفكار كل نبيه
وأنت ابن زكري إمامٌ محقق تفردت في الدنيا بغير شبويه

ولم نعثر على جواب ابن زكري ، إلا أن إلغازه لم يذهب سدى إذ نجد في الذهب الإبريز للشاعر محمد بن سعيد اليدالي قصيدة يرد فيها على أستاذه ابن رازكه إذ يقول :

سؤال بليغ في البيان نبويه أديب من أرباب الهدى وذويه⁽⁸⁶⁾
عليه مدار العصر في العلم سيما علوم المعاني وهو قطب رحيه
سبوق لدى قيد الشوارد راكب من الفهم متني لاحق ووجيه

وهكذا ننتهي إلى أن ابن رازكه، لم يكن نباتاً غريباً يشذ عن الوسط الذي نما فيه شعره ، وإنما كان امتداداً طبيعياً للحركة الفكرية التي عرفها المغرب. يدل على ذلك ما كان له من مساجلات علمية مع علماء فاس، وخاصة مع ابن

زكري. إذ أن شعره بدأ بداية عادية، كما يقع لكل الشعراء تقريباً. ولكن بفضل الدربة والمران، وبفضل الاحتكاك بعيون الأدب العربي القديم، وبشعراء النهضة الأدبية في المغرب، التي بدأت في عهد الدولة السعدية، والتي استمرت إبان نشأة الدولة العلوية. بفضل هذا كله، وإلى جانب عبقرية هذا الرجل، الذي أسس مدرسة ثقافية في الصحراء، وصل شعره فيها إلى هذه الدرجة من الجودة والإتقان. وانتحت شاعريته منحى الوطنية الفذة، حين ألف الشاعر بين الوجدان الوطني وبين رقة العبارة، وجزالة اللغة، وطلاوة السبك. لينتهي إلى أن الوطن هو القصيدة الجميلة، والسلطان هو النغم الشعري المنسرب إلى القلب، بين حنايا الإنسان المغربي، في حنو وإسماح وتفضل. ذلكم هو الشاعر الوطني عبد الله بن رازكه العلوي، مؤسس مدرسة الإحياء في صحراء المغرب.

الهوامش

- (1) «ديوان ابن رازكه»، عبد الله العلوي، جمعه وحققه محمد سعيد بن بهاه، ص 15.
- (2) «الوسيط»، ص 1.
- (3) «شعراء موريطانيا»، ص 450.
- (4) «النبوغ المغربي»، الأستاذ عبد الله كنون، 324/1.
- (5) «الوسيط»، ص 1.
- (6) «الديوان»، ص 16.
- (7) «الوسيط»، ص 34 و«الديوان»، ص 1.
- (8) كتاب «فتح الشكور في علماء تكرر».
- (9) «الديوان»، ص 16.
- (10) «شعراء موريطانيا»، ص 415.
- (11) أنظر «الوسيط»، ص 69.
- (12) أنظر «الوسيط»، ص 69.
- (13) «البنية» للعربي السايح، ص 100.
- (14) المصدر السابق، ص 101.
- (15) «البنية» للعربي السائح، ص 101 و«شعراء موريطانيا»، ص 416.
- (16) «الوسيط»، ص : 30.
- (17) «الديوان»، ص 16.
- (18) «البنية»، ص 100.
- (19) «الوسيط»، ص 238-404-405.
- (20) «الحناسد : الليالي المظلمة، الدرغ جمع درعاء وهي الليلة التي تبتدىء بليلة ست عشرة أي بعد الليالي المقمرة .
- (21) «الديوان»، ص 17.
- (22) «الديوان»، ص 51.
- (23) نفسه، ص 18.

- (24) نفسه ، ص 141 .
- (25) سورة الأعراف، آية 201 .
- (26) «الديوان» ، ص 145 .
- (27) «معلمة الصحراء» عبد الله بن عبد الله، 140/9 ، «الديوان»، ص 19 «فتح الشكور في علماء التكروري» الطالب محمد، ص 95 .
- (28) «الوسيط»، ص 37 .
- (29) انظر مقدمة «نشر البنود على مراقي السعود» عبد الله العلوي، ص 19 ، وانظر «الوسيط»، ص 37 .
- (30) انظر رسالتنا تحقيق . «ديوان الأبحر المعينة في بعض الأمداح المعينية» للشيخ النعمة، ص 27 .
- (31) «الوسيط»، ص 2 .
- (32) «الأدب المغربي من خلال ظواهره وقضاياها» للدكتور عباس الجباري، ص 181 .
- (33) «الوسيط»، ص 1 .
- (34) «الوسيط»، ص 2 .
- (35) «الديوان»، ص 30 .
- (36) «الديوان»، ص 30 .
- (37) «الوسيط»، ص 229-230 المحال ضرب من الحلي يصاغ مفقراً أي محرزاً .
- (38) «الديوان»، ص 10 .
- (39) انظر ص 489 من هذا البحث .
- (40) انظر ص 124 من هذا البحث .
- (41) «فتح الشكور في علماء التكرور»، ص 75 و«الديوان»، ص 32 .
- (42) «الديوان»، ص 34، مجلة المناهل ع 6، ص : 90 للدكتور عباس الجباري .
- (43) توفي عام 1349 هـ .
- (44) «الديوان»، ص 34 .
- (45) «الديوان»، ص 157 .

- (46) الهبيد حب من ثمار الأشجار، ويسمى بالحسانية الشركاش .
- (47) الديوان، ص 157 ، 35 .
- (48) مجلة المناهل، ج 6، ص 178-212.
- (49) النبوغ المغربي للأستاذ عبد الله كُنون 314/1.
- (50) انظر أطروحة الدكتور محمد المختار بن أباه «مدخل إلى الأدب الموريطاني»، ص 219.
- (51) «الديوان»، ص 36 .
- (52) «الوسيط»، ص 4 و «الديوان»، ص 73 .
- (53) «الديوان»، ص 72 والوسيط، ص 4 .
- (54) مطلع فائية الشامي .
- دعوا شفة المشتاق من سقمها تشفى وترشف من أسار ترب الهدى رشفاً
- تلتمس القصيدة في النبوغ المغربي 245/1، و «الوسيط»، ص 7 .
- (55) «الديوان»، ص 81.
- (56) «الديوان»، ص 82.
- (57) نفسه، ص 91 .
- (58) نفسه، ص 83 .
- (59) «الديوان»، ص 83.
- (60) «الديوان»، ص 84، و«الوسيط»، ص 397.
- (61) «الديوان»، ص 86، و«الوسيط»، ص 397.
- (62) نفسه، ص 85 .
- (63) «الديوان»، ص 86.
- (64) «الوسيط»، ص 400 و«الديوان»، ص 92.
- (65) «الوسيط»، ص 232 و«الديوان»، ص 106 .
- (66) «الديوان»، ص 95 و«الوسيط»، ص 11 .
- (67) «الديوان»، ص 121.
- (68) نفسه، ص 121 .

- (69) «الديوان»، ص 128 ، و«النبوغ المغربي» 288/3 ، و«الوسيط»، ص 15 .
- (70) المصادر السابقة نفسها .
- (71) «ديوان لبيد»، ص . 210.
- (72) «وفيات الأعيان» 270/5 .
- (73) «الديوان»، ص 86 ، «الوسيط»، ص . 398.
- (74) «الوسيط»، ص . 95 .
- (75) «وظيفة الأدب» للدكتور محمد النويهي، ص . 84 .
- (76) «ديوان المتنبي» 122/2 .
- (77) «الديوان»، ص . 141 .
- (78) «الديوان»، ص : 144 .
- (79) «مشكلة الحضارة» لمالك بن نبي، ص . 119 .
- (80) «الديوان»، ص 137 .
- (81) «الديوان»، ص . 139 .
- (82) انظر «ثقافة الصحراء» د. عباس الجراري، ص 48 .
- (83) مجلة المناهل، ع 6 ، ص : 204 .
- (84) «الديوان»، ص 59 .
- (85) «الوسيط»، ص : 8 ، «الديوان»، ص . 145 .
- (86) «الوسيط»، ص . 10 ، «ثقافة الصحراء» د. عباس الجراري، ص . 49 .

مكونات الكتابة الشعرية عند شعراء الصحراء المغربية نموذج : ماء العينين محمد مصطفى مربيّه ربّه"

ماء العينين النعمة علي

عرفت الصحراء المغربية نهضة ثقافية متميزة، عمت سائر المجالات الأدبية والعلمية، وساهمت في إغناء حركة التأليف والبحث، فنبع فيها علماء وأدباء كبار، خلفوا أعمالاً أدبية وعلمية غزيرة استطاعت أن تنهض بالتراث الأدبي والعلمي المغربي وتخرجه من دائرة الجمود والإنغلاق الذي كان يعيشه.

ويعتبر الشعر أبرز وجوه هذه النهضة، فقد ازدهر ازدهاراً كبيراً في الصحراء وظهر على مختلف الألوان المعرفية والفكرية الأخرى. ولا نكاد نجد قطراً من أقطار البلاد العربية برز فيه من الشعراء الفحول الكبار والغناذيد البلغاء، مثل ما نجده في الصحراء المغربية. وتتجلى معالم هذا الإزدهار فيما خلفه أدباء وشعراء هذه المنطقة من ثروة شعرية غزيرة، وتركوه من دواوين ضخمة كبيرة، مما يدعو إلى القول بأن الحركة الشعرية الصحراوية، لم تكن متخلفة عما شهدته باقي المراكز العلمية الثقافية في شمال المغرب من رقي فكري وأدبي وعلمي.

ورغم ما اضطلعت به الصحراء من مهام في تاريخ المغرب الثقافي فإنها لم تحظ بما تستحقه من اهتمام من قبل الدارسين والباحثين الذين انكبوا على دراسة أدب الشمال، متناسين ما تزخر به هذه المنطقة من كنوز فكرية وما عرفته

خلال تاريخها الطويل من نهضة أدبية وعلمية. فجل الدراسات والأبحاث التي أنجزت حول تراث المغرب بصفة عامة، تركز مجال اهتمامها داخل مدن مراكش وفاس والرباط ومكناس وسلا وغيرها من المراكز الثقافية المعروفة. ولا تهتم بتراث الأقاليم الصحراوية الأدبي والعلمي والفكري، ولا تخصص له نصيبه الملائم من العناية والإهتمام.

وإذا كان تخلف الدراسات الأدبية والعلمية، عن مواكبة النشاط الأدبي والعلمي الذي عرفته الأقاليم الصحراوية، يعود بالأساس إلى ظروف الإستعمار الذي كانت تعيشه هذه الأقاليم، فإن هذه الظروف لم تعد موجودة بعد تحررها وعودتها إلى الوطن. من هنا أصبح مفروضا على البحث العلمي والأدبي أن يتجه إلى هذه الأقاليم، ويكشف عن ذخائرها العلمية والأدبية، حتى يتمكن المغرب الموحد من استكمال وحدته الثقافية والفكرية، بعد أن استكمل وحدته الترابية. وفي هذا الإطار تأتي مبادرة أكاديمية المملكة المغربية هاته لتكشف هذا الجانب الخفي والهام في ثقافتنا المغربية من خلال هذه الندوة العلمية المباركة وهي مبادرة تستحق التنويه والشكر والتقدير، لأنها تعرف بثقافة الصحراء المغربية وبخصائصها ومميزاتها وبدورها في إغناء نهضتنا الفكرية والعلمية والأدبية. والعرض المتواضع الذي تخيرت أن أشارك به في هذه الندوة هو : «مكونات الكتابة الشعرية عند شعراء الصحراء المغربية، نموذج : ماء العينين محمد مصطفى مربيّه ربّه».

وقد كانت رغبتي في أن أدرس مكونات الكتابة الشعرية عند جميع شعراء الصحراء المغربية، إلا أن هذه الرغبة لم تتحقق نظرا لكثرة الأشغال وضيق الوقت والإمكانات فاقترنت على شاعر واحد هو ماء العينين محمد مصطفى مربيّه ربّه وتركت الباقي لمن له الوقت أوسع مما عندي ومن الإمكانيات أوفر مما أملك.

ولكن قبل البدء في دراسة هذه المكونات لابد من التصدير للموضوع بملاحظتين أساسيتين هما : من هو ماء العينين محمد مصطفى مربيّه ربّه ؟

وما المقصود بمكونات الكتابة الشعرية؟ وما هي تجلياتها في شعره؟

1 - التعريف بالشاعر

هو محمد مصطفى مربيّه ربّه الملقب بالشيخ مربيّه ربّه بن الشيخ ماء العينين بن الشيخ محمد فاضل بن مامين. يتصل نسبه الشريف بإدريس الأصغر ثم بإدريس الأكبر ثم بعبد الله فالحسن المثني فالحسن السبط بن علي بن فاطمة الزهراء بنت الرسول «ص»، وهذا ما يؤكد ماء العينين بن العتيق بقوله: «سليل الشرفاء الأدارسة الذين هاجروا إلى الصحراء زمان فتنة ابن أبي العافية»⁽¹⁾. ولد يوم الأحد الرابع عشر من ربيع النبوي سنة 1298 هـ الموافق لسنة 1879 م ونشأ في بيئة كان لها دور كبير في تكوين ملامح شخصيته الأدبية والعلمية والفكرية والدينية. فما كاد يبلغ سن التعلم والتحصيل والدراسة حتى أخذ والده في تربيته والسهر على تكوينه ولم يعهد بذلك إلى أحد غيره، فقرأ القرآن الكريم ومبادئ النحو والفقهاء على العلامة الفقيه الشيخ الحضرمي بن الشيخ محمد الأمين، أحد أساتذة مدرسة السمارة البارزين والأعلام المشهورين اللامعين، وقرأ بعد ذلك على والده وشيخه مختلف العلوم «الذي تولى تربيته بنفسه فلازمه ملازمة المريد لشيخه، حتى أدرك منيته في التحصيل وبلغ المراد في التربية والتهذيب، فحصل كل ما كانت تعج به مدرسة السمارة من علوم وفنون، من تصوف وفقه وبلاغة ونحو وشعر ورماية وغيرها. وقد برز ذلك كله فيما تركه من مؤلفات وخلفه من دواوين»⁽²⁾.

وقد لعبت تربية والده التي أكسبته الكثير من المؤهلات واشتغاله المبكر بالعلم والتأليف والتدريس مع ما عرف به من حفظ وذكاء دورا كبيرا في تكوين شخصيته الأدبية والعلمية والدينية والسياسية «كما غرست في نفسه أيضا حب التطلع إلى الإقتداء به واتباع نهجه، واقتفاء خطواته فكان صورة مطابقة له في العلم والجهاد والوطنية والتقوى»⁽³⁾.

في سنة 1899 رافق والده الشيخ ماء العينين إلى السلطان المولى عبد العزيز كما رافقه كذلك في سنة 1902 وفي سنة 1904 وفي سنة 1906، أما في سنة 1907 فقد رافقه إلى السلطان المولى عبد الحفيظ ولم تكن هذه الرحلات تمر دون فائدة ولكنها كانت فرصة مناسبة للتشاور وتبادل الرأي وتنسيق الجهود بين الفعاليات الفكرية والوطنية الإسلامية⁽⁴⁾.

في سنة 1909 غادر مدينة السمارة رفقة والده بعد اشتداد الضغط الأجنبي عليها حيث رحل إلى مدينة تيزنيت. وفي سنة 1912 انخرط مع أخيه الشيخ أحمد الهيبة في حركة الجهاد والمقاومة ضد المستعمر الفرنسي وكان ملازما له واقفا معه ونائبا عنه في كثير من أمورهما. ويعتبر دوره رياديا في تأطيرها حيث اضطلع بالأدوار الطلائعية في تهيب القبائل وتوجيهها وتنشيط الحمية الجهادية ضد الغزاة الفرنسيين.

وبعد وفاة الشيخ أحمد الهيبة تولى بنفسه قيادة الجهاد وظل يجاهد ويقاوم إلى سنة 1934 وهي السنة التي انتهت فيها الحركة الجهادية بالجنوب المغربي فغادر قرية كردوس التي كانت تنطلق منها العمليات الجهادية ضد الفرنسيين بمنطقة سوس، متجها نحو طرفاية بعدما دخل مجموع التراب الوطني تحت السيطرة الفرنسية.

وفي سنة 1357 هـ 1937 م قام برحلة إلى الديار الحجازية لأداء مناسك الحج، وفي طريقه توقف بمدينة تطوان والتقى بالخليفة السلطاني الأمير مولاي الحسن بن المهدي الذي جدد له البيعة والإخلاص والولاء كما التقى بطلائع الحركة الوطنية هناك وبعدد كبير من الأدباء والعلماء والشعراء مما يدل على المكانة الكبيرة التي كان يتمتع بها في الأوساط السياسية والدينية والعلمية والأدبية⁽⁵⁾.

توفي رحمه الله يوم 19 من جمادى الأولى سنة 1361 الموافق 4 ماي 1942 بعد أن عاش ثلاثا وستين سنة كانت كلها رحلة حياة متواصلة في دروب الجهاد والغوص في مسائل العلم وشكر الله على ما أنعم عليه به، وهي أمور ثلاثة شغلته كما يذكر في هذا المقطع الشعري :

ما للثلاثة تنسي البيض والغزلا من كل أدعج يدني لحظه الأجلا
فالشكر أولها شكر الإله ولا أبغي به بدلا قولاً ولا عملاً
أما الجهاد فتانيها ومن عدلا عنه وأحرى بهذا الدهر ما عدلا
فك العويص من العلمين ثالثها تلك الثلاثة لا أبغي بها بدلا⁽⁶⁾

وقد توافرت للشيخ مربيّه ربّه مؤهلات خاصة لم تتوفر لكثير من الأبناء والعلماء والشعراء المعاصرين له منها .

أولا . عراقية نسبه من جهة الأب والأم : فوالده هو العالم والمجاهد الشيخ ماء العينين الذي طبقت شهرته الآفاق «وقصده القريب والبعيد فكانت زاويته بالسمارة منارا للعلم والجهاد.

وقد جعله ملوك المغرب نائبا عنهم في الأقاليم الصحراوية منذ عهد المولى عبد الرحمان وكلفوه بتعميرها وحمايتها مما كان يهددها من أخطار أجنبية»⁽⁷⁾. ووالدته هي : «الولية الصالحة العالمة العابدة السخية الزاهدة ميمونة بنت أحمد بن علي رضي الله عنها»⁽⁸⁾.

ثانيا : تأثير والده الكبير عليه الذي كان شيخه ومعلمه ومربيه ومرشده ومعلوم ما لهذا الشيخ من باع طويل في جميع العلوم والمعارف.

ثالثا : تكوينه العلمي والأدبي المتميز : فهو عالم ومحدث وفقهه ومتصوف وشاعر ولغوي. لم يترك فنا من فنون العلم إلا وطرقه وأدرك منه ما لم يدركه غيره فقد «جمع الفنون كلها من لغة ونحو وتصريف وبيان ومنطق وفقه وأصول وقواعد

وعروض وطب وغير ذلك من العلوم الظاهرة التي أُلّف فيها ما شاء الله»⁽⁹⁾. ومما يدل على غزارة علمه ورصيده المعرفي العميق الغور ما خلفه من مؤلفات متعددة ومتنوعة في مختلف العلوم تصل إلى مائة وعشرين كتاباً، فقد أُلّف في الفقه والتصوف والطب والرحلات والنحو والبلاغة والتوحيد والأسرار والأصول والتربية والتاريخ بالإضافة إلى ديوانه الشعري الضخم في مختلف الأغراض الشعرية.

رابعا : الموهبة والملكة الأدبية والشعرية.

2 - مكونات الكتابة الشعرية

أقصد بالمكونات كل العلوم والآداب والمناهل الثقافية التي نهل منها الشاعر الشيخ مربيّه ربّه فصقلت شخصيته وانعكست على متنه الشعري. وسأعرض لأهم تجلياتها مركزا على الثقافات والعلوم التي تبدو أكثر حضورا في قصائده. والمكونات التي سأتناولها بالدراسة والتحليل في هذا العرض هي :

أ. المكون الديني

ب. المكون الثقافي

ج. المكون الأدبي

ولاشك أن دراسة هذه المكونات سوف تعطينا صورة واضحة المعالم عن العلوم المتنوعة التي كانت رائجة في الصحراء المغربية وتشبع بها شعراءها ووظفوها توظيفا ينسجم مع أغراضه ودلالاته ومعانيه بطريقة خاصة تنم عن نبوغ فكرهم وأصالة رأيهم وغزارة علمهم، مما يبين أنهم عرفوا كيف يستفيدون من التراث الأدبي واللغوي والموروث الثقافي والعلمي ويعبروا انطلاقا منه عن تجربتهم الشعرية الإبداعية المرتبطة بمحيطهم الصحراوي وواقعهم الإجتماعي والتاريخي.

أ - المكون الديني

1 - القرآن الكريم

يشكل القرآن الكريم محورا من المحاور الأساسية والرئيسية التي يدور عليها شعر الشيخ مربيّه ربّه. فقد استقى الكثير من وحدات معجمه الشعري من آياته، وأعاد صياغتها وتوظيفها في تجربته الشعرية. مما يعبر عن فهمه لمضمونها ووعيه بمراميها وأهدافها. فجاءت أشعاره حافلة بالعديد من سمات أسلوبه وتعاليمه ومعانيه، وهذا ناتج عن تأثره الكبير به، لأنه كان البداية الأولى في تكوينه العلمي والثقافي، بالإضافة إلى هذا، فقد عرفت زاوية والده الشيخ ماء العينين في مدينة السمارة التي عاش في كنفها، حركة تأليف واسعة حول علوم القرآن، وساهم هو في هذه الحركة العلمية المزدهرة، من خلال مؤلفاته الكثيرة في هذا الباب. ويظهر تأثير القرآن الكريم في النماذج التي تطالعنا في شعره، ففي قوله :

يا قلب تخشى الورى فاحش الرحيم بهم وهو الأحق بأن يا قلب تخشاه⁽¹⁰⁾

تأثر بالآية الكريمة ﴿وتخشى الناس والله أحق أن تخشاه﴾⁽¹¹⁾.

وفي قوله :

فاشكر قليلي أعطيك المزيد ففي لئن شكرتم كتابا أسوة حسنه⁽¹²⁾

تأثره بالآية الكريمة : ﴿وإذ تاذن ربكم لئن شكرتم لأزيدنكم﴾⁽¹³⁾.

وفي قوله :

لقد جفت الأقلام من كل كائن وفي محكم التنزيل قل لن يصيبنا⁽¹⁴⁾

تأثر بالآية الكريمة : ﴿قل لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا﴾⁽¹⁵⁾

وفي قوله :

فالتلاقي إن عز يوم التلاقي يوم هم بارزون يوم التلاقي (16)

تأثر بالآية الكريمة : ﴿ يلقي الروح من أمره على من يشاء من عباده لينذر يوم التلاقي يوم هم بارزون ﴾ (17).

وفي قوله :

يا منزل الغيث فضلا بعدما قنطوا أعت لنا منك غيثا منه نغتبط (18)

تأثر بالآية الكريمة : ﴿ وهو الذي ينزل الغيث من بعدما قنطوا وينشر رحمته ﴾ (19).

2 - الحديث النبوي

وظف الشيخ مربيّه ربّه عددا كبيرا من الأحاديث النبوية الشريفة في شعره، توظيفا ينسجم مع أغراضه ومعانيه. وليس ذلك بغريب، نظرا لاحتكاكه بعلوم الحديث التي درسها ودرّسها في زاوية والده الشيخ ماء العينين بمدينة السمارة. وأغلب الكتب التي ألفها تدل على تضلعه في هذا العلم. ويكفي أن نشير إلى أن كتابه "الترغيب في بعض ما أعده الله للمجاهدين في سبيل الله" الذي ألفه حول شرعية الجهاد في الإسلام، يحتوي على ثلاثمائة حديث جمعها وصنفها وقدم لها. كما قرظ كتاب "زاد المسلم فيما اتفق عليه البخاري ومسلم" (20). لمحمد حبيب الله بن مايابى، الذي جمع فيه الأحاديث التي اتفق عليها الشيخان البخاري ومسلم. وقد انعكس هذا الإهتمام في أشعاره فجاءت تأثيراته واضحة فيها.

ففي قوله :

تواضع له يرفعك عاشر لخلقه بأطيب أخلاق وإياك والكبرا (21)

تأثر بالحديث النبوي : ﴿ ... وما زاد الله عبدا بعفو إلا عزا وما تواضع لله إلا رفعه ﴾ (22).

وفي قوله :

بفضل الله مولانا مطرنا حمدنا الله محمداً تسدوم⁽²³⁾

تأثر بالحديث النبوي : ﴿ مطرنا بفضل الله ورحمته ﴾⁽²⁴⁾

وفي قوله :

أسيح الله رب العرش أحمده أهلل الله فردا ما له ثاني

أكبر الله جل عن مماثلة قد قال حيث انتفى التكوين سبحاني

إني اعتصمت بحوله وقوته له تبرأت من حولي ومن شأني⁽²⁵⁾

تأثر بالحديث النبوي : ﴿ استكثروا من الباقيات الصالحات : التسبيح والتهليل والتحميد والتكبير ولا حول ولا قوة إلا بالله ﴾⁽²⁶⁾.

وفي قوله :

وكان لإبراهيم أفضل دعوة بشارة عيسى والكتاب مصدقا⁽²⁷⁾

تأثر بالحديث النبوي : ﴿ دعوة أبي إبراهيم وبشرى عيسى ﴾⁽²⁸⁾.

3 - التصوف

كان الشيخ مربيّه ربّه عابدا زاهدا ذاكرا ورعا تقيا ناسكا وليا يملأ نور الإيمان واليقين في الله قلبه ويسكن وجدانه وشعوره «إماما في الطريقتين الظاهر والباطن، جامعا لسائر مكارم الأخلاق، واقفا فيما يرضي الخلاق كتوما للأسرار ذا فراسة كأنه ينظر بنور الله لا تكاد تخطى، لا تجده فارغا بل مشتغلا في علم أو تأليف أو عبادة أو تدبير أو نحو ذلك، له اعتناء بالصلوات في أول الوقت، لا يشغله عنها شاغل ولا يحول دونها حائل، تلوح أنوار المهابة والوقار والسكينة على

وجهه»⁽²⁹⁾. كما كان "كثير الذكر والعبادة دائم الفكر والإفادة، لا يغفل عن سبحته وأوراده ونوافله"⁽³⁰⁾، وأدعيته وتهجده. وقد لعبت تربية والده الدينية وطريقته الصوفية الوجدية المآخية لجميع الطرق دورا كبيرا في توجيهه هذه الوجهة الدينية الصادقة الخالصة، فاقتفى أثره وهدية وسار على نهجه وخطاه.

وقد انعكس تدينه وتصوفه على شعره فطبعه بطابع ديني تجلى فيه حبه للدين من خلال قصائده في المحامد الربانية والتوسل وحبه للرسول "ص" : من خلال مدائحه له حبه لوالده وشيخه الشيخ ماء العينين وطريقته ومنهجه. ولو تتبعنا الظلال والنفحات الصوفية في شعره لوجدناها حاضرة بقوة كالإكثار من الحمد والشكر والتزام الصلاة على الرسول "ص" في غالب قصائده ومقطوعاته والتوسل به وبشيخه الشيخ ماء العينين.

أما المصطلحات الصوفية الواردة في شعره فكثير منها : القطب والحقيقة والمغيث والشريعة والأسرار والفيض والغيب والغوث والمريد والشهود والإتحاد والتخلي والمقام والولاية والحق والمحبة والطريقة والمشرّب والشهود والبقاء والديه والصحو والإسم الأعظم.

وهذه أمثلة على ذلك

د المنهل المورود رحب فضاء	قطب الوجود منى الوفود رضا الودود
من أبحر العرفان كل وعاء	بحر الحقيقة والشريعة ماليئ
وبها تصرفه في الاستبداء	كهف به الأسرار خيم قطبها
ولاشك أن الضيف ينظر في قلبي	بل الضيف عند الفيض قلبا وقالبا
حاضرة للحضرات	كوكب غوث مغيث
كشفت قطب الكائنات	مهبط الغيب صدوق الـ
صافي الضمائر في سر وما ظهرها	ساقى المريدين من خمر ومن غسل

وكم سقى من عباد الله أشربة
 له في اتحاد الأمر شأن ورتبة
 إن التخلي مقام لم يحل به
 مقامات أهل الله شتى وكلها
 تجاوزت مقدار الولاية راقيا
 كتاب أبان الحق والحق طلسم
 بأسمائك الحسنى وبالكرم الذي
 شيخ الطريقة عالم العلماء من
 بدر الشرائع والحقائق شمسها
 هب لي شهودك أي ولله إن به
 لله أهل التجلي في حظيرته
 هل أنت بت ترقيك الزيادة في
 من الشهود تنجي كفر من كفر
 وأعطي من بحر المعارف كوثر
 قبل التخلي سوى من فيه تحضيض
 إليه ومنه بدؤها والمراجع
 ففي الغيب خواض وللحجب نازع
 ومن شرحه لاحت لدينا الحقائق
 خلقت به الأكوان واسمك الأعظم
 أجلى غيوم الفهم للمتفهم
 كنز العلوم المشرب الروحاني
 عين البقاء فما أحلى وأغلاه
 تاهوا وأصحوا وما أصحوا وما تاهوا
 معية الله أو محبة الله⁽³¹⁾

4 - الفقه :

حرص الشيخ مربيّه ربّه على توشيح نصوصه الشعرية ببعض المصطلحات
 الفقهية التي تعطينا صورة عن ثقافته الفقهية الرصينة على اعتبار أنه صاحب
 مصنفات كثيرة في الفقه⁽³²⁾ كمصطلح العناية والجناية والشريعة والإمام والعلم
 والحبر والفقير والعبادة والجهاد والشرع والأحكام والجرح والأصول والحكم
 والمسألة والفقهاء والأشهر والأقوال والمذهب والفجر الكاذب والفجر الصادق
 والفتوى والخلاف والفروع.

والأمثلة على ذلك كثيرة منها :

حتى نرى من سادة العنايه
 ذاك الذي دائما لله ممتثلا
 إما منا الشيخ ما العينين لا برحت
 والعلم معدنه والحق حجته
 ألا أيها الحبر الفقيه من اقتفى
 وخلو وقت للعبادة بعدما
 أما الجهاد فثانيها ومن عدلا
 وفي غامض الأحكام طعنة فهمه
 فجني أصول قطفها غير لائق
 كيف السكوت له عن حكم مسألة
 وفي كل حكم عنده ألف أوجه
 ولا سيما من يكشف الهم واسعا
 ومن شك في ذا الفجر فالفجر صادق
 وإذا أراد الجود والفتوى معا
 يوصل النعم أفضل وصول

فضلا ولا تضرنا الجنايه
 أمر الشريعة أبقى الله محياه
 أيامه الغر فيما كان يرضاه
 والعلم شيمته والنور سيماه
 بآثاره إثر الصحاب وياسينا
 جن الظلام إلى التقا الفجرين
 عنه وأحرى بهذا الدهر ما عدلا
 كطعنته السلكى بهام القوائل
 وقطف جناها اليوم دان ولائق
 تكلم الفقها فيها بما فيها
 ويبدي من الأقوال ما كان أشهرها
 إذا أفسد الأيام ضيق المذاهب
 ولكن فجر الشك لا شك ذو كذب
 يا غاية الكرماء والعلماء
 ووسع الفروع بذلا والأصول⁽³³⁾

ب - المكون الثقافي

1 - الأعلام

يحفل شعر الشيخ مربيه ربّه بأسماء الأعلام، الذين لعبوا دورا كبيرا في تاريخ الأمة الإسلامية والعربية، على المستوى الأدبي والديني والتاريخي والإجتماعي الذين تأثر بهم، ووظفهم في سياق مدحه لوالده وشيخه الشيخ ماء العينين الذي تجلت فيه حسب رأيه، صفات هؤلاء الأعلام، منهم : الخلفاء الراشدون (أبا بكر وعمر وعثمان وعلي) وأصحاب المذاهب الأربعة (مالك

والشافعي وأبي حنيفة وأحمد بن حنبل) وأبي بن كعب وأبي الدرداء وسحنون
وخليل وقالون ونافع والأحنف. والشعراء أمثال امرئ القيس وزهير بن أبي سلمى
والبرعي والطائي والشنفرى وعنتر وقيس بن الملوح وذبي الرمة وجميل بثينة وكثير
عزة وحاتم الطائي.

ومن أمثلة ذلك قوله .

صديق أمة دهره عثمانها	في رفعة وتقدم وحياء
فاروقها وعليها سبطيها	في شدة وشجاعة وسخاء
وإذا قرأت الذكر أو حدثت قلـ	نا يا ابن كعب يا أبا الدرداء
إن هو قيس أو زهير أو الـ	برعي لا أو قلت هو الطائي

فهم سحنون أبي الذ	كر قاموس اللغات
لذوي الفقه خليل	بل خليل للنحاة
في ذكاء لإيـاس	خالدي السطوات
أحنفي في ثببات	ضيغمي الوثبات
حيدي لوزعي	شنفري العزمات

كنوز من الأسرار معدنها التقى	أبي كتاب الله قالون نافع
به تفخر البيضاء أتباع مالك	حناؤها أحنافها والشوافع

فما كل سمح لو تحتم حاتم	ولا كل قرن عنتر لو تعنترا
أضاف لها قيسا وأيضا فإنني	كثيرها غيلانها وجميلها ⁽³⁴⁾

2 - الفلك

تعتبر المصطلحات الفلكية، من أهم المصطلحات العلمية التي وظفها الشيخ مربيّه ربّه بكثرة في شعره، خاصة عندما يمدح، لأنه يشبهه من يمدحهم بالشمس والقمر والبدر والكوكب والنجم والفرقد والهلال. ولا غرابة في أن يحشد كثيرا من هذه المصطلحات ويوظفها في التعبير عن شعوره «لأن ذلك مما تواضع عليه كثير من الشعراء منذ الجاهلية، حتى أصبحت معرفة مواقع النجوم وهياتها لازمة للأديب وداخلة في العلوم التي يحتاج إليها في تكوينه وثقافته» (35).

وهذه أمثلة على ذلك :

هذي بشارات المنى وافتك من	بدر البدر سلاله الكرماء
عالي الجناب ومن علو مقامه	أين ارتفاع كواكب الجوزاء
فتلك شمس خير الرسل لاحت	مطالعها فقارنت الفلاحا
هو الهلال الذي تاللاً في	ومن أضاء سنائه كلما استترا
فو الله ما أدري هل الشمس أشرقت	أم البدر يبدو أم هو البرق لامع
أقمارهم عادة تحمي الشمس وذا	أمر لديهم عليه عمدة العمل
عالي الجناب وما به سما زحل	عنا بأضعافه سموت عن زحل ⁽³⁶⁾

3 - التقريظ

استخدم الشيخ مربيّه ربّه الشعر في تقريظ الكتب، والتنويه بها وبمؤلفيها. وقد وقفت له على التقاريظ الآتية .

- تقريظ كتاب "المرافق على الموافق" للشيخ ماء العينين.

- تقريظ كتاب "النفحة الأحمدية في بيان الأوقات المحمدية" للشيخ أحمد

بن الشمس.

- تقرّظ كتاب "البغية من ملخص الحكاية الشرعية على المعتمد من مذهب المالكية" لماء العينين بن العتيق.

- تقرّظ كتاب "زاد المسلم فيما اتفق عليه البخاري ومسلم" لمحمد حبيب الله بن مايايبي.

وعمله في التقرّظ يمكن تلخيصه في النقاط الآتية .

(1) إشادة إجمالية بالكتاب

(2) التنويه بالفكر الذي أبدعه

(3) الدعاء لمؤلف الكتاب.

4 - النسب

وظف الشيخ مربيّه ربّه من خلال مدحه لوالده الشيخ ماء العينين فأشاد به من خلال جده الرسول ﷺ ونسبه الشريف متوسلا الحقيقة التاريخية، فهو وريثه وخليفته وابنه المنحدر من صلبه، ولا يزال يوحد ويؤلف بين فضل النبي ﷺ وفضل حفيده ناميا ما للأول إلى الثاني، لأن أعظم الصفات التي اتصف بها الرسول ﷺ ورثها الممدوح، فاتصف بها، وحافظ عليها. وحتى يرفعه إلى أعلى درجات الكمال والقدسية المعهودة، قرن آياته بآيات الرسول ﷺ باستثناء آية الإرسال التي اختص بها الرسول ﷺ دون الممدوح.

لموروثه فرع من الأصل صدرا

ورث البنون فضيلة الأباء

يا شبله يا أعظم الأشبال

لم تبسق إلا آية الإرسال

وابشر بإرثك منه خير خصال (37)

لقد ورث الهادي وللوارث الذي

إبن النبي وإرثه لا غرو إن

يا شمسنا يا ابن الرسول وإرثه

آياتك اقترنت بآيات النبي

وافخر هنيئا باسم أحمد جدكم

يقول :

وكما امتدحه بجدده النبي ﷺ فإنه امتدحه أيضا بالصفة القدسية في آله
وبني قومه وأسلافه، الذين ينتهون للبضعة الزهراء، فيفيض في تعداد أخلاقهم
ومزاياهم المثالية العليا، فهم مصابيح الهدى الذين هبطوا من العالم العلوي
ليضيئوا بأنوارهم المتألئة العالم السفلي، فشيّدوا قصر المفاخر والمكارم والتقى
فبدا بحسن بناء وهم الذين قطفوا ثمار الملة البيضاء، ورووا أسانيد الكمال عن
الجدود وأورثوها بعد للأبناء.

يقول :

ولد لأكرم والد أبائه	قد تنتهى للبضعة الزهراء
غر بدورهم مصابيح الهدى	قطفوا ثمار الملة البيضاء
قبسات أنوار من العلوي للسه	فلي قد هبطوا من العليا
وروا أسانيد الكمال عن الجدو	د وأورثوها بعد للأبناء
قد شيّدوا قصر المفاخر والمكا	رم والتقى فبدا بحسن بناء
ابن النبي وإرثه لا غرو إن	ورث البنون فضيلة الآباء ⁽³⁸⁾

إن الإلحاح على ذكر النسب الشريف للشيخ ماء العينين وأسرته «يجد
مسوغه فيما لهذا النسب من تقدير واحترام بين أفراد المجتمع، ونحن نعلم جميعا
المنزلة التي يحتلها الشرفاء في سلم التراتب الإجتماعي»⁽³⁹⁾

5 - إدراج أسماء الكتب وعناوين القصائد في الشعر

وظف الشيخ مربيه ربه أسماء عدد من المؤلفات، وعناوين القصائد في
أشعاره، أثناء تقرّظه لها، لأن تقرّظ المؤلف مدح لصاحبه. فنوه بعلمها
وفوائدها ومعانيها. وأشاد بمؤلفيها ومبدعيها، وبقدرتهم على التأليف والنظم.
وهكذا أدرج أسماء الكتب التالية :

1 - "المرافق على الموافق" للشيخ ماء العينين في قوله :

أم الشيخ ماء العينين أبدى مرافقا لأشتات علم لاح منها المرافق
كتاب عديم المثل وهو موافق لما يقتضيه الحال منها مطابق⁽⁴⁰⁾

2 - "النفحة الأحمدية" للشيخ أحمد بن الشمس في قوله :

تمسك بنهج النفحة الأحمدية هو المصطفى من منهج الحنفية
مؤلفها النحرير لله دره ولله در النفحة الأحمدية⁽⁴¹⁾

3 - "البغية من ملخص الحكاية الشرعية على المعتمد من مذهب المالكية"

لماء العينين بن العتيق في قوله :

فبغية سائر العلماء تلقى ببغيتك المؤلف في القضاء
وفي فصل القضاء بلا نظير ومعدوم إلى فصل القضاء⁽⁴²⁾

4 - "زاد المسلم فيما اتفق عليه البخاري ومسلم" وفتح المنعم" لمحمد

حبيب الله بن مايابي في قوله :

هذا وشمر للعلا متزودا لقصيدها بدروس زاد المسلم
يا عز من أمسى يلازم درسه يافوز من أمسى لذلك ينتمي
أعلى الصحيح وزانه في سبكه ما رصعت فتحات فتح المنعم⁽⁴³⁾

كما أدرج عنوان قصيدة الشيخ ماء العينين "أنا قطب من قبلي" في قصيدته

المدحية التي مدحه بها في قوله :

وأتحفك المولى بمجمع طرقهم وفزت إلى أن قلت والحق صادع

أنا قطب من قبلي على رغم أنفهم ومن لم يصدق فهو أعمى مخادع⁽⁴⁴⁾

ج - المكون الأدبي

1 - الشعر :

من الظواهر البارزة في شعر الشيخ مربيّه ربّه تأثره بأشعار غيره، ولم يقتصر هذا التأثير على عصر دون آخر، بل امتد إلى مختلف العصور الأدبية، ويتجلى هذا التأثير في المعاني والعبارات، التي يستمدّها من هذه الأشعار، أو في تضمين بيت بتمامه أو شطر بيت. وهذا الجانب يبرز جليا من خلال الأمثلة الآتية :

تأثر في قوله

أيا خل قد أنشدت قول كثير قضى كل ذي دين وقلبي يراقبك⁽⁴⁵⁾

بقول كثير عزة :

قضى كل ذي دين فوفى غريمه وعزة ممطول معنى غريمها⁽⁴⁶⁾

وتأثر في قوله :

دعها بباطني مستتره والشعراء ما غادروا مبتكره⁽⁴⁷⁾

بقول عنتر بن شداد :

هل غادر الشعراء من متردم أم هل عرفت الدار بعد توهم⁽⁴⁸⁾

وتأثر في قوله :

لعمرك ما أثنى عليه مبالغ بأوفى الثنا إلا أثنى كالمقصر⁽⁴⁹⁾

بقول ابن الفارض :

أرى كل مدح في النبي مقصرا وإن بالغ المثني عليه أو أكثر⁽⁵⁰⁾

وتأثر في قوله :

وللمتأني في الأمور إصابة ومن يتبع الرأي المعجل يندم⁽⁵¹⁾

بقول القطامي :

قد يدرك المتأني بعض حاجته وقد يكون مع المستعجل الزلل⁽⁵²⁾

وتأثر في قوله :

تبسم عن مفلج من برد إن لم يكن من لؤلؤ منضد⁽⁵³⁾

بقول البحري :

كأنما يبسم عن لؤلؤ منضد وبرد أقحاح⁽⁵⁴⁾

وتأثر في قوله

حسن الصغيرة جالب بلا سبب أهل الهوى وهو قول غير مكنوب

أما الكبيرة مجلوب بتطرية شتان ما بين جالب ومجلوب⁽⁵⁵⁾

بقول المتنبي .

حسن الحضارة مجلوب بتطرية وفي البداوة حسن غير مجلوب⁽⁵⁶⁾

وإذا كان الشاعر في هذه النماذج التي استشهدنا بها، قد استمد بعض العبارات والمعاني من أشعار الشعراء السابقين فإنه في الأمثلة الآتية قد ضمن أنصاف أبيات لعدد من الشعراء القدامى.

يقول :

أقول ما قال كعب في قصيدته لا يشتكى قصر منها ولا طول⁽⁵⁷⁾

فالشطر الثاني في هذا البيت عجز بيت لكعب بن زهير و صدره هو :

"هيفاء مقبلة عجزاء مدبرة" (58).

ويقول :

ألا هكذا التصريح لا خير في الكنى ولا خير في اللذات من دونها ستر (59)

فالشطر الثاني في هذا البيت عجز بيت لأبي نواس و صدره :

"قبح باسم من تهوى ودعني من الكنى" (60).

ويقول :

ألا حي هاتيك الديار وقل لها جلبت الهوى من حيث أدري ولا أدري (61)

فالشطر الثاني في هذا البيت عجز بيت لعلي بن الجهم و صدره هو :

'عيون المها بين الرصافة والجسر' (62).

وقبل أن نختم حديثنا عن تأثر الشاعر الشيخ مربيه ربّه بأشعار غيره نشير

إلى أنه ضمن أبياتا بتمامها في بعض قصائده منها .

بيت ابن الفارض :

وعلى تفنن واصفيه بحسنه يفنى الزمان وفيه ما لم يوصف (63)

وبيت أحمد شوقي :

خدعوها بقولهم حسناء والغواني يغرهن الثناء (64)

وبيت الشاعر القديم :

إذا كان سعد المرء في الدهر مقبلا تدانف له الأشياء من كل جانب (65)

2 - النحو

حظي النحو بمكانة كبيرة في ثقافة الشيخ مربيّه ربّه وتكوينه لأنه عمدته الأساسية وحجر الزاوية في ثقافته وثقافة شعراء وأدباء الصحراء عامة. ولذلك أتقن قواعده وامتونه وتمثلها واستوعبها فهما وحفظا واحتك به أكثر مما احتك بغيره من العلوم الأخرى، فأصبح يطل من حين لآخر في نصوصه الشعرية من خلال مصطلحاته التي وظف توظيفا يتناسب مع سياقها ومعناها، سواء حين يعبر عن إحساسه وشعوره أو حين يمدح أو حين يتغزل، دون أن يخل ذلك بالمعنى المراد. والمصطلحات الواردة في شعره هي : المصدر والنعت والمبتدأ والخبر والمضارع والماضي والعطف والترجيح والتفضيل والعامل والفعل والفاعل والبدل والضمير والإسم والحال.

والأمثلة على ذلك كثيرة منها :

أيا من له ورد جميل ومصدر	ومن هو في أمر الديانة حيدر
هذا الذي قلبته نعت ومبتدأ	للحال مني فلا تسأل عن الخبر
مضارعه أمضاه من فعل أمره	ومن فعله الماضي فأين المضارع
وبصدغه واو ولم يعطف بها	عجبا له والواو كانت تعطف
والشكر رتبته تفضل عندنا	هي رتبة الترجيح والتفضيل
ظل ظليل ونور يستضاء به	تعلو السعادة في الدارين عامله
ويا أنسنا بالعطف هل أنت راجع ؟	فعلت بنا فعلا يحن لفاعل
عطف على الضعفا من أهلهم بدل	والعطف عند النحاة صاحب البدل ⁽⁶⁶⁾
يدري الضمير ويعرف الغيوب كما	يجيب سائله من قبل لم يسئل
فعلان في اسم تنازعا صدقت ودع	عك التنازع في اسم بين فعلين
عن الحال إن تسأل فلا بأس إنه	تحقق ما يرجوا من الله يا سينا
وتقدم اسمك ما العيون عليهم	كتقدم الأسماء على الأفعال ⁽⁶⁷⁾

3 - العروض

وظف الشيخ مربيّه ربّه كثيرا من المصطلحات العروضية التي تدل علي تمكنه من هذا العلم ومعرفته به منها :

الروي والوزن والبسيط والكامل والطويل والرمل والوافر والخفيف. وغالبا ما يذكر اسم البحر إذا نظمت القصيدة فيه.

وهذه أمثلة على ذلك :

هذا البسيط له الأفكار تنبسط	على بسيطته من نسجها بسط
وأنا الذي أرجو مقام الشكر في	بسط بسيط كامل وطويل
بصوغ بنات الفكر شنف مسامعي	طويلا ودعني من بسيط وكامل
هذا البسيط فمناطقها رقائق لم	يسمح بها قيس في الطويل والرمل
فذلك الشكر أرجو الله وافرّه	مديده وبسيطه وكامله
لكم في الخفيف ينسج شعرا	في نعوت الهوى ووصف الحسان
فكم من كأس آداب وظرف	تعاطوها على حسن الروي
لا ينتهي مدحك في وزن مفعلة	فعل فعول وفي فعالة فعل ⁽⁶⁸⁾

ونشير إلى أن هذا العلم حظي باهتمام كبير في زاوية والده الشيخ ماء العينين بمدينة السمارة الذي كان يدرسه لأبنائه وتلاميذه ومريديه. وكان يعتبره مادة من المواد الأساسية التي لا يجب التغافل عنها. ولذلك نظم فيه منظومته الشهيرة "نعت العروض"، وطلب منهم جميعا حفظها، ثم شرحها بعد ذلك في كتابه الذي سماه "تبيين الغموض في نعت العروض"⁽⁶⁹⁾ وقد استهلها بقوله :

الحمد لله الذي قد جعلنا للشعر ميزانا تنال النبلا⁽⁷⁰⁾

وختمها بقوله :

قد انتهى وسمه نعت العروض	لكل من أممه مثل الفروض
لعله يفيد من نظره	ويدعوون للذي سطره ⁽⁷¹⁾

4 - البلاغة

لم يخرج الشيخ مربيّه ربّه في صورته الشعرية عن النمط الذي كان متبعاً في الشعر القديم، بل سار على خطى سابقيه، وبنى صورته على أساس التشبيه والإستعارة ووفق في كثير منها، فجاء شعره نابضاً بالحياة والحركة، وينشرح له الصدر وتهتز له النفس ويطمئن له القلب، ويرتاح إليه القارئ والسامع مما يدل على سعة خياله والخصب الذي أمدّه بهذه الصور الحية، التي ساهمت في بلورة وتكثيف تجربته الشعرية الإبداعية :

1 - التشبيه

فيما يخص التشبيه نجد أن الشاعر سار في صورته الشعرية على درب من سبقون حيث شبه ممدوحيه بالشمس والقمر والكوكب والنجم والمزن، وشبه أخلاقهم بالنسيم وإشراق وجوههم بالصبح لأن المديح يوجب هذا اللون من الوصف. وهذا ما يؤكدّه الصفدي قائلاً : "وما زال الشعراء يصفون الممدوح بالحسن والصباحة والطلاقة ويشبهونه بالشمس والبدر والصبح وذلك مشهور لا يحتاج إلى شاهد يؤيده"⁽⁷²⁾.

والأمثلة على ذلك كثيرة منها :

حاضرة للحضرات
بمنازل أقمارها لا تخسف
جم المكارم نذير المعتدي
وفي البلاد كبدر ضاء وانبهر
وهن أضواء سناء كلما استترا
خلق أرق من النسيم وألطف
قطفوا ثمار الملة البيضاء⁽⁷³⁾

كوكب غوث مغيث
قمر تسلسل في ذؤابة هاشم
نجم الأكارم بشير المهدي
ففي الأنام كشمس الصحو بازغة
هو الهلال الذي تاللاً في
هذا وإن القصد لاحظ من له
غر بدورهم مصابيح الهدى

كما نجده يشبه ممدوحه بالبحر لتضلعه في العلم كما في قوله :

بحر تطمطم في الشريعة والحقيـة حقة في المكون كيف شا يتصرف⁽⁷⁴⁾

وبالغيث المنهمر بجامع الجود والكرم كما في قوله :

يجود إن قحطت أرض الورى كرما بما له للورى كالغيث إذ مطرا

غيث إذا ما استمطرته عفاته همعت سحائبه بغير سماء⁽⁷⁵⁾

ومن الصور التقليدية المعروفة في الشعر العربي، تشبيهه الممدوح في شجاعته وبطولته بالليث والهزبر الضرغام والعقبان (النسور)، كما في قوله .

كليث ضيغم يعلو بسيف ويرمي القوم بالسمر اللدان

ليث الوغى شاكي السلاح يكر في أسطمة الهيجاء بحر نوال

تلقى الهزبر الشيخ ما العينين بخ حدث ولا حرج عن البحران

ضرغامة يرضى ويغضب للعلي فاحذر من الضرغامة الغضببان

عقبان حرب وأجبال يدحرجهم بيع النفوس وللنفوس إغلاء⁽⁷⁶⁾

كما يشبه المقاتلين والمحاربين (الأسد) في حروبهم ضد الممدوح بالطيور لضعفهم أمام قوته، والعظماء بالعبيد كما في قوله :

فالأسد في حروبه كالصفرد والعظما ببابه كالأعبد⁽⁷⁷⁾

وفي المثال الآتي شبه معركة بدر بالمحيا المشرق، الذي محا ليل النفاق والشقاق، وهو يشير بذلك إلى انتصار المسلمين في هذه المعركة بقيادة الرسول ﷺ وانهزام المشركين، الذين انهزم معهم الشرك والنفاق والشقاق. فالإسلام هنا كالصبح المشرق الذي يحو ليل الظلام.

يقول :

محا ببدر كالمحيا الأسعد ليل النفاق والشقاق الملحد⁽⁷⁸⁾

من خلال هذه الأمثلة يتبين أن الشاعر، يلتجئ في صوره الشعرية إلى التصوير البصري المباشر الذي يركز على العين، لأنها الحاسة الأساسية التي تلتقط المشاهد، وتساهم في رسم صوره المقتبسة من الواقع.

2 - الاستعارة

تعد الاستعارة من أهم العناصر البلاغية المشكلة للصورة الشعرية، و"من محاسن الكلام إذا وقعت موقعها ونزلت موضعها"⁽⁷⁹⁾. وقد اعتمد عليها الشاعر في كثير من صوره، ووظفها توظيفا جيدا في شعره، الذي جاء حافلا بالحركة، عنيا بالحيوية، نابضا بالأمل والحياة.

وهكذا نجده مثلا تعامل مع الشعر كفتاة حسناء :

وإليها عذراء قلدها النسيب بلؤلؤ يزداد في اللمعان⁽⁸⁰⁾

وتعامل مع الكفر كإنسان قطع رأسه وساخت قوائمه :

ساخت قوائمه وقطع رأسه في الفتح وانكسرت رياش بزاته⁽⁸¹⁾

وتعامل مع المجد كإنسان يشدو ويتكلم :

بأن المجد مقصور عليه ويشدو كنت منقطع القران

ولولاه لكننت بلا قرين فصار قرين روجي والجنان⁽⁸²⁾

وتعامل مع الزمان كإنسان خائف ومطرق ومسلم :

تدكدكت الأجدال من دون حلمه ومن بطشه خاف الزمان وأطرقا⁽⁸³⁾

وتعامل مع سهام الجفون كإنسان يصرع الأبطال :

كم أصرعت بطلا سهام جفونها ومصارع الأبطال في الأجان (84)

ومن صورهِ الطريفة التي وفق فيها قوله :

له سيف من التقوى حسام ودرع لا يخرق بالطعان (85)

فالصورة هنا لطيفة، لأنها مبنية على الثبات والعزم والقوة، فهي تظهر الممدوح تقيا عابدا زاهدا لا يزحزحه عن تقاه وورعه مهما كان نوعه.

وقوله :

وبنى ديار الدين وهو حفيظها حصن الحصون مشيد الأركان (86)

فالصورة هنا مبنية على البناء والتشييد التحصين.

وقوله :

هو كعبة الأقطاب مجمع طرقهم بيت القصيد يتيمة الديوان

إن الحجيج يجل أفضل كعبة ولأنت فينا كعبة الإجلال (87)

فالصورة هنا كذلك جميلة، لأنها مليئة بالحركة والحيوية، فقد صور الشاعر ممدوحه كعبة الأقطاب والإجلال، وبيت القصيد ويتيمة الديوان، للدلالة على تميزه وتفردهِ. واستغل في ذلك خياله وذاكرته العلمية والأدبية، واستعان بمشهد ديني حي، هو مشهد طواف الحجاج بالكعبة بيت الله الحرام.

ومما يميز صورهِ كذلك ويعطيها صبغة خاصة، أنه عندما يشبه بالشمس أو القمر أو البدر أو النجم أو الفلك - سواء تعلق الأمر بالتشبيه العادي أو الاستعارة ينقل المشبه من مجاله العادي المادي الذي هو السماء إلى مجال

معنوي ينسجم أكثر مع الممدوح. وبذلك يرتقي التشبيه أو الاستعارة - ليلائم الموضوع الذي وظف فيه وهو المدح. وهكذا نجد أن ممدوحه لا يشبه بشمس أو بدر أو قمر أو نجم السماء العادية، وإنما يشبه بشمس الأدلة وشمس الجود وشمس الحقائق وشمس المجد أو بدر الكمال والشرائع والسيادة والرئاسة أو قمر الهدى أو نجم الأكارم أو فلك العلا والمفاخر أو نور الورى نور الهداية أو ضياء الحياة، كما هو واضح من الأمثلة الآتية :

شمس الأدلة وهو سهل المرتقى	للعالم النحرير والمتعلم
ويا شمس الكرام الغر إن بزغت	من فوقكم شمسه للجود فاختمل
لولاك شمس المجد ما بزغت ولو	لاك البرية مالها من وال
حتى ترى وادى السمارة مقبلا	فهناك ضرة بدر كل كمال
لازلت بدر سيادة ورئاسة	ولواء مكرمة وعقد معالي
بحر الندى قمر الهدى مفني العدى	حامي الحقيقة قوة الضعفاء
فلك يدور من المفاخر والعلا	فوق البرية سامي الدوران
بدر الشرائع والحقائق شمسها	كنز العلوم المشرب الروحاني
نجم الأكارم بشير المهتدي	جم المكارم نذير المعتدي
نور الورى وسراجة علم التقى	بعلومه وربيع كل زمان
طود الفتوة والهداية نورها	تاج الولاية راجح الميزان (88)

وهكذا لم يعد ممدوح الشاعر مجرد شمس أو قمر أو بدر أو نجم ولكنه أصبح شمسا أو بدرا أو نجما أو قمرا من نوع خاص، سماؤها الكمال والهدى والعلم والشرائع والحقائق، وأفقها المجد والجود والسيادة والرئاسة والمفاخر والعلا والهداية.

خاتمة

هذه بايجاز هي العلوم التي وظفها الشيخ مربيّه ربّه واستغلها استغلالا جيدا للتعبير عن مشاعره وأحاسيسه وما يدور في خلدّه. وقد وظفها كما يبدو من خلال النصوص الشعرية التي استشهدنا بها توظيفا يتماشى مع الغرض الأساس الذي نظم فيه القصيدة.

ويعود ذلك إلى ثقافته العلمية المتنوعة المتعددة الإهتمامات والمشارب فلم يكن أديبا وشاعرا فحسب بل كان عالما وفقهيا وصوفيا ونحويا وذا معرفة كبيرة بالسيرة النبوية وعلم الفلك والمنطق والعروض والبلاغة كما تشهد على ذلك مؤلفاته في مختلف العلوم، فثقافته إذن ثقافة موسوعية لا تقتصر على علم دون آخر، فقد انعكست بجلاء على متنه الشعري وكانت مصطلحاتها تطل من حين لآخر في سماء فضائه. وهذه الظاهرة ليست جديدة في الأدب العربي لأنها رافقته منذ تكونت علومه وتطورت مصطلحاته وتبلورت قواعده ومفاهيمه. وهذا ما يؤكد ابن تاويت قائلا : "فقلما يخلص أديب لأدبه، دون أن يطعمه باصطلاحات فيها علوم الاشتقاق والنحو وفيها الصرف والعروض وفيها الحديث والفقه وفيها الميقات والمنطق وفيها البلاغة وضروب الفلسفة"⁽⁸⁹⁾.

ونشير أخيرا إلى أن هذه العلوم هي التي كانت منتشرة في الصحراء يتدارسها علماءها وأدباؤها وينهلون من نبعها ومعينها وهي التي أقاموا عليها ثقافتهم وتكوينهم الأدبي والعلمي، وهي نفس العلوم التي كانت منتشرة في المناطق الشمالية، وهذا يبرز بوضوح تام القاسم المشترك بين مختلف المناطق المغربية. مما يبين الوحدة الثقافية والفكرية للمغاربة جميعا سواء في الشمال أو الجنوب، كما تبرز تنوع الثقافة الصحراوية. وما تتميز به من خصائص ومميزات وما يطبعها من أصالة ومتانة وغنى وتعدد. لذلك نتمنى أن ينصب اهتمام الباحثين

والدارسين على دراسة هذه الثقافة وكشف مواطن خصوصياتها التي لا شك أنها ستغني الثقافة المغربية وستضيف لدارس فكرها وأدبها وعلمها لبنة جديدة في بناء صرح ثقافة مغربية متينة ومتميزة.

الهوامش

- 1) سحر البيان في شمائل شيخنا الشيخ ما العينين الحسان ماء العينين بن العتيق - ورقة 130 - مخطوط - خزانة ماء العينين علي بن الشيخ مربيه ربه - تيزنيت.
- 2) التعريف بالشيخ مربيه ربه الدكتور محمد الظريف ص 32، كتاب جوانب وحدوية من ثقافة الصحراء المغربية . مطبعة المعارف الجديدة - الرباط - الطبعة الأولى 1997.
- 3) المرجع نفسه ص 33
- 4) التعريف بالشيخ مربيه ربه الدكتور محمد الظريف ص 38.
- جوانب وحدوية من ثقافة الصحراء المغربية .
- 5) انظر الرحلة المعينية ماء العينين بن العتيق - تحقيق د. محمد الظريف. مطبعة المعارف الجديدة - الرباط - الطبعة الأولى - 1998.
- 6) ديوان الشاعر الشيخ مربيه ربه مخطوط اشتغل بجمعه وتحقيقه تحت إشراف أستاذنا الجليل الدكتور عباس الجراري.
- 7) التعريف بابن العتيق د. محمد الظريف. الرحلة المعينية ص 24.
- 8) إفادة الأقربين في التعريف بذرية شيخنا الشيخ ماء العينين ماء العينين بن الحضرمي - ورقة 12 - مخطوط - خزانة ماء العيين علي مربيه ربه - تيزنيت.
- 9) تحلية الطروس وتسلية النفوس في التعريف بأعلام الشعر في الصحراء وسوس ماء العينين بن العتيق ورقة 55 - مخطوط - خزانة ماء العينين علي مربيه ربه - تيزنيت.
- 10) ديوان الشاعر - مخطوط.-
- 11) الأحزاب / 37.
- 12) ديوان الشاعر

- (13) ابراهيم / 7.
- (14) ديوان الشاعر .
- (15) التوبة / 51.
- (16) ديوان الشاعر
- (17) غافر / 15 - 16.
- (18) ديوان الشاعر
- (19) الشورى / 28.
- (20) زاد المسلم فيما اتفق عليه البخاري ومسلم" محمد حبيب الله بن ماياني - دار إحياء التراث العربي للنشر والتوزيع - بيروت - لبنان.
- (21) ديوان الشاعر
- (22) صحيح مسلم - كتاب البر - باب استحباب العفو والتواضع 21/8
مكتبة ومطبعة محمد علي صبيح وأولاده - د. ت. ط.
- (23) ديوان الشاعر .
- (24) صحيح مسلم كتاب الاستسقاء 26/3.
- (25) ديوان الشاعر
- (26) المستدرک علی الصحيحین فی الحديث الحاكم النيسابوري 512/1
دار الفكر - بيروت - 1398 هـ - 1978 م.
- (27) ديوان الشاعر
- (28) رواه أحمد بن حنبل في مسنده 263/5 - المكتب الإسلامي للطباعة والنشر - بيروت - لبنان
- الطبعة الثانية 1398 هـ 1978 م.
- (29) سحر البيان ماء العينين بن العتيق - ورقة 132.
- (30) إفادة الأقربين ماء العينين بن الحضرمي - ورقة 13.
- (31) ديوان الشاعر
- (32) أنظر من أعلام الثقافة في الصحراء المغربية الشيخ مربيہ ربہ العالم المجاهد ماء العينين النعمة علي - بومزكو أحمد - مجلة المناهل ص 297. العدد 49 - السنة العشرون، جمادى الثانية 1416 - نوفمبر 1995.

- (33) ديوان الشاعر .
- (34) ديوان الشاعر .
- (35) شعر داود الرسموكي اليزيد الراضي - ص 176/175 - منشورات جمعية ايليج للتنمية والتعاون - أكادير - 1992 .
- (36) ديوان الشاعر .
- (37) ديوان الشاعر .
- (38) المرجع نفسه.
- (39) صورة الشيخ ماء العينين في الشعر العربي السوسي محمد الحاتمي كتاب الصحراء وسوس من خلال الوثائق والمخطوطات .
- التواصل والأفاق (ندوة) ص 249 - منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية - الرباط - مطبعة النجاح الجديدة - الدار البيضاء - الطبعة الأولى 1422 - 2001 .
- (40) "ديوان الشاعر".
- (41) ديوان الشاعر.
- (42) ديوان الشاعر .
- (43) "ديوان الشاعر".
- (44) 'ديوان الشاعر'.
- (45) 'ديوان الشاعر'.
- (46) 'ديوان كثير عزة' جمع وشرح الدكتور إحسان عباس ص 190 دار الثقافة بيروت - لبنان 1391 هـ 1971 .
- (47) 'ديوان الشاعر'.
- (48) 'أشعار الشعراء الستة الجاهليين الشنتمري 111/2 - منشورات دار الأفاق الجديدة - بيروت - الطبعة الثانية - 1401 - 1981 .
- (49) ديوان الشاعر .
- (50) ديوان ابن الفارض تحقيق مهدي محمد ناصر الدين ص 129 - دار الكتب العلمية - بيروت - لبنان - الطبعة الأولى 1410 هـ 1990 م .
- (51) 'ديوان الشاعر'.

- (52) 'الإيماء الشعائر' لأبي الفرج الأصفهاني ص 127 - تحقيق نوري حمودي القيسي ويونس أحمد السامرائي - الناشر - عالم الكتب - مكتبة النهضة العربية.
- (53) ديوان الشاعر.
- (54) ديوان البحري' 176/1، تحقيق حسن كامل الصيرفي/دار المعارف، الطبعة الثالثة/د ت ط.
- (55) ديوان الشاعر.
- (56) ديوان أبي الطيب المتنبّي بشرح أبي البقاء العكبري 109/1 - تحقيق مصطفى السقا - ابراهيم الأبياري - عبد الحفيظ شلبي - دار العودة - بيروت - د ت ط.
- (57) ديوان الشاعر .
- (58) ديوان كعب بن زهير" تحقيق علي فاعور - ص 60 - دار الكتب العلمية - بيروت - الطبعة الأولى 1987.
- (59) ديوان الشاعر.
- (60) ديوان أبي نواس" تحقيق أحمد عبد المجيد الغزالي - ص 28 - دار الكتاب العربي - بيروت - لبنان.
- (61) ديوان الشاعر.
- (62) زهر الأكم في الأمثال والحكم" الحسن اليوسي - 118/1 تحقيق محمد حجي ومحمد الأخضر - دار الثقافة - الدار البيضاء - الطبعة الأولى 1401 - 1981.
- (63) ديوان ابن الفارض ص 147.
- (64) ديوان الشوقيات 112/2 - دار الكتاب العربي - بيروت - لبنان - د ت ط.
- (65) لم أقف على قائله.
- (66) "ديوان الشاعر".
- (67) "ديوان الشاعر".
- (68) المرجع نفسه.
- (69) تبیین الغموض على نعت العروض الشيخ ماء العينين - إخراج وتعليق محمد عيناقي - مطبعة المعارف الجديدة - الرباط - 1999.
- (70) المرجع نفسه ص 18.
- (71) المرجع نفسه ص 80.

- (72) "الغيث المنسجم" الصفدي 28/1 المطبعة الأزهرية - القاهرة 1305 هـ.
- (73) ديوان الشاعر.
- (74) ديوان الشاعر.
- (75) ديوان الشاعر.
- (76) ديوان الشاعر.
- (77) ديوان الشاعر.
- (78) ديوان الشاعر.
- (79) "العمدة في محاسن الشعر وأدابه" ابن رشيق القيرواني 268/1، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد - دار الجيل - بيروت - لبنان - الطبعة الرابعة 1972.
- (80) ديوان الشاعر.
- (81) "ديوان الشاعر".
- (82) ديوان الشاعر.
- (83) ديوان الشاعر.
- (84) ديوان الشاعر.
- (85) ديوان الشاعر.
- (86) ديوان الشاعر.
- (87) ديوان الشاعر.
- (88) ديوان الشاعر.
- (89) "الوافي بالأدب العربي في المغرب الأقصى" محمد بن تاويت 33/1 - مطبعة النجاح الجديدة - الدار البيضاء.

المقدسات والوحدة الوطنية في شعر الصحراء المغربية

محمد عيناق

يسعدني أن أتقدم في مستهل عرضي هذا بجزيل الشكر وعظيم الامتنان إلى السيد أمين السر الدائم، وإلى لجنة القيم الروحية والفكرية، ومن خلالهما إلى أكاديمية المملكة المغربية على هذه المبادرة الجليّة والخطوة المحمودّة التي ستخلد في سجلها الحافل، خاصة أن تنظيم هذه الندوة العلمية الوطنية قد تزامن مع ما تعرفه قضية وحدتنا الترابية والوطنية من تعبئة شاملة خلف جلالة الملك محمد السادس نصره الله وأيده.

إن الموضوع الذي أساهم به في أشغال هذه الندوة العلمية، وكما هو مسطر في برنامجها العام، يتناول قضية المقدسات والوحدة الوطنية في شعر الصحراء المغربية؛ ولمقاربة هذه القضية وما تثيره من أسئلة وتساؤلات، لا بد من بسط معاني ودلالات الألفاظ الأساسية المكونة لبنية العنوان؛ فتحديد المفاهيم وضبط المصطلحات هي الخطوة الأولى، واللينة الأساس لأي حوار علمي موضوعي جاد، غايته ترسيخ قواعد وقيم التفاهم والتواصل بين عامة الناس، أو على الأقل بين فئة خاصة منهم، تجمع بينها هموم وانشغالات مشتركة.

فالمقدس في اللغة : المبارك ؛ والأرض المقدسة، أي المطهرة ؛ والتقديس :
التطهير والتبريك ؛ وتقدس، أي تطهر⁽¹⁾ ؛ والمقدس في الاصطلاح صفة الكائنات
أو الأشخاص الذين يستحقون الإجلال والاحترام، وربما العبادة الدينية ؛ أو هو
صفة ما ينبغي احترامه، ولا يجوز المساس به أو تغييره، لأنه يمثل قيمة مطلقة⁽²⁾.

وأما الوحدة فهي من المصطلحات التي دخلت القاموس السياسي مع بداية
النهضة العربية وظهور الفكر القومي؛ وأعطيت لها مجموعة من الدلالات تفيد في
معناها العادي والبسيط معنى التوحد والتوحيد والاتحاد، أي أن يصير الشيء
واحداً، والواحد هو الذي لا يتجزأ ولا يثنى ولا يقبل الانقسام ؛ نقول اتحد الشيء
بالشيء أي اقترن به، واتحد القوم : اتفقوا⁽³⁾.

وأما الوطنية فهي من الناحية اللغوية مصدر صناعي مركب من لفظة الوطن
وباء النسبة وتاء التانيث؛ وهي تفيد في أبسط معانيها حب الوطن الحب الخالص،
والتعلق به التعلق الوجداني الدائم، والاعتزاز به الاعتزاز الحقيقي الخالد.. الحب
الراسخ الذي يعمي ويصم، فيجعل المرء يرفض، بل يثور لأدنى مس بكرامته
ومقدساته، أو استغلال لأرضه أو إنسانه، ولو كان ذلك من قبل بنيه.. إلى حد بدل
النفس والنفيس في سبيله.. أو هو التعلق الفطري السرمدى بالوطن في أسمى
تجلياته منذ أن خلق الله الأرض ومن عليها⁽⁴⁾.

والوطن : المنزل والمحل، ووطنَ بالمكان وأوطنَ: أقام، وأوطنَ فلان أرض
كذا وكذا أي اتخذها محلا ومسكنا يقيم فيها⁽⁵⁾ ؛ إنه البلد ومكان العيش الدائم ؛
ويشمل مفهوم الوطن الأرض والإنسان والتراث والمقدسات؛ وللوطن دلالات
متعددة بتعدد وجهات نظر مستعملي هذه اللفظة⁽⁶⁾.

وبعد،

ما هي الكائنات ومن هم الأشخاص الذين يستحقون الإجلال والاحترام،
لأنهم يمثلون - بالنسبة للشاعر المغربي في الجنوب - قيمة مطلقة لا يجوز
المساس بها؟

وإلى أي حد ساهمت تلك المقدسات في ترسيخ قيم الوحدة الوطنية لدى أبناء تلك الربوع من الوطن؟

وما هي تجليات ذلك في شعر الصحراء المغربية؟

أولا : الدين الإسلامي

يعد الدين الإسلامي على رأس قائمة المقدسات باعتباره منهاجا "يشمل التصور الاعتقادي الذي يفسر طبيعة الوجود، ويحدد مكان الإنسان في هذا الوجود، كما يحدد غاية وجوده الإنساني.. ويشمل النظم والتنظيمات الواقعية التي تنبثق من ذلك التصور الاعتقادي وتستند إليه، وتجعل له صورة واقعية متمثلة في حياة البشر"⁽⁷⁾؛ وبهذا المفهوم ترسخ في ذهن الإنسان المغربي في الصحراء، فهو الأصل الذي يعودون إليه في كل صغيرة وكبيرة، فما وافق الشرع أخذوا به وما خالفه تجنبوه وابتعدوا عنه؛ تقول خديجة أبي بكر ماء العينين :

علمت بأن الدين للمرء رادعٌ ولا دينَ كالإسلام يرشد أو يهدي
رضيت بدين الله والقلبُ عامرٌ بحبِّ سما عن نزعة الجورِ والحدِّ
هما نَزَعْتَا من ليس يَعْلَمُ أَنَّهُ يُحَاسِبُ إنْ أَخْفَى فكيف إذا بيدي⁽⁸⁾

فالعلم بحقيقة دين الله معرفة يقينية بكنهه وأبعاده عن طريق الإدراك العقلي والشعور الوجداني؛ والرضى به اختيار واقتناع؛ وهما أساس الجهاد بشقيه الأصغر والأكبر.. جهاد في سبيل الله من أجل إعلاء كلمته عز وجل؛ وجهاد النفس سموا بها إلى أعلى درجات الصفاء؛ يقول حمداتي شبيهننا ماء العينين :

عن السمحة البيضاء شاع نضالنا فنحن حماة الدين إن نابه الكَرَبُ⁽⁹⁾

وتقول خديجة أبي بكر ماء العينين أيضا من قصيدة يغلب عليها الطابع الصوفي، بعنوان: "حال المحبين" يغلب عليها الطابع الصديقي :

لقد جعلت إلى المحبوب منعرجي سيان عندي ضياء الفجر والغسقُ
على جناح من الأشواق تحملني يحفنا من فيوض النور مؤتلقُ
يممت وجهي إلى من ليس يسعدني سواه ربي فما لي عنه مُفترقُ

يا رب لي طلب حقه لي، وكفى بي أن أرى بين من واليت مذ خلقوا
ولتجمع الله شملا عزَّ مجمه حتى إذا اجتمع الأحباب لا افترقوا⁽¹⁰⁾

ثانيا : الأرض :

وأما العنصر الثاني الذي يبدو مقدسا لدى شعراء الجنوب المغربي فهو الوطن، وقدسيته نابعة من قوة اعتقادهم وعمق إيمانهم بالدين الإسلامي الحنيف الذي ينص على عدم التفريط في الارتباط بالأرض؛ بل أوجب على كل مسلم التمسك بكل شبر منها، والدفاع عنها ضد أي خطر يتهدها؛ يقول محمد الكبير العلوي :

من العروبة قاصيها ودانيها لوحدة المغرب السامي تهانينا
هذا لعمرك ركنٌ من عقيدتنا قدما ومرمى عظيم من مرامينا⁽¹¹⁾
ويقول محمد سيداتي هيبة :

أصبو بقلبي للوطنُ وبه اعتزازي مدى الزمنُ
لِمَ لا يعزُّ عليّ، والـ إيمان في حب الوطنُ
لا أخرجن عن حبه أو يُخرجُ الروحَ البدنُ⁽¹²⁾

ويقول ولده محمد الإمام :

من نعمة الله حقا نعمةُ الوطن نحى بها، نرتقي في السر والعلنِ
كيف التتعم بالدنيا وزينتها في غير أرضك مهما طاب يا وطني
أمسى هواؤك ممزوجا بلون دمي والترب ممتزجا بالروح والبدنِ

إلى أن يقول :

نحن المغاربة الشمُّ الذين بنوا من عزهم ناطحات السُحُب في سننِ
نعتز بالمغرب الأقصى فموطننا ظنت بأمثاله الأكوان من وطنِ⁽¹³⁾

وتقول خديجة أبي بكر ماء العينين :

هذي الصحارى لا تسئل عن حبِّها السامي الجللُ
قالت بفخر عأقَّتْ واحي وسهلي والجبلُ
حبُّ الذي من فضله قطرُ الجنوب قد استقلُ
من طنجة لِكُويِّرةٍ قد وحدتْنا لوتسلُ
وطنيَّة وتساَزُرُ وتَراحُمُ مننذ الأزل⁽¹⁴⁾

ويقول محمد الكبير العلوي :

هي الصحراء جزء من بلادي وشيعة عاهلي، فدعوا الهراء⁽¹⁵⁾

ويقول عبد الرحمن الدرجاوي :

مالي أرى حزب الخيانة منكرا وجه الصواب بباطل من سرده
صحراؤنا ليست لآخر غيرنا بعدا له في هزله أو جده
صحراؤنا أرواحنا من دونها وجهودنا ضد العدو وجهده⁽¹⁶⁾

ويقول حمداتي شبيهناء ماء العينين :

ندب عن الأوطان صونا لَوْحْدَةٍ وما مسنا في ذا لُغُوبٌ ولا نَصْبُ
لمغربنا الأقصى نَصُونُ لَوْحْدَةٍ ومن خانها إنا على سحقه إلبُ⁽¹⁷⁾
ويقول محمد الإمام سيداتي :

أليس من ممكن توطيد وحدتنا وحفظ سيادة الأقطار إلاما
وفي السيادة للأقطار نحفظها من أن تداس وتسقى الهون إرغاما
تلك السيادات للأقطار نجعلها مقدسات نراعيها وأحراما⁽¹⁸⁾

إنه الحب في أسمى تجلياته وأعمق أبعاده وأدق معانيه.. ثبات على العهد، ودوام على الوفاء، وإبقاء على الإخلاص، وتقوية للأصرة.. فالمغرب الموحد بصحرائه هو قررة عين الشاعر، وأعلى أمانيه، يمحض الود صافيا لمن يصافيه، ويكن العداة لمن يعاديه؛ فهواه يجري فيه مجرى الدم في العروق.. "فحين يتحرك الفاجع يكون الموقف الجدي العميق في وجود الإنسان، الموقف الذي يجابه به الحقيقة في جراءة ويعيش القيم في أقوى صورها الإنسانية وأكثرها شمولا، لأن فجيعة انهيارها تنسكب في أعماق النفس، حزنا صامتا، متحررا من الخنق الزائف والغرور الفارغ"⁽¹⁹⁾.

ومن المؤكد أن السر في عشق الوطن والتعلق به والإفراط في حبه مصدره صورته التي أبهرت الشاعر، والتي تتشكل معالمها البديعة وقسماتها العجيبة من الهواء الطيب، والعطر الزكي، والجمال الأخاذ، والنغم الطروب، والرياض الوارفة الغناء. وتصف الشاعرة خديجة أبي بكر ماء العينين وهي واحدة من أبناء

المنطقة - حال العمران بالصحراء بعد استرجاعها، قائلة :

فتحولت تلك البلاقع جنة الماء يجري والكتيب عشب
 فسل (العيون) مدينة الحسن التي تحكي ذرى حسناته وتصيب
 وسل (الصمارة) إذ تجدد عزها تُنبئك صدقا، والحديث يطيب
 أضحت أقاليم الجنوب جميعها بعد المسيرة وصفهن عجيب⁽²⁰⁾

ثالثا : السلطان :

ويعتبر السلطان أحد أهم الدعائم المقدسة التي تشكل هوية الإنسان في الصحراء، وقدسيته آتية من طبيعة العلاقة التي تربطه كحاكم برعيته؛ وهذه العلاقة نظمها الإسلام بواسطة عقد البيعة الذي انفرد هذا الدين بابتكار قواعده... فأهمية هذا العقد تتجلى في كون الله -عز وجل- جعله في كتابه العزيز من العقود المسماة، ونظم أحكامه وتولى جزاء الإخلاص له بالحسنى، وأنزل بالخارج عليه أسوأ العقاب، فأوصله قداسة لا يمكن أن يصل إليها أيُّ حكم سواه، كما نظمت مشمولته على حسن مسطرة ضببطت العلاقة بين أطرافه... ومن رام من أبناء هذه الأمة تعطيل نصوص عقد البيعة والخلافة فقد خالف أوامر الله"⁽²¹⁾.

ويقول الماوردي في كتابه الأحكام السلطانية: "فإن أجاب (يعني المرشح للإمامة) بايعوه عليها، وانعقدت ببيعتهم له الإمامة، فلزم كافة الأمة الدخول في بيعته والانقياد لطاعته"⁽²²⁾؛ فوحدة الأمة لا يمكنها أن تتحقق، ولا يتم حصولها إلا (بالشوكة) على حد تعبير الإمام الغزالي، ومعناها السلطة المعنوية، يقول أبو حامد: "ولا تتفق الإرادات المتناقضة والشهوات المتباينة المتنافرة على متابعة رأي واحد، إلا إذا ظهرت شوكته وعظمت نجدته، وترسخت في النفوس مهابته،

ومدار جميع ذلك على الشوكة؛ ولا تقوم الشوكة إلا بموافقة الأكثرين من كل زمان...» (23)

ولقد ثبت في المصادر التاريخية الموثوق بها أن أبناء الصحراء المغربية عرفوا بوفائهم وتشبثهم بالبيعة الشرعية لمن ولاد الله على العرش المغربي منذ إدريس الأول إلى الآن؛ فجميع القبائل الصحراوية كانت تربطها بملوك الدولة العلوية رابطة البيعة التي كانت القبيلة تحرر نصها وتبعث بها مع وفد إلى السلطان ليقدمها بين يديه؛ ومعلوم "أن المغرب هو الدولة الوحيدة التي لم تكثف بالبيعة الشفوية، بل ما ثبت في تاريخ المغرب، وفي أي دولة مغربية، أنها وقعت بيعة شفوية، بل كانت دائما بيعة مكتوبة" - كما قال جلالة المغفور له الحسن الثاني - ويضيف - قدس الله روحه - «وحتى أولئك الذين لم يستطيعوا كتابة هذه البيعة كانوا يبعثون بها عن طريق العدول». (انتهى من كلام جلالة الملك طيب الله ثراه).

ولقد عبر الشعراء المغاربة في الصحراء عن عمق تشبثهم بالبيعة الشرعية التي تربطهم بعاهل البلاد في كثير من أشعارهم، من ذلك على سبيل التمثيل لا الحصر؛ قول لاراباس الشيخ ماء العينين :

بيعة في أعناقنا لم نخنها خلدتها الآباء للأحفاد

لك يا خير من تقلد ملكا وسليل النبي أعظم هاد (24)

ويقول سيدي عثمان الشريف حسن :

بيعتكم ننادي من جدود لأحفاد ستبقى لا تزول

سنبقى صامدين بكل حق على ما قال ربي والرسول

ندافع عن علانا في تفان فوحدتنا وعرشكمو خليل (25)

ويقول الشيخ عبد العزيز بن الشيخ عبد الرحمن الرباني التندغي المتوفى

سنة 1380 هـ:

إننا مددنا أكف الذل ضارعةً إلى الإمام الذي منه أيدينا

ولن تخيب يد مدت لبيعته وقد مددنا إلى السلطان أيدينا⁽²⁶⁾

وتقول الشاعرة خديجة أبي بكر ماء العينين :

مولاي يا بدر السيادة والعلی أبشر بحب كامل لنصابه

لك بيعة من شعبيكم وطنية مكمولة من شيبه وشبابه

بكم الشمال مع الجنوب تعانقا دخلا إلى التاريخ من أبوابه⁽²⁷⁾

يقول لاراباس الشيخ ماء العينين:

أيا رائد السلم المحبب من حوى تراث أبيه المصطفى وبه أحرى

سنبقى وراء العرش أعظم كتلة موحدة إيمانها يغلب الدهرا

نحارب من يدعو لتفريق جمعنا والحق نوليه المذلة والخسرا⁽²⁸⁾

ويقول محمد عبد الرحمن الدرجاوي :

يا عاهلا ضبط الأمور بدقة وجلال الظلام بحله وبعقده

إننا وراءك نبتغي أوطاننا ونلوذ عسف الظلم وكيده⁽²⁹⁾

ويقول حمداتي شبيهناء ماء العينين :

هذي صحارينا لعطفك ترتجي ما قادها من غير عرشكمو بشر

قد بايعت نجل الرسول محمد ليحول قييد الكفر عنها ينكسر

وبعرشه صان لوحدة أرضنا ما ضرنا مين الطغاة ومن وزر
 من مات لم يعرف أميرا، موته للجاهلين تساق في القول وفي الأثر
 إلى أن يقول :

هذي جموع الشعب تنتظر المنى عجل عليها وحدة لن تبتثر
 لعن الإله من العباد مفرقا شمل الشعوب مقنعا أو إن سفر⁽³⁰⁾

ويقول شيبه ماء العينين مخاطبا جلالة المغفور له الحسن الثاني - طيب
 الله ثراه - :

يا من أعاد إلى الأوطان ما سلبا ووحد الشمل مقداما وما رهبا

حققت بالسلم ما لو رامة بطل سواك بالحرب لم ينجزه إن غلبا
 وطاوعتك من الإلهام سابرة غور الحوادث تجلو الشك والريب
 سلكت كل دروب السلم في زمن تَنَاهَبَتْهُ نوايا الحرب فاضطربا
 وما انثنت عن الإمعان في خطط ترسي السلام سلا ما ليس مستلبا
 حتى طلعت على الدنيا بخارقة لم يشهد الدهر - كلاً- مثلها عجا
 مسيرة من جموع الشعب حاملة أي المنزل لم تأبه بما نصبا
 من المدافع والألغام كامنة وآليات العدى ملء السهول ربي
 فحطم الزحف بالتنزيل متشحا من هدأ بالأمس صرح الدين واغتصبا
 وعانق الأهل بالصحراء إخوتهم وأدبر الخصمُ عنا ممعنا هربا⁽³¹⁾

ويقول محمد الكبير العلوي :

كفانا أن جمعت الشمل منا وأن وحدتنا بيضا وسمرا

وأن أعليت رايتنا فسقامت ترفرف في الجنوب الحر حمرا⁽³²⁾

يقول حمداتي شبيهنا ماء العينين : "إن البيعة فوتت على محركي الفتن الداخلية أهدافهم فتمكن العرش بواسطتها من إرجاعهم عن غيهم أو القضاء عليهم، وبها أجم المد الاستعماري، وبفضلها تمكن الملك دائما أن يعبئ البلاد للبناء والتشييد، وبها فوت العرش دائما على المستعمرين محاولات التقسيم، وبحكمها رفض الشعب سياسة الأمر الواقع... وبالبيعة قطع العرش على نفسه استكمال الوحدة"⁽³³⁾

جلي إذن أن الشعراء المغاربة في الصحراء قد عبروا بصدق، وبعمق عن إحساس الإنسان المغربي في الربوع الجنوبية من الوطن؛ عبروا عن إحساسهم القائم على التشبث بالدين الإسلامي على مذهب الإمام مالك، والتعلق بوحدة الوطن، وباستمرارية وديمومة البيعة الشرعية التي تطوق أعناقهم، والإصرار على مد جسور الاتصال والتواصل بينهم في الجنوب وإخوانهم في باقي جهات المملكة الشريفة، متصددين لكل المحاولات الخائبة الخاسرة الرامية إلى النيل من وحدة المغرب الوطنية والترايبية، والهادفة إلى التشويش على استقراره وأمنه وتقديمه ورقيه؛ ولقد جمع الشاعر محمد عبد الرحمن الرباني هذه المقدسات في بيتين شعريين بليغين إذ قال :

إرادتنا تحقيق وحدة أرضنا فلن نقبل التقسيم طوعا ولا قهرا

ونحسب غير الله والوطن الذي نحب، ومولانا محررنا، صفرا⁽³⁴⁾

وختاما أود أن أعرج على مشاركة شعراء الشمال إخوانهم في الجنوب خندق التشبث بالمقدسات ومعركة الوحدة والسيادة؛ وأكتفي بإيراد نماذج معدودة

أرى أنها تفي بالمقصود؛ وإن كانت لا تغني عن غيرها مما يطول بنا جلبه ويخرج بنا عن حد الإيجاز ذكره؛ يقول مصطفى الطريبق، وهو من شعراء أقصى الشمال:

هواها، في مشاعرنا يزيد	فلا يفنى، ولا عنها يحيد
تنادينا فتمشي في حماها	نغني كلنا، وهي النشيد
نراها هالة، إنا بها في	شموخ، وهي سؤددنا العتيد
فما عنها، لنا يوماسلو	وعنها كلنا جند نذود
ففي أحشائنا تحيي وتبقى	وما إلا لها الحب المديد
بها يحلو التباهي والتغني	بها وبأرضها يسمو الوجود
ففي دمنها هواها وهي منا	وما يوم لنا عنها صدود ⁽³⁵⁾

ويقول الهاشمي الهواري، وهو من شعراء مراکش :

فتوبى لمن ضحى لوحدة أرضه	وأسرع لا يبغي جزاء ولا شكرا
لقد قال أهل العزم لبيك إننا	فدى الوطن المحبوب نرفعه قدرا
ودوى من الصحراء صوت مجلجل	يطالب بالتوحيد مستتبسلا حرا
وسارت حشود النصر تكلا جميعها	من الله أطفاف تحيط بهم طرا ⁽³⁶⁾

ويقول جلول دكداك، وهو من شعراء تازة :

نحن والصحراء شعب واحد	أصله الطيب في الوحدة أعرق
واسألوا الصحراء عنا إنها	قطعة منا بها القلب تعلق

عندما الأقدام داست أرضها رملها المشتاق بالفرحة صفق
وانتشى بالوصل فاهتز كما يفعل العصفور إن طار وحلق
وإذا خامركم شك كما خامر الشك دعيا يتشددق
فاسألو الرملة تخبركم بما يفعل الشوق بمن يهوى ويعشق
فهي أدري بصبابات النوى قلبها الهيمان بالعرش معلق⁽³⁷⁾

الهوامش

- (1) اللسان مادة · قدس.
- (2) Le Vocabulaire Philosophique. Abdou Elhelou. P 154.
- (3) المعجم الفلسفي.
- (4) راجع مفاهيم الوطنية في - الوطنية في النثر المغربي. ص158 - الاتجاه القومي في الشعر المغربي الحديث. ص 13.
- (5) اللسان مادة وطن.
- (6) الوطنية في النثر المغربي. أحمد زياد. رسالة لنيل دبلوم الدراسات العليا. كلية الآداب الرباط. ص 144 - 146.
- (7) سيد قطب. المستقبل لهذا الدين. دار الثقافة. الدار البيضاء/1991. ص 5.
- (8) نفثة عاشق ص 65.
- (9) شعر حمداتي شبيها ماء العينين. مجموع مرقون. نسخة خاصة.
- (10) نفثة عاشق ص 74.
- (11) ديوان دعوة الحق. ج 2 ص 611.
- (12) شعر محمد سيداتي هيبية. مجموع مرقون. نسخة خاصة.
- (13) شعر محمد الإمام سيداتي. مجموع مرقون. نسخة خاصة.

- (14) نفثة عاشق. ص 55.
- (15) ديوان دعوة الحق. ج 1 ص 295.
- (16) مواقف. مرقون. نسخة خاصة.
- (17) شعر حمداتي شبيهن ماء العينين. مجموع مرقون. نسخة خاصة.
- (18) شعر محمد الإمام سيداتي. مجموع مرقون. نسخة خاصة.
- (19) صدقي إسماعيل. العرب وتجربة المأساة. ص 49.
- (20) شدو الواحة. ص 33.
- (21) الصحراء المغربية من خلال التراث والتاريخ. ص 92.
- (22) الأحكام السلطانية.
- (23) المستظهري.-
- (24) أوردها الشاعر بمقال له بندوة الصحراء المغربية من خلال التراث والتاريخ. ص 62.
- (25) شعر حسن سيدي عثمان. مجموع مرقون. نسخة خاصة.
- (26) مغربية الصحراء. لمحمد عبد الرحمن بن الشيخ عبد العزيز الرباني. ص 23.
- (27) شدو الواحة. ص 36.
- (28) كتاب قبائل الصحراء المغربية. ص 293.
- (29) مواقف. مرقون. نسخة خاصة.
- (30) شعر حمداتي شبيهن ماء العينين. مجموع مرقون. نسخة خاصة.
- (31) جريدة العلم يوم 03 / 03 / 1985.
- (32) ديوان دعوة الحق. ج 1 ص 335.
- (33) الصحراء المغربية من خلال التراث والتاريخ. ص 114.
- (34) مغربية الصحراء. ص 46.
- (35) جريدة الميثاق الوطني. يوم 1998/04/25.
- (36) من قصيدة بعث بها إلي الشاعر بتاريخ 1998/12/10.
- (37) جريدة العلم يوم 1988/11/08.

ثقافة الصحراء من خلال مقوماتها المغربية لدى العلماء

محمد المختار ولد أباه

اسمحو لي بادئ بدء أن أقدم صورة عن الصحراء قد تختلف عن ما تعوده
الناس في تمثيل رمال رمضاء تحت شمس محرقة أو مفاوز قاحلة لا ماء فيها و لا
شجر :

يموت قطا الفلاة بها أو ما ويهلك في جوانبها النسيم
أقدمها كما تصورهما الشاعر الكبير المختار ولد حامدن :

غنيبا بانتجاع خلا المراعي حوالي كل راعية وراعي
سنين حلا انتجاع الرعي فيها لنا وخال لنا جو المراعي
حدونا إبلها مع كل حاد وعاعينا بها مع كل عاع

إلى أن يقول :

كأن لم ننتجع في الدهر مرعى خصيبا ما به أثر انتجاع
ولم تنزل من الصحراء أرضا بساطا كالسما في الاتساع
ولم نسمع بها والغيث هام هزيم القرم في الشول الرتاع
وقد سكب الذراع بها دموعا جرين على التلاع وكل قاع
وقد ضحكت من الأزهار فيها كواكب كالمجرة والذراع

نعم، إنها الصورة الحقيقية لصحراء المغرب التي تستند متونها إلى جبال الأطلس الشامخة، وترنو أوديتها وعيونها إلى شواطئ المحيط الدافئة، وتنطلق مجاباتها الكبرى إلى منازل الطوارق، وتمتد مسالكها للمتونة إلى معازل المرابطين.

قوم لهم شرف العلام من حمير واذا دعوا لمتونة فهم هم

إنها لم تكن أبدا أرضا خلاء، ولا قاعا صفصفا، بل كانت على مرّ التاريخ أهلة بساكنيها الاوائل من مجموعات قبائل صنهاجة، كما كانت معبرا لمهاجري العرب والشرفاء الوافدين من الشرق، فاختلطوا بسكانها القدماء في مجتمع متماسك عرف أهله بالاعتزاز بالنفس وبالصبر والتمسك بدينهم الحنيف وغيرتهم على حماه، كما عرفوا أيضا بمحبتهم للعلم وبتكريم العلماء فتأصلت فيهم ثقافة متميزة تعتبر امتدادا طبيعيا للثقافة المغربية.

وسوف نرى باختصار ملامح عن هذه المقومات في جوانبها العقدية والفقهية والأدبية.

هذه المقومات تلتئم في نطاق الثقافة الإسلامية المغربية، ومن البديهي أن كل ثقافة إسلامية سوف تنطلق في معتقداتها وقيمها من أصول الشريعة الإسلامية التي رفع المرابطون شعارها أنه : 'لا يجوز لأحد ان يفعل فعلا حتى يعلم حكم الله فيه'. ومعرفة حكم الله تدعوهم بالطبع إلى اكتساب أصول المعارف الشرعية سواء منها ما يتعلق بالفروض العينية او الواجبات الكفائية التي تضمن سلامة المجتمع وتنظم حياته العامة؛ كما أن الثقافة الإسلامية أيضا لا تقتصر على مسائل الأحكام في العبادات أو في المعاملات، بل إن دائرتها تتسع لتشمل ما يعرف بعلوم الآلة كاللغة والنحو والمنطق والبيان؛ كما تقتضي كذلك امتلاك وسائل الصناعات الضرورية في حاجياتها، ولا تتقاصر عن تحسين هذه الحياة بصناعات الفنون الجميلة.

وحيثما نخصص القول لنبين أنها ثقافة إسلامية مغربية نرى أن خصوصيتها تتمثل في مثلث أورده عبد الواحد بن عاشر في مرشده المعين حين قال :

"في عقيدة الأشعري وفقه مالك وفي طريقة الجنيد السالك"

كيف إذًا تأصلت هذه الثقافة في الصحراء وما هي خصوصياتها

1 - المعتقدات والقيم

لقد عرف الصحراويون في مناهجهم العلمية مبادئ توحيد ابن عاشر، وقد ذكرنا أنه ينسب هذه العقيدة إلى الإمام ابي الحسن الأشعري، والحقيقة أن وصفهم بالأشاعرة فيه نوع من التجوز فتعاليم الأشعري في الإبانة وفي مصنفات أئمة مذهبه التوحيدي من بعده، أعني كتب الباقلاني وابن فورك والجويني، لم تصلهم في مراجعها الأساسية ؛ بل إن العقيدة الأشعرية وصلت إلى المغرب عموما عن طريق المهدي بن تومرت بعد أن هذبها السلاجي عندما استبعد منها المذهب المهدوي، ثم صاغها الإمام السنوسي في عقيدته المشهورة ، وفي آخر المطاف وصل ملخصها إلى الصحراويين عموما في أرجوزة ابن عاشر، وبسطها المختار بن بونه الشنقيطي في وسيلته المعروفة، وقد شمل توحيد ابن عاشر ما لا يسع جهله من التوحيد كأمر الصفات وما يجب في حق الرسل وما يتمتع ؛ ولا بد أن نشير هنا إلى أن هذه المعتقدات وما ينشأ عنها من تصور الفكر الديني هي التي تضبط سلوك الأفراد في تعاملهم الإجتماعي حيث أننا نعرف أن المجتمع الصحراوي بطبيعة بداوته غير خاضع لنظم إدارية مدققة ولذلك فمعتقداته الدينية هي التي تنظم سلوكه في جميع المعاملات. وبناء عليه فإن صيانة الحقوق في هذا المجتمع والتخلق بكارم الأخلاق واحترام مقتضيات بيعة أمراء المومنين كل هذا يتم طواعية بالوازع الديني وحده.

ولا ننكر أن الأعراف والتقاليد القبلية من عوامل إرساء هذا النظام، غير أن قوة التقيد بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر أقوى تأثيراً من جميع الاعتبارات التقليدية في النظام البدوي.

ولقد تنبه ابن خلدون إلى هذه الظاهرة في كلامه على طبيعة العمران في أهل البدو حيث قال "إنه لا يحصل لهم الملك إلا بصبغة دينية من نبوءة أو ولاية أو أثر عظيم من الدين على الجملة، والسبب في ذلك لأنهم أصعب الناس انقيادا بعضهم لبعض للغلظة والأنفة وبعد الهمة والمنافسة في الرئاسة".

فإذا كان الدين بالنبوءة أو الولاية كان الوازع لهم في أنفسهم وذهب خلق الكبر والمنافسة، فسهل انقيادهم واجتماعهم. وإذا كان منهم الولي أو النبي الذي يبعثهم على القيام بأمر الله يذهب مذمومات الأخلاق ويأخذهم بمحمودها ويؤلف كلمتهم لإظهار الحق، وهم مع ذلك أسرع الناس قبولا للحق والهدى لسلامة طباعهم من عوج الملكات وبراعتهم من ذميم الأخلاق إلا ما كان من خلق التوحش القريب المعاناة المتهيء لقبول الخير لبقائه على الفطرة الأولى وبعده عما ينطبع في النفوس من قبيح العوائد وسوء الملكات لأن كل مولود يولد على الفطرة".

2 - دور التصوف في ترسيخ القيم وأداب السلوك في الصحراء

مشارب التصوف متعددة وطرقه كثيرة واتجاهاته متنوعة والذي يهمنا هنا ما اعتمده المجتمع الصحراوي في معتقداته الدينية وممارساته التعبدية، والملاحظ أن الطرق السائدة في المغرب قد انتشرت تعاليمها في الأوساط الصحراوية وكان لها بالغ الأثر في ترسيخ القيم الإسلامية.

وقد رأينا أن الإمام ابن عاشر جعلها من مقومات الثقافة الإسلامية في كلامه عن "طريقة الجنيد السالك" وهو في مرشده يحدد الاتجاه الصوفي المتمثل في قوله . "وحاصل التقوى اجتناب وامتنال".

كما يوصي بمصاحبة شيخ قدوة يعين المرید على تجنب مهالك الانحرافات التي قد يتعرض لها المتصوف في مسيرته الروحية.

والحاجة في المجتمع البدوي إلى الشيخ لا تقتصر على مصاحبة من يُنهضُ حاله ويدلُّ على الله مقاله، فمنهم المرید الصادق الذي يريد الآخرة ويسعى لها سعيها، ويبحث عن الوصول أو التصدير، وهناك من يلجأ إلى الشيخ لتحقيق الكرامات في استشفاء المرض واستمطار السماء ووجود ضالة الماشية، وأمثال هذه الحاجات متعددة في أرض متقلبة المناخ، ظروف الحياة فيها قاسية، تحفها المخاطر من كل جانب.

وإذا لوحظ أن مريدي تأمين الحياة البدوية فإن الإتجاه العام يتمثل في ترسيخ القيم الروحية وتقوية الإيمان بالله وبالغيب واليقين و أن الامور بيد الباري جل وعلا.

3 - مكانة الفقه المالكي

قد تكون المقومات العقائدية هي المنطلق الفكري للثقافة المغربية في الصحراء كما أن للتصوف دوره في بناء نسق هذه الثقافة، فإننا مع ذلك نعرف أن الفقه المالكي هو نسيج هذه الثقافة الذي يعطيها صورتها العملية، ومنه يستمد الفرد بيان الحلال والحرام والواجب والممنوع، وقد أعطى ابن عاشر منه ما لا يسع جهله من فقه الإمام مالك.

ولاختيار المذهب المالكي في المغرب قصة قديمة، يقول ابن خلدون "إن أهل المغرب والأندلس قد اختلفوا بمذهب مالك وإن كان يوجد في غيرهم إلا أنهم لم يقلدوا غيره إلا في القليل لما أن رحلتهم كانت غالباً إلى الحجاز وهو منتهى سفرهم، والمدينة يومئذ دار العلم ومنها خرج إلى العراق ولم يكن العراق في طريقهم فاقترضوا على الأخذ عن علماء المدينة وشيخهم يومئذ وإمامهم مالك

وشيوخه من قبله وتلاميذه من بعده فرجع إليه أهل المغرب والأندلس وقلدوه دون غيره ممن لم تصل اليهم طريقته".

"وأيضاً فالبداوة كانت غالبية على أهل المغرب والأندلس ولم يكونوا يعانون الحضارة التي لأهل العراق فكانوا إلى أهل الحجاز أميل لمناسبة البداوة ولهذا لم يزل المذهب المالكي غصا عندهم، ولم يأخذ تنقيح الحضارة وتهذيبها كما وقع في غيره من المذاهب".

وقد نستغرب من كلام ابن خلدون عن بداوة المغرب والأندلس ومن قوله إن المذهب المالكي لم ينل من التنقيح والتهذيب ما نالته المذاهب الأخرى ، فإن كان العراق هو مثال الحضارة والتهذيب فقد كان للمذهب المالكي سوق نافقة في بغداد.

صحيح أن المغاربة اختاروا مذهب إمام دار الهجرة وبينوا أسباب هذا الاختيار التي نراها مستوفاة في مدارك القاضي عياض. ولاعتقد أن مذهباً قد نال من التمحيص والتحرير ما كان للمذهب المالكي على أيدي العلماء المغاربة. من شواهد ذلك أعمال ابن عبد البر والباقي حول موطأ الإمام مالك وما كتبه ابن رشد وعياض على المدونة و ما تلا ذلك من شرح وحواشي وطرر تناولت أمهات هذا المذهب بالبيان والتحليل.

ثم تطورت هذه البحوث في اتجاه ثلاثة محاور متوازية، كان منها:

أ - أولاً صياغة هذا الفقه في شكل قوانين في تبويب منتظم لتقريبه من الدارسين وقد أعطى ابن جزى الكلبي نموذجاً من هذه الأعمال.

ب - أما المحور الثاني فنراه عند أولئك الذين اهتموا بنوع من التنظيم والترتيب لا من حيث الشكل فحسب ولكن حرصوا على وضع المعايير التي تلم ما تفرق من الفروع تحت قاعدة واحدة تقدم للباحثين الوسائل العملية لتفهم مختلف الأحكام وتساعدهم على تفهم أصولها والحكمة من وضعها.

وكان لعملية التقييد إسهام في إثراء الفقه المالكي عن طريق ارتباطه بما اصطلح عليه بـ"العمل" وهو ما كان له أثر بالغ في موازنة النظريات الفقهية لواقع الحياة المعاشة.

ج - أما المحور الثالث فهو يتمثل فيما قام به فقهاء المغاربة برصد النوازل والأحكام وتدوينها في مدونات مختصة تعطي كماً هائلاً من الحلول التطبيقية التي صدرت في أمور عينية، مما مكن للفقهاء أن يكتفوا بإصدار نفس الفتاوى والأحكام عند تماثل الوقائع المدونة، ومن أشهر من قام بهذا العمل الجليل الونشريسي والعلمي وابن هلال، وابن الأعمش الشنقيطي. وغيرهم كثير.

ولقد أسهم علماء الصحراء في ارتباط النتائج النظرية بواقع الحياة حتى أن بعضهم ألف مصنفاً خاصاً بفقه البادية والأحكام المنوطة بحياتها مثل حرمة المسجد إذا لم يكن مبنياً واستعمال ماء الآبار في الطهور وحكم الوقف إذا كان حيواناً وإخراج الزكاة من ضوال الماشية والتعامل في القراض عند عدم وجود النقود العينية.

كل هذا جعل من الفقه دستور الحياة اليومية كما كساه بالصبغة الدينية المتحكمة في عقلية المجتمع الصحراوي مما يظهر في إقباله المستمر على التفقه في الدين والحرص على ورود ينابيع في مدارسه المتخصصة مثل مدرسة آل محمد سالم المجلسي، والموسويين من بني يعقوب ومدرسة آل الشيخ ماء العينين الشاملة.

4 - مجالات الأدب في الثقافة الصحراوية

تمتاز الصحراء بنوع من الأدب يكاد يشمل جميع ألوان الطيف : فمنه الملاحين الشعبية التي تنافس أشعار الفصحى في الغزل والنسيب والمديح والحكمة وهو الذي يعرف بالغناء لكونه لحمة الموسيقى في مناطق الجنوب.

وفي هذه المناطق أيضا قامت نهضة شعرية عارمة وصلت أعلى مستوى في سلم الشعر العربي منها ما زواج بين العصور العباسية الأولى وبين مظاهر الزخرفة الأندلسية فهي التي وصفها الشاعر الكبير سيد عبد الله بن محمد العلوي بقوله في مدح محمد العالم بن المولى اسماعيل :

أمكنه من بكر شعر خريدة	نتيجة فكر سلسل الطبع جيد
عروب عروس الزي اندلسية	من الأدب الغض الذي روضه ندي
من اللائي يستصيبين مينحن عنوة	ويعهدن في الحراق أطيب معهد
مهذبة يستملح الذهن سردها	ويستعذب استرسالها ذوق منشد
ترقت لما فاقت وراقت تبرجا	على معلى برج البديع المشيد
روى أنفا زان الندى صفحاتها	وقلدها اسلاك دُرّ منضد
أرت من رياحين الثناء أنيقها	ومن زهر الأداب ما لم يخضد

واننا نرى في هذا المقطع ما يمكن أن نطلق عليه : "الفن الشعري" عند أنصار البديع، الذي قاد ابن رازكه مدرسته في الجنوب، وقد كان هذا النوع سائدا في المغرب على عهد هذا الشاعر الذي كان من أبرز صانعي ثقافة الأدب في الصحراء، وهو ممن توثقت صلاته بثقافة الشمال، فاستملح مديحه من ابي الحسن على بن احمد الشامي الفاسي في مدح النعال ومن محمد بن علي الفشتالي المراكشي شعره في وفيات الأعيان ، وقد كان منقطعا للمولى اسماعيل وابنه محمد العالم إذ يقول فيهما :

فأعتادُ منه ما تعودت من يدي	أبيه أمير المومنين المؤيد
هما والد ما توج الملك مثله	ومولود صدق بالمكارم مرتد
عظيمان معنيان بالدين وحده	فأعطتهما الدنيا سلاسة مقود
فلا برحا بدرين عم سناهما	وبحرين لا يعدوهما قصد مجتد

وقد ازدهر في الصحراء لون آخر من الأدب، جاء تجديدا لصورة الشعر الجاهلي وهذا التجديد ليس محاكاة صرفة، وإنما أملت ظروف تشابه الحياة البدوية والبيئة الصحراوية مع واقع الجزيرة العربية، ومن أبرز مظاهر هذا التشابه قوة ارتباط البدوي بالأرض بالرغم من كثرة ترحاله في ربوعها لأنه لا يرى لوطنه حدودا، فهو يحرص على حرية التنقل والتمتع بكل روضة أنف، يحل حيث يطيب المقام أياما أو أشهر، ثم يغادر منازل تاركاً فيها ذكريات جميلة تدعوه دوماً إلى الحنين إلى أيامها السالفة وإلى البكاء على أطلالها العافية.

ولندرك تلك العلاقة الحميمة بين شعراء الصحراء وبين الربوع التي عرفوا فيها أياماً سعيدة، نستمع إلى الحديث الذي كان الشاعر ماء العينين بن العتيق يستعيد فيه ذكرياته ويصف مواطن حبه وأيام أنسه، إذ يقول :

سلا سلمات المهى اين ترحلت	مهاري اللوا أن بارحتها وقودها
وهل ذُكرت أيامها ام تنُوسيت	وهل رعيت أم هل أضيعت عهدها
وهل سمرات الديس غودرن ذُبلأ	أم اخضر لما أدبر الصيف عودها
وهل تتمشى في نقاها عشية	تجر مروط السندس الخضر خودها
تهادى على كُثب تنوء بمثلها	إلى فيء أفنان حكتهأ قدودها
تعاقب في ذاك المطاف مطافلا	اعيرت لها اجفانها وجيودها
وهل جاد أرجاء المزرب صيب	فبث زرابي النبات مجودها
وهل لركايا أم مدلس أم إلى	بقايا إضاء الريشتين ورودها
وهل بريا الوادي مهة مربة	تُنازعها كأس الوداد أسودها
أم انتشرت روادها فتحصلت	تقاذفها في لامع الآل بيدها
هوادجها تكسو جمالا جمالها	وتجمل فوق الناجيات قنودها
فما برحت تنساق طوع حداتها	إلى حيث تحدو المدجنات رعودها

فتكسو محيا الأرض أودية الحيا فتتشرق بالأنوار منها خدودها
فأحبب بها أرضا إلى وشد ما تشوقني أن شأقت القلب غيدها

وهذه هي المشاعر المشاعة التي تغنى بها الشعراء الصحراويون بأساليب العرب القدماء، بلغت قممتها في شعر الأديب امحمد بن الطلبة اليعقوبي الذي عارض الشماخ وحميد بن ثور في روائعهما المعروفة.

ونعطي هنا مثلا من فنه المتميز في قطعة لم يحاول فيها التشبه بفضائل شعراء القديم ولكنه سعى إلى تقديم صورة بديعة يصف فيها الشاعر رحلته إلى الظاعنين عنه، وكيف اتخذ سبنداة إثرهم، يقتحم بها ظلمات الليل، ثم تلوح له نار الأحبة من بعيد، تبدو وتحتفي بعد ريع المبيدع ويغذ السير نحوها إلى أن تضيء له المها التي تركت في فؤاده جوى حمله أيامه في الينبيع، ويقول ابن الطلبة :

بيننا تقحم في الظلماء جافلة لاحت لها النار في العليا من الريع
إذا سجت هب هب الريح يصفقها صفقا والوى بها ريع المبيدع
يا موقد النار أوقدها فلا شلالا لا زال شملك مرموما بتجميع
مازالت أهوى ورأي العين يؤنسني منها ويطمعني نصي وترقيعي
حتى أضاعت مها صفرا ترائبها بيضا محاجرها حمر الأصابع
فبت أقصع من حر الجوى غللا حملتها منذ أيام الينبيع
وحل بالقلب ما قد حل من شغف من فاجع ما درى ما خطب موجوع

هذه هي لوحات مقتضبة من أدب الصحراء، تمثل نماذج من إنتاجهم الفني

الغزير.

5 - بعض صانعي ثقافة الصحراء

وإذا كان علينا أن نذكر العلماء الذين أسهموا في ترسيخ أصول هذه الثقافة فقد تستحيل علينا أي محاولة للاستقصاء، فكان لا مناص لنا من الاقتصار على عدد قليل من رموز كثيرة نشرت المعارف الإسلامية من حواضر فاس ومراكش ومن زوايا الجنوب من سوس العالمة كما لا يسعنا أن نغفل رافد الجنوب من المحاضر الشنقيطية كمدارس نبي آل محمد سالم وآل الشيخ محمد المامي.

ومما يحد من صعوبة الاستقصاء التي ذكرنا أننا لا نحتاج إلى التفرقة بين الفقهاء والمتصوفة والشعراء في معرض الحديث عن العلماء المغاربة، لأن الصفة المشتركة بينهم تتمثل في شمولية معارفهم وموسوعيتها.

5.1 - القاضي عياض

لنبداً أولاً بالقاضي عياض دفين مدينة مراكش، وهو العلم الذي لا يحتاج التعريف، فقد اشتهر حتى قيل "إن المغرب لا يعرف إلا به" والمبالغة في هذه المقولة تؤكد مكانة هذا العالم الموسوعي الذي ترك أثراً خالداً في الثقافة الإسلامية وقد عرفت مشايخه في غنيته ورجالاً مذهبهم في مداركه واشتهرت مشاركته في المغرب والمشرق حتى أثارت حفيظة الحاسدين وغيظة المعجبين وكان من حسناته الكبيرة كتاب «الشفاء» الذي زرع في نفوس المغاربة محبة الرسول المصطفى صلى الله عليه وسلم والالتزام بماله من حقوق، كان هذا الكتاب من أصول ثقافة الصحراء وروافد معارفهم في الحديث والسيرة النبوية، وتعود علماء الجنوب ختمه في المناسبات الدينية وتنافسوا في كتابته وتداوله. ومن الغريب أن سنده في المغرب جاء عن طريق المشاركة وهي رواية ابن الصائغ عنه في سند يمر بالقصار في المغرب وبزكرياء الأنصاري في مصر.

ودور القاضي في نشأة الثقافة في الصحراء لا يقتصر على عنايتهم بكتاب الشفا او بإكمال المعلم بل كان له من أهل الصحراء تلاميذه علماء مشهورون أمثال الشريف عبد المومن مؤسس مدينة تيشيت.

وتيشيت من أعرق مدن العلم في بلاد شنقيط واشتهر من علمائها الأفاضل أبناء حمى الله اصحاب النوازل المعروفة والعلماء الأعلام من أبناء امبوجه العلويون ومن مشاهيرها أيضا الحسن بن اغيد الزيدي الذي قيل فيه :

من فاته الحسن اليوسي صحبه عليه بالحسن الزيدي يكفيه
وفي هذا لمح إلى ما قيل عن الحسن اليوسي من قبل وهو :

من فاته الحسن البصري صحبه عليه بالحسن اليوسي يكفيه

ويرجع الفضل لأبي الفضل في عناية العلماء الصحراويين بعلوم الحديث وبأسانيد صحاحه وسننه ؛ وهكذا نرى المختار بن محمد بن الأعمش العلوي يجيز لتلاميذه رواية كتاب الشفا عن الحاج عبدالله بن محمد بن احمد بن عيسى المغربي عن محمد بن محمد بن أبي بكر الدلائي عن والده عن الفقيه القصار، ويذكر مؤلف فتح الشكور أن ابن الأعمش أجاز لتلاميذه رواية الإمام البخاري بسند متصل عن المشاركة ورواية قراءة الإمام نافع عن المختار بن سيد محمد عن الإمام عبدالرحمن بن القاضي الفاسي.

وممن سلك هذا المنهج في الاهتمام بعلوم الحديث بعد ابن الأعمش الإمام سيد عبد الله بن الحاج ابراهيم العلوي الذي أخذ علوم الحديث عن العراقي والأصول عن عمر البناني وكانت له صحبة وحظوة عند السلطان العالم المولى محمد بن عبد الله العلوي.

وكان ابن الحاج ابراهيم أول من أدخل أصول الفقه ومصطلح الحديث في مصنفاته المعروفة مثل مراقي السعود وطلعة الأنوار وغرة الصباح وهذه الأنظمة

صارت من مقررات المدارس الشنقيطية وبالتالي جزءا من الثقافة الصحراوية السائدة.

5.2 - محمد بن أجروم

ومن صانعي ثقافة الصحراء أيضا عالم اشتهر بالنحو وهو ابن أجروم صاحب المقدمة التي عمت الخافقين في البلاد الإسلامية وصارت المقرر الرسمي لمعرفة ما لايسع جهله من النحو، فإننا نرى أن مقدمته إنما كانت شجرة تغطي غابة علمه فلقد كان فريدا في استخراج فرائد معاني الشاطبية، وبارعا في نظمه البارع لمقررا الإمام نافع و في نكته في العروض حتى قال عنه ابنه منديل :

بسبويه سبينا كل فائده في صنعة النحو لا الكُراسَ والجمل
وفي مسائل أيضاح لنا وضحت من التصرف شمسُ بيته الحمل
وعند حزر الأمانى شاهد فطن اذ أُحرزت بحمانا تلكم السبل
وكم لنا من عروض الشعر من نكت يدري بذلك عنا الردف والعلل

وقد انتشرت هذه المقدمة في ربوع الصحراء ووضعت عليها شروح كثيرة لعل من أكملها شرح العلامة الشهير الشيخ سيدي الإنتشائي الموسوم بالنفحة القيومية وفي شرح الأجرومية كما قام أحد علماء الصحراء، وهو محمد بن اب المعروف بعبيد ربه بنظمها في أرجوزة متداولة في جميع الأوساط الجنوبية.

5.3 - ابن بري التازي

ولنا في أبي الحسن علي بن محمد التازي مثالا يؤكد ما رأيناه عند ابن أجروم، لقد عرف ابن بري في مناهج الثقافة الإسلامية بالعالم الذي نظم ما لا يسع جهله من قراءة الإمام نافع في أرجوزة الدرر اللوامع التي نالت من الشهرة والانتشار ما ناله مرشد ابن عاشر ومقدمة ابن أجروم. لقد وضعت على هذه

الأرجوزة عشرات الشروح و نظمت حولها مجموعة كثيرة من المعارضات والاستدراكات واعتمدت مقررا في مناهج التدريس في الزوايا والمدارس والمحاضر لما امتازت به من سهولة الأسلوب وجودة في العرض. وقد يظن دارسوها أن مؤلفها من أولئك العلماء الذين لا يحسنون غير اختصاصهم لكن عندما نطالع ترجمته فإننا سنكتشف انه "عالم كل فن" فقد كان نحويا كبيرا وأديبا بارعا وفقهيا ماهرا، فقد شرح تهذيب البرادعي للمدونة واختصر زهر الأداب للحصري وعروض ابن السقاط ووثائق الغرناطي، كما كان شاعرا مجيدا، نستشهد له بهذه الأبيات التي أجاز بها عمرو الفشتالي نظمه للدرر، ويقول فيها :

ما قاله وحكاه كاتبه ابو عمرو صحيح لا استرابة فيه	فليرو عني ما يشاء فإنه
ولقد خبرت زكائه فحمدته	أهل لكل فضيلة تعليه
وتحققت منه مخائل أوجبت	فيما يحاول فهمه ويعيه
وأفدته أرجوزتي وكتبتها	لعلاه رفعة جده وأبيه
فالله يحفظ مجده ويشيده	بيدي وذاك غاية التنويه
والعذر في نثري ونظمي انني	ويسره في أهله وذويه
	أرسلت فيه رويتي وبديهي

وبعد ابن بري برزت مجموعة من شيوخ القراء اصلت في علومها في الشمال والجنوب نذكر منها شيخ الجماعة محمد ابن غازي والإمام عبدالرحمن بن القاضي وقطب سجلماسة الحبيب اللمطي الذي هو شيخ عمدة القراء في بلاد شنقيط وهو الشيخ سيدي التواجيوي.

فهؤلاء الأعلام كان لهم كامل الفضل في ترسيخ ثقافة القرآن في المجتمع الصحراوي الذي لا يوجد حي من أحياءه إلا وله معلم قرآن ولا يوجد فيه بيت إلا وفيه لوح قراءة.

4.5 - الشيخ ماء العينين

وفي ختام الحديث عن صانعي الثقافة في الصحراء، نختم هذا العرض الموجز بخاتمة المحققين العالم الأجل الشيخ محمد بن المصطفى بن الشيخ مامين المعروف بماء العينين. إنه الموسوعي الذي كان في كنانته أكثر من سهم ضرب منها كثيرا في الجهاد ضد الاستعمار وكثيرا في التربية والتعليم فكان له فيها القدر المعلى وتخرج على يديه عشرات الأئمة وألف عشرات المصنفات البديعة في سائر الفنون، ولقد كانت زاويته بالسمارة مأوى الطلبة والمرتدين ومنطلق المجاهدين وكعبة الوافدين الذين ارتووا من بحوره المعينية.

ها هي باختصار شديد، أمثلة من مقومات ثقافة الصحراء التي استمدت طاقتها من قوة الإيمان واستجلبت روافدها من ينبوع الحضارة الإسلامية فاعتمدت شعار: الرباط، الجهاد والعلم.

جاهدت مع الفتح الإسلامي في المغرب عند بزوغه ونصرت رواده الأوائل، ووطدت أركان دولة الإسلام في مراكش، وهبت لنصرة المسلمين في عدوة الأندلس، ورابطت في ثغورها قرونا عدة، وكافحت طغيان الاستعمار بغلظة وشراسة وشرف، وظلت تتحدى ظروف الحياة القاسية في بواديها العالمية، فأنشأت أرفع الجامعات تحت الخيم المتنقلة، وفوق متون الجمال، فحق لأحد علمائها الإبرار أن يقول :

ونحن ركب من الأشراف منتظم أجل ذا العصر قدرا دون أدنانا

قد اتخذنا ظهور العيس مدرسة فيها نبين دين الله تبيانا

وهاهي الصحراء ما زالت إلى اليوم مخصصة لعهود بيعتها، ووفية لوعود وطنيتها، وستظل إن شاء الله موطن الفخر والإباء، ومنبع البذل والعطاء.

المدارس العلمية في الصحراء ومساهمتها في إغناء الثقافة المغربية

محمد الظريف

الموضوع الذي اسعد بالمشاركة به في هذه الندوة العلمية القيمة التي تنظمها - مشكورة - أكاديمية المملكة المغربية حول ثقافة الصحراء في هذا الظرف الذي انكشفت فيه نوايا أعداء الوحدة المغاربية وسقطت فيه أقنعة الزيف والخداع وشعارات الدفاع عن حرية الشعوب وحقها في تقرير مصيرها يتناول مساهمة المدارس العلمية في أقاليم المغرب الصحراوية في إغناء الثقافة المغربية.

وهو موضوع متشعب يصعب الحديث فيه بعد أستاذنا الدكتور عباس الجراري عميد الأدب المغربي ورائد البحث في ثقافة الصحراء الذي أحاط في عرضه القيم في الجلسة الافتتاحية لهذه الندوة بالثوابت الأساسية لثقافة الصحراء ودور هذه الثوابت في تثبيت الوحدة المغربية في أبعادها المختلفة، ولن تكون كلمتي بعده وأنا أقدم هذا العرض المتواضع من هذا المنبر العلمي الأكاديمي الذي ينتمي إليه الا كمن يقدم التمر الى هجر، وسأقتصر فيه على ثلاثة أنماط مدرسية هي :

1 - المدرسة/الرباط، وهي مؤسسة تربوية تجمع بين التكوين التربوي والعلمي والتأطير السياسي. وقد عرفت بلاد المغرب هذا النمط من المؤسسات منذ انتشار الاسلام في ربوعها مثل رباط شاكرا ورباط تيط ورباط ماسة ورباط الشيخ أبي محمد صالح ورباط تنمل وغيرها من الربط التي امتدت على طول السواحل المغربية.

ويعتبر رباط عبد الله بن ياسين الجزولي نموذجا فريدا لهذا النمط من المؤسسات في الصحراء. ويبدو من خلال الأسس التي بني عليها والمقاصد التي كان يرمي الى تحقيقها أنه أقيم أساسا لتطويق المذاهب الاسلامية المخالفة للسنة والجماعة في الغرب الاسلامي وإيقاف المد الاسلامي غير السني الذي كان يتسرب الى بلاد السودان عبر القوافل الرسمية التي احتكرت تجارة الصحراء، وهو نفس الدور الذي قام به السلاجقة في المشرق وأكمله الأيوبيون في مصر ونهض به الزيرون في إفريقيا وتممه المرابطون في باقي أجزاء المغرب.

وقد انصب اهتمام هذه المدرسة في 'بداية على التربية والتهذيب وتطهير العقيدة الاسلامية مما شابها من انحراف وفساد، لأن الإسلام كان منتشرًا في الصحراء ومعتمدا عند الكثير من قبائلها قبل ظهور عبد الله بن ياسين، وإنما أصابه شيء من الوهن والضعف لبعده هذه المنطقة عن المراكز الاسلامية السنية ومجاورتها لبعض الممالك الوثنية، وتسرب بعض المعتقدات الباطنية إليها وتأثيرها على بساطة إيمان سكانها، وذلك ما يظهر من خلال الممارسات التي حاربها عبد الله بن ياسين كالزواج بأكثر من أربع نساء والجهل وعدم التقيد بالشرع ومخالفة الجماعة وغيرها. ويبدو أن عبد الله بن ياسين كان متشددا في موقفه من هذه الممارسات، فاستخدم أساليب صارمة في تقويمها، فكان يضرب المتخلف عن صلاة الجماعة عشرين سوطا وخمسة أسواط لمن فاتته ركعة - حسب رواية البكري - مما أثار النقمة عليه وجعل الناس ينفضون من حوله،

فانتدب مكانا قصيا، وأنشأ رباطا للعلم أمه المئات من الطلبة الذين التفوا حوله وأخذوا عنه الاسلام الصحيح الى أن اكتمل عنده ألف من المرابطين، عندئذ انطلق من رباطه يجاهد الكفار والمنحرفين الى أن توفي سنة 451 هـ/1059م⁽¹⁾.

ولعل هذا الرباط يمثل أقدم مدرسة علمية في الصحراء تعتمد مذهب السنة والجماعة وأول تجربته سياسة وحدودية في تاريخ الغرب الاسلامي تجمع بين ولاية الفقيه وولاية الأمير، وهي تجربة ستستمر في المغرب بأشكال مختلفة وصيغ متعددة، ولذلك توالى على مهمة الإرشاد الفقهي بعد وفاة عبد الله بن ياسين سنة 451 هـ 1095م مجموعة من الفقهاء. مثل سلمان ابن عذرا الذي توفي بعد سنة من توليه هذه المهمة⁽²⁾، والامام أبي بكر محمد بن الحسن المرادي الحضرمي م سنة 489 هـ/1094م، صاحب كتاب "الإشارة الى أدب الإمارة" الذي اقترح فيه المؤسسات الضرورية لقيام الدولة الراشدة والطريقة المثلى لتدبيرها، والأخلاق المثالية التي ينبغي أن يتحلى بها الأمراء. ولما توفي الامام الحضرمي خلفه إبراهيم الأموي جد قبيلة المدلش. فهو الفقهاء هم أقطاب هذه المدرسة التي رسخت المذهب المالكي والأشعرية في الصحراء وشكلت أول نواة محضرية بها.

2 - النمط الثاني، ويتمثل فيما يمكن أن يسمى بالمدرسة/المحظرة، وهي

كما عرفها الخليل النحوي جامعة شعبية بدوية متنقلة، تلقينية، فردية التعليم، طوعية الممارسة، تستقبل كل من يرد عليها من جميع المؤسسات الثقافية والفئات العمرية والجنسية والاجتماعية⁽³⁾، ويمكن اعتبارها وريثا شرعيا للنمط السابق وامتدادا له، ومن أبرز المدارس التي تندرج ضمنها :

- محضرة آل محمد سالم، وتنسب إلى آل محمد سالم المجلسي أحفاد

ابراهيم الأموي الذي استصحبه أبو بكر بن عمر من أغمات الى الصحراء، واعتمد عليه في التعليم والقضاء في مجلسه، ويعرفون بالمدلش وهو محرف من

المجالسة لأن الناس كانت ترحل اليهم في طلب العلم⁽⁴⁾ وتحضر مجالسهم، وقد اشتهرت بالعلم والأدب وظهر فيها علماء وأدباء كبار مثل الشاعر الهجاء بوفمين الذي اشتهر بهجاء قبيلة إذا بلحسن، وهو معاصر لابن رازكة والأحنف المجلسي، وهو شاعر هجاء أيضا، وأحمد البدوي المجلسي صاحب المنظومة المشهورة في عمود النسب التي نظم فيها أنساب قبائل الصحراء، وحماد المجلسي اللغوي المشهور ومحمد بن سالم صاحب «لوامع الدرر في شرح المختصر» و«الريان في تفسير القرآن»، وأبناؤه محمد حمد الله وعبد القادر وعبد الله⁽⁵⁾ وغيرهم.

وقد تميزت هذه المدرسة بموسوعيتها مع تميزها في الدراسات الفقهية والحديثية وعلوم الأنساب. ولم يقتصر العلم فيها على الرجال بل شمل النساء أيضا، وهذه ميزة تميز ثقافة الصحراء بصفة عامة، فمما يذكر عن أهل تجكانت على سبيل المثال أنه كانت توجد فيهم ثلاثمائة جارية تحفظ موطأ مالك، فضلا عن غيره من المتون، وفضلا عن الرجال⁽⁶⁾. ومن أبرز العالمات اللواتي تخرجن من هذه المدرسة السيدة هندو بنت عبد الله حمد الله المتوفاة سنة 1372 هـ. حفيذة الشيخ محمد بن محمد سالم. فقد اشتهرت هذه العالمة بالتدريس والتأليف وتخرج على يدها مجموعة من العلماء والعالمات منهم ابنها الشيخ حبيب الله الذي قرأ عليها القرآن ومختصر خليل وغيره من المتون، ومن تأليفها كتاب «الدر الأسمى في أسماء الله الحسنى»، ونظم في فروع الشيخ خليل، وهو رجز في 400 بيت، وبعض الألغاز الفقهية.

وتتميز هذه المدرسة بالاضافة الى موسوعيتها بميزة واضحة تشترك فيها مع سائر المدارس العلمية في الجنوب المغربي وهي وفاء علمائها للدولة العلوية الشريفة واعتزازهم بمغربييتهم، ومن الأدلة على ذلك قول عبد القادر بن محمد بن محمد سالم المجلسي في كتابه ثمان الدرر في قضية التعامل مع النصارى الاسبان بعد خروجهم في الداخلة زمان السلطان مولاي الحسن: "وتعيين الامام واجب كتابا وسنة واجماعا وطاعته كطاعة ر. ل الله، ومعصيته كمعصية رسول

الله. وباختصار عما بعد ذلك أحببت تبين حقوق سلطاننا أمير المؤمنين الحسن ابن أمير المؤمنين محمد علينا، وأن ما جرعتنا النصارى من المضض وقطع الطريق لايسينج جواز العمل بغير أمره ونهيه، ومن رأى من النصارى غير هذا، فهو - والعياد بالله تعالى يرفل في غياهب جهله وخسران عمره، وكيف لا وقد ضل سواء السبيل، ومن خرج عن بيعته وما: - النصارى بعقيرته فهو ممن نص العلماء على أن جهاده احب اليهم من جهاد الروم، لأن أمير المؤمنين الحسن بن أمير المؤمنين محمد أمد الله في حياته وأولاه الأوفر من نصره وعنايته وجعل أعاديته أحاديث ومزقهم كل ممزق قد تسلسلت البيعة الشرعية في أسلافه الكرام، وغرست امامتهم من منبعين عريقين اصليين هما الشرف والدين، فلا يجوز اليوم لمن يؤمن بالله ورسوله الخروج عن طاعته ولا التبرم عن امرته ، لاسيما في هذا الزمان الذي بلغت فيه شوكة النصارى الربا وبلغ سيلهم الزبا⁽⁷⁾.

وهذ المسألة تناولها كثير من فقهاء الجنوب المغربي وأصدروا فيها فتاوى كثيرة تجمع على وجوب طاعة الامام والعمل بمقتضى مايراه مناسبا، مثل الشيخ محمد العاقب بن مايابا الجكني والشيخ ماء العينين وغيرهم، وهي دليل قاطع على أصالة مغربية الاقاليم الصحراوية المسترجعة.

- محاضرة الشيخ محمد المام، وهي مدرسة علمية بدوية موسوعية مثل محضره آل محمد سالم، وقد مارست نشاطها التربوي والعلمي في منطقة تيرس ومايلها من مناطق صحراوية وامتد نفوذها الى الساقية الحمراء، فكان لها نفوذ قوي في أولاد دليم وأولاد اللب وأهل بارك الله وغيرها. وهي ترتبط بالشيخ محمد المام المتوفى سنة 1292 هـ 1875 م، وهو من علماء أهل بارك الله المتميزين في الجنوب المغربي، اشتهر بالتحريير والشعر والفتيا فبلغت مؤلفاته 400 كتاب، وقد تحدثت عن كروية الأرض، وعالج العديد من القضايا الفقهية المتصلة بالصحراء بنظرة واقعية وروح تجديدية، ومن أبرز اعماله كتابه البادية، والخراج الأول، والخراج الثاني وغيرها.

وقد اشتهرت هذه المدرسة بالدراسات الفقهية مثل مدرسة آل محمد سالم. ومن أبرز المميزات التي تميزها :

اقتصارها على مؤلفات الشيخ محمد المام في التدريس. فعلى الرغم من تداول علماء وطلبة هذه المدرسة للمتون المعتمدة في باقي المدارس المغربية ومعرفتهم بها وحفظهم للكثير منها، فقد كان الشيخ محمد المام يعتمد في التدريس على ماحرره من رسائل وألّفه من مدونات. وهذه ميزة تميز هذه المدرسة عن غيرها من المدارس.

الميزة الثانية، تتعلق بالتوجه الفكري العام لهذه المدرسة، وهو توجه توفيقى يخالف التوجه النصى الصارم الذي حافظ على التقاليد الثقافية المرابطية في الصحراء. وقد اختار الشيخ محمد المام هذا التوجه الفكري للتوحيد بين الاتجاهات الفكرية المختلفة التي كانت تعرفها الصحراء، وقد عبر عن ذلك في كتابه البادية بقوله "إني لما رأيت علماء الوقت بين حيزين، حيز أصولي ينحو نحو الاجتهاد (يقصد اتجاه مدرسة ابن بون) الجكنى ويذم التقليد... وحيز ينحو نحو الفقه، ويقول نحن خليليون إن ضل خليل ضلنا (ويقصد الاتجاه الفقهي الذي يأخذ بالفروع ومن أعلامه النابغة الغلاوى ومحمد بن محمد فال، نذبت من فيه أهلية الجمع أن يجمع بينهما امتثالاً للآية الكريمة: (إن الله يامر بالعدل والاحسان) والعدل الامور المتوسطة بين طرفى الافراط والتفريط"(8).

إخلاص علماء هذه المدرسة لمولك الدولة العلوية الشريفة ووفائهم لبيعتهم. وقد عبر الشيخ محمد المام عن ذلك في قصيدته السلطانية التي ختم بها نظم مختصر الشيخ خليل في الفقه المالكي وأهداها الى السلطان سيدي محمد بن عبد الرحمان. يقول في بعض أبياتها معبرا عن محبته لهذا السلطان وإيثاره على غيره بهذا النظم الفريد :

فإن تلح لعين كفاء في الصفا
 فنزل الملوك عن ذا الشأن
 كأنما كانت له مذكوره
 إمام أهل المغرب الموفق
 أشرق في الغرب زمان الغيـهـب
 وإنما كانت به مقرونه
 ومن فوائد الخزان التي
 يسعى بها إليكم قصير
 لم يستطع طرفاه عنها مصرفا
 للملك ابن عابد الرحمان
 لكنها عن غيره مؤخرة
 لواؤه لسمرقند يخفق
 وقد يكون مشرق بمغرب
 إذ هو من دولته الميمونة
 منها ارتوت نفوسنا وعلست
 في عشرات دهره أسير⁽⁹⁾

وقد اهتمت هذه المدرسة بالإضافة الى نشر العلم وبثه بين القبائل بالدعوة الى الاصلاح واستنهاض الهمم لرفض الظلم ومواجهة الظلمة فكان الشيخ محمد المام ينظر بمرارة الى تخادل الزوايا في مواجهة ظلم قبائل حسان ورضاهم بما فرضته عليهم من شروط قاسية، فدعاهم الى توحيد صفوفهم ومواجهة أعدائهم، لكن دعوته لم تحقق أهدافها. وقد أصاب هذه المدرسة شيء من الفتنور بعد وفاة الشيخ محمد المام وذلك بسبب الخلافات التي وقعت بين أبنائه، فقد أفتى بعضهم وعلى رأسهم عبد العزيز بعدم وجوب الزكاة عليهم محتجين بأن حسان يأخذون منهم الأمكاس ظلما، وأسقطوا الفريضة على ازنائجة عامة، فنبههم أخوهم صلاح الى خطئهم ودعاهم الى العمل بما تنص عليه الشريعة في ذلك ، لكنهم ناصبوه العدا⁽¹⁰⁾ فآثر ذلك على سمعة هذه المدرسة وعجل بانكماشها.

3 - محاضرة آل الأعمش بتندوف ، وهي محاضرة علمية موسوعية، اشتهر علماءها بالتأليف ونشر العلم، كما توارثوا ظواهر التوقير والتكليف بمهام القضاء والفتيا من طرف ملوك الدولة العلوية. وقد برز فيها عدة علماء، منهم ابن الأعمش مؤسس مدينة تندوف سنة 1279 هـ وباني جامعها ومدرستها وابنه محمد المختار

المتوفى سنة 1285 هـ وأحمد دكنا وغيرهم. وقد زارها الشيخ ماء العينين واطلع على ماتحتويه مكتبتها من مخطوطات نفيسة في بداية مسيرته التربوية أيام جولانه في زمر وتيرس والساقية الحمراء قبل أن يستقر بالسمارة، كما خصها العلامة المختار السوسي بمقالتين قيمتين تحدث فيهما عن نشأتها وشيوخها وبعض العلماء الذين درسوا بها مثل اللغوي محمد محمود التركي والعلامة محمد يحيى الولاتي وخرانتها العلمية وما أصابها من نكبات بعد الغزو الفرنسي الاسباني لأقاليم المغرب الجنوبية، ولجوء بعض علمائها الى بلاد السوس واستقرارهم بربوعها⁽¹¹⁾ وتتميز هذه المدرسة بموسوعية عطائها الفكري والتربوي، مع تميزها في الدراسات الفقهية والأصولية وانخراط علمائها في الخدمات المخزنية فتوارثوا القضاء والفتيا والتوجيه التربوي بمقتضى عدة ظواهر سلطانية، نذكر منها.

1 - رسالة يأذن فيها السلطان مولاي الحسن لقبيلة تجكانت التي تنتمي إليها هذه المدرسة بإقامة صلاة الجمعة في مجتمع حيهم باعتبارهم رعايا مغاربة ينتمون الى الإيالة المغربية.

تقول هذه الرسالة: (الحمد لله وحده وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه، يعلم من كتابنا هذا أعلى الله مناره وجعل في الصالحات طيه وانتشاره أننا بحول الله وقوته وشامل يمنه ومننه أذنا لقبيلة تجكانت من إيالتنا السعيدة المصونة والمستظلين بلواء خدمتنا الشريفة الميمونة فيما طلبوه من الإذن في إقامة صلاة الجمعة في مجتمع حيهم حيث توفر الشرائط وتعينها عليهم مع كون المسجد الجامع متصلا بأبنيتهم....)⁽¹²⁾ وقد تم تحرير هذه الرسالة في 21 من شعبان سنة 1302 هـ.

2 - ظهير حسني يولى بمقتضاه السلطان مولاي الحسن العلامة أحمد بن محمد البلعمشي الجكني خطة القضاء بقبيلة تجكانت، ومما جاء في هذا الظهير (الحمد لله وحده وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد وآله وصحبه وسلم تسليمًا.

يعلم من كتابنا هذا أعلى الله مقداره وأجرى على ذلك الاسعاد مداره أننا بحول الله وقوته وشامل يمنه، ولينا الطالب أحمد بن محمد العمشي الجكاني في خطة القضاء بقبيلة هل تجكانت على أن يتولى الحكم بما جرى به العمل أو الراجح أو المشهور من مذهب إمامنا مالك رضى الله عنه). وقد تم تحرير هذا الظهير بتاريخ 24 شعبان 1303 هـ⁽¹³⁾.

وتندرج ضمن هذا النمط من المدارس مجموعة أخرى من المحاضر لايسمح الوقت ببسط الكلام عنها، مثل محاضرة آل سيدي بويكر ومحضره أهل الليلي ومحاضر الرقيبات واليعقوبيين وغيرها. وكلها اشتغلت بالتربية ونشر العلم وحظيت بالاحترام والتوقير من مختلف فئات المجتمع الصحراوي.

النمط الثالث والأخير من المدارس، هو ما يمكن ان نسميه بالمدرسة/

الزاوية وهي مؤسسة تربوية ترتكز في منظومتها التربوية على الجمع بين الشريعة والحقيقة. وقد ارتبط هذا النمط من المدارس بانتشار الزوايا في المغرب ومساهمتها في تدبير شؤونه المختلفة الدينية والدنيوية، ومن أبرزها زاوية الدلاء وتامكروت وإيلغ وأبي الجعد وغيرها، فلم ينحصر نشاط هذه المؤسسات في تلقي الأوراد والأذكار وفض النزاعات بين المتخاصمين ودفع الغزاة عن البلاد، ولكنها كانت في نفس الوقت بيوتا للعلم ومنازل للمعرفة بجميع ألوانها وفي شتى مناحيها.

وتعتبر زاوية الشيخ ماء العينين من أبرز المدارس التي تمثل هذا النمط من المؤسسات في أقاليم المغرب الصحراوية، وسأخالف صديقي وأخي الدكتور حمداتي ماء العينين الذي تجاوز في عرضه القيم الذي ألقاه في الجلسة الصباحية ذكر أسماء أعلام هذه المدرسة تواضعا منه لا خوفا كما يمكن أن يفهم البعض أو تجاوزا لإثارة الحساسيات كما ذكر في عرضه لأنه ينتمي الى هذه المدرسة ويأنف من الحديث عن نفسه والتحرج من ذكر أهله وذويه كما أعرفه،

وأرى أن نجهر بالحديث عنها ونذكر فضائلها على الثقافة المغربية ودورها في تثبيت وحدتنا في مستوياتها المختلفة، لأن هذه المدرسة كانت نعمة من الله على المغرب ومن الايمان التحدث بالنعمة والفضائل كما جاء في القرآن الكريم وذكرها واستحضارها واستلهامها في بناء الذات ومعركة الحياة.

وليس هناك ما يدعو الى الحرج في ذكر أسماء أعلام هذه المدرسة وغيرها من المدارس والمؤسسات التي عرفتها الصحراء لأن ما قدمته للمغرب لم يكن من إبداع الشيخ ماء العينين وحده أو الشيخ أحمد الهيبة والشيخ مربيه ربّه والشيخ محمد الأغظف وغيرهم، ولكنه تحقق بمساهمة جميع قبائل الجنوب المغربي، لأن التاريخ بصفة عامة في جوانبه المختلفة لا يشيده الأفراد ولكنه بناء جماعي تشارك فيه الجماعة البشرية بمختلف فئاتها وشرائعها، فلم يهاجم الشيخ ماء العينين الاسبان وحده، ولم يبين السمارة وحده، ولم يواجه ابنه الشيخ احمد الهيبة وحده القوات الفرنسية في سيدي بوعثمان، ولكن شيوخ هذه المدرسة تولوا هذه الامور بتعاون مع جميع القبائل المغربية في الصحراء وسوس وتادلة وغيرها. انطلقت هذه المدرسة في نشر العلم والمعرفة داخل الصحراء في النصف الثاني من القرن 19 في مجال واسع يمتد من وادي نون الى بلاد ادرار. ويمكن ان نيمز في تاريخها بين ثلاث مراحل.

المرحلة الأولى تمتد من سنة 1276 هـ - 1860 م الى سنة 1321 - 1903م. وتمثل أصعب وأطول مراحلها. فخلالها لم يعرف مؤسسها الشيخ ماء العينين الاستقرار في مكان محدد، بل ظل ينتقل بأتباعه ومريديه بين القبائل وينشر مبادئ مدرسته في مضاربها وأحيائها الى أن استقر بداره بالسمارة بعد اكتمال بنائها سنة 1321 هـ-1903م ، فأقام في البداية في أدرار، ثم انتقل الى تكّانت ثم رحل الى أرض زمور ثم انتقل الى وادي نون ثم رجع الى تكّانت وأدرار مرة أخرى. ثم رجع إلى الساحل، ثم انتقل ثانية الى الساقية الحمراء وبنى داره الأولى قرب ضريح الشيخ سيدي أحمد العروسي، ثم داره الثانية بالملتقى التي ظل بها الى أن تم استكمال بناء حاضرة السمارة⁽¹⁴⁾.

المرحلة الثانية : وتمتد من سنة 1321 هـ-1903م الى سنة 1907-1327 هـ. وتمثل أزهى مراحلها وأكثرها عطاء على الرغم من قصرها. فخلالها بلغت أوج عظمتها ومنتهى تألقها، فقصدها العلماء والطلبة من مختلف الأفاق مثل علماء تجكانت وآل محمد سالم وأولاد ديمان وتندغة وغيرها. وتفرعت عنها مجموعة من الفروع خارج الصحراء مثل زاوية الصويرة وأسفي ومراكش ومكناس وفاس ووجدة والناظور وغيرها، فبلغ عدد تلامذتها عشرة آلاف تلميذ حسب شهادة أحمد ابن الامين الشنقيطي الذي زارها واتصل بشيخها...

يقول في وصفها والحديث عن شيخها: (وقد اجتمعت به حين خروجي من مدينة شنقيط الى مراكش في توجهي الى الحجاز ورأيت منه ما حيرني لأنني أقدر من معه في وادي السمارة من الساقية الحمراء بعشرة آلاف شخص. ومتى بلغ الانسان قريبا منه سمع دوي مريديه يذكرون الله وينشدون الأدعية، ورأيت في تلك الأيام التي أقمت عنده لاتفوته صلاة الجمعة في أول الوقت مع كبر سنه وضعف جسمه .. وبعد صلاة العصر يسردون الحديث، وهو يسمع ثم يشرح لهم بعض المواضع منه⁽¹⁵⁾).

المرحلة الثالثة: وتمتد من سنة 1327 هـ 1909م الى البدايات الأولى لاستقلال أقاليم المغرب الشمالية، وتمثل أقسى مراحلها وأكثرها اضطرابا ، فبعد وفاة الشيخ ماء العينين بتزنية سنة 1910، بعد أحداث تادلة وفاس، واصل أبناؤه ومريده رسالته التربوية والجهادية في ظروف صعبة تنقلت خلالها هذه المدرسة عبر عدة أماكن مثل تزنية وتارودانت وكردوس ووجان وطرفاية وطنطان وغيرها. وظلت تواصل رسالتها التربوية والجهادية على يد أبناء الشيخ ماء العينين ومريديه مثل الشيخ أحمد الهيبة والشيخ مربيه ربه والشيخ محمد الأغظف والشيخ محمد الامام والشيخ الولي وغيرهم إلى أن تم استقلال أقاليم المغرب الشمالية، فانخرط بعض أعلامها وشيوخها في العمل التربوي داخل بعض المدارس العلمية في

الشمال مثل القرويين وابن يوسف والمسجد الجامع بتازا وبعض مساجد الرباط وفاس وتطوان وغيرها.

ويرتكز النشاط التربوي لهذه المدرسة على جانبين :

1 - التدريس ويتمثل فيما كانت تقدمه للطلبة والمريدين من معارف وعلوم في مختلف المجالات، وكان ينهض بهذه المهمة شيوخ كبار من مختلف التخصصات مثل الشيخ زيني وابن مباله ومحمد العاقب بن مايايا والشيخ الحضرام ومحمد فاضل ابن الليل اليعقوبي ومحمد محمود بن البيضاء وغيرهم من العلماء والشيوخ الذين التحقوا بهذه المدرسة بعد احتلال بلاد شنقيط بالاضافة الى الشيخ ماء العينين وأبنائه من بعده.

وكان هذا النشاط يتم وفق برنامج محدد وطقوس محددة، فكان الشيخ ماء العينين على سبيل المثال كما تذكر كتب المناقب التي اهتمت بسيرته يشرع في انجاز برنامجه التربوي منذ طلوع الفجر⁽¹⁶⁾، فبعد أن يصلي صلاة الصبح بالناس وينتهي من تسبيحه وتقديسه وتهليله وقراءة أوراده يرد وجهه نحو الجماعة فيأخذ (ض) في تعليمهم على اختلاف طبقاتهم، فمنهم من يتعلم الفقه والقواعد والنحو والبيان والمنطق، ومنهم من يتعلم اللغة والعروض والشعر، ومنهم من يتعلم التصوف والحكم الى غير ذلك من سائر العلوم النافعة من تأليفه النافعة (ض) وغيرها،⁽¹⁷⁾ وعندما ينتهي من تعليم المريدين والتلاميذ المقيمين بزوايته ينتقل الى بيته فيشتغل بتعليم أولاده ذكورا وإناثا، كما يعلم التلاميذ في مدرسته، وكان لا يترك التعليم إلا في أيام الأعياد ويوم الخميس⁽¹⁸⁾.

وقد اتبعه في هذا المنهج التربوي مختلف أبنائه ومريديه في مختلف فروع زاويته في الصحراء وخارجها، وتخرج من مدرسته ونال إجازاته عدد كبير من العلماء والأدباء بصيغ مختلفة وطرق متعددة مثل المناولة والمصافحة والسماع والحديث والاجازة وغيرها من الطرق المعروفة في التعليم العربي الأصيل. ومن

الذين أخذوا عنه السلطان مولاي عبد الحفيظ والفقير أحمد بن موسى والباشا محمد بن الطيب الصبيحي وعبد السلام ابن علي الويسانى القلعي الريفي وابنه محمد مقدم زاوية بني أنصار وعبد الله الكرسيفي وغيرهم⁽¹⁹⁾.

2 - التأليف، ويتمثل فيما حرره شيوخ هذه المدرسة من رسائل وأفوه من نفائس الكتب من مختلف العلوم. ويتصدر الشيخ ماء العينين علماء مدرسته في هذا الباب. فقد أوتي قدرة خارقة على التأليف والتحرير فخلف أكثر من 153 كتاب. وكانت له طقوس خاصة في ذلك، فعندما ينتهي من تعليم مريديه يأتي بيته الذي أعده لوضع الكتب وفيه ماينيف على المائة من الصناديق المملوءة كتباً في كل فن، فتارة يكون خيمة الكتب، أو يكون داراً فتسمى دار الكتب، وليس فيه أحد من زوجاته بل فيه أحظى سراريه عنده وأحبهن إليه وهي القائمة بأمر ذلك البيت⁽²⁰⁾ وبعد قراءة أوراده وتفقد أحوال بيته والانتهاه من تدريس أولاده يشتغل بالتأليف، فيؤلف ما شاء الله من نظم ونثر كأنه يملي ذلك من صدره⁽²¹⁾. وقد اقتدى به أبناؤه وأحفاده ومريدوه في هذا المجال، فخلفوا ثروة غنية من المؤلفات والدواوين والرسائل⁽²²⁾.

وتتميز هذه المدرسة بمجموعة من المميزات منها :

1 - وحدوية الرؤية التربوية، فالعطاء التربوي والعلمي في هذه المدرسة ينبني على التنوع والتكامل بين العقل والروح ومراعاة التوازن بين التكوين العلمي الأصيل القائم على شحذ العقل عن طريق العلوم الدينية والشرعية وصقل الروح وتهذيبها بمختلف المجاهدات وأنواع الطاعات، وفي هذا السياق تدخل كتابات الشيخ ماء العينين الداعية إلى التوحيد والتوفيق والتكامل، مثل كتاب "مفيد الراوي على أني مخاوي" في الدعوة إلى توحيد الطرق الصوفية، وكتاب "المراقق على الموافق" و"دليل الرفاق على شمس الاتفاق، وغيرها.

2 - الاتصال بالحياة والانخراط في همومها ومشاغها الكبرى. فلم يكن عطاء هذه المدرسة سلبيا ماضويا كما يتصور الحداثيون في فهمهم للتراث العربي الاسلامي بصفة عامة، ولكنه كان منخرطا في الحياة في كل جزئياتها، يساهم في بناء الذات المغربية وتحسينها ووجهة التحديات التي كانت تهددها. وفي هذا الاطار تندرج تربية المريدين وتأطيرهم للدفاع عن وحدة المغرب وسيادته وكتابات الشيخ ماء العينين والشيخ مربيه ربه ومحمد العاقب ومحمد الامام وابن العتيق وغيرهم من علماء هذه المدرسة وأدبائها في فقه الجهاد وأدب المقاومة مثل "هداية من حارا من أمر النصارى"، و"صولة الكار في تحريم الاقامة مع الكفار" و"لبانة المجاهدين وغيرها.

3 - تشبث علماء هذه المدرسة بهويتهم المغربية فكراً وعقيدة واختيارا سياسيا، فقد ارتبطت الثقافة في هذه المدرسة بمحبة الوطن والدفاع عن وحدته والاخلاص لأولي الأمر فيه، فكان الشيخ ماء العينين وأبناؤه ومريدوه على امتداد تاريخ هذه المدرسة يترددون على ملوك الدولة العلوية وخلفائهم في مراكش وفاس وتطوان لتجديد الولاء والبيعة والتشاور في أحوال المغرب والمشاركة في الدفاع عن وحدته وسيادته.

ومن الوثائق التاريخية التي يمكن إدراجها في هذا السياق على سبيل المثال لا الحصر، قول الشيخ ماء العينين في رسالة وجهها الى القائد إدريس بن يعيش في أواخر رجب سنة 1302 هـ 1884 م يشعره فيها بخروج الاسبان في الداخلة وطرد أتباعه لهم منها باعتبارها جزءا من الإيالة المغربية، وهي مكتوبة بخط الشيخ ماء العينين وقد تعمدت إيرادها في هذه المناسبة التي تصادف طمع أعداء وحدتنا في اقتطاع هذا الجزء الساحلي من صحرائنا للتذكير بمغربيتهما وبما بذله السلف من تضحيات في الدفاع عنها.

يقول الشيخ ماء العينين في هذه الرسالة (الحمد لله وحده والصلاة على أفضل من عبده، وبعد فمن كويتبه سلام يحفه التقديس ويزفه ويقوده ويأتي معه

التأنيس الى مريدنا الصادق حفظنا الله وإياه من بأس كل بعيد وقريب وجليس، ولا جعل علينا ولا عليه سبيل ضرر للثقلين ولا 'يس، فموجبه إليك بعد السؤال عن حالك وحال مالديك أني ما كان بخاطري في هذا العام إلا القدوم عليكم حتى وقع خبر بيننا مع قوم النصارى لعنهم الله، وذلك أنهم أرادوا البنيان في هذه البلاد فأرسلت لهم قوما من التلاميذ معهم قوم من العرب وغيرهم، وقلت إن كان عندهم أمر من السلطان فسمعا وطاعة وإلا فادعوهم للإسلام أو الجزية عن يد وهم صاغرون وإلا فالحرب، فلم يجدوا عندهم أمرا من السلطان، فلم يفعلوا الأولتين، فقتل منهم قومنا مما قتلوا وأسروا منهم من أسروا، ثم أطلقوا الأسارى فداء اجتهادا منهم... والآن أحب ان أعلم ما فعل في أمر الزاوية وغيرها من لاياتي بمثله الزمان، وأحب أن أعلم أحوالكم وأنا مسلّم على السلطان بسلام، كيف عنده هذا الذي كان، ومسلم على من هنالك من أحياب بالتمام ، وعلى المحبة والسلام. كويتبه عبيد ربه وأسير دنبه ماء العينين بن شيخه الشيخ محمد فاضل بن مامين، غفر الله لهم وللمسلمين أمين⁽²³⁾، وأخر رجب الفرد عام 1302هـ. فهذه الوثيقة دليل قاطع على وحدوية هذه المدرسة، وهي تؤكد بما لا يحتاج الى بيان حقوق المغرب التاريخية في صحرائه وتعلق المغربية منذ بداية التآمر على السيادة المغربية بوحدة المغرب وبالعرش العلوي.

هذه لمحات عابرة وسريعة حول المدارس العلمية في أقاليم المغرب الصحراوية ونستنتج منها مايلي :

1 - إن أقاليم المغرب الصحراوية لم تكن أبدا تعاني من البؤس الفكري والجذب الثقافي، ولم تكن عقلية أبنائها جافة وجامدة مثل فيا فيها المقفرة - كما يدعى رواد النظرية الاقليمية في صيغتها الاستعمارية- ولكنها كانت على امتداد التاريخ المغربي منارة للعلم والمعرفة وملقى للعلماء والأدباء.

2 - إن الثقافة في هذه الاقاليم لم تكن منحصرة في قبيلة دون أخرى وفي اقليم دون آخر. ولكنها كانت شائعة في مختلف القبائل، صحيح أن قبائل الزوايا

والشرفاء امتهنوا العلم واكتسبوا شيئاً من التخصص فيه، لكن جميع قبائل الصحراء كانت تقدر العلم وتجل العلماء وتهتدي بهديهم وتوسع لهم الاكثاف ولا تتردد في العمل بأرائهم وتنفيذ أحكامهم، فكان طبل الشيخ صلاح ابن الشيخ محمد المام الذي يقرع كلما جد في العلم جديد يشق بدويه فضاء الصحراء بنفس القوة التي تحدثها طبول شر حسان.

3- إن ثقافة هذه الأقاليم لم تكن أبداً منعزلة عن الثقافة المغربية، ولكنها شكلت باستمرار مكوناً أساسياً ومتميزاً في النسيج الثقافي المغربي وعنصرها فاعلاً في بنائه العام، فكراً وعقيدة وإبداعاً، تستوحى عناصرها الأساسية من الثقافة المغربية، وتمتد يدها إلى أطراف المغرب برمته أخذاً وعطاءً على امتداد التاريخ. فعلى الرغم من العوائق الطبيعية والمؤامرات الاستعمارية التي حاولت تقزيم الكيان المغربي وتمزيق أوصاله، ظل التواصل قائماً باستمرار بين هذه الأقاليم وباقي الأقاليم المغربية، لم يصبه أي تور في يوم من الأيام ولم تشبه أية شائبة، ولم ينحصر هذا التواصل في الجانب الثقافي ولكنه شمل مختلف جوانب الحياة، مثل انصهار القبائل العربية والامازيغية وامتزاج دماء الجهاد والمقاومة ووحدة العقيدة والمذهب وتداخل العادات والتقاليد وغيرها.

وهذا التواصل والتمزج في المنظومة الثقافية المغربية بين الشمال والجنوب هو جوهر غنى الحضارة المغربية وأساس قوتها واستمراريتها.

الهوامش

- (1) بلاد شنقيط المنارة والرباط، الخليل النحوي، ص 64.
- (2) العبر، ابن خلدون ج 6، ص 375.
- (3) بلاد شنقيط المنارة والرباط، ص 53، 54، 55.
- (4) الوسط، أحمد بن الأمين الشنقيطي ص. 347.
- (5) جولة في مكتبات الصحراء المغربية. محمد حجي المناهل ع 28، ص 159، دجنبر 1983
- (6) حياة موريتانيا، المختار بن الحامد، ج 2، ص 5.
- (7) مكتبات الصحراء المغربية محمد حجي المناهل، ص 7.
- (8) الحركة الصوفية وأثرها في أدب الصحراء المغربية، محمد الظريف، ص 71.
- (9) السلطانية، محمد المام، نسخة مخطوطة، خاصة
- (10) الحركة الصوفية وأثرها في أدب الصحراء المغربية، ص 72.
- (11) المعسول ج 3، ص 329، حقائق عن تندوف، صحراء المغرب، ص 14 مارس 1957.
- (12) وثيقة خاصة.
- (13) وثيقة خاصة، انظر الملحق.
- (14) يمكن تتبع جزئيات هذه الرحلة في كتاب سحر البيان لابن العتيق ورقة 94 مخطوط خاص.
- (15) الوسيط في تراجم أدياء شنقيط، ص 366.
- (16) الحياة الأدبية في زاوية الشيخ ماء العينين، محمد الظريف ص 113 رسالة جامعية مرقونة.
- (17) سحر البيان ورقة 42.
- (18) نفسه، ورقة 42.
- (19) توجد نسخ من إجازات الشيخ ماء العينين لهؤلاء العلماء بخزانة الناشر.
- (20) سحر البيان. ورقة 42.
- (21) نفسه، ورقة 42، الحياة الأدبية في زاوية الشيخ ماء العينين.
- (22) انظر هذه المؤلفات في كتاب الحياة الأدبية في زاوية الشيخ ماء العينين، محمد الظريف ص 158.
- (23) وثيقة خاصة.

التجديد أو النظر الفقهي عند علماء الصحراء

أحمدو ولد المختار حمين

استهلال تطيري

تستدعي الدراسات حول مسألة التجديد والنظر الفقهي في الصحراء من المهتمين بهذا المجال الرجوع إلى دراسات وبحوث الفقه المالكي التي تُعنى بأسسه وخصائصه وبنائه أكثر من مادته.

ولا يتسع هنا الوقت لاستعراض خصائص وطروحات المذهب المالكي بصفة عامة لكن لا بد من التعريف بروافده في الصحراء ولو بإيجاز واقتضاب.

1 - المذهب المالكي في الصحراء

كان أول عمل قام به القائد المرابطي يحيى بن إبراهيم الغدالي - بعد توليته - هو رحلته إلى الحج ويمكننا - ولو بافتراض - القول أن يحيى بن إبراهيم كانت توازي نيته في الحج نية أخرى في البحث عن مرشد لسكان الصحراء الذين عرفنا ما هم عليه من الجهل والعيلة في الدين من خلال ما وصلنا من أخبار يحيى مع أبي عمران الفاسي (ت 430 هـ / 1039 م) حيث يروي ابن عذاري أن يحيى قال لأبي عمران الفاسي : « ما لنا من علم من العلوم ولا مذهب من المذاهب لأننا في الصحراء منقطعين، لا يصل إلينا إلا بعض التجار الجهال حرفتهم الاشتغال

بالبيع والشراء ولا علم عندهم»⁽¹⁾، ويقول البكري أن أبا عمران وجه سؤالاً إلا يحيي قائلاً «ما يمنعكم من تعلم الشرع على وجهه والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر؟» فردَّ عليه يحيي «لا يصل إلينا إلا معلمون لا ورع لهم ولا علم بالسنة عندهم»⁽²⁾.

من خلال هذه المقابلة نتبين مدى اتساع الفراغ الذي تعيشه الصحراء في مسائل الدين حيث إن إسلام سكان الصحراء - آنذاك - سوريا أكثر وثنية وطقوساً من إسلام صحيح لا تجد الشوائب إليه نفاذاً. وهذا الوضع المزري ربما كون هاجس تغيير في نفس قائد المرابطين فقصده أبا عمران الفاسي - أحد أهم وأبرز علماء المذهب المالكي في القيروان - ليجد عنده من يفقه شعوب الصحراء دينهم وقد حمل أبو عمران، الكدالي رسالة إلى تلميذه وكاگ بن زللو اللمطي - أحد علماء المذهب في المغرب - يطلب منه أن يبعث مع يحيي أحد تلامذته يعلم أهل الصحراء دينهم ويرشدهم إلى سبيل تادية عباداتهم. فأرسل معه الإمام عبد الله بن ياسين. فكان ذلك - حسب الرَّاجح - أول دخول للمذهب المالكي إلى الصحراء عن طريق علمائه في المغرب والقيروان.

1.1 - روافد المذهب المالكي إلى الصحراء

إن مناقشة أصول المذهب وروافده في الصحراء مسألة لا تطلب من البحث كثيراً لما تبرزه الوثائق حولها وتفيد به المعطيات التاريخية الصحيحة المتداولة، فرافد المذهب في الصحراء بالتحديد رافد مغربي أندلسي قبل كل شيء.

لقد دخل موطأ الإمام مالك الأندلس على يد الغازي بن قيس الذي كان مؤدباً بقرطبة أيام عبد الرحمن الداخل⁽³⁾، وكان أسد بن الفرات (ت 213 هـ) سمع من ابن القاسم وكذلك عبد السلام بن سعيد المعروف بسحنون (ت 240 هـ) وغيرهم.

ومنذ تلك الفترة، بدأ المذهب المالكي ينتشر في الأندلس والمغرب إلى أن أصبح مذهب الفقه المعتمد ومرجعية التشريع الوحيدة حتى قيل إن أهل الأندلس كانوا يشترطون على الحاكم أن لا يعدل عن طريق ابن القاسم عن مالك⁽⁴⁾.

ومن علماء المغرب والأندلس تسرّبت إشعاعات هذا المذهب إلى الصحراء فقد كان عبد الله بن ياسين معلم الصحراء الأول تلميذا - كما أسلفنا - لوگاگ بن زللو اللمطي - وهو أحد علماء المذهب البار في المغرب - وقد أخذ عن أبي عمران الفاسي، الذي أخذ فترة في قرطبة عن علماء مثل الأصيلي وأبي عثمان وأحمد بن القاسم⁽⁵⁾. ويقول عنه ابن فرحون «جمع حفظ المذهب المالكي إلى حديث النبي ﷺ»⁽⁶⁾، وقد أصبح الفاسي كبير علماء المالكية في القيروان بعد وفاة شيخه أبو علي محمد المعافري القابسي (ت 403 هـ). ويرى بعض الباحثين أن سلف يحيى بن إبراهيم الكدالي الذي هو محمد بن تيفاوت اللمتوني يمكن أن يكون التقى بالقابسي عندما مر على القيروان في طريقه إلى الحج⁽⁷⁾.

ويقول ابن عذاري : أن عبد الله بن ياسين حصل علوما كثيرة في الأندلس ثم رجع إلى المغرب الأقصى⁽⁸⁾، ولا يمكن هنا أن نشبع هذه المسألة بحثا - لضيق المقام - فالإحاطة صعبة والاستقصاء متعذر، ولكن نحيل من أراد درك المعلومات حول المذهب المالكي في الصحراء إلى الكتاب القيم الذي أعده الدكتور محمد المختار بن اباه، تحت عنوان

La littérature juridique et l'évolution du Malikisme en Moritanie. Publications de l'Université de Tunis F.L. (s-h) 1981.

2.1 - دور المرابطين في ترسيخ المذهب المالكي

لقد قام الإمام عبد الله بن ياسين بدور فعال في نشر المذهب المالكي في الصحراء عن طريق الجهاد والتعليم وعمل مع أتباعه على محاربة البدع وجميع المذاهب الضالة المنتشرة في الصحراء آنذاك.

ولقد كان ابن ياسين قاسيا في نشر الدين والتعامل مع قبائل صنهاجة فظل على تلك الحال إلى أن قنع شعوب هذه الرقعة بدين الإسلام ومذهب مالك. وكان ابن ياسين الشخصية الأكبر مكانة والأقوى حظا في نشر هذا المذهب بين رجالات العلم والجهاد في الصحراء⁽⁹⁾.

كما كان لدور قاضي المرابطين أبو بكر المرادي الحضرمي (ت 431 هـ) أثر بيبن في نشر هذا المذهب وتوطيد أركانه بين هؤلاء الطواعن ويذكر محمد امبارك اللمتوني بعض الفقهاء الذين كانوا يرافقون جيش أبو بكر بن عمر في الصحراء⁽¹⁰⁾.

وحاول المرابطون أن يبقوا على سلطة الفقيه إلى جانب سلطة الأمير بعد وفاة عبد الله بن ياسين فخلفه سليمان بن عذرا الذي مات بعده بسنة فنصبوا الفقيه أبو القاسم بن عذرا⁽¹¹⁾.

وقد ترسخت جذور المذهب أيام المرابطين فحموا بيضته وذبوا عن حماه وخلصوا الصحراء إلى حد بعيد من الكثير من المذاهب التي كان لها انتشار في تلك الفترة مثل مذهب الخوارج والمعتزلة والشيعة وظلوا في جهاد مريم مستميت مع هذه الطوائف وغيرها حتى كسبوا الصراع. هذا في حين كان علماء المالكية في المغرب يكافحون امتداد الإسماعيلية من جهة والإباضيين والصفورية من جهة أخرى ليحلوا المذهب المالكي محلها. وقد تم تطويق هذه الطوائف والقضاء عليها في العصر المرابطي فأصبحت الصحراء لا تعرف مذهبا غير المذهب المالكي ولا إماما غير مالك، حتى أنه ندر مؤلف يؤلف إلا واستهل مؤلفه بذكر مالكيته، يقول التيجاني بن باب العلووي :

قال بن باب العلووي نسبه المغربي المالكي مذهب⁽¹²⁾

ويقول عبد القادر بن محمد سالم المجلسي : « المجلسي المالكي الأشعري عبد القادر بن محمد سالم...»⁽¹³⁾.

2 - مفهوم التجديد أو النظر الفقهي

قد يطرح شخص ما سؤالاً حول عنوان ماذا العرض وهو لماذا التجديد بدل الاجتهاد ؟

وقد تعمدنا إثبات التجديد أو النظر بدل الاجتهاد المصطلح المعروف لأن اجتهاد علماء الصحراء ما زال يحتاج إلى بحوث تُعنى أكثر بتحديد المفاهيم والاصطلاحات.

وقد يكون مفهوم الاجتهاد لا يفصله بون شاسع عن التجديد في نظر البعض من الدارسين حيث كلا المفهومين نظر فقهي في أمر طارئ أو استدراك على مسألة معروفة ويمكن أن يكون الاجتهاد أكثر مراعاة «للأمر الطارئ» والتجديد مربوط أكثر باستدراك «المسألة المعروفة».

إن المفاهيم وتحديداتها في هذه المسألة أمر مهم ولا بد منه لسبر غورها لكن يجب على أي باحث كان أن يتوسل في ذلك المادة الخام للفقهاء عند علماء الصحراء، ورأينا هو أن التجديد مقيدٌ للاجتهاد ولذلك فإن الكثير من العلماء حبذوا هذا المفهوم تفادياً لاشتمئازية المتعصبين. فالشيخ محمد المامي يحس إحساساً عميقاً بما قد ينجر عن التجرد على الاجتهاد، فيقول : «ومقصودنا التيسير ونفي الحرج عن أهل هذا القرن بأن لا ييأسوا من الاجتهاد إذا تعين على أمثالهم وليس مقصودي أن أجر إلى نفسي كما يظلمني به بعض الطلبة والله المستعان»⁽¹⁴⁾.

لكن الشيخ محمد المامي في مواطن أخرى إذا عمد إلى مفهوم التجديد أو التخريج أو النظر يرتاح من تحمل عهدة الاجتهاد التي ذكر ما ينجم عنها سابقاً، يقول :

وليس قرن عن التجديد أهل غنى ولو بتفريق أشخاص معاوين⁽¹⁵⁾

ويقول في معرض حديثه عن الاستدلالات العام منها والخاص : « كانت في صدري حزازة من التضييق على المقلدين أن لا يتكلموا في نوازلهم التي لا نص فيها إلا بالتخريج الذي من شروطه معرفة القياس الكبير ومسالك العلة...» (16).

وكخلاصة، فإن الرأي الذي نميل إليه أكثر - بل لا يساورنا شك - بعض الأحيان أنه الواقع - هو أن مفهوم التجديد عند علماء الصحراء مخصص لمفهوم الاجتهاد وإن كان بعضهم يعني ضمناً بالاجتهاد التجديد كما هو الحال عند الشيخ محمد المامي.

3 - رأي الفقهاء حول التجديد الفقهي في الصحراء

لقد انقسم فقهاء الصحراء - كما هي سنة الحياة - في نظرهم حول التجديد إلى قسمين هما : قسم الرفض وقسم القبول.

* قسم فقهاء الرفض : ونعني بهم العلماء الذين صرحوا بأن الاجتهاد موصدة أبوابه في هذه الصحراء ونقاشه أمر مفروغ منه. يقول الشيخ محمد المامي قاصداً هذا القسم . « نذبت من فيه أهلية الجمع أن يجمع بينهما [يعني الأصول والفروع] امتثالاً للآية ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ﴾ (17)، والعدل الأمور المتوسطة بين طرفي الإفراط والتفريط، لذلك جاء شرعنا وسطاً في أشياء منها أنه متوسط بين القدرية والجبرية والمعطلة والمجسمة وبين شرع موسى وعيسى في مسائل القصاص والحائض فلم يجيبوا إلا بما تجيب به الربوع :

الما على الربع القديم بعسعسا كائني أنادي أو أكلم أخرسا (18)

وأصحاب هذا القسم ربما اجتهدوا وهم لا يشعرون وذلك بمنعهم الاجتهاد مع وجود دواعيه حتى أن بعضهم أوجب التزام أهل الصحراء مذهب مالك ومن خرج عنه فهو في نظرهم ضال. يقول القاضي حمد بن محمد فال بن أحمد قال :

وأهل مغرب عليهم يمنع غير الإمام مالك أن يتبعوا
لفقد غيره وكلّ خارج عن نهجه فهو من الخوارج

ومن أبرز علماء الرافض العلامة سيد عبد الله بن الحاج إبراهيم العلوي (ت 1233 هـ) الذي ألف كتاباً ضمنه منع التخريج في زمنه والكتاب هو . «طرد الضوال والهمل عن الكروع في حياض العمل»، وقد رد عليه الشيخ محمد المامي ببحث سماه «إغراء الضوال والهمل على الكروع في حياض العمل»، يقول الشيخ محمد المامي في كتاب «البادية» معلقاً على عنوان كتاب سيد عبد الله . «لعله يريد طرد أهل هذا الزمان بالكلية عن التخريج والترجيح الذي من ثمرته العمل العادي، قلنا ذلك فيه خلاف مالكي» (19).

ومن أعلام هذا الاتجاه كذلك النابغة الغلاوي الذي صرح في نظمه
«بُوطُلِيَّيَّة» باستحالة الاجتهاد، قال :

والاجتهاد في بلاد المغرب طارت به في الجو عنقا مغرب

ومن طرافة تعصب النابغة لرأيه أنه يتحفظ على الإمام اللخمي رغم اعترافه بعلمه وذلك بما عرف عن هذا العالم المالكي من الترجيح على أقوال علماء المذهب، يقول النابغة :

واعتمدوا تبصرة اللخمي ولم تكن لعالم أممي

لكنه مزق باختياره مذهب مالك لدى امتياره

* قسم فقهاء القبول . ونقصد بهم العلماء الذين رأوا ضرورة التجديد والتخريج والترجيح حيث يرون أن التشرب لإسلامي مصدره واحد ولا يمكن تقيد النظر أو حصره زمانياً ولا مكانياً، يقول الشيخ ماء العينين في كتابه «دليل الرفاق على شمس الاتفاق» : «أن الشريعة جاءت عامة وليس مذهب أولى بها من

مذهب»⁽²⁰⁾، وقد ظل اتجاه القبول أقرب إلى الواقع المعيش لمراعاته المستجدات وقضايا العادة... لكن أكثر علماء هذا القسم باستثناء ثلة قليلة كانوا مرنين في مسائل النظر مع مشهور المذهب حيث ظلوا مع ممارسة التخريج يراعون الخصوصيات ويدخل اجتهادهم في إطار اجتهاد المذهب، يقول الشيخ محمد المامي في قصيدة المرجانية :

بقينا وعصر الاجتهادات قد مضى فما الرأي إن لم يفت فينا مقلد

وإن كان لا يدعى به متبصر فن باب أخرى ذو اجتهاد مقيد

ويؤكد تلك المراعاة قول الشيخ محمد المامي أيضا : «بيد أنني لا أحتج إلا بنص في مذهب مالك فليعانقه من كان أهلا لذلك».

أرى العنقاء تكبر أن تُصادا فعاند من تطيق له عنادا

وقد كان «فقهاء القبول» يعون خطورة استقالة الفقه عمليا عن معايشة قضايا الواقع حيث عطلت الأحكام ومنع النظر في القضايا المستجدة على أمثل علماء تلك الفترة بدعوى أن الاجتهاد قد توقفت شروطه وتعذرت⁽²¹⁾.

ودعوة هؤلاء إلى ممارسة مبدأ التجديد القديم - الجديد - قضية لا بد منها وإلا كانت الاستقالة التامة للفقه والفقهاء، فالاجتهاد جعل نظاما ثابتا في الحياة بظروفها المتجددة لتتولد الآراء الجديدة استجابة للتحديات المتقلبة وأقدار الزمن المتحركة⁽²²⁾.

4 - الإطار التأسيسي للتخريج الفقهي

انطلق فقهاء التجديد - في ممارسة النظر - من مبدئين كأنهما بالنسبة لهم حصنا أميناً وهما :

- أولا : القواعد الكلية الشرعية التي تتوقف عليها المصلحة العامة والتي هي مصدر التشريعات ضمن المذهب ومنها على سبيل المثال :
- درأ المفسدة يقدم على جلب المصلحة
 - الضرورات تبيح المحظورات
 - تحمل الضرر الخاص لدفع الضرر العام
 - الأمور بمقاصده
 - الضرر يزال
 - المعدوم شرعا كالمعدوم حسا
 - السكوت في معرض البيان بيان
 - الأصل بقاء ما كان على ما كان
 - الوسيلة إلى الحرام حرام

ثانيا : التخريج تبعا لمقتضيات العرف والعادة، ويجد الشيخ محمد المامي لهذه المسألة مبررا لا يشوبه نشاز على المذهب المالكي حيث ينقل عن ابن فرحون ناقلًا عن القرافي : «أن كل ما في الشريعة يتغير الحكم فيه بتغير العادة المتجددة وليس ذلك تجديد الاجتهاد من المقلد حتى يشترط فيه أهلية الاجتهاد بل هذه قاعدة اجتهاد فيها العلماء وأجمعوا عليها فنحن نتبعهم من غير استيناف اجتهاد»⁽²³⁾.

وقد ظل تجديد علماء الصحراء ونظرهم يسبح في فضاء ضيق محصور في الارتباط بالتخريج من مسائل العرف وقواعد المذهب مع خروجهم عن المشهور في بعض المسائل⁽²⁴⁾.

5 - من مظاهر التجديد عند علماء الصحراء

يقول الشيخ ماء العينين : «جعل الله أئمة المسلمين مجددين لأنهم ينظرون في مصالح الأمة نظره عليه السلام ويفعلون بهم من سنته ما هو موافق لحالهم في ذلك

الزمن ولذلك من لم يعرف أن انتقال العرف كان انتقال الزمن فهو في العلم كالزمن ومن حكم في حكم جديد بعرف قديم فهو من العلماء كالقديم»⁽²⁵⁾.

إن الشيخ ماء العينين أدرك مدى حجج الخطر الكامن وراء إغفال العرف والجمود على النص القديم دون مناقشته من طرف الفقهاء وتطويعه ليتمشى مع أعراف الصحراء ومستجداتها. ونصُّ الشيخ ماء العينين نصُّ تأسيسي يفحم دعاة رفض التجديد. ولا يمكننا في هذه العجالة أن نستوفي المسائل التي حكم فيها العلماء بغير المشهور في المذهب لكن نعطي نماذج بقصد الإلمام لا التخصص. فقد جرى العمل في الصحراء على أشياء تخالف مشهور المذهب المالكي دعت إليها «المصلحة المرسلة» مثل :

- ترك القصاص وتعويضه بالدية المغلظة
- قسم معاملة الأضياف في البادية بالنوبة على البيوت
- مؤاجرة الراعي بالحلاب
- شراء لبن الحلوبة في الضرع
- خلط الطاحنة الحبوب وتوزيعها لها بالتخمين
- القراض بالعروض.

وفي الصلاة أخذ بعض العلماء بمسائل مرجوحة في مآثور ابن القاسم وخارجة على مشهور المذهب مثل : القبض والرفع والبسمة في الفرض وتأمين الإمام جهرا وتثنية الإقامة أو أفرادها إلى غير ذلك من المسائل الكثيرة التي غالبها يتعلق بالعادة. وقد أشبع الشيخ محمد المامي الكثير من مسائل العادة نظرا وتخريجا في كتاب البادية والدلفينية وجمان البادية. ومن المسائل التي حرص على تخريجها مثلا :

- المداراة وهي بذل بعض المال لحفظ باقيه والنفس
- التَّرَاوِيْتُ وهي انقطاع فئة الزوايا لحمل العلم ونبذ السلاح
- التَّبْلَاحُ وهو اصطلاح يعنى به تسمين الفتيات
- وَنْكَالُهُ وهي أن تجتمع جماعة فيذبح كل واحد منهم شاة في يوم حتى تدور عليهم ويقسمونها بالتخمين
- زكاة مال الاتباع : وهذه المسألة طغت على نصوصه وأخذت صدارة اهتمامه في التخريج
- العقوبة بالمال
- ثقب الأذنين للأخراص
- مساجد البادية
- الشرط عند العقود.

ونعطي ثلاثة نماذج من تخريج العلماء تتمثل في قضايا التَّبْلَاحِ والجهاد وقبول هدايا الظلمة. واخترنا هذه المسائل لتباعد مواضعها توسلا منا للشمولية.

أولا : التَّبْلَاحُ . وهو كما أسلفنا تسمين الفتاة المعروف عند شعوب الصحراء وذلك لتظهر بجسم لائق تكون به محل احترام. وقد نص بعض العلماء على حرمة هذا الشكل من أشكال التجميل لما يترتب عليه من فساد للطعام وإهانة النفس حتى أن بعض علماء الصحراء أفتوا بمنعه مثل باب بن محمد بن حمدي (ت 1316 هـ)⁽²⁶⁾. أما الشيخ محمد المامي فقال بجوازه معتبرا إياه ضروري لإصلاح بدن الفتاة وتهيتها للزواج، يقول :

«وقياسا على استعمال الطعام في العادات كبل خُمُرٍ بالنشاء وإصلاح الجلود باللبن للحاجة فإصلاح الأبدان بضياح بعض اللبن أولى لأن الأمور

بمقاصدها وهذه من العادة القديمة فتستصحب استصحابا مقلوبا إلى الزمن
المعتبر في شرعنا أو شرع من قبلنا وكلاهما كاف ودليل أنها من العادة القديمة
قول الشاعر :

حوراء باكرها النعيم فصاغها بلبانه فأدقها وأجلها⁽²⁷⁾

ثانيا : الجهاد : ويتلخص في جهاد النصارى المحتلين لرقعة من بلاد أهل
القبلة ومن أبرز من مارسه وحدد قضاياها الشيخ ماء العينين ولذلك فإننا نحيل إلى
كتاب «هداية من حار في أمر النصارى» حيث يرى أن الجهاد أصبح فرض عين
على المسلمين في تلك الفترة، وإذا تعذر وجبت الهجرة ويتبع الشيخ ماء العينين
في هذا الرأي الكثير من علماء الصحراء وخاصة ابنه الشيخ امرئيه ربّه الذي
أوضح مدارك القضية ومسالكها ونظّر لها في كتابه : «لبانة المجاهدين وبغية
الطالبين»⁽²⁸⁾.

ثالثا : قبول هدايا الظلمة : وقد أثارت هذه المسألة ضجة في صفوف علماء
الصحراء فانقسموا بين محرم ومرخص وذهب أصحاب رأي المنع إلى أن هذا
المال قبوله حرام لكونه في الأصل غصب ولن يتعدى مال مسلم أخذ منه عن غير
طيب نفس منه كما أن قبوله في نظرهم تشريع للظالم في الممادة في ممارسة
الغصب - معللا ذلك بقبوله من طرف الصالحين والعلماء-.

أما الاتجاه الثاني فقد رأى أنها مسألة جرى بها عمل السلف ومن أبرز
المرخصين لها امحمد بن أحمد يوره (ت 1340 هـ) يقول في نظم ضمنه بحث هذه
المسألة :

الحمد لله على نعمائه	بالجسم من الباننه ومائه
ثم الصلاة والسلام موصله	على الذي حكم الأمور فصله
منظومة ذات غناء ومسد	مفتولة فتل حبال من مسد

جاءت على أخذ هدايا الظلمه بحجج قاطعة مسلمة
 طه ارتضى هدية المقوقس وهو عظيم القبط فافهم وقس
 وارتهن الدرع لدى اليهودي واكلهم سحتا من المعهود
 وسيدي عبد الإله بن عمر وكان ممن فاز في التقى الزمر
 يأخذ ما يعطي له المختار وهو الكذوب الفاجر الختار
 وأخذ الشعبي من عبد الملك وذاك ذو تورع وذا ملك
 وكان مما يعضد احتجاجي أخذ ابن جعفر من الحجاج
 قلت وقد فاز بنيل منهم حسان من جيلة بن الأيهم
 ومالك أخذها والشافعي وغير زين مالها من دافع
 والمنع رأي أحمد بن حنبل قطب الأنام والإمام الأنبل
 مقتفيا في منعها عطاء لذاك لم يأخذ لهم عطاء

الخاتمة :

لقد كانت الثقافة عند علماء الصحراء مطبوعة على العموم بطابع التعصب وخاصة المذهب المالكي ولذلك كان الاجتهاد أو التجديد حساسا بالنسبة للسواد الأعظم من هؤلاء وذلك ما لمسناه أنفا من خلال ما قدمنا، مع أن بعض العلماء مارسوا التجديد بشجاعة وحذر في آن واحد خصوصا اجتهاد الترجيح وكان هؤلاء ينحون منحى في التجديد لا يرون فيه غضاضة في العدول عن مذهب بن القاسم إلى ما يروونه أصلح⁽²⁹⁾. وأخيرا فإنني أعتذر عما قد يكون لحق هذا العرض من خطأ أو نقص ولا كمال إلا لله عليه تكلاني وهو حسبي ونعم الوكيل.

الهوامش

- 1) راجع ابن عذاري، البيان المغرب، ج 4، ص 7.
- 2) راجع البكري، المغرب، ص 165.
- 3) المنارة والرباط، ص 125.
- 4) راجع صحراء الملتمين وعلاقتها بشمال وغرب إفريقيا، الناني بن الحسين، مرقون كلية الآداب بالرباط.
- 5) ابن فرحون، الديباج المذهب، ص 397.
- 6) المرجع نفسه، ص 395.
- 7) صحراء الملتمين، مصدر سبق ذكره، ص 526.
- 8) ابن عذاري، ج 4، ص 10.
- 9) صحراء الملتمين، مصدر سبق ذكره، ص 552.
- 10) منظومة محمد امبارك اللمتوي، في أخبار الدولة اللمتونية، مخطوط.
- 11) صحراء الملتمين، ص 550.
- 12) منظومة منية المرید، التيجاني بن بابہ العلوي.
- 13) شرح قرّة الأنصار، عبد القادر بن محمد سالم.
- 14) كتاب البادية للشيخ محمد المامي، مخطوط.
- 15) قصيدة الدلفينية، نسخة الديوان.
- 16) كتاب البادية، م.س.ذ.
- 17) سورة النحل، الآية 89.
- 18) كتاب البادية، مخطوط.
- 19) المرجع نفسه.
- 20) الحياة الأدبية في زاوية الشيخ ماء العينين، محمد الظريف، ص 300.
- 21) الرؤية الإصلاحية عند الشيخ محمد المامي / عبد الله بن حمدي، ص 26.
- 22) الدكتور حسن الترابي / تجديد أصول الفقه، ص 34.
- 23) كتاب البادية، مخطوط.

- (24) يمكن أن يكون الفقيه انجبنان بن محمذن الإلفجي الشمشوي أول من أفتى بغير مشهور المذهب في قضايا مثل المهैयाة في العبيد وقسمة الحبس بتا، راجع السعد، الفتاوى والتاريخ، ص 43.
- (25) الشيخ ماء العينين، تبيان الحق الذي للباطل سحق، ص 16.
- (26) الرؤية الإصلاحية، عبد الله بن حمدي، ص 76.
- (27) جمان البادية، الشيخ محمد المامي، مخطوط.
- (28) محمد الظريف، الحياة الأدبية، ص 306.
- (29) الخليل النحوي، المنارة والرباط.

ثقافة الصحراء من خلال مقوماتها المغربية لدى الفقهاء والشعراء والمتصوفة والعلماء المؤلفين والنقاد

الحسين وكاك

إن من المبشرات الباقيات في عالم المسلمين اليوم، أن يهيب الله لهم من حين لآخر من يجدد أحوالهم، ويحرك ضمائرهم، ويذكي حماسهم ويهديهم إلى بعث حضارتهم، وسلوك الجادة في مسيرتهم، ويحبب إليهم الاقتداء بالسابقين، والتفاني في ما ينور حركات اللاحقين.

وإن هذا اللقاء الفريد الذي هيأته أكاديمية المملكة المغربية الرائدة في هذا اليوم المجيد من هذا القبيل، لأنه يدل دلالة واضحة على عبقريتها الفذة، وعلى خبرتها الفائقة، وعلى حسن تصرفها الحكيم نحو التحول العالمي الذي أزاح اليوم عن المسألة الثقافية كل المعوقات، وأعلى مكانتها على كل الديماغوجيات التي أُرجفت في الساحات، وعتمت كل الأجواء حتى على النخب التي تنشدها وتندب عودة دورها التاريخي منذ سنوات⁽¹⁾.

ولقد أبت إلا أن تواكب طموحات مولانا محمد السادس نصره الله، وتعمل على تجديد الإشعاع المغربي مرة أخرى باقتراحها الوجيه، واختيارها النبيه لهذه الندوة المباركة : موضوع ثقافة الصحراء المتجلية في مقوماتها المغربية وخصوصياتها الإبداعية، والبارزة مضامينها في محاورها الجامعة والمفصلة.

لأن الثقافة كما تروج لها بعض الوسائل الاعلامية المختلفة أخيرا، هي وحدها الباقية والقادرة على جمع الأمم والارتقاء بها، وهي العامل الحاسم في تطورها والسير بها في طريق التقدم.

ولأن الجانب الثقافي هو الجانب الأهم والركيزة الأساس لكل معالجة رصينة لشؤون⁽²⁾ الأفراد والمجتمعات.

ولأن ثقافة الأمم، ليست سوى اللسان مترجم لما هي عليه في الجوانب الأخرى، لذلك تحاول أن تحرك هذا اللسان الذي يبحث بدوره عن الجوانب الأخرى ليترجمها ويجعلها موضع الاهتمام والاهتمام لدى المسؤولين والمهتمين في مختلف الأجهزة التشريعية والتنفيذية لتتحقق لهذه الأمة المغربية المؤمنة وسائل الاقلاع، وتسير في مدارج الرقي والكمال، ويتبخر أمامها التعميم المغرض ضد وحدتها الضاربة في أعماق التاريخ.

ولقد حبيب إلي رباط (أكلو) الذي هو مسقط رأسي، والمؤسس في بداية القرن الخامس الهجري، بمبادرة أبي محمد وكاك بن زلوى اللمطي، والموجود الآن في الغرب الشمالي لمدينة (تيزنيت) على شاطئ البحر الأطلنطيكي أن اعتبره المنطلق الثقافي التجديدي الأول نحو الصحراء، اعتمادا على بعض المؤرخين الذي ترجم له قائلا : «إن وكاك من أهل السوس الأقصى، وأنه أخذ عن أبي عمران الفاسي بالقيروان، وانه بنى دارا لطلبة العلم وقراءة القرآن، سماها بدار المرابطين⁽³⁾». وذكر السيد محمد المنوني في بعض محاضراته : «أن الذي عرف بوكاك هو أبو عمران الفاسي الذي خاطب الأمير يحيى بن ابراهيم الكدالي في شأنه بقوله : «إنني أعرف ببلاد نفيس من أرض النمامدة، فقيها حاذقا تقيا ورعا، لقيني هنا في القيروان، وأخذ عني علما كثيرا، وعرفت ذلك منه، واسمه وجاج بن زلو اللمطي، من أهل السوس الأقصى، وهو الآن يتعبد ويدرس العلم، ويدعو الناس إلى الخير في رباط هناك، وله تلاميذ جمة يقرأون عليه العلم، وكان المصامدة يزورونه ويتبركون بدعائه، وإذا أصابهم قحط استسقوا به،»⁽⁴⁾.

وإذا قلت إنه المنطلق الثقافي والتجديدي الأول نحو الصحراء، فالأن ما عرف تاريخيا عن الفتح الإسلامي للمغرب الأقصى، يؤكد ما ذهب إليه، فقد ذكر بعض المؤرخين من أهل الخبرة والوفاء أن عقبة بن نافع رضي الله عنه، قد استتم فتح المغرب جميعا سنة 162 هـ ثم توغل في أنحاء الشاسعة، بعد أن عبر جبل درن إلى السوس الأقصى كدرعة وسجلماسة، وأثخن في أقاصي البربر حتى أذعنوا للإسلام⁽⁵⁾، ثم بث سراياه إلى ضواحي البلاد وأطرافها حتى بلغت صنهاجة من لمتونة وكدالة ومسوفة وغيرها إلى آخر القطر الشنكيطي، ثم رجع أدراجه، وثنى عنانه، بعد أن قضى نهمته من الفتوح وعطف على الساحل، يتقرى المداشر والأحياء في موكب كبير من كبراء البربر وأمرائهم، متيمما العاصمة القيروان، ولما وصل مدينة أسفي راجعا، أدخل قوائم فرسه في البحر، ورفع يديه إلى السماء، وقال :

«اللهم إني قد بلغت المجهود في الجهاد، ولولا هذا البحر لذهبت في البلاد، أقاتل في سبيلك حتى لا يعبد أحد من دونك». ثم ضرب على نفس الوتر حين قال.

«وأما ما ذهب إليه بعض الناس أن أول فاتح لتلك البلاد هو عبد الله بن ياسين رحمه الله تعالى في المائة الخامسة الهجرية، بإعانة أمراء صنهاجة المشهورين، لما يسمع من جهاده وفتوحه، فذاك ليس على بابه، لأن الإسلام في ذلك التاريخ، ذائع ومنتشر في تلك البلاد جميعا مثل انتشاره في غيرها من بلاد المغرب، وإنما جهاده جهاد إصلاح وإرشاد بقصد إرجاع الناس إلى جادة الطريق»⁽⁶⁾.

وإلى تركيز هذا الرأي نفسه، أشار الأستاذ المنوني بقوله «كان إقليم سوس بين المناطق المغربية التي بكر فيها المسجد، مسجد ماسة الذي حضر بنيانه عقبة بن نافع، وتعتبر هذه المبادرة، هي الإشارة الأولى للحركة التثقيفية بسوس الإسلامية، اعتبارا بأن المسجد كان مكانا للعبادة، ومركزا لتثقيف المومنين»⁽⁷⁾.

وقد بقي المغرب الأقصى بعد عقبة ملتزما بدينه، وسائرا في طريقه، رغم ما يعتري الأمراء الذين يشرفون عليه في بعض الأحوال من التبدل في أحوالهم، والتغير في أساليبهم التي تتأرجح بين الاستقامة والاعوجاج، شأن الأقطار التي تتبدل عليها الولاة، وتتنوع فيها الأغراض، وتتحكم فيها الأهواء، ولو كانت من أقرب البلاد إلى قبلة الإسلام، ومهبط الوحي ودار الخلافة، وليس هذا بالأمر الغريب مع بعد المسافة عن مركز السلطة، فقد أسلم على يد النبي صلى الله عليه وسلم العدد الكثير، ولكن روح الارتداد بدأت تساور بعضهم بعد وفاته، ولما جاء أبو بكر الصديق ألزم الذين فرقوا بين الصلاة والزكاة بالرجوع إلى الإسلام، فكانوا بعد ذلك سادات الناس الذين فتح الله على أيديهم البلاد، وهدى بهم العباد.

وقد جمع الله شمل المغاربة من جديد، بعدما تفضل عليهم بدخول البضعة النبوية مولاي إدريس بن عبد الله رضي الله عنه المغرب الأقصى سنة 172هـ، إذ التفوا عليه واستبشروا بقدومه، وأجمعوا على بيعته، فاستتب له الأمر، وأشرق ضوء الإسلام في جميع بلاد المغرب، واستقر الإيمان في قلوب المبايعين⁽⁸⁾.

وحينما توفي إدريس بن إدريس رحمه الله، وقام بالأمر بعده ابنه محمد بعهد منه إليه، وقسم بلاد المغرب بين إخوته بإشارة من جدته : كنزة أم المولى إدريس. كان من نصيب عبد الله بن إدريس بين إخوته، أغمات وبلد نفيس وجنوب المصامدة وبلاد لمطة والسوس الأقصى⁽⁹⁾.

وكان من أعماله التي قام بها في جنوب المغرب، أن أسس مدينة "تامدولت أوقا" حوالي سنة 220 هـ⁽¹⁰⁾ تلك المدينة التي تهدمت بعد عمران كبير في آخر القرن الثامن أو أول القرن التاسع الهجري، وتفرق أهلها شذر منذر⁽¹¹⁾.

وذكر بعض المؤرخين أن العدد العديد من الناس ارتحلوا منها وانتشروا في نواحي صحراء سوس، وأن غالبهم ينتسبون إلى الجعفرين، ورغم أن ابن

خلدون ينكر ذلك، إلا أن الكثير منهم يحملون هذه النسبة كعلماء آل محمد بن مبارك الأقاويين وعلماء أساكا بإفران وماسة وغيرهم⁽¹²⁾.

وممن انتقل بعد تخريبها مولاي زوزان الذي هو من أحفاد عبد الله بن إدريس، وقد لعب خرابها دورا كبيرا في انتشار الشرف، وتركيز العلم والدين في جبال جزولة وهضابها بفضل أولاده الوليتيين حتى أصبحت مقصد الوافدين عليها من أفاق أخرى لما تتمتع به من الأمن والاستقرار وازدهار العمران، الأمر الذي جعل الثقافة الصحراوية تزدهر بها انطلاقا من شنقيط إلى مراكش وأغمات ونفيس في إطار جهاد الأمير عبد الله بن إدريس ثم بالدولة المرابطية المنطلقة منه إلى سائر أقطار المغرب.

هذا وأول ما يستشف من صيغة هذا الموضوع، ان الثقافة المتحدث عنها صحراوية، وأن مقومات هذه الثقافة مغربية، لذلك يجمل بي قبل الحديث عن ثقافة الصحراء أن أمهد لها بما يوضح مدلول الصحراء، ومدلول المغرب الأقصى، ومدلول السوس الأقصى، لأن المدلولات الثلاثة اعتراها بعض الغموض في استعمالات اليوم، ومن ثم كان لزاما على كل من يريد التحدث عن ثقافة الصحراء ألا يهمل جذورها الجغرافية والعربية والإسلامية، ذلك لأن هذه الثقافة ما زالت تحتفظ بأصالتها العربية، وطابعها الإسلامي وسماتها القومية المنحدرة من أصول عربية وبربرية، شارك في تكوينها وانصهارها عناصر شرقية وأندلسية ومغربية في آن واحد، ثم تكون منها هذا الشعب الذي يعرف اليوم بالأمة المغربية، وهذه القبائل المنبثة في المدن والجبال والسهول والصحراء متبنية هذه الثقافة إلى يومنا هذا.

وبعبارة أخرى لابد لمن يريد التحدث عن ثقافة الصحراء اليوم أن يمهد لها بوصف مجالها الزماني والمكاني الذي نشأت وترعرعت فيه، فالتحدث عنها إذن يقتضي تحديد مدلول السوس الأقصى ومدلول الصحراء، وكونها إقليما من أقاليم

المغرب، والإشارة إلى أنواع العوامل التي وحدت بين الشمال والجنوب من هذه الأصقاع التي يطلق عليها اليوم المغرب الأدنى، والمغرب الأوسط، والمغرب الأقصى كما يطلق على جزء منها السوس الأقصى والصحراء وعلى الجزء الآخر السوس الأدنى.

أما عن مدلول السوس الأدنى والأقصى فيشير إليه ياقوت الحموي⁽¹³⁾ عند قوله : «أطلق الجغرافيون العرب القدامى على منطقة سوس الحالية اسم السوس الأقصى، مقابل السوس الأدنى الذي يشمل سائر بلاد المغرب الأقصى حتى البحر المتوسط».

أما عن مدلول السوس الأقصى وحده فاقدم إشارة إليه ما ذكره ابن خلدون⁽¹⁴⁾ حين قال : «خرج إدريس الثاني غازيا بلاد المصامدة، فانتهى إليها واستولى عليها، ودخل مدينة نفيس ومدينة أغمات، وفتح سائر بلاد المصامدة».

وأما عن اتحاد الشمال بالجنوب وامتزاج عناصر العرب بالبربر، فيشير إليه الدكتور محمد حجي بقوله : «ولا تتفق الروايات التاريخية على وصول العرب الفاتحين الأولين إلى سوس، ولكن من المحقق أن أسرا عربية كثيرة، استقرت في هذه المنطقة عبر عصور التاريخ الإسلامي، وامتزجت بالسكان الأصليين امتزاجا قويا حتى لم يعد من الممكن التمييز بينهما إلا في شجرات الأنساب المحفوظة في الرسوم أو كتب التراجم»⁽¹⁵⁾.

وعن التواصل الثقافي بين أجزاء المغرب الكبير، يذهب الدكتور المذكور إلى أن الصلات الثقافية لم تنقطع بين أجزاء المغرب الكبير طوال العصر الإسلامي لانعدام الحواجز الطبيعية بينها ولخضوعها في الغالب لسلطة زمنية واحدة⁽¹⁵⁾.

يضاف إلى هذا ما ذكره الدكتور عباس الجراري حين قال : «إن ثقافة الصحراء كانت دائما ثقافة تواصل، حيث نجد العلماء والأدباء الصحراويين

يتوافدون على أقاليم الشمال أما للدراسة أو للتدريس وأما للاتصال بالملوك قصد مدحهم أو الكتابة لهم»⁽¹⁶⁾.

ويؤكد هذا التواصل الثقافي التواصل الدائم في الأسر والأنساب، بحيث يوجد لكل أسرة عريقة في الصحراء أصل أو فرع في المغرب، فالعروسيون المنتمون إلى الشيخ سيدي أحمد العروسي المدفون في ناحية السمارة، فقد كان مقيما في مراكش وأحوازها، وكذلك المنتمون إلى سيدي أحمد الرقبيني، فقد كان مهاجرا من إقليم توات إلى منطقة درعة، ثم هاجر ابنه من بعده أو خلال حياته إلى الساقية الحمراء. وكذلك قبائل الرقبينات التي تشكل نسبة كبيرة من سكان الصحراء، وينتسبون جميعا إلى الولي الصالي سيدي عبد السلام بن مشيش الذي هو دفين جبل العلم بإقليم تطوان⁽¹⁷⁾.

وإذا كانت الروايات التاريخية لا تتفق على وصول العرب الفاتحين الأوائل إلى سوس حسب قول الدكتور حجي، وكان كلام كل من ياقوت الحموي وابن خلدون غير واضح في تعيين المراد بالسوس الأقصى والصحراء، فإن كلام كل من الدكتور حجي والدكتور الجراري المذكور أعلاه يدل دلالة واضحة على الالتحام بين الأسر في الشمال والجنوب، وعلى الاتصال الثقافي بين أجزاء المغرب الكبير في مختلف العصور الإسلامية، بقطع النظر عن تحديد تاريخ الفتح الإسلامي له، على أن الذي يفيدني أكثر ويؤكد ما ذهبت إليه، هو قصة الأمير يحيى بن إبراهيم الكدالي نفسها، تلك القصة التي تقول: «إن الأمير يحيى المذكور، اتصل بالشيخ أبي عمران الفاسي في مدينة القيروان بعد رجوعه من أداء فريضة الحج، وطلب منه أن يساعده ببعض تلامذته، بقصد إرشاد قبائل الصحراء، وبعدها استصعب تلامذته أمر الذهاب إلى الصحراء، زوده برسالة إلى أحد تلامذته ببلاد سوس، وهذا التلميذ هو الشيخ أبو محمد وكاك بن زلو اللمطي الذي لبي رغبة الأمير، واختار له أحد تلاميذه ليرافقه إلى الصحراء ويساعده في

دعوة قومه إلى دين الله، وهذا التلميذ المختار هو : عبد الله بن ياسين الجزولي السوسي مؤسس الدولة المرابطية هناك»⁽¹⁸⁾.

ومعنى هذا ان سكان الصحراء كانوا يعرفون الإسلام قبل حركة المرابطين، وحركة المرابطين إنما هذبتهم وأيقظت معنوياتهم، ووحدت صفوفهم، وأذكت في نفوسهم روح الجهاد في رباطهم المنقطعين إليه في وادي النيجر حسبما يقول بعض المؤرخين.

أما عن مدلول الصحراء فقد تحدث عنه كل من الشيخ أحمد بن الأمين الشنقيطي والشيخ محمد الإمام بن الشيخ ماء العينين، وأثبت كل منهما أن بلاد شنقيط جزء من المغرب، وان كلا من أهل المغرب وأهل شنقيط يعرفون ذلك، وأن الإمارة العمومية لا يعترف بها إلا لسلطان مراكش⁽¹⁹⁾. وأن سيدي العربي بن السايح بدوره نص في كتاب «البغية» على أنهم من أقصى المغرب⁽²⁰⁾.

لقد اتضح من خلال ما سبق مدلول كلمة الصحراء ومدلول كلمة السوس الأقصى والتاريخ التقريبي لوصول الإسلام إلى تخوم الصحراء، وبيان بعض العناصر التي مهدت لازدهار ثقافة الصحراء في مختلف العصور، وهذا ما قصدت به التمهيد لثقافة الصحراء بوصف مجالها الزماني الذي نشأت فيه، واما المجال المكاني فالمقصود به ما يلي .

– مراكز ومعاهد ثقافة الصحراء :

يقصد بوصف مجالها المكاني الذي ترعرعت ونشأت فيه، المراكز الثقافية المنبثقة في شمال المغرب الكبير ووسطه وجنوبه، وأقرب وسيلة لوصف هذه المراكز وتحديدها، هي الخريطة التي ذيل بها الدكتور محمد حجي كتابه : «الحركة الفكرية بالمغرب في عهد السعديين» لأن هذه الخريطة استوفت أهم المراكز الثقافية يومئذ بشمال المغرب ووسطه وجنوبه، ورسمت من مراكز الشمال

فاسا ومكناس وتطوان، ورسمت من مراكز الوسط، مراكش وتارودانت وتمنارت، ورسمت من مراكز الجنوب، شنقيط وولادة وتوات وفكيك وتينبكتو.

على أن الدكتور محمد حجي لم يقتصر في الخريطة المذكورة، على مجرد رسم هذه المراكز بل تحدث في كتابه المذكور عن الروابط الثقافية بين المغرب والصحراء والسودان في آن واحد في فقرتين اثنتين، أثبت في الفقرة الأولى الاتصال الثقافي بين مراكز السعديين، ومراكز كل من المرينيين، والموحدين والمرابطين، وفي ذلك يقول : «لم يكن النشاط الفكري في المغرب السعدي وجودا من عدم، ولا بداية من فراغ، وإنما كان نهوضا من عثار، وصحوا من غفوة، فالمنشآت الثقافية المرينية بل حتى المرابطية والموحدية، ما زالت في معظمها قائمة العين أو الأثر، لذلك لم تكد الدولة الناشئة تنفض عن تلك المنشآت غبار الخمول حتى استوت قائمة⁽²¹⁾». أما في الفقرة الثانية، فقد أثبت العلاقة الثقافية بين المغرب والسودان وقال : «وعند قيام حركة السعديين، كانت العلاقات الثقافية بين المغرب وممالك السودان، يقصدها علماء من فكيك وفاس وسوس، فيستوطنها البعض نهائيا، ويقيم بها آخرون سنوات ثم يرجعون إلى مساقط رؤوسهم».

وممن قصد "تغازي" قرب تنبكتو من سوس الشيخ أحمد أحوزي الذي ضرب الرقم القياسي في بث إشعاعه العلمي وخدمة الدعوة الإسلامية هناك حتى تخرج عليه جماعة من العلماء الكبار والمجازين في مختلف العلوم وفي السلوك الإسلامي الحق الجامع بين العلم والعمل⁽²²⁾.

وهكذا أضاف الدكتور حجي بوصفه هذا إلى الخريطة التي رسم عليها مواقع تلك المراكز مزيدا من الروابط والاتصال المتبادل بينها سواء في عهد السعديين أو في العهود التي قبل عهد السعديين، وقد وقع اختياري على ما رسمه في عهد السعديين لأن غالب تلك المراكز هي نفسها المعروفة في عهد الملوك

العلويين، عهد ازدهار ثقافة الصحراء، إلا أن الفتور اعترى بعضها في عهد العلويين مثل مركز أكلو وتمنارت وأكرسيف وإليغ، وفيما ازدهر البعض الآخر مثل الزاوية الدلائية والناصرية والفاسية، ومدينة الصويرة، وتيمكيدشت وفروعها في حوز مراكز ومراكز القراءات بسيدي الزوين ومدرسة الأمراء العلويين بقبيلة حَمْر التي أسسها سيدي محمد بن عبد الله رحمه الله في الإطار التخصصي والنظام البيداغوجي الذي حاول تنظيمهما في المدارس آنذاك⁽²³⁾.

إنها بعض البيانات الضرورية المضطر إليها للحديث عن جذور ثقافة الصحراء ومراكزها قبل الحديث عن مقوماتها، لأن هذه المقومات نفسها نابعة من الأصول التاريخية والجغرافية لهذه الأقاليم المعروفة اليوم بالصحراء أو بشنقيط⁽²⁴⁾، ومن ثم اعتبرت الحديث عن الجذور والمراكز لثقافة الصحراء ممهدا لما بعده من الحديث عن المقومات والأعلام، ومع ذلك فالحديث عن المقومات والاعلام والمؤلفات لا يقل أهمية عن الحديث عن الأصول والمراكز لهذه الثقافة، فكل منهما يكمل الآخر ويوضحه، لهذا أحببت أن أضيف للمزيد من المعلومات حول ثقافة الصحراء وأهم مقوماتها وأعلامها في مختلف العهود وخاصة عهد الدولة العلوية الشريفة الذي عرف أنواعا من النبوغ العلمي والأدبي لأبناء الصحراء ضمن هذه المقومات، فغالبا مقومات مشتركة بين أبناء الصحراء وغيرهم من المغاربة، إلا أن التاريخ سجل لأبناء الصحراء تفوقا على غيرهم في كثير من المجالات حسب ما يبدو في المنظومات النقدية الآتية.

وإذا كان عنصر المقومات الوارد في صيغة الموضوع يمثل أهم المقاصد التي نروم إبرازها والحوار حولها، فما هي أهم هذه المقومات المغربية التي ظلت الطابع العام لثقافة الصحراء؟

إن لثقافة الصحراء مقومات كثيرة، غير أن أهمها ينحصر فيما يلي .

أولا : الدين الإسلامي

لأن الدين الإسلامي هو الذي علم أبناء الصحراء معنى الرجولة الحق، ومعنى الفضيلة المتلى، ومعنى الجهاد الخالص، وشجعهم على التمسك بها والإقبال على نشرها بالنفس والنفيس منذ أن اعتنقوه وتشبعوا بتعاليمه، وقد كانوا قبل في حالة مزرية، مثل جيرانهم الأفارقة، لكن لما اشربت قلوبهم معاني الإسلام بعد الفتح الإسلامي الأول، وما تلاه من الفتوحات، أيام الأدارسة، وأيام المرابطين صاروا أفضل أمة أخرجت للناس، تومن بالله، وتامر بالمعروف، وتنتهى عن المنكر، وتجدد حركة الجهاد التي ضعفت في الشرق الإسلامي يومئذ، وتنشر معاني الوحدة والاستقرار في ربوع شمال إفريقية والأندلس، وأكبر دليل على ذلك فتوحات أبي بكر بن عمر دفين تكانت في شرق موريطانيا مع عبد الله بن ياسين دفين كريفلة في أحواز الرباط، في الصحراء ثم المغرب، وفتوحات يوسف بن تاشفين في الأندلس وانقاد المسلمين هناك من الأخطار المحدقة بهم وتمكينهم من التمتع بالاستقرار لمدة أربعمئة سنة أخرى، الأمر الذي أعطى للصحراء شخصيتها لأول مرة ومكن المغرب من تأسيس دولة إسلامية شامخة العرنين ومن تركيز إسلام سني خال من الفرق والطوائف حسب شهادة ابن جبير الرائعة في المغاربة⁽²⁵⁾.

ثانيا : المذهب المالكي

إن جميع الأقطار الإسلامية تعرف الإسلام بواسطة أحد المذاهب الفقهية المعروفة، والواسطة التي عرفت في كل من الأندلس وشمال إفريقيا والصحراء هي المذهب المالكي من خلال رواية ابن القاسم العتقي، ولاشك أن تشبث هذه الأقطار الثلاثة بالمذهب المالكي من الأسباب التي جعلتها تتحد في كل العهود الإسلامية، على أن اتحاد الأندلس مع شمال إفريقيا والصحراء لم يقع صدفة، بل كان نتيجة لوحدة المعتقد ووحدة المذهب الفقهي بفضل جهاد الشيوخ السنيين ضد التيار الشيعي العبيدي بزعامة ابن أبي زيد القيرواني من جهة وبفضل

استيصال المرابطين شأفة الخوارج وضلال البرغواطيين من جهة أخرى، ومن ذلك التاريخ استقر المذهب بأقطار المغرب وربوع الصحراء بل وغرب إفريقية إلى مدينة لاكوس في نيجيريا بحيث قل أن تجد من أهل العلم من يهتم بغير هذا المذهب، والسواد الأعظم من طلبته يقبلون على دراسة ما ألف في فروعهم مثل مدونة الإمام سحنون ومختصر ابن الحاجب ومختصر الشيخ خليل ورسالة ابن أبي زيد ومنظومة ابن عاشر، وغالب ما يؤلفه علماء هذه الأقطار بعد ذلك لا يخرج عن كونه هوامش للكتب المذكورة أو اختصارا لمضامينها نظما أو نثرا وهم يعلمون أن هذه الفروع امتداد لما في موطأ الإمام أو اختصار لما في مدونة الإمام سحنون، ومنكبون في نفس الوقت على حفظ واستظهار المسائل المشهورة في المذهب المالكي لا غير⁽²⁶⁾.

ثالثا : العقيدة الأشعرية

من المعلوم أن المذهب الفقهي المتبع في المغرب والصحراء شمل العقائد والأحكام، والعقائد التي كانت رائجة في هذه الأقطار من قبل هي العقائد السنية المسطرة في مقدمة رسالة ابن أبي زيد القيرواني، غير أن الأسلوب المتبع بعد ذلك في تلقين العقائد، تغير إلى أسلوب آخر يعتمد على العقل والنقل معا، ومن ثم اعتبره الموحدون أعلم وأحكم، وألزموا المغاربة باتباعه، وهذا الأسلوب هو المراد بالعقيدة الأشعرية⁽²⁷⁾، ومنذ عهد الموحدين ظل طلبية العلم في المغرب والصحراء، لا يدرسون في الغالب من كتب العقيدة غير كتب الشيخ السنوسي الكبرى والوسطى والصغرى، ومقدمة المرشد المعين لابن عاشر، أو إضاءة الدجنة للمقري، والجوهرة للقاني، وغير ذلك.

رابعا : قراءة الإمام نافع

تعتبر قراءة الإمام نافع من بين القراءات المتواترة والعمود الفقري لثقافة الصحراء والمميز الوحيد الذي ميز سكان شمال إفريقيا⁽²⁸⁾ وغربها عن باقي

سكان الأقطار الإسلامية الأخرى، وميز حفظهم وخطهم وضبطهم ونبرتهم عما كان معروفا لغيرهم، عرف المغاربة قراءة الإمام نافع من خلال رواية ورش ورواية قالون منذ أقدم العصور ومن ثم ظل الآلاف من صبيان المدن والقرى والصحراء يستظهرونها ويتقنون رسمها وضبطها غاية الإتقان⁽²⁹⁾، وعن نوع هذا الإتقان حدثنا ابن خلدون فقال . «وأما أهل المغرب فمذهبهم في الولدان، الاقتصار على تعليم القرآن فقط، وأخذهم أثناء المدرسة بالرسم ومسانئه واختلاف حملة القرآن فيه، لا يخلطون ذلك بسواه في شيء من مجالس تعليمهم لا من حديث ولا من فقه ولا من شعر ولا من كلام العرب إلى أن يحذق فيه أو ينقطع دونه، فيكون انقطاعه في الغالب انقطاعا عن العلم بالجملة، وهذا مذهب أهل الأمصار بالمغرب ومن تبعهم من قرى البربر أمم المغرب في ولدانهم» ثم قال بعد ذلك : «فهم لذلك أقوم على رسم القرآن وحفظه من سواهم»⁽³⁰⁾.

وزيادة على هذا ساعدهم على حفظ القرآن ما أحدثه الموحدون أولا، والشيخ الناصري ثانيا من إلزام الحفاظ بتلاوة الحزب القرآني كل صباح ومساء⁽³¹⁾، وأما باقي القراءات القرآنية المتواترة، فلا يهتم بها إلا الخواص في حواضر المغرب وصحرائه على حد سواء، وأكبر دليل على تواصل القراء بين مدن المغرب وصحرائه شيئان اثنان: أولهما: الكتب التي تدرس في ضبط قواعد قراءة الإمام نافع، وثانيهما : السند الموصول بين الشيوخ وشيوخهم في التلقين. أما الكتب التي تدرس من هنا وهناك فمنها منظومة ابن بري التازي في قراءة نافع بروايتها، والمنظومة الرمزية للإمام الشاطبي في القراءات السبع برواياتها وطرقها، وأما الأسانيد المعروفة في الصحراء فأقدمها وأشهرها سند الشيخ عبد الله التناجوي عن الشيخ أحمد الحبيب اللمطي عن الشيخ إبراهيم الأسكوري عن ابن القاضي الفاسي عن ابن غازي المكناسي عن ابن بري التازي عن شيوخ الأندلس.

وعلى هذا ندرك أنه لا فرق بين حفاظ القرآن في الصحراء وبين حفاظ القرآن في شمال إفريقيا، إلا في بعض الأشياء المحدثة، دون أن يتأثر بها قراء الصحراء مثل عدم الالتزام بالحزب الراتب، ووقف الشيخ الهبطي، وجمع القراءات في درج واحد، مما يسمى عند المغاربة والأندلسيين بالارداف.

خامسا : الطرق الصوفية

وإذ ذكرت فيما سبق عند كلامي عن المذهب المالكي، أنه يشمل العقائد والأحكام فإنني أضيف هنا أنه يشمل أيضا لسلوك، إنما ظهر انفصال علم السلوك في العصور المتأخرة على يد بعض الشيوخ، كما ظهر انفصال مباحث العقائد عن فقه الأحكام على يد علماء الكلام قبل ذلك في جميع الأقطار الإسلامية، والأساليب التربوية التي يتبعها الشيوخ في تربية أتباعهم هي المعبر عنها بالطرق الصوفية، منها على سبيل المثال الطريقة الشاذلية بفرعيها الدرقاوي والناصرية، ومنها القادرية والتيجانية، وذكر السيد عبد العزيز بن عبد الله ناقلا عن بغية المستفيد ص : 74 أن الأمير شكيب أرسلان تحدث في "حاضر العالم الإسلامي" عن قوة انتشار الطريقتين التيجانية والقادرية⁽³²⁾، وأن التيجانية انتشرت في السودان بواسطة الحاج عمر الفوتي، كما انتشرت في شنقيط والصحراء بواسطة الشيخ محمد الحافظ الذي أخذها عن شيخه سيدي أحمد التيجاني بفاس.

وعلى كل حال فللطرق الصوفية تأثير في سكان الصحراء، فبمجرد انتشارها في المغرب أقبلوا عليها واعتمدها في التربية والتهديب والصلاح، فكما أقبل عليها سيدي أحمد الرقبيني في توات، وعمل على نشرها في الساقية الحمراء، أقبل عليها كذلك سيدي أحمد العروسي ونشرها قرب مدينة السمارة، ثم سار على نفس الخط كل من سيدي عبد الله التتواجو الذي أخذ الناصرية عن شيخه سيدي امحمد بن ناصر بتامگروت وسيدي إبراهيم بلبصير الذي أخذ الطريقة الدرقاوية عن شيخه سيدي علي الدرقاوي بسوس وغيرهم من الذين نشرها هذا السلوك

النصف، فرض خمسة أنواع، للمرأة منه 80٪

والربع، فرض نوعين، للمرأة منه خمسون بالمائة 50٪

والثمن، للمرأة منه مائة بالمائة 100٪

والثلثان، فرض أربعة أنواع، للمرأة منه 100٪

والثلث، للمرأة منه خمسة وسبعون بالمائة 75٪

والسدس للمرأة منه اثنان وستون ونصف بالمائة 62.5٪

فمجموع حظوظ المرأة إذن من الفروض على 600 أربعمائة وسبع وستون ونصف 467.5.

ومجموع حظوظ الرجل من الفروض على 600 مائة وإثنان وثلثون ونصف 132.5."

وبهذا الأسلوب الذكي أبرز أن معنى قوله تعالى "للذكر مثل حظ الأنثيين" الذي يشوش به المرجفون لم يدرك مدلوله ولا مغزاه، وعلى اللجنة المكلفة بدراسة شؤون المرأة أن تطلع عليه لتعرف أن المعنية بالأمر ذهبت بكل شيء حسبما يبدو بالأرقام.

ومن الذين أنكروا التأويل الشيخ أحمد ولد المرابط الذي يقول :

فمعنى صفات الله يعقل فاعقلوا وتفويضنا في الكيف أولى وأوجب

فذلك تأويل وفيه تكلف وبعد عن التحقيق إن كان يطلب

نعم قد أتى عن زمرة اشعرية ولكن رجوع الأشعري عنه أصوب

ويقول في أبيات أخرى :

فما لله من وصف حميد يقر له على الوجه الحميد
فينفى الكيف والتمثيل عنه فليس له تمثيل في الوجود
ويفنى القول بالتأويل أيضا فتأويل الصفات هدى اليهود

ومعلوم أن الأشاعرة المتأخرين يقدمون الدليل العقلي على الدليل النقلى،
وفي ذلك يقول المقرئ في إضاءة الدجنة :

وحوز البعض دليل السمع في وحدة وقيل ذا ذو منع

من أجل ذلك وجه حبيب الله المجيدى الموريطانى النقد اللاذع بقوله :

عقولكم فيما ادعيتم محيطه بإدراك ما عن قدرة الله يصدر
فإن عجزت عن دركه قلتم إنه محال وليست فيه قطعا تؤثر
ويخلق ما لا تعلمون مقطع بها عن دعاويكم وتين وأبهر
فعقدى بحمد الله إدراك كل ما به الله أو خير البرية يخبر⁽³⁹⁾

ومعلوم أيضا أن أهل الكلام بصفة عامة، والأشاعرة بصفة خاصة، إنما
فضلوا مذهب التأويل لاغترارهم بأقيسة المنطق اليونانى، وفي مقدمة الذين
اغتروا بالمنطق اليونانى من الصحراويين الشيخ المختار بن بونا الذى يقول
مذيلا أبيات الأخصري في مقدمة السلم

قلت أرى الأقوال ذى المخالفة محلها ما صنّف الفلاسفة
أما الذى صنّفه من أسلما لا بد أن يعرف عند العلماء
لأنه يصحح العقائدا ويدرك الذهن به الفوائدا

ومن أجل هذا وجه إليه تلميذه المأمون بن محمد الصوفي هذا النقد اللاذع

بقوله :

ما الدين إلا الذي تسعى لتوهنه أي النبي وأثار الهدى العتق
لا كل خبط عن اليونان مبتدع قد سن بين أصول الدين مختلق
تحمي قواعد رستطاليس تحسبها دينا لك الويل نبهناك فاستفق⁽⁴⁰⁾

3 - كل ما تقدم من النصوص موجه للذين يفضلون المذهب الأشعري في

العقيدة، ويجزمون بصواب تأويل صفات الله بعد أن اغتروا بالمنطق اليوناني.

وهناك نوع آخر من الشيوخ الصحراويين المتعصبين للمذهب المالكي كما

تعصب أولئك للمذهب الأشعري، ومن الأبيات التي تدل على هذا الاتجاه المكروه في الفقه قول بعضهم متنكرا للقرآن والحديث :

ولا يجوز بالحديث العمل ومثله القرآن فيما نقلوا

وقول الآخر متهما كل من يخرج عن المذهب المالكي بالمروق عن الدين :

وأهل مغرب عليهم يمنع غير الإمام مالك أن يتبعوا

لفقد غيره وكل خارج عن نهجه منهم من الخوارج

وقول الآخر وهو يستنكر الاعتماد على مختصر خليل دون الاعتماد على

رسالة ابن أبي زيد، كما يستنكر الاعتماد على ابن عاشر دون الاعتماد على الأخصري :

علامة الجهل في هذا الجيل ترك الرسالة على خليل

وترك الأخصري لابن عاشر وترك هذين لهذين احذر

وإلى هؤلاء وأمثالهم أوجه البيت المنسوب للولائي فيما يلي :

والفقه لا يفتى ولا يعمل به بل هو تخمين ورد فانتبه

وأضيف إلى بيت الولائي ما ذكره صاحب الوسيط في ترجمة النابغة الغلاوي من أنه يكره مختصر الشيخ خليل وشراحه، وذكر أن له نظما يسمى: بواطليحية، ينتقد به كتب الفقهاء، ومنه قوله :

فطرة ابن بونا والخطاط كلاهما في غاية انحطاط⁽⁴¹⁾

وأخيرا أحيلهم على تحرر محمد بن مولا . في كتابه الكفاف إذ يقول :

وندب القبض لدى الثلاثة وعند مالك على رواية

ويقول :

وجاز ذبح الشاة من قفاها لدى الثلاثة ومن قفاها

ويقول :

والقتل بالنار أجازه غرر منهم علي وأبو بكر الأغر⁽⁴²⁾

ومما يناسب ذكره في هذا المقام الإشارة إلى الأرجوزة التي ذكرها الدكتور عباس الجراري للنابغة الغلاوي في موضوع بيان ما يعتمد وما لا يعتمد من الكتب في الفتوى، ومن الكتب التي أشار إليها في الأرجوزة المذكورة فتاوى الشيخ الناصري، والشفاء للقاضي عياض⁽⁴³⁾.

4 - وأخيرا فكما وجه انتقاد من طرف النبغاء من علماء الصحراء إلى المنطق اليوناني، وإلى العقيدة الأشعرية، وإلى التعصب للمذهب المالكي وإلى الكتب التي لا تعتمد في الفتوى، فكذلك وجه انتقاد مماثل من طرف هؤلاء مثل محمد الإمام الذي أثنى على التصوف عامة، وذم تصوف بعض المتأخرين حين

المستمد من طريقة الشيخ الجنيد السالك⁽³³⁾، ومن أجل التكامل الحاصل بين كتب الأحكام وكتب العقائد وكتب السلوك أنشد الشيخ ابن عاشر قوله :

في عقد الأشعري وفقه مالك وفي طريقة الجنيد السالك

أما الشيخ ماء العينين فقد سن في هذا الميدان منهاجا وسطا جمع فيه بين العملين السلفي والصوفي المعتدلين، مبينا لأتباعه، أن طريق الحق يسع الناس جميعا إذا أرادوا سلوكه وان أخوة الإيمان بدعوهم إلى السير في موكب واحد نحو الله، منشدا أمامهم البيت الذي يقول فيه :

إنني مضاو لجميع الطرق أخوة الإيمان عند المتقى⁽³⁴⁾

ومع ذلك فالمتضلعون الآخرون من أبناء الصحراء كانوا يكرهون التقليد، سواء في مجال المناهج ومجال العقائد والفقهاء والسلوك، لذلك وجهوا انتقادات مرة إلى الجوانب التي يعتبرونها مخالفة لتعاليم الكتاب والسنة في نظمهم ومؤلفاتهم ضد ما استحسنته من قبلهم ولو كانوا شيوخهم المباشرين أو من غير شيوخهم المباشرين.

سادسا : مؤلفات العلماء والأدباء في الصحراء

من أهم العناصر الواردة في هذا المحور مؤلفات العلماء والنقاد والأدباء في الصحراء، لأن أهمية هذه المؤلفات، تظهر في كونها المراجع والمظان في مختلف العلوم والفنون، ولأن المؤلفات والكتب العلمية والآثار الأدبية هي الوثائق التاريخية التي تحتفظ بالتراث الثقافي لكل أمة ولكل جيل، بل هذه المؤلفات والنصوص الأدبية هي التي ستجسد لنا نبوغ أبناء الصحراء في كل المجالات، إذ الغاية، هي استعراض نماذج من هذا النبوغ في المجال العلمي والأدبي في أن واحد، وعليه فسأقتصر على بعض المؤلفات وبعض المنظومات التي تمثل تقليد

بعض الشيوخ ونبوغ طائفة من الشباب منهم نبذوا التقليد في مجال المناهج ومجال العقيدة، ومجال الفقه ومجال السلوك جميعا.

وحول هذه المؤلفات ذكر محمد الشيخ محمد العاقب بن مايايا في كتابه مجمع البحرين في مناقب الشيخ ماء العينين⁽³⁵⁾ وهو يحدث عن مؤلفاته أنه لم يترك فنا من سائر فنون العلم إلا وألف فيه تأليفا كافيا ، كما أن سيدي محمد المختار السوسي ذكر أن أبا المزايا الشيخ إبراهيم الكتاني أطلعه على المؤلفات التي ألفت فيه رضي الله عنه⁽³⁶⁾.

المؤلفات

في التفسير .

- 1 - أضواء البيان للشيخ محمد الأمين الشنقيطي المتوفى بالمدينة المنورة.
- 2 - الواضح المبين في أصل علوم الدين للشيخ عبد القادر من آل محمد سالم.
- 3 - نظم معاني القرآن في 16 ألف بيت للشيخ ابن أحمد.

في أصول الفقه .

- 1 - مراقي السعود مع نشر البنود للشيخ عبد الله ابن الحاج إبراهيم العلوي.
- 2 - الألفية للشيخ أحمد ولد المرابط.

في الفقه .

- 1 - الكفاف للشيخ محمد بن مولود.
- 2 - نظم الشيخ محمد سالم بن عدود لمختصر الشيخ خليل في 13 ألف بيت.

في النحو :

- احمرار الشيخ المختار بن بونا الذي يقبل عليه المختصون.

في العقيدة :

- الوسيلة لابن بونا .

في الحديث .

- زاد المسلم لابن مايبا .

في شروط الفتوى :

- أرجوزة فيما تجب به الفتوى لمحمد النابغة الغلاوي .

في الرحلات .

- رحلة محمد المختار الولاتي .

في تراجم الأدباء

- الوسيط للشيخ احمد بن الأمين الشنقيطي

ومن المؤلفات النقدية أبيات متناثرة هنا وهناك منها :

1 - في تفضيل الأشعرية والماتوريدية للشيخ عبد القادر من آل محمد

سالم .

واعلم بأن الملة المرضية هي التي عليها الأشعرية

والماتوريدية إذ هي التي أتى بها أحمد هادي الأمة

وفي تفضيل مذهب التأويل يقول المقري الأشعري :

والنص إن أوهم غير اللائق بالله كالتشبيه بالخلائق

فاصرفه عن ظاهره اجماعا واقطع عن الممتنع الأطماعا

وفي المعنى نفسه يقول إبراهيم اللقاني المصري :

وكل نص أوهم التشبيها آوهم أو فوض ورم تنزيها

2 - من جملة الصحراويين الذين أنكروا مذهب التأويل عند الأشاعرة

الشيخ باب ولد الشيخ سيدي، الذي يقول :

ما أوهم التشبيه في آيات وفي أحاديث عن الثقات
فهو صفات وصف الرحمان بها وواجب بها الإيمان
ثم على ظاهرها نبقياها ونحذر التأويل والتشبيها
قال بهذا الثلاثة القرون والخير باتباعهم مقرون
وهو الذي ينصر القرآن والسنة الصحاح والحسان

والشيخ محمد سالم بن عدود الذي يقول :

الظاهر الذي عليه نبقى موهم تشبيهه لرب الخلق
هو الذي أهل اللسان فهمو إذ نزل الوحي به عليهم
فلا أبو بكر لخير الرسل يقول أشكل علي اشرحه لي (37)

وبما أن الشيء بالشيء يذكر، فإني أشير إلى أن للشيخ محمد سالم بن عدود عضو أكاديمية المملكة المغربية الرائدة درسا قيما (38) ومهما جدا، تشرف بإلقائه أمام مؤسس هذه الأكاديمية مولانا الحسن الثاني رحمه الله تحت عنوان :

«مساواة الرجل والمرأة في القرآن الكريم»

عبر فيه عن نبوغه الصحراوي الملقح بمقومات مغربية منيرة قائلا :

"الحقيقة المجهولة من قبل المعترضين، والتي يغفل عنها المرجفون، أن حظ المرأة في الإرث في الإسلام، أوفر من حظ الرجل، وأن الفرص المتاحة لهذه أوفر من المتاحة له..."

ولكي يبرز ذلك لكل ذي عينين : قال : إن الفروض في الإرث كما هو معلوم

سنة :

فمولاي حفيظ، وكانت الدولة تهتز له متى ورد إلى المغرب، وخاصة في الدولة العزيرية أيام الوزير أحمد بن موسى.

وكان مولاي الحسن يوالي عليه الإعانات التي لا انقطاع لها، لأنه كان السند القوي للدولة المغربية في مواقفه الجهادية وعمله المتواصل لرد عدوان الأجنبي الذي كان يتربص بالمغرب إذ ذاك، وقد ازداد هذا العون للشيخ وأصحابه المجاهدين في أيام المولى عبد العزيز، إذ كانت السفن المغربية تتوالى إلى طرفاية، مساندة له في دفاعه وصموده، ولما احتلت فرنسا مدن أدرار لجأ إلى تيزنيت وبقي بها حتى توفي سنة 1328 هـ (51).

ويعد قدوم الشيخ ماء العينين من الساقية الحمراء إلى تيزنيت عملية جديدة من التواصل العلمي والثقافي بين الأسرة المغربية والأسرة الصحراوية بفضل أولاده العلماء الأدباء المجاهدين وأتباعه ومريديه المساندين، وبفضل النبغاء من حفدته السائرين في درب آبائهم الأولين والساهرين على تحرير الصحراء من المستعمرين والحاسدين والمرجفين.

وقد رافق الشيخ ماء العينين إلى تيزنيت الآلاف من العلماء طلاب العلم والمريدين، وقد قال فيه ابن الأمين الشنقيطي ما يلي: «وكان هذا الشيخ فاضلا كريما، لا يوجد احسن منه أخلاقا، وقد اجتمعت به حين خروجي من مدينة شنقيط إلى مراكش في توجهي إلى الحجاز، ورأيت منه ما حيرني لأنني أقدر من معه في وادي أسمار من الساقية الحمراء بعشرة آلاف شخص، ما بين أرملة ومزمن وصحيح البنية وكل أصناف الناس وكل هؤلاء في أرغد عيش كاسيا من ذلك الشيخ الذي يعامل الجميع معاملة حسنة(52)».

6 - أحمد دوكنة العالم المشارك في مختلف العلوم، ورد على السلطان مولاي الحسن الأول ومدحه بقصيدة فولاه قضاء مدينة تيندوف التي بناها جده ابن الأعمش الكبير سنة 1270 هـ والذي نشر العلم والدين بالصحراء الشرقية،

خاطب الأدباء الإلغيين والتنكريين شعرا، واتصل بالشيخ الحاج علي الدرقاوي، وتأثر به التأثر الكبير، له مكتبة علمية حافلة بوادر المخطوطات.

7 - محمد يحيى بن محمد المختار الولاقي العالم المشارك والمحدث الحافظ صاحب «الرحلة الحجازية» وغيرها من الكتب والرسائل والمنظومات، مر في رحلته المؤرخة بـ 1311 هـ على قرية إلغ واجتمع مع سيدي محمد بن العربي الأودوزي، وتذاكر معه حول بعض الأسئلة العلمية، كما اجتمع في الرباط بالزاوية التيجانية مع أصحاب الشيخ التجاني الذين رحبوا وفرحوا به الفرح الكبير، وبعد ما استقبله السلطان المولى عبد العزيز وأكرمه هو وولديه ونظم لهم السفر إلى بيت الله الحرام، أعجبه هواء الرباط، ومكث فيها أياما تمكن خلالها من التزوج بالسيدة خديجة بنت الشريف الإدريسي مولاي إدريس بن برقوق⁽⁵³⁾.

8 - محمد البيضاوي الشنقيطي، استقر بالمغرب بعد جولة في المشرق، وتصدى للتدريس في طنجة وتطوان، وتقلب في مناصب متعددة، ونشط في الأدب والشعر خلال إقامته بالرباط.⁽⁵⁴⁾

هذا ولا ينبغي أن ننسى المرأة الصحراوية في هذه الاهتمامات العلمية، وهذه الحركات التواصلية، لتمييز الصحراء بالنساء العالمات ودورهن في نشر العلم والثقافة وتنمية الفنون.

1 - وأبدأ منهن بزینب النفزاوية زوجة يوسف بن تاشفين المشتهرة بالعلم والجمال.

2 - أم طلحة تميمة بنته التي لها العناية بالأدب والشعر.

3 - خناتة بنت بكار زوج المولى إسماعيل المعروفة بالعلم والمهتمة بالكتابات العلمية على هوامش بعض المؤلفات.

4 - هند زوج ماء العينين العالمة المشاركة.

5 - خديجة بنت محمود البيضاوي العالمية والمهاجرة إلى مراكش للتدريس وكانت عالمة مستحضرة للسيرة النبوية، والعربية والنحو. وغيرهن كثير (55).

أما الذين لهم صلات ثقافية وأدبية مع علماء وأدباء المغرب فكثير، وتجنبنا للتطويل أقتصر على الشيخ محمد الإمام الذي زار مدرسة "إلغ" (56) بسوس رفقة السيد ماء العينين بن العتيق، ونزلا على عالمها أبي الحسن الإلغي الذي استقبلهما استقبالا حارا ثم عقدوا بالمناسبة ندوة العرب والعجم. وخاطبهما الأديب عبد الله بن محمد قائلا :

أهلا أسيدينا الإمام والعلم	ماء العينين من بهما قد ضاعت الظلم
أقبل والله لي السعد المبين بطل	عة محييكما وزالت الغمم
فمرحبا بكما خير الوري كرما	فأنتما خير من وقت لهم ذمم
وقد أجابه ابن العتيق بقوله :	

جزيت بالخير يا من دأبه الكرم	لا يعتريك وني عنه ولا سأم
فمن ينخ بك عبد الله راحلة	عن قلبه ينزح الإيحاء والغمم
دامت بنا وبكم موصولة رحم	وإنما رحم الآداب ذي الرحم
وأجابه محمد الإمام بقوله :	

فبوركت عبد الله نجل محمد	كريم السجايا طيب الأصل ماجده
تلقيتنا بشرا فتلكم فيكم	أيا آل عبد الله ألزم قاعده
أبوك الذي عمت مزاياه في الوري	ولا عجب أن شابه النجل والده

وبعد ما قام المنتدون بجولة حول القرية واستنشقوا أريج هوائها بادرهم
المضيف بتحيةة أخرى بعدما التحق بالركب حفيد الشيخ ماء العينين السيد
المحفوظ الحضرمي وقال :

طلعتم طلوع الشمس بعد غمامي	فأبرى جرح القلب بعد كلام
حلتهم محلا مستطيرا بنزلكم	فأشكر دهري إذ رعى لي ذمام
أتاني بخير الفاضلين على جوى	إليمم وشوق ضاق عنهم حزامي
فلم يك من وصال أخاير	محياهم في العين بدر تمام
أنىخوا أنىخوا فالديار دياركم	وهذا العبيد خادم كغلام
عليكم سلام الله ساعة وصلكم	أيا من لقاهم كان كل مرامي

وقد أجابهم محمد الإمام بقوله :

أزهر نجوم أم بدور تمام	أزهر أكام ذا أحب غمام
أم الدر من بحر الهدى قذفت به	قريحة حبر لا يرام هممام
على أنه أبهى من الدر منظرا	ويفعل بالألباب فعل مدام
وهذا المقام أسما على وسمه	كريم الفروع ينتمي لكرام
حوى فضلهم مع فضله ولو أنهم	سواهم لسودته نفس عصام
فكن لأمير المؤمنين مؤازرا	فقد قل من يدري حقوق الإمام
فطب خاطرنا فالرأي رأيك عنده	فما القول إلا ما تقول حذام
فلا زلت في عين العدو قذى لها	ودمت لجنب الدين خير حسام

قال : « فإن التصوف عند مشايخ الأقدمين عبارة عن علم وعمل وإخلاص » ثم أضاف : « ولا شك أن الطريقة اعتراها بعد ذلك كثير من الخلل والفساد في هذه الأزمنة الأخيرة، فاختلفت الحابل بالنابل، وجعلوها أضحوكة للمتفرجين، وأحبولة للمتصدين، وسلما للمتسلقين»⁽⁴⁴⁾.

ومثله الشيخ ابن أحمدي في النظم السابق ذكره في معاني القرآن إذ يقول:

لكنما طريقة التصوف دخلها نوع من التكلف
فشيك الذ فيه لا ترتاب سنة خير الخلق والكتاب
يلقنان كل خير فاقبلي تلقين خير مرسل ومرسل

لقد لاحظتم مبلغ تفوق العلماء والأدباء الصحراويين من خلال النماذج في نقد ما أحدثه المتأخرون في ميدان المناهج والعقيدة والفقه والتصوف وهناك مجال آخر لا يقل شأنًا عن المجالات المذكورة، وهذا المجال هو اللغة العربية في قواميسها وقواعدها وشعرها وجناسها وغير ذلك، فالذي يدل على اعتنائهم بالأدب، وصف بعضهم موريطانيا ببلد مليون شاعر، ومن خالط القوم، وسبر غورهم، يجزم بأن ذلك الوصف مطابق للواقع، والذي يدل على اهتمامهم بالشعر الجاهلي خاصة قول بعضهم :

أول واجب على من كلفا أن يعرف الله ويعرف قفا
والذي يدل على شغفهم بالجناس قول محمد ابن مولود فيما سبق :
وجاز ذبح الشاة من قفاها لدى الثلاثة ومن قفاها
وقول أديب آخر وهو يصف ورعه في شبابه :

وليت قضاء خمس هن خمس لعمرى والصبأ في عنقوان
فلم تضع الأعادي قدر شاني ولا قالوا فلان قد رشاني

وقول آخر:

والنصر لا يترك للحديث ولو يصح فاستمع حديثي

وهناك مجال آخر تتجلى فيه قدرة بعضهم على النظم في قضايا الفقه وما يتصل بجزم الفعل المضارع المعتل الأخير، وهو لا يقصد بالقصر والإتمام في الواقع إلا الذي يصنع الشاي، لأنه يسمى عندهم المقيم، لذلك ألغز بالمقيم في باب الصلاة وهو يقصد به المقيم في صنع الشاي :

الشرع أن يأتي المقيم بأربع والقصر دون مبيحه لم يشرع

فحذار لا يجزم بحذفك أخرا إلا إذا ما اعتل آخر الأربع

وتأكيدا لما سبق أضيف هنا ما أشار إليه الشيخ محمد الإمام، وهو يصف علماء الصحراء وأدبائها. فعن العلماء قال: "ولا يخفى عليك أن هناك من جهابذة العلماء ما لا يدخل تحت الحصر، أهل اليد الطولى في كل فن أصولا وتفسيرا وحديثا وفقها ولغة".

وعن الأدباء قال أيضا: «وأما فنون الآداب في سائر أنحاء والأشعار والمحاضرات، فهي جبلة في كثير منهم، لا يحتاجون فيها إلى كثير معاناة»⁽⁴⁵⁾. ولعل قائلًا يقول: ما سبب تفوق أبناء الصحراء على غيرهم في كثير من المجالات، خصوصا مجال اللغة العربية وآدابها، فالجواب أن السبب الأساسي هو أخذهم بطريقة أهل الأندلس بتعليم أولادهم منذ الصغر، بحيث لا يقتصرون في تعليم أولادهم على القرآن فقط مثل باقي المغاربة، بل يخلطون في تعليمهم للولدان رواية الشعر والترسل وأخذهم بقوانين اللغة العربية، وقد بلغني أن هذا المنهاج هو المفضل لدى أهل القبلة من موريطانيا، بخلاف أهل الشرك.

ولذلك كثر الأدباء في أهل القبلة نسبيا، يضاف إلى هذا أسباب أخرى ترجع إلى البيئة الصحراوية من حيث الهدوء النفسي وبساطة الأغذية والاعتماد

على الحفظ ومناغاة الأمهات أبناءهن بأساليب الإشارة والتشويق نحو العلوم والعرفان، والتفوق بين الأقران.

لم يبق لي بعد هذه الجولة الممتعة إلا أن أتحفكم مرة أخرى مختصرا في إطار الثقافة في الصحراء بذكر أشهر العلماء والأدباء الصحراويين الذين لهم صلات ثقافية وأدبية مع علماء وأدباء المغرب من جهة، وصلات ولاء وإخلاص وحب مع ملوك الدولة العلوية الشريفة الذين جددوا الصلات، ورفعوا للعلم والدين المنارات، ونشروا كل ما ينير الساحات ويصلح الأرض والنيات التزاما منهم بتجديد ما أنجزه السابقون، وتحريك الوسائل التي استعملها الأولون.

1 - وأرى أن أبدأ بالعلامة المعروف بابن رازكة⁽⁴⁶⁾ والمسمى عبد الله بن محمد بن عبد الله ابن الطالب بن حبيب بن أبيج والمنتهي نسبه إلى يحيى العلوي الجد الجامع للأكثرية في البلاد الصحراوية، لأنه المقدم على أهل قطره من غير نكير، والمتفنز في فنون شتى من العلوم والفنون، ولأنه المتصل بالسلطان المولى إسماعيل، وحظي عنده الحظوة التامة، وأصبح من خاصية ولده الأمير محمد العالم الذي كان نائبا لوالده في تارودانت، وأسس في سوس للشعر والأدب دولة تذكر فتشكر.

ولتقدير الأمير المذكور للعلامة ابن رازكة وتأثره به أنشد من أجله في بعض زيارته لوالده في العاصمة الإسماعلية مكناس البيتين التاليين :

مكناسة الزيتونة فخرا أصبحت تزهو وترفل في ملاء أخضر

فرحا بعبد الله نجل محمد قاضي القضاة ومن ذؤابه مغفر

وللشاعر ابن رازكة من جهته مدائح كثيرة للأمير محمد العالم منها قوله:

دع العيس والبيداء تذرعها شطحا وسمها بحور الال تسبحها سبحا

وأم بساط ابن الشريف محمد مبيد العدا نكري ومبدي الهدى صبحا

2 - سيدي عبد الله بن الحاج إبراهيم العلوي مؤلف «مراقي السعود»، درس بفاس وأخذ عن البناني محشي عبد الباقي كما أخذ عنه البناني أيضا، وكان متصلا بالسلطان سيدي محمد بن عبد الله، ودامت المذاكرة العلمية بينهما تسع سنين⁽⁴⁷⁾.

3 - محمد المجيدري بن حبيب الله اليعقوبي صاحب الأبيات السابقة في نقد المنطق اليوناني، ووجهها لشيخه المختار بن بونا، وهو أيضا ممن يدرس بفاس وله صلة بالسلطان سيدي محمد بن عبد الله، ونال الحظوة عنده، وممن تتلمذ عليه بفاس الصوفي سيدي احمد بن ادريس الفاسي وصفه ابن الأمين الشنقيطي بقوله: «هو العالم الوحيد الذي ماله من نديد وهو أحد أربعة لم يبلغ أحد في ذلك القطر مبلغهم وهم ابن رازكة وابن الحاج إبراهيم، ومحمد الندالي الديماني⁽⁴⁸⁾ والمختار بن بونا الجكني⁽⁴⁹⁾»

4 - المختار بن الهية الأبييري، كان كاتباً للمولى عبد الرحمان بن هشام، وهو والد الشاعر سيدي بن المختار الذي اشتهر في مراكش باقتنائه للكتب، وقد تقدمت أبيات ابنه في نقد مذهب التاويل في صفات الله تعالى⁽⁵⁰⁾.

5 - الشيخ ماء العينين مصطفى بن محمد فاضل بن مامين بن الجيه، شيخ من الشيوخ العظام الذين تمت لهم شهرة فائقة عظيمة من نحو 1270 هـ، ذكره الشيخ محمد المختار السوسي بأنه عصامي وعظامي، أدرك من المشاركة في العلوم إدراكا عظيما تدل عليه تأليفه التي ما غادرت علما من العلوم إلا اقتبست منه حديثا وتفسيرا وعربية وأصولا وبيانا، بله التصوف الذي هو عش ذلك البيت، فعليه تأسس من أول يوم وبه اشمخر بناؤه.

وقد اتصل من قديم بالملوك العلويين، فكان يفد عليهم بأصحابه من الصحراء، فقد وفد على مولاي عبد الرحمان سنة 1274 هـ وهو في طريقه إلى الحج، فمولاي محمد بن عبد الرحمان، فرزاي الحسن، فمولاي عبد العزيز،

ومرة أخرى ورد محمد الإمام مع رفيقه ابن العتيق إلى المدرسة⁽⁵⁷⁾ التنكرتية فصادف هناك الأديبين الأستاذ محمد بن الطاهر وصاحبه محمد بن علي الإلغي، فقال ابن العتيق يخاطب الأديبين، وذلك في أول المحرم 1332 هـ :

ألا يا حبذا سفر حداني	إلى من يدعيان محمدان
رضيحي ثدي آداب وعلم	بتقصار العلامتقلدان
نجيي طاهر العرض المجلى	فمن ذا في الرهان له يداني
أنخنا عنده فقري وثنى	وكانسا للنزيل يساعدان
فباتا في نوادر كل فن	شهبي بيننا يتواردان
فإن تنشدهما استمعا ومهما	أصخت يحدثان وينشدان
سماء المجد مذ يتقارنان	تقارن في السماء الفرقدان
ولا عجب إذ الولدان يوما	أشادا ما بناه الوالدان

ثم خاطب الأديب محمد بن علي المذكور محمد الإمام بما نصه :

سلام يـزدري زهر الكمام	على مثوى محمد الإمام
على فرد حوى كل المعالي	وساد فما له أبدا مسامي
سليل الشيخ ماء العينين قطب الـ	مكارم والعلـا شمس الظلام
وبعد فإن ودك في فؤادي	رسا قلبه به أسنى مقام
أدام الله فضلك في اعتزاز	وصيتك يزدري مسك الختام

وقد خص هذا الأديبان كلا من مدرسة "إلغ" ومدرسة "تنكرت" بهاتين الزيارتين لأنهما مختصتان بالأدب والتفنن في الشعر وهما من جملة المدارس العتيقة المنتشرة هناك، والناشرة لمختلف العلوم والفنون في السهول والجبال.

وهكذا نرى دور المساجلات الأدبية بين الصحراويين والسوسيين في تركيز الثقافة الصحراوية التي اعتاد الإقبال عليها الإلغيون ووفود العلماء الواردون من الصحراء في مختلف المناسبات، والمتأثرون بما يشاهدونه باستمرار من إخوانهم الأدباء الإلغيين من حسن الضيافة والكرم والنبل والتقدير وغير ذلك مما أشاد به بدوره الأديب الولاتي في بعض زيارته لقرية "تحت الحصن" سكنى الشعراء الإلغيين حين قال :

يا أهل تحت الحصن أنتم فوقه معنى وحصنكم بعلم يشرف
ما ضر من بالفوق معنى وصفه إن كان في حصن بتحت يوصف
فارقوا بجد واجتهاد للعلا ترقوا معالي حدها لا يوصف

وقد سجل هذا التواصل الأدبي بين الصحراويين والإلغيين، وهذا الرابط الثقافي والفكري بين سوس والصحراء الشاعر الفحل والأديب الكبير السيد الحسن البونعماني حين قال (58) :

حييت "إلغ" فما أجلك مجعاً لوفود شعر أين من يستنكف
علماء صحراء الفسيحة جددوا فيها عكاظا للنهى تستوقف
أحيا الولاتي في الموات حدائقا غلبا بفكر في المعارف تقطف
وابن العتيق مطرب بقريضه وعليه أعلام البيان ترفرف
وعليهما نبغاء "إلغ" أغدقوا كرما وأدابا وما يستظرف
هم أفعموا من كل فذ أكؤسا للوافدين وبالنوادر اتحفوا
صف بالمفاخر "إلغ" فهي جديرة وأنا بالـغ في المفاخر أعرف (59)

من هنا يعرف أن هذا التواصل الثقافي بين المغرب وصحرائه قديم ومحبيب ومركز في النفوس، ومعبر عن هذا التمازج الروحي السائد، وعن هذه الوحدة الشاملة في المقاصد والأهداف لدى الجميع.

وعلى هذا فلنستمع إلى بلبله سوس والصحراء خديجة أبي بكر ماء العينين المترجمة لهذه المعاني في شعرها حين تقول (60) :

يقولون من سوس فقلت لهم نعم	بها كان ميلادي ومهد طفولتي
يقولون من سوس فقلت لهم نعم	أليس بها مثوى الجدود وخلتي؟
يقولون من سوس أقول لهم نعم	لئن كنت من سوس فتلك حقيقتي
يقولون والصحراء قلت كذلكم	تقاسمت الصحراء والسوس مهجتي
أحن إلى هذي وتلك وإن لي	هنا موطني الأصلي وثم أرومتي
غنيت بتلك الجنتين طليقة	وأقطف من داني القطوف مودتي
غنيت حتى قيل بلبله شددت	وما كان شدوي غير بوح قصيدتي

إنه بفضل هذه المقومات المغربية التي نورت ساحات الصحراء على هذا المستوى الرفيع، استطاع المغرب ان يحافظ على المثل العليا في الحياة، ويتنافس ملوكه وعلمائه وسكانه في كل ما يرضي الله ويسعد عباد الله ويعملوا باستمرار على تحقيق المعنى الرباني الذي أخبر به الرسول صلى الله عليه وسلم عن الأمة التي ذكرها في حديثه حين قال :

«لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق لا يضرهم من خالفهم حتى يأتي أمر الله».

ومن هذا المعنى الرباني، انطلق حماس هذه الأكاديمية الحسنية لتجدد مرة أخرى الإشعاع الثقافي المغربي المنير بعقد هذه الندوة المباركة لإبراز ما تمتاز به صحراء المغرب من رجالات صدقوا ما عاهدوا الله عليه، وقدموا للإنسانية الشيء الكثير.

- 40) مجلة (المراطون) السعودية العدد الرابع ص 23 .
- 41) انظر «الوسيط» ص 93.
- 42) «الكفاف» لابن مولود ص 3-4.
- 43) انظر «ثقافة الصحراء» ص 53 حول عياض.
- 44) محمد الإمام الجاش الربيط ص 42 .
- 45) محمد الإمام «الجاش الربيط» ص 40.
- 46) ابن الأمين «الوسيط» ص 2-3. الجراري «ثقافة الصحراء» ص 23.
- 47) ابن الأمين «الوسيط» ص 38. «الجراري ثقافة الصحراء» ص 24.
- 48) ابن الأمين الشنقيطي «الوسيط» ص 215.
- 49) ابن الأمين الشنقيطي «الوسيط» ص 277.
- 50) ثقافة الصحراء ص 36 «الوسيط» ص 240.
- 51) «المعسول» ص 83، الجراري، «ثقافة الصحراء» ص 27.
- 52) ابن الأمين الشنقيطي «الوسيط» ص 365 «المعسول» ج 4، ص 83.
- 53) «الرحلة الحجازية» للولاتي ص 17 تخريج وتحقيق الدكتور محمد حجي.
- 54) المختار السوسي «خلال جزولة» ج 4 ص 157.
- 55) «ثقافة الصحراء» ص 28 للدكتور الجراري.
- 56) أنظر ج 4 من «المعسول» ص 286.
- 57) أنظر ج 4 من «المعسول» ص 287.
- 58) أنظر ج 1 من «المعسول» ص 64.
- 59) ديوان الحسن البونعماني جمع وتحقيق الحسين أفا ص 475 منشورات كلية الآداب بالرباط 1996.
- 60) «سوس والصحراء المغربية» ص 183.

ثقافة الصحراء من خلال مقوماتها المغربية لدى الفقهاء والشعراء من 1912 إلى اليوم

خديجة أبي بكر ماء العينين

"أعلم أنني ما فعلت ما فعلت إلا اتباعاً لكتاب الله ورسوله صلى الله عليه وسلم، ولو لا قولي اتباعاً لكان تحصيل الحاصل..."

الشيخ ماء العينين

(مفيد الراوي على أنني مخاوي)

تقديم

إن الدارج على تتبع وتمحيص الآثار المكتوبة والمنقولة لفقهاء وشعراء الصحراء المغربية ستظهر له لا محالة خصائص عديدة، بعضها يجد أساسه في الثقافة المغربية المشتركة والآخر يشيد خصوصيته تبعاً للبيئة والمجتمع المحلي.

فإذا تأملنا التصانيف والامتون الرائجة في الصحراء وطرق التدريس والمناهج المتبعة فيها وجدنا أنها لا تختلف في شيء عن تلك المتبعة في كل من جامعة القرويين بفاس وجامعة ابن يوسف في مراكش. بل إن من الفقهاء والشعراء من سافر من وجدة أو فاس أو غيرها إلى السمارة بحثاً عن متن من المتون أو ليأخذ العلم على يد بعض فقهاءها، وفي هذا يقول الدكتور محمد الظريف: "وكانت الصحراء بدورها ملجأً كثيراً من أهل فاس وغيرهم من باقي

الأقاليم المغربية، يترددون عليها إما للتجارة أو التدريس أو الأعمال المخزنية." (1) والحال نفسه بالنسبة لبعض الصحراويين المغاربة الذين ارتحلوا لطلب العلم بواحدة من المدن المذكورة، بل منهم من درس في جوامعها وجامعاتها، يقول الدكتور محمد الظريف : "ولا ينحصر التواصل الثقافي بين فاس والصحراء في هذه المظاهر الثقافية التي تبدو من خلال هذه اللقاءات والإتصالات الدائمة بين العلماء والأدباء ورجال الفكر والسياسة، ولكنه يشمل مختلف جوانب الحياة الثقافية من رحلات ومناظرات وتاريخ وفتاوي وتآليف ومساجلات أدبية وغيرها".

إن الفقهاء والشعراء الصحراويين المغاربة ساهموا بشكل كبير في تأسيس وتأسيس البنى الثقافية المغربية، فكونوا بذلك جزءا لا يتجزأ منها، الشيء الذي شكل فضيلة وميزة لثقافة الصحراء التي يتناغم فيها الوطني والمحلي من غير نشاز ولا تنافر، مما انعكس على مجمل انتاجات فقهاءها وشعرائها. فكان الهم الوطني الشغل الشاغل بالنسبة لهم، حيث انبروا للدفاع عن وحدة الوطن ضد أفة الإستعمار وخصوم الوحدة الترابية بالقلم والسلاح.

وساقترصر في هذا المقام على أربعة نماذج : نموذجين فقهيين، ونموذجين شعريين، خصوصا إذا علمنا أن الفقيه في الصحراء المغربية هو شاعر وأديب وأن الشاعر هو فقيه وعالم أريب في غالب الأحيان.

1 - الفقهاء

- أ. العلامة الفقيه السيدي عثمان بن محمد فاضل.
- ب. الفقيه العلامة الشيخ لارباس ماء العينين.

2 - الشعراء

- أ. العلامة الأديب محمد البيضاوي والشنجيطي.
- ب. العلامة الأديب يحجب بن خطري.

ولعل الخيط الرابط أو الناظم بين هؤلاء هو انتمائهم للصحراء المغربية، رغم اختلاف أجيالهم، فجزورهم في الصحراء، وقلوبهم فروع تنبض بحب الوطن يحكون ذلك صراحة، إن شعرا أو نثرا، لا يخشون في الحق لومة لائم.

I - الفقهاء المغاربة بالصحراء

* وحدة المذهب وروابط البيعة

يعتبر المذهب المالكي التيار الفقهي الذي تبناه فقهاء وعلماء الصحراء أسوة بباقي علماء المغرب، "وقد كان تمسك الصحراء بمذهب الإمام مالك أوثق وأبلغ إذ عن طريق هذا المذهب تأسست الدولة المرابطية منبثقة من الصحراء"⁽²⁾ مما كان له الفضل في توحيد البلاد على أسس ودعائم واحدة إلى اليوم، ما عدا في الفترة الموحدية، ولكن بانتهائها عاد المغاربة إلى مذهبهم الذي ألفوه منذ عهد المولى إدريس الأكبر، "فمنذ انتشار الإسلام في المغرب وانطلاق حركة التعريب في ربوعه ابتداء من إنشاء جامعة القرويين، وخلال الأزمنة المتعاقبة كانت حاضرة فاس قبلة أهل الصحراء والمغاربة كافة، يتوافدون عليها للدراسة والتدريس أو العمل في القضاء والإدارة، أو تقديم الولاء وتجديد البيعة لملوك الدولة العلوية"⁽³⁾.

ولا غرو إذا وجدنا أهل الصحراء رجالا ونساء يحفظون بعض المتون المالكية، إذ كانوا "يهتمون بحفظ شيين اثنين في مقدمة ما يحفظون، وهما كتاب الله بقراءة نافع ووقف أبي جمعة الهبطي، ومدونة سحنون"⁽⁴⁾ وهو شيء لا ننظر إليه بعين العجب لأننا وقفنا عليه ورأيناه مرآى العين. فإذا كان لنا أن نقرن مجتمعا بالعلم والتقى لقرنا المجتمع الصحراوي بهما، مع حضور بديهته وبعد نظر، حيث لا يكاد يخلو بيت من حافظ أو حافظة للمدونة ومختصر خليل حكاية وفهما وشرحا.

هكذا يحار الدارس أمام هذا الزخم الهائل من العلماء والنوابغ مما يشفع لنا في ذكر البعض دون الآخر، فلو كان الآخر بأيدينا لذكر الجميع ولكن المقام يقتضي الإيجاز.

لهذا أذكر بعض الجهابذة وعلى رأسهم قطب زمانه

- شيخنا الشيخ ماء العينين بن الشيخ محمد فاضل بن مامين

- الشيخ سيدي المختار الكنتي

- الشيخ محمد المامي

- العالم الفقيه الشاعر الشهم عبد السلام بن الشيخ مفتاح

- العلامة القاضي الفاضل محمد تقي الله بن خطري بن أحمد زايد

- العلامة محمد محمود ولد البيضاوي

- الشيخ الفاضل عبد العزيز الرياني

- الشيخ ماعيني بن محمد الأمين

- الأستاذ العالم الأديب أبو بكر بن محمد تقي الله بن أحمد زايد

- الدكتور حمداتي

- الشيخ لارباس الذي سيأتي ذكره.

- وغيرهم لو كان المجال يسمح بذكرهم لعجزت الأقلام عن كتابة أسمائهم

التي تربو على العد. ولكننا في قبضة الوقت السريع الضيق.

1 - النوازل الفقهية

النموذج : الشيخ سيدي عثمان بن محمد فاضل.

اسمه الكامل : سيدي عثمان بن محمد فاضل بن حسن بن الشيخ محمد

فاضل بن مامين. كان نائب قاضي القضاة بتطوان عين على طرفاية والعيون

والدّاخلة⁽⁵⁾ توفي سنة 1372 هـ.

يقول عنه الأستاذ لارباس بأنه : لم يحد عن الخط المستقيم الجهادي الوحدوي إلى أن أسدلت الحماية رداءها على جميع التراب الوطني، أنذاك عينه خليفة السلطان بتطوان، مولاي الحسن بن المهدي، قاضي القضاة على هذه المنطقة المغربية. فكانت إيالته القضائية التابعة له بمقتضى الظهير الخلفي تحدّ جنوبا بمنطقة لكويرة وشمالا بسيدي إفني."

وبين يدي بعض النوازل أغلبها بخط العلامة الفقيه حول بعض المسائل الفقهية التي عرضت عليه لينظر في أحكامها.

أ - المخطوطة الأولى . اسميها : مخطوطة الرشد " أو "نازلة في الرشد". وهي عبارة عن جواب لسؤالين بعث بهما العلامة ماء العينين بن العتيق في الموضوع. وهي بتاريخ 17 رجب 1358 هـ.

ويقول فيها الشيخ الفقيه : "... إن وافق [أي العرف] قول عالم مجتهد من أهل المذهب (أي المالكي) الذي عليه أهل البلد يمضي أخرى إن وافق المشهور". مستشهدا بالإمام مالك وابن القاسم والحطاب وابن مغيث والدرديري والدسوقي وابن عربي والنسوي وابن نافع وغيرهم، كما يحيل على عمل أهل فاس في قوله : "في هذا المحل وفي عمليات أهل فاس وفي "الجواهر" و"الموطأ" و"المدونة" وتوضيح الأحكام على تحفة الحكام" و"التبسيهات" إلى أن قال في ختام المخطوطة: "... وقد بسطنا العلم خوفا من التقصير المخل بترك بعض ما فيه الغرض مع أننا لو تتبعنا أقوال فحول رجال المذهب [أي المالكي] في هذا المحل لاحتجنا إلى المجلدات، ونرجو الله أن تكون الكفاية والإفادة في هذا للمؤلف والمحصل والناظر والسامع، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه".

ب - المخطوطة الثانية : اسميها : "مخطوطة الرضاع" أو "نازلة في الرضاع" وهي جواب لرسالة بعث بها العلامة الفقيه محمد تقي الله بن خطري بن أحمد زايد يسأله في الموضوع. وهي بتاريخ 4 صفر الخير عام 1359 هـ ونص

السؤال : «رجل أخته امرأة ادعت أنها أرضعته وصدقها وصار يعاملها وبناتها وبنات بنيتها معاملة الأخوات حتى مکت برهة والزمن على ذلك، وقال بعد ذلك إنه ما رأى لذلك الرضاع ثبوتا. ثم بعد ذلك بيسير تزوج ابنة المرأة التي كانت أقرت برضاعه وصدقها عليه وكان يعاملها معاملة الأخوات. هل هذا النكاح يصح؟».

فكان جواب الفقيه القاضي سيدي عثمان قوله : «قالذي يظهر لي وفقني الله وإياك أن هذه المرأة التي أقرت بأنها أرضعت هذا الرجل الذي ذكرتم وصدقها في ذلك وتصادقا هو وهي وبناتها وبنات بنيتها، وتعامل معهم معاملة الأخوات لا يمكن في المشهور من مذهب إمامنا مالك بتزويجه ببنت من بناتها ولا بنات بنيتها. والمقصود هنا هو الإمتثال للمذهب المالكي الذي عليه سائر أقاليم المملكة.

ويمضي الشيخ سيدي عثمان في تقليب النازلة على مختلف وجوهها مستشهدا في ذلك بمشاهير فقهاء المالكية.

ج - المخطوطة الثالثة : اسميها : "مخطوطة الشركة" أو نازلة في الشركة" وهي عبارة عن جواب رسالة بعث بها العلامة البحر الغطمطم الخنذيد الشيخ محمد الإمام حول الموضوع. وهي بتاريخ 8 جمادى 1363 هـ.

ويبتدئ الشيخ سيدي عثمان بقوله : «علم سيد⁽⁶⁾ أن الشركة ستة أقسام...» وفصل ذلك تفصيلا محيلا على بعض الفقهاء والمتون المالكية، حيث يذكر الحطاب وعبد الباقي والخرشي والرهوني وكنون، كما يذكر اختصارا بن هارون وخليل ونوازل العابسي والدرديري وكثيرا آخرين.

ويقول : «لولا خوف التطويل الذي حذرتمونا منه لأتينا بما قال كل واحد من الكرام المذكورين والله الموفق للصواب».

د - المخطوطة الرابعة : رسالة : أسميها : "المخطوطة السرية" أو "النازلة السرية" وهي عبارة عن سؤالين من العلامة الأديب القاضي الفاضل محمد تقي الله بن أحمد زايد. ويتعلق موضوع السؤال الأول بعيوب المرأة وموضوع السؤال

الثاني حكم استحقاق جمل بين المدعي والمدعى عليه، وهي بخط محمد يحظيه بن حمودي رحمه الله، بتاريخ 22 رمضان عام 1361 هـ.

ولهذه المخطوطة أهمية خاصة، ذلك أنها تظهر نوعاً من مقاومة الفقهاء والقضاة للمستعمر الإسباني في تحدي قراراته وتسريب الرسائل والأحكام رغماً عنه، مما ينم عن حكمة هؤلاء العلماء وتبصرهم، ومما جاء في الرسالة "ثم لتعلم أن القاضي سيدي عثمان قدمت عليه أسئلة قبل هذا السؤال والذي منعه من الجواب لك قالت له الحكومة [أي الإسبانية] إنه لا سبيل له على الدأخل⁽⁷⁾ ولا على العيون [رغم تعيينه من طرف السلطان عليهما كما تبين في الترجمة] وأنه لا يتكلم في أمر من أمرهما ببنت شفة، واعطى خط يمينه للحكومة على ذلك...".

فخط العلامة سيدي عثمان معروف لدى الإسبان لذلك قام غيره بكتابة هذه الرسالة ضماناً لأمنه، وزيادة في الحرص تنتهي الرسالة بهذه الجملة: "وإن أردت أن تبعث سؤالاً بعد هذا فيكون سراً، وإن أتاك الجواب فحول مضمونه في ورقة وأحرقه وأحرق ما أتاك في الجواب".

ويظهر من خلال الفتاوي السابقة التحام الصحراويين بوطنهم المغرب وحبهم له والتضحية في سبيله كما جاء في شهادة الشيخ محمد الإمام: "...الشناجة فإنهم جزء من المغرب شديد الالتحام به لا يقبل الإنفكاك عنه مادة وأدبا واقتصاداً"⁽⁸⁾.

ولعل منا من يتساءل عن كلمة الشناجة فهي كما علمنا تعني كل وافد من الجنوب المغربي ويتكلم الحسانية والمقصود الصحراويين.

2 - البيعة الشرعية :

النموذج : الأستاذ الشيخ لارباس ماء العينين.

هو الشيخ لارباس بن الشيخ محمد الأغظف بن الشيخ ماء العينين بن الشيخ محمد فاضل بن مامين من مواليد سنة 1934 م بتافودارت بالساقية

الحمراء، تلقى تعليمه على يد عدد من الشيوخ منهم والده الشيخ محمد الأغظف وعمه الشيخ محمد الإمام وماء العينين بن العتيق وغيرهم.

تخرج من دار الحديث الحسنية ومن كلية الحقوق، ساهم بدور فعال في حركة المقاومة في الأقاليم الجنوبية فحكم عليه بالإعدام وامتنح بالسجن والنفي من المستعمر الإسباني، شارك في عدة مننديات وطنية ودولية من أجل وحدة المغرب الترابية في نيويورك واديس أبابا وفري طاون وغيرها.

له أشعار غزيرة وبحوث علمية مختلفة بعضها مطبوع وبعضها قيد الطبع. تولى رئاسة محكمة الاستئناف بالعيون لفترة طويلة ومازال يتولى رئاسة المجلس العلمي للأقاليم الجنوبية الصحراوية.

ولتتبع مواقف الشيخ نقتصر على بحثه "وفاء علماء الصحراء لبيعة الملوك العلويين" سنة 1994.

إن البيعة واجب شرعي بين الأمة ومن قيض الله له تسييرها وخلافته فيها بتسديد وتأييد منه. يقول تعالى: "إن الذين يبائعونك إنما يبائعون الله يد الله فوق أيديهم فمن نكث فإنما ينكث على نفسه ومن أوفى بما عاهد عليه الله فسنؤتيه أجرا عظيما". وعن رسول الله صلى الله عليه وسلم (من مات وليس في عنقه بيعة مات ميتة جاهلية).

ويشير العلامة لارباس إلى أن "الإجماع انعقد على وجوب نصب الإمام الأعظم. مؤكدا على أن البيعة تعبير صادق عند الكل عن تماسك الوحدة وتلاحمها واندماج البعض في البعض ترابيا وبشريا".

كما يعتبر "أن دور علماء الصحراء المغربية في توثيق روابط البيعة دور طلائعي متميز، خدموا العرش العلوي المجيد، وأخلصوا لملوكنا وتباروا في الثناء عليهم والوفاء لمقام جلالتهم السامي".

وقد ذكرنا العديد من العلماء الصحراويين المغاربة الذين ساهموا في تأكيد روابط البيعة وتثبيتها من بينهم :

1 - العالم الجليل الشيخ ماء العينين الذي عاصر وباع خمسة ملوك علويين : مولاي عبد الرحمن، مولاي محمد، مولاي الحسن، مولاي عبد العزيز ومولاي عبد الحفيظ، فقال كما يقول الشيخ لارباس : "نال بهذه العناية المولوية مكانا مرموقا وسمعة طيبة، وانتشر صيته لعلمه وورعه وجهاده وكثرة اتباعه ومريديه، ولما حباه الله به من سلوك مستقيم وورع عجيب وتمسك بجادة الشرع".

فلا غرابة إذن إذا كانت الالتفاتات المولوية للزاوية المعينية (سلاطين الدولة العلوية وعلاقتهم بالشيخ) فتم طبع العديد من تأليفه بالمطبعة الحجرية بفاس. كما مدحه شعراء من فاس وسوس والصحراء وغيرها.

2 - الشريف الصالح محمد الحسن بن الليلي، الذي يقول عنه الأستاذ لارباس : "كان من الصلحاء الورعين والأتقياء الزاهدين وحفاظ كتاب الله الماهرين، وكان محبوبا للناس لاستقامته... ومجاهدته لنفسه... ألقى عليه المستعمر الاسباني القبض لما لمس فيه من وطنية صادقة ووفاء للبيعة".

3 - العالم كمال ولد امحفيظ : يذكر بأنه "من العلماء الذين اشتهروا بالعلم وحسن الحفظ والصلابة في الحكم والفتوى، العالم الجليل والقاضي الشهير... وكان لا يحيد عما يمليه عليه واجب البيعة الشرعية للعرش العلوي".

4 - العالم الجليل السيد ماء العينين بن العتيق، ويقول عنه تلميذه الشيخ بأنه "صاحب التأليف العديدة والفتاوي المفيدة والمواقف النبيلة والعطاءات العلمية... فلقد جاهد بسيفه وقلمه ضد الوجود الاستعماري دفاعا عن الوطن، وإخلاصا للعرش".

5 - العالم السيد أحمد محمود ولد الشيخ سيدي بوبكر العلوي، يقول في حقه العلامة : "ولقد زرت بمقر مزار أهل الشيخ سيدي بوبكر بالحكومية سنة 1957. وكنت آنذاك مع مجموعة من قادة المقاومة وجيش التحرير، واستبشر بقدومنا غاية، وسره ما لاحظ من الإستماتة فيمن لقي من المجاهدين، إخلاصا لله وللوطن وللملك !

6 - الدكتور حمداتي شبيهنا، يقول عنه الأستاذ لارباس بأنه "جاهد بنفسه ضمن رجال المقاومة وجيش التحرير البواسل، وسخر قلمه السيال وفكره المتوقد ولسانه الذرب وعلمه الغزير لقضية وطنه، فكان من ألمع علماء الصحراء المجاهدين الذين آمنوا بالوحدة وقدسوا شعارنا الوطني".

7 - العالم السيد سيدي محمد بن سيد ابراهيم : يقول عنه بأنه "من العلماء المستقيمين والحفاظ لكتاب الله الماهرين والمقاومين المجاهدين، أُوذي في سبيل الله والدفاع عن هذا الوطن..."

وقد ذكر الأستاذ مربيّه ربّه عدة علماء وفقهاء مجاهدين أوفياء للبيعة تحت عنوان "علماء أوفياء للبيعة ومجاهدون أيضا(9)". عددا نذكر منهم على سبيل المثال (والمقصود بذكره تصحيح الإسم) :

- العالم الجليل الطالب بوي بن محمدي. وعرف به وذكر بعض مؤلفاته وأنه قال في أرجوزة طويلة وهو آنذاك بالداخلة لما نفى الإستعمار الفرنسي أبا الأمة المغربية جلالة المغفور له محمد الخامس ونصب ابن عرفة نكاية بمقدسات الشعب المغربي :

والله لا أصوم يوم عرفه حتى يموت أو يزول عرفه

هذا العالم الأديب الذرب الذي أشار إليه الأستاذ مربيّه ربّه هو الأستاذ أبو بكر بن محمد تقي الله بن خطري بن أحمد زايد أطل الله بقاءه، ومقر سكناه

مدينة أولاد تايمة. واعتذر للأستاذ القدير مربيه ربّه اعتذارا ملؤه الشكر والتقدير على غيرته لوطنه وحسن نيته. وكما هو معلوم فإن أهل الصحراء لما يرون أن من كثرة الأسماء شرف المسمى كانت للعديد منهم أسماء عدة. وهذا لا يخفى على الباحثين الذين درسوا ثقافة الصحراء وعلى رأسهم الدكتور الجليل محمد الظريف.

هذه النخبة التي ذُكرت من الفقهاء الأجلاء ليست سوى نماذج قليلة إذا قيست بالمحيط والوسط الصحراوي الذي أنجب وصدّر وأوى العلماء كما مرّ معنا. والهدف من ذلك كله ليس سوى الإشادة والتعريف بأدب وفقه تلك المنطقة الغالية من الوطن الحبيب.

كما يشتمل بحث الشيخ لارباس على ملحقات هام لبعض الوثائق التاريخية الشاهدة على روابط البيعة بين العلماء والملوك.

II - الشعراء المغاربة بالصحراء

* السيادة للملوك الأشراف.

يحتل الشعر مكانة خاصة في مدارج القول عند أهل الصحراء، فهم شعراء بالقوة بتعبير الفلاسفة، فجلهم إن لم نقل كلهم يحفضون غير قليل من الشعر العربي بل منهم من يعتبر أن حفظ المعلمات واجب على الفتى إذا بلغ الحلم، وهذا طبعا بعد كتاب الله حتى قيل : (أول ما يجب حفظه قفًا نَبْكَ...) وقد سمعت بنفسني في البيت الذي نشأت فيه هذه المقولة مرارا ومازلت أسمعها في الأوساط الأدبية، حتى نبغ من بينهم العديد من الشعراء. فلم تكن تختص قبيلة أو حي بهذه الفضيلة دون الآخرين.

ولعل للبيئة دورا مهما في هذا الميل. فبساطة البيئة الصحراوية وصفائها وجمالها وجلالها، جعلت الصحراويين يميلون إلى التعبير الشعري ويفضلونه على

غيره من أشكال التعبير الأدبية، فصاغوا فيه أفكارهم وعبروا من خلاله عن تجاربهم وتوسعوا في ترجمة مشاعرهم وأرائهم واقتحموا به المجالات التي تقتفي التعبير النثري...⁽¹⁰⁾.

فلقد فطنوا بمقتضى بساطتهم وفطرتهم السلمية إلى ما يمكن أن يكون للشعر من تأثير فحملوه عواطفهم وأفكارهم ليكون خير بريد يصل إلى أعماق السرائر والنفوس، بل والعقول أيضا.

ويظل مفهوم الشعر في الصحراء محتفظا على أصالته وتقاليده ومقوماته :
"ولعل هذا الثبات في مفهوم الشعر يعود بالأساس إلى مجموعة من العوامل منها:

1 - طبيعة التكوين الثقافي لأعلام الشعر.

2 - عزل المستعمر الإسباني للصحراء المغربية عن التأثيرات الثقافية الخارجية.

3 - تأثير المناخ الصحراوي الطبيعي والاجتماعي على الحياة الشعرية وتحديد مسارها.⁽¹¹⁾

ولم يكن الشعراء الصحراويون المغاربة أبدا أناسا في أبراج عاجية متعالية عن مجتمعهم ؛ بل كانوا شعراء واقعيين وطنيين، انخرطوا في العمل الجهادي والوطني للذود عن حوزة الوطن بالسلاح والأقلام. فجاء شعرهم معبرا عما يجيش في دواخلهم من مشاعر صادقة وتفويض وطنية وإخلاصاً للعرش العلوي، وهنا يقول الدكتور عباس الجراري : وقد أدرك شعر الوحدة ألقه في ظل مبدع المسيرة الملك الحسن الثاني طيب الله ثراه، إذ استلهم الشعراء من سياسته الحكيمة الرشيدة ومواقفه البطولية العديدة ما أعطى لهذا الشعر - على وفرة مادته - سمات متميزة تبرزها القصائد العديدة التي يبدها هؤلاء الشعراء، مهما تكن انتماءاتهم الإقليمية أو القبلية أو الجيلية...⁽¹²⁾.

وعلى ذكر الشعراء الذين يربو عددهم على العَدّ تأتي بعض الأسماء على سبيل المثال لا الحصر، اقتصرنا في غالبها على كتاب وفاء وولاء مارس 1998. وهو منتخبات شعرية من أقاليم المغرب الجنوبية، ومن بينهم :

- الشاعر أبو بكر بن الشيخ مربيّه ربّه الذي يقول :

حتى تطهر تلکم الأجزاء من رجس العدا فهم الدفين الداء
والراية الحمراء تعلو دائما وبظلمها تتفيا الأفياء
متشبهين بعرش من أجداده للمؤمنين جميعهم أمراء

- وشاعر الوحدة محمد الكبير العلوي الذي يقول في إحدى عرشيته

الرنانة:

فإن يك في الدنيا إمام مجدد فأنت ورب البيت فيها المجدد
إذا اجتمعت أقطاب يعرب اقبلت إليك وقالت من سواك يقلد
وقالت لأنت الرائد الشهيم في الورى إليك مقاليد العروبة تسند

- والشاعر أحمد محمود بن حمدين بن قارى (ابدا عبد القادر) الذي من

قوله :

محا جميع الشعب مبهج فخرا بطلعة عيد العرش تخمره البشرى
تساوت بها الأوطان في الأمن والغنى شمالا من الأقصى إلى منتهى الصحرا
وقرت عيون الملك فيه وصنوه وأسرته الصغرى في الأسرة الكبرى

- وشاعر آخر هو سيدي عثمان بن حسن (حسنا سيدي عثمان) الذي قال

عنه صاحب كتاب في الأدب والمقاومة الأستاذ ماء العينين ماء العينين إنه

استطاع بما له من جرأة الشاعر وإقدام الشباب أن يستقي الأسلوب الجديد للنهج الذي اختطه لشعره وشاعريته من المعاناة اليومية التي زادت من لهيب شعره وشواظ قريضه، وكان لتلك المعاناة الأثر الأكبر في اختيار مفرداته ونبراته وتحديد أنغامه وإيقاعاته ثم زاد ذلك بموهبته الخاصة شحذا وتركيزا . فلا غرو إذن إذا اهتزت مشاعره في ذكرى ثورة الملك والشعب فأنشد .

كل الشعوب إذا أردت لها الأثر	فسل المقاوم سوف ينبيك الخبر
فالمغرب الأقصى تفجر طوده	والسهل عن غر أشاوس انفجر
ثار المليك وشعبه فتحالفت	قوى الضلال لقهرهم عم الضرر
فتحمل الملك المفدى نفسه	وانصاع شعب للقيود لها انكسر
في فاس أو في سوس أو في الريف لم	يعرف معمرنا لذاذة مستقر
هذا جنوبي والوقائع جمّة	لست الذي يحصي معارك منتصر
أم العشار بداية نعلن بها	في وجه غاصبنا بأن الشعب حر

- وشاعر يومن هو الآخر بقداسة الكلمة ينظر إلى العالم من زاوية خاصة، يكتب بصمت متحديا ميدانه العلمي ماء العينين محمد الإمام سداتي هيبية.

فهو أستاذ لمادة الرياضيات إلا أنه أوتي موهبة يحظى بها، له شعر جله إن لم يكن كله وطنية ارتضعها وقومية ورثها تؤكد غيرته على وطنه وتشبثه بمقدسات بلاده. من شعره في الفخر والإعتزاز

من نعمة الله حقا نعمة الوطن	نحى بها نرتقي في السر والعلن
كيف التنعم بالدنيا وزينتها	في غير أرضك مهما طاب يا وطني
نحن المغاربة الشم الذين بنوا	من عزهم ناطحات الشهب في سنن
نعتز بالمغرب الأقصى فموطننا	ضنت بأمثاله الأكوان من وطن

- وشاعر آخر اشتهر بوفائه للوطن وهو محمد الأمين بن خطاري الذي يقول:

فلما ان ظفرت به رأينا نتائج ما بنيت من المباني
لمغربنا ومشرقنا جميلا بنيت ومورتان وللسندان
وظلك من فعالك مرجحن على كل الأبعاد والجبران
وقد عمت مدائنك القوافي وما بلغوا المعاشر من بياني

- والشاعر عبد الرحمن الدرجاوي الذي اشتهر بأشعاره الكثيرة في الدفاع

عن وحدة المغرب وسيادته حيث يقول :

وهنيء أمير المؤمنين بفوزه فلفوز في (نيروب) وقع محبب
ولفوز في مسعاه في كل جولة أعاجيب ترضي من بعيد وتعجب
أدام علينا الله نعمة عهده وأيده بالنصر يبني ويرأب
وجازاه بالإحسان خير جزائه جزاء فتى من ربه يتقرب

- وهذا شاعر مبدع ينقاد له الشعر بيسر وسلاسة، يستهوي الملتقي

بعذوبته وشاعريته المتميزة، ذو النبرة الساحرة، المهووس بحب الوطن العربي عامة وحب وطنه المغرب خاصة. وهو : شيبية ماء العينين.

ومن جميل شعره في نداء الأبطال :

يا حاضرينا ليوم مشرق ذهبي وياجموعا تطيع الدهر خير نبي
أما سمعتم نداء الصامد البطل عبد الكريم فقد نادى بني العرب
نادي الحجيج ونادي القاطنين هنا وفي الخليج وفي صيدا وفي النقب
كفى هجوما أفيقي أمة العرب فقد غرقت بساج اللهو والطرب
كفى هياما كفى دفنا لقيمتنا في الكأس في الحدث الفتان في الهدب
قبائل الريف والصحرا وأطلسنا ثارت على الغزو في سهل وفي حدب
ذبا عن العرش والإسلام والوطن في أحلك الظرف بثوا النور للشهب

رياض الشعر الصحراوي لا تمل، فهي العطرة بأزهارها الباسمة في ثغور
الكلمات العذبة الزهية ذات العبق المتميز التي تتناغم فيها قصائد الشعراء
الفواحة محبة ووفاء وكأني بها ذات يوم مشرق رفعت به الأعلام فرحا بعيد العرش
أترنم كزملائي وأتغنى بفرحة أمتي في ذلك اليوم البهيج فأنشدت .

وبدت لنا كل البلاد بحلة لألاءة في السهل والأوداء
والراية الحمراء ظل شعاعها كشقائق النعمان في الأفياء
توحي بمنظرها الجميل قصائدا فوأحة بمحبة الشعراء
حتى أقول :

بشرى بعيد العرش ماذا يذفها يصبح بها في نخبة البشراء
الشعب قد رضع الوفاء فما يرى غير الولاء لدوحة الشرفاء
بلسان أعيان البلاد مجددا إخلاصهم في الجهر والإخفاء
رفعوا أكفا للضراعة قصدهم حفظ المليك وسائر الأمراء
ملك علا عرش الجدود فحققت بجلوسه تهوية الأعداء
بمسيرة خضراء ليس لأهلها إلا الصمود وعزمة الشهما

ومن هذه الرياض العبقة بالشعر الصحراوي أختار شعر شاعرين مميزين
من الصحراء عانقتهما رداة التي أبت إلا أن تحظى بالافتخار بهما لتؤكد الوحدة
الترابية وأنه لا فرق بين هذا وذلك على أرض " رطن من طنجة إلى لكويرة .

هذان النموذجان هما .

أ. الشاعر محمد البيضاوي الشنجيطي

ب. الشاعر يحجب بن خطري.

1 - دولة الأشراف : العلامة الأديب محمد البيضاوي الشنجيطي.

ولد هذا العلامة بمنطقة تكانت جنوب شنجيط عام 1892، وينتهي نسبه إلى قبيلة تجكانت. تلقى تعليمه في السمارة ومراكش وفاس ومصر ثم تطوان وطنجة. وكان يجيد اللغة الفرنسية وله ترجمات بها، تولى القضاء ثم باشوية تارودانت إلى حدود وفاته بمراكش سنة 1945⁽¹³⁾.

أ- شعره في الملوك العلويين :

عبر الأديب البيضاوي أحاسيسه النبيلة والصادقة تجاه الملوك العلويين شعرا، فكان خير دليل عن أعماق ارتباطه وتعلقه بالعرش. ومن قوله في رثاء السلطان مولاي عبد الحفيظ :

نعى عبد الحفيظ لنا بريد بباريز فلا كان البريد
وجاء الفلك يحمله فكادت بلاد العرب من جزع تميد
فأقئدة مولهة وراي منكسة وأماق تجود

ومن شعره في مدح السلطان مولاي يوسف :

تحل حلول اليمن في بلد البشر ركاب أبي يعقوب رأس بني فهر
وخير ملوك الأرض شرقا ومغربا صميم البهايل الغطارفة الغر
ذوي النسب الوضاح والغنبر الذي يضمح أفاق العوالم بالعطر
سلالتها الشهم الحلاحل يوسف تفوق بالإحسان والحلم والبر

وله من قصيدة في مدح الملك محمد الخامس، ويعتبرها الأستاذ الفاضل عباس الجراري من بواكير العرشيات⁽¹⁴⁾.

يا سيدي ويا أمير المؤمنين ويا سليل من تخضع الأعناق إن ذكرا
افخر بفاطمة وافخر بحيدرة إذا ملك بأبائه افتخرا
وله في مدحه :

كم علقت دولة الأشراف من أمل عليك يا ابن أمير المؤمنين علي
مذ كنت طفلا وقد حان الجلوس على أريكة العرش في أيامك الأول
إلى أن يقول :

حللت فيها سماء المجد مبتهجا الله أكبر ما أبهاك في الحل
دووا العروش ملوك أنت أشرفهم وخيرهم جملة في سائر الجمل
ب. شعر المساجلات

يمكن اعتبار المساجلات من أهم التعابير والدلائل على التواصل الثقافي بين شعراء المغرب على اختلاف مناطقهم.

ومن مساجلات محمد البيضاوي بينه وبين عبد الصمد كنون :

إذ يقول كنون :

عزمت على الفراق أديب عصري وأودعت الفؤاد لهيب جمر
فأجابه البيضاوي :

ينوب عن التشافه حين أنأى خطيب من فمي نثري وشعري

وأقتطف من مساجلاته الطويلة التي شارك فيها شعراء عدة قول عبد الله القباچ ويدعوه لحضور مأدبة غداء.

مثال الفضل يا رب المزايا ويارب السماحة والسماح
بحق الودّ شرفني بوصل يواصل بين أكواب وراح
وها أنا في انتظار فلتجب من دعاك إلى حضور الغذاء مع الملاح

فأجاب الشنجيطي معللا تخلفه عن حضور المأدبة.

تأمل في القضية خير صاح ولا تسمع شكاية كل لاح
فإن الشاعر المطبوع حقا دعاني للغذا والإنشراح
ولكن دأبه في القول مزح معي فحملت ذاك على المزاح

ح. التقاريط

وله في تقرّيط كتاب "إكمال الفرح والسرور" لأحمد سكيرج :

رأيت مولد خير الخلق نمقه متوّج بأكاليل وأنوار
فأظهر الدرّ من مكنون جوهره من كل علم ومن أسحار الأشعار
سكيرج نصره المختار ديدنه لا غرو إن نصر المختار أنصاري

ويقول في تقرّيط قصيدة محمد الجزولي "ذكرى البخاري

ذكرى البخاري وما أدراك ما فيها على أساس الحجا رُصت مبانيتها
الشعر رائدها والعلم حارسها والطبع قائدها والذوق حاذيها
إذا روى أو أشاد العالمون بها تملك القلب راويها وشاديها

د. الشعر الحساني :

لا يهمل الشعراء الصحراويون الحسانية أو (الغَن) فكما يتغنون بالفصيح
يترغون بالحساني العذب والقريب إلى الروح بالفطرة.

يقول محمد البيضاوي في مدح المغفور له الملك محمد الخامس، في طلعة جميلة تكشف عن صدق المحبة والصفاء.

نمدح باسم الحسانيين لعرب لغلاظ أهل الدندين
المليك الّ بيّه الديّن استتقام أعم العباد
الخير الياسر واليقين عاد أعل رؤوس لشههاد

2 - السيادة للملوك : العلامة الشاعر يحجب بن خطري :

ولد الأديب العلامة يحجب بن خطري بن سيدي محمد بوجان ناحية تزنيت عام 1902، ووالدته المامونة الملقبة بججبوها بنت شيخنا الشيخ ماء العينين، تلقى تعليمه على يد فطاحلة الزاوية المعينية بالصمارة، عينه المغفور له محمد الخامس في سلك القضاء بقصر السوق، وفي سنة 1962 عين قاضيا في تارودانت إلى أن لقي ربه رحمه الله بها سنة 1983.

أ. الشعر الوطني :

للشاعر يحجب شعر غزير في الوطنيات من مدح للمليكين محمد الخامس والحسن الثاني قدس الله روحيهما، وبعض الأمراء والأميرات كما تغني بالمناسبات الوطنية الكبرى كثورة الملك والشعب، وعيد العرش وحدث المسيرة الخضراء وغيرها.

من شعره في مدح الملك محمد الخامس :

أمام أمير المؤمنين لي الشعر يروق وفيه يحسن النظم والنثر
ويأتي كما في الحال أطلبه سلسا ولم لا وهو الخامس الملك البر
نتيه به شرقا وغربا مدى المدى يمينا شمالا إن هذا هو الفخر

ويقول في المسيرة الخضراء :
 بمسيرة خضراء في الصحراء سنسير بالأبساء والأجداد
 إلى أن يقول :
 هذي (لَهَآي) برهنت في حكمها عن حقنا المنشود في الصحراء
 وهي السيادة للملوك حديثهم كقديمهم في سائر الأنحاء
 وله بمناسبة استقلال افني ورجوعه إلى سائر التراب الوطني :
 هو الحسن الثاني المليك من أصبحت به شرفات البغي والكفر تنهد
 على يده تم الجلاء عن افني بعزم وحزم صانه الواحد الفرد
 ب. التغني بالمدن.

وهنا تظهر شاعرية المكان لدى الشاعر يحجب الذي لم يكن يشعر بأي نوع
 من الإغتراب في رحاب وطنه الفسيح. فسيان عنده بأي بقعة منه حل أو إلى أي
 منها ارتحل، ما يهيمه في ذلك قيمتها الجمالية وأبعادها الشعرية، ومن شعره في
 بعض المدن والحواضر :

إفني :

لقد تم في ذا اليوم عام وإفني طليق وحر وكل سكانه تشدو
 سلا :

سلا معدن الآداب والعلم والتقوى أبناؤها في الذبّ عن مجدهم أسد
 سوس أكادير .

في سوسنا وبأكدير وغيره وقيت الحاسدين وما يضبر

تزنيت :

مدينة تزنيست به فتيهي به المولى كسك حلى الجمال

فاس، الرباط، العيون :

اتاه من آله من هم بفاس ومن هم بالرباط إلى العيون

بوجدور، بوكراع، رق المحون :

من أبي الجذور أبي كراع وواحاحات بها رق المحون

السمارة :

وسكان السمارة وهي حصن لآل الشيخ من أقوى الحصون

د . التقاريط :

له في تقريظ كتاب : "مكانة الحسن الثاني بين أبطال المغرب العربي"
للشريف العلوي مولاي إسماعيل بن محمد بن الرشيد السلاوي :

ملك فوق هام المجد يعلو عليه فراشه وبه غطاه

ملك حيثما يبدو بهاء لحسن بهائه تحنو الجباه

ملك في المكارم لا يبارى تبارك من لمغربنا حباه

وله في تقريظ كتاب محمد بن محمد بن سوادة الفاسي "منحة الأحذية".

كل علم لبابه علانيه فهو يلغى بمنحة الأحديه

هي من منتجات فكر الأديب الغائف النذب ذي الصفات النديه

هـ. الترحال لطلب العلم وزيارة المكتبات للاطلاع على ما فيها من درر : في

خزانة الشريف مولاي عبد الرحمن بن زيدان بمكناس 23 رجب 1377 هـ.

رحم الله من بنى ذي الخزانة وبأعلى الجنان أعلى مكانه
لم تر العين مثلها جمعت من كل فن لا أستطيع بيانه
من خطوط ما إن لها من شبيهه لا وكلاً فيما رأيت عيانه
وتأليف لم تك اليوم تلغى سواها ضُمت بأي خزانة

و. المساجلات :

لا يخفى ما للمساجلات من دور في تعميق الأواصر الثقافية والأدبية بين الأدباء والشعراء، ومنها هذه التي جمعت بعض الأدباء الصحراويين بإخوانهم من تطوان، كالشيخ محمد الإمام وماء العينين بن العتيق ويحجب بن خطري والسيد عبد الوهاب بن منصور وإدريس الجاي وغيرهم من رواد الكلمة والظرف.

فقال السيد عبد الوهاب بن منصور الأديب النبوق مرحباً بزملائه على حداثة سنه بينهم آنذاك :

إن جيد العلى بكم قد تحلى وشعاع الصلاح منكم تجلى
وغراما في الله يجمعنا اليو م وحب الإله كالشهد أحلى
أيها الزائرون شرفتمونا مرحباً بالكرام أهلا وسهلا
فأجزني يا ابن العتيق أجزني إنكم في الشعور أسمى وأعلى

فأجابه الشاعر ماء العينين بن العتيق :

هذه الخمر بل من الخمر أحلى بل هي السحر نفت هاروت يتلى
هي أبياتك التي مالها في سلك شعر يستطيع ذو النظم شكلا
أنت في الشعر والبديع مجاز قد وجدناك إذ خبرناك فحلا

فقال الشاعر يحجب بن خطري :

في مثل هذا المنتدى كمل المنى وأري المنى للنفس في ذا المنتدى

وقال الشيخ محمد الإمام :

جزاكم الله إجمالا وإحسانا أجملتم الصنع شبانا وفتيانا

خاتمة

وخلاصة للقول فإن القارئ لشعر الصحراء يلمس روحاً وطنية بارزة مما يؤكد قول الدكتور عباس الجراري : "وعلى تشعب الإنتساب القبلي في الأقاليم الجنوبية، وتعدد أسماء الأعلام الذين انجبتهم وسائل اثبات التوجه الوحدوي عبر التواصل الثقافي، وإن تفاوت مستوى هذا التواصل ومعه تفاوت التعبير الشعري. فإن الأسرة المعينية تبقى في الطليعة المتميزة بمكانتها في لمّ الشمل، والقيام بحركة علمية كان منطلقها السمارة .

الهوامش

- (1) صور من التواصل الثقافي بين الصحراء وفاس. د. محمد الظريف من كتاب ندوة (الصحراء المغربية من خلال التراث والتاريخ) طبعة 2000 فضالة.
- (2) عبد العزيز بن عبد الله (معلمة الصحراء 1976، ص 93)
- (3) صور التواصل الثقافي بين الصحراء وفاس. د. محمد الظريف.
- (4) عبد العزيز بن عبد الله (معلمة الصحراء. ص 92).
- (5) د. حمداتي شبيهننا (قبائل الصحراء المغربية)
- (6) سيد. هكذا وجدت في المخطوطة.
- (7) الداخل كذا في المخطوطة بالترخيم.
- (8) (كتاب الجاش الربيط) للشيخ محمد الإمام.
- (9) مقالة كتبها الأستاذ مربيّه ربّه قيمة تعتبر تعقيبا على بحث الشيخ لارياس في بحثه المتناول (وفاء علماء الصحراء لبيعة الملوك العلويين) 1994.
- (10) د. محمد الظريف (الحركة الصوفية وأثرها في أدب الصحراء المغربية). ص 399.
- (11) الحياة الأدبية في زاوية الشيخ ماء العينين) د. محمد الظريف. رسالة لنيل دبلوم الدراسات العليا. 85 - 1986 بجامعة محمد الخامس الرباط.
- (12) تقديم ديوان الشيخ أحمد الهيبة للدكتور عباس الجراري. ص 10 - 11.
- (13) لمزيد من الاطلاع انظر ديوانه (ديوان الشنجيطي) جمع وتحقيق د. محمد الظريف.

أما أدب ^{الفرس} وفلسفة ^{الزمن} ^{الدين} الجعفرية والفراسة القلبية

المعاني والعلوم العقلية والبراهين الجاهلية والعلوم الشرعية

والعلوم الشرعية والعلوم العقلية والبراهين الجاهلية والعلوم الشرعية

والعلوم الشرعية والعلوم العقلية والبراهين الجاهلية والعلوم الشرعية

والعلوم الشرعية والعلوم العقلية والبراهين الجاهلية والعلوم الشرعية

والعلوم الشرعية والعلوم العقلية والبراهين الجاهلية والعلوم الشرعية

والعلوم الشرعية والعلوم العقلية والبراهين الجاهلية والعلوم الشرعية

والعلوم الشرعية والعلوم العقلية والبراهين الجاهلية والعلوم الشرعية

والعلوم الشرعية والعلوم العقلية والبراهين الجاهلية والعلوم الشرعية

والعلوم الشرعية والعلوم العقلية والبراهين الجاهلية والعلوم الشرعية

والعلوم الشرعية والعلوم العقلية والبراهين الجاهلية والعلوم الشرعية

والعلوم الشرعية والعلوم العقلية والبراهين الجاهلية والعلوم الشرعية

والعلوم الشرعية والعلوم العقلية والبراهين الجاهلية والعلوم الشرعية

والعلوم الشرعية والعلوم العقلية والبراهين الجاهلية والعلوم الشرعية

والعلوم الشرعية والعلوم العقلية والبراهين الجاهلية والعلوم الشرعية

والعلوم الشرعية والعلوم العقلية والبراهين الجاهلية والعلوم الشرعية

ويعتبر الكل واحدا مضافا مما ذكره في الاصل وهذا مع تنزيه كشيء واحد من جنس او هو...
 يهبط واسكان جنس في حروفه وليس في القامع ولا يابن الدود من قول الله عز وجل لا ارجع مصفحة اورد المصنف
 وهي اب وثرة التي عهدها ان كان في الجوار والاربعون والحداس

العلم هذه الغصية الاورد من الوجوه كما علكه في علم الورد الذي يبعث الورد...
 كالمه من عدها المحرم وهدية الرمنج والورد والورد والورد والورد...
 والراحي من التاودي ومنعنا اننا اشارة ارجح ما اورد المصنف في قوله اي ارجح في ارض الغنية والاعراض ان التاودي
 ولا في ارضه من الغنية والاعراض اننا ارجح بالحق كما في الاصل ان كان الورد والورد والورد...
 النابغ وغيره من الغصية ويعلم الا انه هو اذ انتم في الغصية والورد والورد...
 نفضا التاودي للمذكور وغيره او في التاودي التاودي والورد والورد...
 ما نجا كبيع الصفا وصة ولا في ارضه من الغصية الا ان يكون الورد والورد...
 والراحي وغيره تعربك على الاصل ولا في ارضه من الغصية...
 فمستقر الرض تعربك وتقوم على الاصل اي في جميع احكامها فيجوز في الجسد الواحد والاختلاف والمكيل والعزوز وغيره
 في ارضه من الغصية والورد والورد...
 انما في ارضه من الغصية كما قال الغصية في ارضه من الغصية...
 لم ياذر ما خرج به في الغصية من ارضه من الغصية...
 وهو لا في ارضه من الغصية بل في الغصية على الصفا والورد...
 يعرفها له احكامه وفردم ان الغصية في الغصية...
 درج في الغصية على ان الغصية في الغصية...
 الغصية نفضا بينا اي والغصية في الغصية...
 ما بلغ الثلث بل ان الغصية في الغصية...
 مع نفضا الثلث اذ لم يكن العاقل للغصية...
 وتعتبر نفضا البلر ونفس التاودي الاخير الخ وذلك لان التاودي...
 للتحفة مع شحم صرود نفضا من الغصية في الغصية...
 بلا تعربك صرود نفضا من الغصية وهو ما صرود نفضا...
 نرى في صرود نفضا من الغصية صرود نفضا من الغصية...
 الغلج والغصية في الغصية وهو في الغصية...
 المتفق ذكره في الغصية وهو في الغصية...
 والمغصية في الغصية وهو في الغصية...
 في الغصية في الغصية وهو في الغصية...

والتجارات ولا وبعضها يبيع المعصرة العجوز نعر من قبل منه في الأبيات فيل هذه طبعه والثالث قد ستم مرادك ومهايات
 وأتعلق بلا تقويمه وأن نعرفه بحكمه حكم فتمتة الرادك نعر النقوم والتعريف للاله العيلع بالغبي وهو بيع والبيع
 بها خلاه وفي الوتداف العجمعة والغسمة على ثلاثة اوجس وجبلان يعلق فيهما بالعباد الكثر وهذا فتمتة النقوم والتعريف
 والتقوم بالفرعة وبغني الفرعة ووجه الفيلع فيه بالغبي وان كثر وهو فتمتة الرادك والالتعلق بلا تقويمه والتعريف ويجل
 على البيوع به قلت ولورضنا وسلاما لتسليلا جريا ان لاجر والعزلة الغسمة الجمال بالمساحة العيلع بها بالغبي
 بحول المرحة يفتح الغلام بالغيلع والغبي والكحول في ذلك بالعام لكونه العجوة والغبي ويقوم فيه بعزارة ان كمال
 واستغل فز تعري توفيق الاحكام على نجة الخلع قال في هذا العمل يعني ان الشيء كذا اذا اقصته واهل بيته والبيع والعقار
 وغيرهما واخذ ذلك واحر نصيبه وحال الرضا واستعمل كل واحر منهم ماله غلته ثم علم احدهم بالعين واراد نغمة الغسمة
 مفر تقري فيفامر ولا تسمع دعواه والكحول في ذلك السنة بل كثر وفي الكحول الودع والبناء والغز كذا تقوى هو الرادك كثر في هذا
 العمل كحول الامر بعز الغسمة واستغلا الرادك مفر عن العبي يبا حيثما يجوز له ذلك واقتسامها والغيلع به وفي كثر ابحاث قال
 ابوا برهم لا يعلق بالغبي اللابب الغسمة اما بعز كحول واستعماله في الفيلع في ذلك هو انك التمولي في هذا العمل غيره في الشيء
 ح وراضة الرادك ي بلان يدخل على ان كل واحر باخذ حصه من الشيء كيرضي بها يروى فرعة وانما يقول انه في هذا البيع
 الا ان ما صار له نفس ملا دانه وانما تكون فيما ناكل واحتلف تعبير وشوب وفي الشيء غيره وسواء كانت بعز بلا وتقوم
 اح لا ولا يرد فيها بالغبي اذ المراد خلاصها مع ما فيها وفر يتسماح فيها مالا يتسماح في البيع كما يرد في قوله اي خ وفي في غير اخذ
 احدها ثلثيه المراد في عن قول الرادك يركا البيع في المعيار للمراضة بلان يجمع ما يقال ان فتمتة الرادك يبيع فتمتة بها
 به تشبيه الشيء بتعسبه هو خ وفي في غير اخر احدها ثلثيه الرادك طر حان جشمه وجره في نفس كيراضي مناصفة اخذ
 احدهما ثلثيه والاخر ثلثه او اعلا واكثر من ثلثه بعز هو خ ورافك في البيع المواه ابر نغمة الرادك في ثلثة اوجس
 فتمتة مرادك بغبي نعر بل ولا تقويمه خلاه انها بيع والبيوع وفتمتة مرادك بعز نعر بل وتقوم بالكلها بالبيع والبيوع
 وفتمتة فرعة الاظهر انها بيع جمعها الوتداف الا اولان في حان في الجند الواحر والاجتاد العجوة الفمباينم وفي الطيكن والموزون
 الا فيما كان منه صنفا واحر اخر الا يجوز فيه التعادق لاوي بالوجيم الا بالغيلع بالغز هو الحلاب في هذا العمل وفتمتة الرادك
 بلا تعريف ولا تقويم حكمها حكم التي بعز التعريف والتقوم بالغيلع والغبي وهي بيع والبيوع والا خلاه انتهى وفي قوله في قوله
 في التنبهات هو خ ومرادك في البيع التي نغمة هذا ذلك اذ في الفيلع الغسمة فلا تكون الا في الجميع ولا تحدر بيوع دون نوم
 وسواء كانت بعز نعر بل او لا ومعنى قوله في البيع انه تعلق الرادك بها ولا يرد فيها بالبحر حيثما يرد خلاصها ما هو العزوي
 عن قول التي نغمة ولا يرد فيها بالغبي اي وتكون فيما ناكل او اختلف وفي التمثيل غيره ولا يجز عليها وانها وجمع فيها حلة الشيء وانك
 بخلاف الفرعة هو العمل المصطفى فتم الرادك والاتيقا لانه تسمع لرعوى الغبي فيها مصيلا المشح الغسمة على ثلثة اقسام فتمتة
 يجب فيها الفيلع بالغبي اذا نبت وكرها قال والوجه الثالث لا يعلق فيه بالغبي وهو فتمتة الرادك والانطاف ومجمل على البيوع به
 وانما ان كان يجمع مجزوا ولم يفرق الفيلع وانما به الغسمة في الفيلع ايضا فتمتة الكثر في العباد الجوازها والكحول والمصحة والسرادك فيها
 ابا حمر اعلمت حتى على العجوز حيث هو السرادك في المشهور في التمولي في المشهور المحمول به خلاصها الرادك في قوله بعز الاظهر جواز
 فتمتة الغسمة

بهر الهمم لانه انما نشأ من العروق لم يمتدوا بالسراد انهمى والمصلحة العلم اشهرها وادفع في رسم الوصايا وكتاب الوصايا
 الثاني وال... فلم يعرف قال اخرج المتين كفى فدم الوصية على من يسمي بالادب حيا من ورجوز فدم... امر ان اخذ بالقرين حول الاربع
 زمينيا مع اير الغلمان والناجحة في بيته به... الرهون هو الراسى انهمى ومصطفى كلامه ان القول معرج الجواز لا الهنرى فيك
 وقاله فيله المتين كفى ان لنى كتم الوصية مع غيرهم يعي جواز معاد لمتين لم وصهم الا حنبى من لى حول الاربع منب وغيره
 والده اعلم انه عدو الباطن في عرف قول ح احتضا ليجر لا يبيع حاضرا لجر واخ الا لنى كتم بوضعية وكذا عرف فيما يتكلم لانه كالمثل
 كما يتبعها اهل النوازل يعنون شيخه عيسى وصية وبجهد الصغير من بهم كالموصى كما نقله الكنجي على ان يجر ما لم
 البناز به هذا العلم عن قول الرافضى وكذا عرف لانه كالمثل كالتبهر الاقربى الواسع... في اخر مشكلة من موازله وقال لكان
 الياضية تصدرك على الاصل من كون الايرى اذ كالمصم يانه تسبعل غير اصداء والاخ الكبير مع الاصل في الياضية
 لهذا الحق في نيل من لى الوصية على عدو رجوايم نقل روايه عن عاصم... ما اذا كان الكافر اعترف له الوصية على هذا ابرو في هذا المور
 وذكر قول ابو جعفر ص لم يدرى ان جيرة لاهل النوازل لانه يعلمون الارصاد قال افعال عقبه ويزالوا قول واذ قال
 العتيابيه في ملونه لانه كاليادية ويطلق لاهل افعال اعول ^{اشهره في نقله العتيابيه} واذ حذر في هذا في البلاد من الله الموعود بها وهو بسكها العلم
 حو دار النقص الخلل يترى بعد ملونه الموصى مع اننا لوتبعها اقول بحول الله ذهب في هذا الجواز ^{الاجتهاد} للاختلاف في العبادات
 في حكمها لانه كقول القواعد في قوله في غير القواعد والعصل والنتيجة حصرها في غير ذلك...
 واصلها في... راجع الى...
 خبرها على...

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الجلوس في العرس والجلال الموحود بالحكمة والأمان الذي يعم له بلده الأختلاج وحظهم على علمهما والنسعى
 برفعتها بجزيل الثواب ولا يحصل العداية إلا الذي يرفع بها ما نزل الله الآية وصلى الله وسلم على من خال وسلك على
 وكلمته الخ أما بعد فبشرنا بالحق والواجب الذي يرفع الذي يرفع نفسه الرجوع بعقل الله أن شاء الله السيد حكيم
 اجتمعنا في جعل الله العلوق علينا وعليه نمر أن يرفع السؤال ونحسده رجل أنتة لواتة ادعت له انها
 ارصعت وصرفتها ولنا رجعاتها وبناتها من قبلها معاملة الاخواب من قبلها برهنة والسرور على ذلك ومخال بعد
 ذلك انه ما زال ذلك الرضاع نسوتنا في ذلك بغيره من ذلك زوج ابنة المرأة التي كانت اوت برضاعة وصرفا عليه
 وذلك يعاملها معاملة الاخوات هكذا هذا التلاحح في حال كالأجيب وبه بارك الله جميل في ذلك الاثر ان شاء الله والسكاه
 الحواب والله الموفق للصواب كما قول كما قال ليرزنا لتعجب صلوات الله علينا وسلامه وبرهنا عليه
 عليهم تولدت واليه انيب والذين يكفر بها وفيه الله ما يبارك ان هذه المرأة التي اقرت بانها ارصعت هذا الرجل الذي ذكره
 وصرفتها بذلك وقد عاد فاهو وهي وبنا نهار بنات بنيتها ونعالى بحكم معاملة الاخوات لا يرضى في الصلوة من
 مذهب اهل مناملك ثم ويحجم يمتص ما بناتها ونانبات بنيتها وان وقع التي ويحجم يمتص عمل البناء وبعده كمال قال
 المتكلم في جانب اخر الزوج ان زوجته اخته والرضاع ان يمتص التلاحح بينهما وللزوجة قبل البناء نصف صداقها ولا بدفلا
 عنه برعواه الا ان هذه الزوجة في ذلك او تكون له بينة واما بعد البناء عليها الرسمى بالمعنى لان يكفر بانها علمت بذلك
 وعزته جلالتها وان كانت هذه الزوجة بالرضاع جان لم يفرق الزوج ابين التلاحح والاولا ولو ثبت ان احد هما بذلك فيل
 التلاحح ان يمتص عنه دونه الصواب والبناء وان كان هو الذي كانه لا يمتص بذلك واما ما راجع اليه ان كان هو الذي
 وان كانت هذه الزوجة ولها لانه عن نهر الراس ملك وان قال الاب رضع جلا مع ابنته او جلا مع ابنته التي يمتص
 اوتت الاقتدار فيقبل منه حال في العروس وان نزل الحجاب والساكن بينهما الراس قال ايضا وقال اجيب قول ملك والخان
 ان احد الابوين اذا قال ذلك ابنة او ابنته قبل التلاحح ان البرقة في ذلك الراس قال ايضا قول احد الابوين او احد
 الزوجة قبل التلاحح من قبل وبعده به التلاحح وان لم يمتص ولا يقبل قول الاب او الام بعد التلاحح وان كانا عرابين فخر
 بشرح الرديس في ذلك وبعده نقل الزوجة انما لا يمتص في عليه اي الرضاع باحوه اخرى لها ولو يمتص من قبل الرخول
 او بعده كقيل في بنته رشت به الرضاع الا ان احدهما به قبل الصغر ولم يمتص على ذلك الا بعد العرفا فمها احد هما الاخر هو او كانت
 احتسما باو يمتص الاخر قبل الصغر فيه بتوليد ما كان الذي حصره هو الزوج في ذلك وان كان الرخوة لم يمتص لانهما
 على عطف رشتة لئلا يمتص في قوله وان اعلاه وان يمتص التي هو الرديس في قول الرديس في قول الرخول تنازع وبعده والتمس في اي انهما
 اذا تھا وفاق الرضام وان يمتص بلا حيا قبل الرخول وبعده كان تصادقهما في الرخول او بعزته والبعث بغير خلافه عند الرضام
 الرضام عن قول خ وبعده نكح المتصدق في عليه ثم بعثه ان ال وبعده تصادقها في الرضام والرضام رها معها فيقبل تصادقها
 بان يلعنوا ما لم يلعنوا يمتص جان نكحهما يمتص في الرضام والرضام رها معها فيقبل تصادقها في الرضام والرضام رها معها فيقبل تصادقها
 في البعثة يمتص لوهيات يمتص تصادقها في الرضام والرضام رها معها فيقبل تصادقها في الرضام والرضام رها معها فيقبل تصادقها

فغير له قبيل العفر من قبله فصح لها يا فخرنا وسوار جيبه انوار من واخرار بها ومعهم لولا ما بنت على افران
 احرارها بعد العفر جان ذلك الزوج جلاز الكواكب كانت المرارة لم يفسح للمهمل صفا ان ابن ابي زوجها
 يبيع المبيع ويبيعك هرخ ويبيع تلاق المتصاد في عليق الصوا في هذا الحلق الخالج بواذا اتبع الزوج
 على الرضاع مبيع والامها قبل الرخول ولما المسمى بعنه من فخره في المبرزة في كنفه مبيته على افران احمر صفا
 قبيل الرخول ولها المسمى بالرخول الا ان تعلم مفكره ولما الصراة من المصروف في هذا الحلق مبيها ان شهدت بيته
 يا فخرنا احرار الزوجين يا فخرنا نفعها برضاع قبل نكاحها مبيها مبيته هو المسمى اعتراف الزوج بالرضاع بترتيب
 المبيع وسوار ذلك اعترافه قبل النكاح او بعرضه فيما كان دخلك بالمسمى وان لم يرضك بلان ذلك اعترافه
 قبل العفر لم يرض عليه صراي وان كان اعترافه بعد العفر كان عليه نصف الصراي الا ان نصره الزوجته جلا
 يتلون له ان شاء واصلا اعترافه او الزوجته جلا كان بعد العفر وان صار في الزوج مرفق بينهما وان كان بهما
 لم يرض بينهما حيث كانت الفرة كاعترافه الزوجية لم يرض لها صراي وسوار اعتراف قبيل العفر وبقره
 ما نفع اعتراف الزوج وان نفعته على نفسه ما كان صاحب القربة جلا في الزوج بالرضاع هو المسمى النكاح دائم
 المران فكل كراي بالافرا منهما معلقا في نفسه لم يرض في هذا الحلق اي كذا لا يبيعه يا فخرنا هما معا وكذا في افران
 قبيل العفر او بقره لكان مبيته قبيل الرخول بنسب افرانها به قبيل العفر او بقره جلا شبه لهها وان دخل
 جلا المسمى ان كان احصاها المشك سوار دخلها على غيرها او جعلها يرضي ثم تذكر في النكاح افرانها
 به هو وحده جلا مكنن بالرضاع وحرها جلا الرخول وانظر هو العلم ولو كان صرحها جيبه ولها جلا دينها جلا
 لانها غارة هي مبيارة في هذا الحلق وفي شرح مبيارة لهذا الحلق قال ويرع جلا قلا مت بيته على افرانها
 قبيل العفر مبيته النكاح فالمر الحالج في السراج في سببا في كلال المتين كفى ولو ثبتت افرانها او احرارها
 بذلك قبيل النكاح جلا مبيته وليد عليه والمسمى في مبيته في مبيته عن نصف الصراي ان وقع المبيع في
 البناء وان كان الصفي بعد وقوعها لانه ما نفعته في ذلك هو الجواب والله الموفق للصواب وليد مبيته
 الا العلم والله سبحانه وتعالى اعلم بتاريخه وصحة الخبر عام ٩٦٠ هـ واعيدت عنكم بجزعنا الذي حد
 ابراهيم الشيباني في ذلك في اريان الله له والاشيخ

الحمد لله وحده

صلى الله على من سبى

وبعد جازله السلاع ورحمته وبرهانه الى الاخر في الله التفتي النفس الحيث الوحي
 السبيحة بحمد تقي الله ووجد في الله وارشدك موجبه اليك ان علي خير
 وسامية فحمد الله ونشركه وفرضوا الرغ كذا وان لم يعلم ان الفاض
 السيد سبى عشاء فعمت عليه أسئلة فيك هذه السؤال والخذ منه
 من الجواب لك فالت له الحكومة أنه لا سبيل له علم ان أخذ ولا
 على لعبيون وأنه لا يتكلم في أمر من أمر من لا يثبت شقة وأعلى
 حكمه يمينه للحكومة على ذلك وقد ورد سؤالاً عن الحكم المراه
 وحكم الجمل أما المراه فما ذكرنا عنها وليس يعيب يوجب الخيار كما أنه
 ليه الخليل بفوقه له، وبغيرها إلى العيوب الأربعة إن شئت الثلاثة
 قوله ~~جوز~~ في التولي عدة الحكومة في الزيادة إن شئت الأربعة
 فخر في العيوب الأربعة انكسهم عن قول ابي عامر والفتوى في
 الفينة ~~والمعنى~~ على التفتي عليه ~~والمعنى~~ وحسن ضاعت
 العيب يكون اثبات بالصفة التي يشاركه فيها تبييه، ولو ان أردت
 ان تبعت سؤالاً بعد هذه ابيكون سر اوله انا كالجواب
 يقول مضمونه في ورقة وأخرها ما أناك فيه الجواب
 والسلاع أخوك في الله عنده منه الغنى في كل شيء في كبره
 ورسالة السيد سعد بن محمد بن البراء
 ورسائل ونظير منكم منكم صالحاً في عباد
 في مسامحة افعال 1361

تنب عليهما
 ذاميين

السيد
 السيد فحمد تقي الله
 ابن احمد زاد
 وفعده ااميا
 في الحيوة الهام فيه
 الحمد لله

من خصوصيات ثقافة الصحراء : الصناعة التقليدية نموذجا

لعتيگ الطالب بویا

لقد كانت الصناعة التقليدية من أهم الأعمال التي تركز عليها الحياة بالصحراء، أو لدى مجتمع البطان إن صح هذا التعبير. وهي قديمة قدم الإنسان، حيث وجد فيها السبيل الأوحى إلى تحقيق متطلبات الحياة الضرورية. ولإشارة فإن الصناعة التقليدية لدى البطان مقتصرة على فئة بعينها تتوارثها أبا عن جد هي المسماة "لمعلمين" بحيث لا تخلو مجموعة خيام "أفريگ" من خيمة الصانع التقليدى "لمعلم" وقد ظل عنصرا فاعلا أساسيا لا غنى عنه، يبذل له العطا وتقدم له الهبات اعتبارا لما يسديه من خدمات. وتقوم أنثاه "لمعلمة أو الصانعة" بدور موازى أساسى هو الآخر. وهؤلاء يتوارثون الحرفة ويلقنها الآباء للأبناء كما لو أن الأمر حتمى ولأنه مصدر القوت والرزق والإعتزاز أيضا.

وإذا كان من المستبعد أن نؤرخ بصورة أدق لظهور الصناعة التقليدية في مجتمع البطان لأول مرة فالبنظر إلى الأدوات المستعملة وتكيفها مع الحاجة نستنتج أنها موهلة في القدم قدم الصانع نفسه، لارتباطها بحاجياته وسلوكه. ولا أدل على ذلك من النظر إلى أدوات الموسيقى والتنقل من هودج ورواحل ونحوها، بالإضافة إلى الأواني والمصنوعات الجلدية والحلي وغيرها. وأهم ما اعتمد عليه الصانع التقليدى آنذاك النجارة والحداة وصناعة الجلود لأنها تشكل المواد الأكثر استعمالا وضرورة خلال ممارسة الحياة اليومية.

فبالنسبة للنجارة اعتمد الصانع التقليدي على أنواع من الأشجار تنبت بالصحراء لأخذ مادته الأولية وأهمها أيروارُ والطح وتيشطُ وإيگنين، وإمجيح والتيدوم وأدرس وغيرها. وأهم ما صنع منها مستلزمات الخيمة الأساسية من ركائز ومسالک وأوتاد وكأنه يؤسس للاستقرار أولاً ثم صنع منها أيضاً أهم وسائل بل أدوات التغذية كالمحلاب "أدرس" والأنية الخشبية الكبيرة ذات الإستعمالين الأساسيين التازوُ التي تستعمل لجمع اللبن المحلوب وتتخذ آلة موسيقية وهي الطبل بعد تغليفها بالجلد المدبوغ فضلاً عن بعض أدوات الطحن كالمدق والمهران، وما يتعلق بسقي الماء كالتئينُ مثلاً. ومن الطبيعي أن ينصب اهتمام الإنسان الصحراوي على كل شيء في حياته معتمداً على ما أوتي من وسائل يجدها في بيئته بمعنى أن هناك من الضروريات التي يقوم بها هو نفسه دون الإعتماد على صانع تقليدي وراثي الحرفة وبالتالي يمكن أن يكون الإنسان العادي ذي الخبرة المتميزة صانعا تقليديا ولو لم يكن من فئة الصناع السالفة الذكر.

فمثلاً للحيلولة دون رضاعة الجدي لأمه يصنع من الخشب قطعة تسمى "تأرصة" أو اشبابة" ويصنع للتعليم الألواح والأقلام، لكن الصانع التقليدي يمتاز بالسهر على الصناعة المستمرة والإتقان للعمل، فهو من يقوم بالأعباء الثقالة كصناعة الهودج والراحلة والسرج التي تقوم زوجته الصانعة بتغليفها بالجلد وتلوينها بمختلف الأصباغ. دون أن ننسى الآلات الموسيقية كتيدنيت وأردين والطبل وبعض وسائل الترفيه كالسيگ مثلاً.

أما بالنسبة للحدادة فمن أهم الوسائل التي يجب أن تتوفر للصانع التقليدي هي المطرقة والسندان (الزبرة) و "الكلابة" الكماشة فضلاً عن بعض القطع الحديدية الأخرى التي لها استعمالات متنوعة وبهذه الوسائل البسيطة يقوم بأعمال جلي تتمثل في الصياغة بشتى أنواعها وطرقها وإبداعاتها حسب الحاجة

واختلاف الأذواق. كما يقوم بصيانة الأواني الخشبية المستعملة بالخيمة أو التي يحتاجها لفريغ على اختلاف أنواعها وأحجامها.

أما زوجة الصانع التقليدي لمُعَلِّمة فهي لا تقل أهمية داخل النسيج السكاني عن زوجها الصانع، فهي تختص في صناعة الجلود ودباغتها وتحويلها إلى وسائل منمقة بأشكال الأصباغ بل تشكل مدرسه تشكيلية من نوع خاص، ومن هذه الجلود تصنع الوسائل أصرام والقرب والأوطاب والأغطية والزقاق كما تستعمل هذه الجلود في تغليف التمانم والمخطوطات والكتب لصيانتها من التلف، فضلا عن أدوات للخرز منها المزود والتاسوفرة ولمعمر والتزاية وغيرها. ونشير إلى أن الأصبغة المستعملة آنذاك لم تكن موجودة ومتوفرة بالشكل الذي هي عليه اليوم ولكنهم كانوا يتخذونها من بعض النباتات نذكر منها مثلا لكصيبة والونكل وبعض الأشجار والأطيان. كما تقوم الصانعة بشؤون العرائس من حنا وضافائر وحلي ولذلك يمكن أن نقول إن الصانع التقليدي ذكرنا كان أو أنثى في هذا المجتمع أعني مجتمع البطان لعب دورا أساسيا ساعد في الاكتفاء الذاتي للساكنة فيما يحتاجه من أدوات ووسائل مختلفة. وللإشارة فإن الصانع التقليدي لا يتقاضى أجرا محددًا مرتبا على ما يقوم به من أعمال رغم ذلك فهو يأخذ مكافآت تفوق ما كان سيأخذه من أجر، وقد تصل هذه المكافأة إلى رأس من الإبل أو ملابس فاخرة أو مواد غذائية.. حيث لم يكن هناك تسويق لمنتوجه بالمفهوم الأني وإنما يعتبر عمله مساهمة في تحمل المسؤولية داخل النسيج السكاني للفريغ. ورغم ما ذكرته في عدم تسويق البضاعة إلى غير ساكنة الحي الذي يقيم فيه وينتمي إليه، فإنه ظل يحرص على تطوير منتوجه بأسلوب إبداعي تفتقت عنه قريحته وذكاؤه الوقاد وبذلك أصبحت لبعضهم شهرة صناعة معينة في الحلي مثلا أو الهوادج والرواحل يتم جلبها منهم كلما دعت الضرورة غيرهم إلى ذلك. ولا بد أن نشير أيضا إلى أن الصانع التقليدي قام بمحاكاة بعض الأسلحة النارية تطويرا لخدماته ومساهمة في تعزيز جانبه ضدا على الغير.

إن نظرتنا إلى الصناعة التقليدية في مجتمع البطان وخصوصا بالصحراء يجب أن لا تنحصر على أنها وسيلة من وسائل القوت فحسب بل هي ثقافة رصينة وإبداع ثري وذاكرة متميزة وأنا أرى أنها ليست وحدها لدى أهل الصحراء بل هناك ثقافات أخرى لها خصوصياتها وأهدافها... وما الصناعة التقليدية إلا جزء منها بل من أحد مكوناتها. فعلى سبيل المثال هناك بعض السلوكات التي تعتبر جزء من الثقافة الصحراوية بل من الخصوصيات التي قد تغيب عن أذهان العديد من المنتهين، وتتجلى في بعض العادات والتقاليد أذكر منها على سبيل المثال ما يتعلق بحلاقة المولود وطريقة العقيقة ويوم الأربعاء وحلاقة شق الرأس لسلامة الأبناء، وتدخل في سياق المعتقدات. وهناك طريقة لبوح تسمين الفتاة ونوعية ملابسها المميزة قبل الزواج وقبل الصيام. وهناك ما يتعلق بالتعليم ونوعية الألعاب وأدب الخطاب والأكل، بحيث يجب التقيد ببعض السلوكات الأساسية كعدم النظر إلى لقمة الشريك إذا كان أكبر سنا ولا ترفع يدك قبله ولا تسرع في الأكل ولا تاكل بشرائه، حافظ على صغر اللقمة وكل مما يليك. وهناك عادات مرتبطة بالزواج بل حتى بالأشعار التي تبرز على شكل وصايا تقدم إلى العروس وهي تزف، منها ما يتعلق بالوداع والتهنئة والدعاء :

كنت وحسب منْ وكبظت من أمير

لاه تمش عن يجعلك فيها خير

لقد كنت منا وبيننا فاخترت منا أميرا والآن وأنت على وشك مغادرتنا فليكن لك الخير في ذلك. ثم يوصونها بالصبر والاحتراز والمحافظة على الحياة الزوجية وحسن العلاقة مع الزوج.

كلب امنا دم هو ساس فهل الدني هو عينيه

وال ماعس اعلى راس ما يجبر حد إس اعليه

قلب الإنسان أساسه الذي يقف عليه في هذه الدنيا، وهو عينه التي يبصر بها، ومن لم يحرس نفسه لن يجد من يحرسه.

ثم في العلاقة وحسن المعاشرة والتقرب إلى الزوج :

ان حد امعدل عند مانتك يكون اماليه
انوسسد ل انراع وييد واندير ايدي فـوگ ايديه

ان من أجله واعجب به لن أكون له قريبة منه وبجانبه، أ جعل له من ذراعي
وسادة وأ جعل يدي فوق يده للإمساك والمبايعة على الود والصفاء...

في هذا الخضم من العادات والتقاليد تبرز الصناعة التقليدية وتتجسد
فموس الحلاقة من صناعة الحداد والقطعة الجلدية التي تثبت فيها التمامم أو
الأحجار من صنع الصانعة التقليدية وأدوات التعليم والأكل والتنقل والموسيقى
ودباغة الجلود والحلي وبعض الهدايا التي سترحل بها العروس إلى بيت الزوجية
كل ذلك من صنع تقليدي أشرفت على إنتاجه وإتقانه خيمة الصانع التقليديين.
فالصناعة التقليدية إذن ظلت فكرةً إبداعاً ومهارة قبل أن تصبح آلة وأداة.
فالمهارة والحنكة استطاع الصانع التقليدي أن يتبوأ مكانة أساسية في
مجتمعه يلبي حاجياته دونما كلل كما تمكن بحضور بديهته وذكائه الوقاد من أن
يكون أقوى ناقد وأسلم ناطق يحترز أمامه من زلات اللسان ويخشى من عدم
الوفاء له بالوعد لأنه إلى جانب إتقانه لمهنته واحترافه إياها مقوالاً لسنا وشاعراً
مبدعاً ذا فراسة وفطنة مما جعل خيمته في غالب الأحيان بمثابة ناد يرتاده
السمار وهواة الحكمة والفكاهة والأملون في التواصل والمحبون للنوادر وذلك
بشكل أدبي راق بعيداً عن الاسفاف والخلق الرديئ، مما أهل بعض الصانع إلى
نفوذ الكلمة عند ذوي الجاه من ساكنة لفرينگ.

ولا زالت القطع التقليدية اليوم بمثابة التحف تزين البيوت وتقدم كأنحسن
هدية سواء تعلق الأمر بالحلي أو الوسائل الجلدية أو نحوها.

ولابد من الإشارة إلى أن نساء لسن من الأسر التي تتوارث حرفة الصناعة
التقليدية، قد برعن في خياطة الدرايع بأشدهن جيدة نادرة، كما كن يصنعن من

الحریر وردة تجعل علی رأس السبحة تسمى الرکیة" كما الصحراوي یصنع الحبال ویحیط مواشیه بالعیایة ویقوم بتطبیبها ویتعهدھا بالرعیة التامة یكویها بالنار ویسقیها من عصیر النباتات المختلفة أو یطلیها بمواد أخرى حسب المرض الذی یجسده ویعرفه ویعرف مفعوله. وهنا تجدر الإشارة إلى خصوصية ثقافية أخرى وهي معرفة الصحراوي الفائقة لأثر مواشیه وأبنائها واستطاعته لتمييزها من خلال صیاحها أو رغائها، ومن المثیر للدهشة أن من الصحراويین من یستطیع تقطیع الفصیل فی بطن الناقة كلما مات قبل الولادة دون أن یؤثر ذلك علی حیاة الأم، ومنهم من یضع فی رحم الناقة ما یشبه اللولب الحدیث وهو المصنوع من نبات الحلفا أو من الرصاص لمنعها من التناسل إذا ما كانت ستصبح معدة لشد الراحة لصیدح" وهم الذین یقومون بطرق معقدة وقاسية یستطیعون بها جعل الناقة تحذب علی غیر ولدها والفصیل یرضع غیر أمه وتسمى هذه العملية "اریامة" ولكنها حتمية النتائج الإيجابية رغم صعوبتها وقساوتها. ولخیاطة الخیام أسلوب لا یقل أهمیة عما أسلفت فعندما تنسج "الغلجة" وهي الوحدات الأساسية المكونة للخیمة، تخاط إلى بعضها فی یوم مشهود تحدده صاحبته، فتجتمع النسوة للخیاطة وعلی ربة الخیمة أن تعد لهم شاة تطهى برمتها مع توفیر الشای واللبن وتبسط الغلجة الواحد بجانب الآخر لتجلس النسوة فوقها وتشمرن عن سواعد العمل للخیاطة وتری ربة البیت تمر بینهن كالخدروف تزودهن بالإبر والخیوط واللبن والشای فی جو منبسط یتبادلن أطراف الحدیث وهن منهمكات فی عملهن یرسلن تعليقاتهن علی بعضهن كالسهام وتحاول كل منهن الدفاع عن نفسها وإلحاق التهمة بغيرها وإذا كانت من بینهن ذات صوت جمیل غنت لهن أجمل المعزوفات فیبدعن لها الأشعار، وهكذا یقضین طوال الوقت حتی ینتهین من خیاطة الخیمة وتشییدها بالأعمدة.

تلکم هي الحیاة الإجماعية بالصحراء بتجلیات ثقافتها المتعددة، وذلكم هو الصحراوي الذی أنتج هذه الثقافة، بمأكله ومشربه وملبسه، قضی أياما طوالا

تؤازره القناعة والتعفف وغنى النفس يشد أزره الإيمان بالوصول إلى الغاية المنشودة مهما تشعبت المسالك والطرق وقل الزاد، بشرته تعكس ما بداخله من حسن طوية روح خفيفة يلفها جسد نحيف، تلهه بيئة واسعة رتيبة عشقها بكل جوارحه وأخلص لها في المعاملة والتعامل لا يبغى عنها بديلا ولا يقدر على مسايرتها غيره.

المحضرة الشنقيطية من عهد ابن ياسين إلى اليوم

أحمد ولد عبد القادر

لا شك أن الثقافة والثقافة العالمية خصوصا، في موريتانيا، لم تغب عنها ظاهرة الداعية المصلح عبد الله بن ياسين.

ولا شك أيضا أن الظاهرة المحضرية الشنقيطية كانت هي ربع عزة في المنظومة المعرفية العربية الاسلامية، لا في شنقيط وحدها، بل وفي غرب افريقيا وما يليها من الشرق. إلا أن تناول هذا الموضوع يستدعي وضع عدة اعتبارات في الحسبان، من أهمها :

أولا - أنها ظلت - ومنذ لحظات النشأة - تستمد ديناميتها من طابعها الدعوي المؤثر، أي أن حاملها على قناعة بكونهم أصحاب رسالة، يجب تأديتها وإبلاغها والمتابعة في سبيل ذلك.

ثانيا : أن المحاضر العلمية نشأت وعاشت بين البدو الرحل المتنقلين على مدار فصول السنة (وهذه ميزة لم تسجل خارج هذه المنطقة)، سيما وأنها في ظروف بارزة الصعوبة، تتحاماها ديمومة التسيب والدورات الفلكية الجافة. وينتج من هذه الخاصية أمران أولهما أن الجماعات المتنقلة، مهما أبدعت أو أنتجت، فإن غياب المأوى العمراني، يجعل آثارها - وخاصة المكتوبة - عرضة للزوال والاندثار. مثال : "حواطة"⁽¹⁾ و"الذريعة"⁽²⁾، وجفاف السبعينيات من القرن الماضي.

والامر الثاني أن البدو إذا تغيرت بيئتهم أو حكم عليهم التاريخ بالتمدن - وبالأحرى في مثل هذا العصر - سيكون من الصعب أمامهم ضمان مستقبل ثقافي يشكل امتدادا للماضي أو يحمل بذوره.

المحطات الحاسمة في تاريخ الحضرة :

الأولى : قيام الحركة الياسينية الإصلاحية، وهي جهد توطيدي للدين الاسلامي بعد ما عرف من أن أهل الصحراء ظلوا عدة قرون يرتدون عن الاسلام، أو يمارسونه بطقوس غير مثالية. وكان على المصلحين إتباع مبدأ «سد الذرائع» المالكي القاضي بمنع بعض الحلال من الوقوع في المحرمات. وهكذا أدت روح التشدد الى نتيجتين

- ايجابية، وهي ترسيخ الروح الجهادية والتعليمية بشكل لا رجعة فيه.

- وسلبية، وهي اقضاء جوانب من الثقافة كفنون الشعر والغناء إلخ...

المحطة الثانية بعد تعاضم شأن الحركة المرابطية في المغرب والشمال الافريقي والاندلس كانت الدعوة الياسينية النواة قد أخذت مسارها بقوة في القبائل الصنهاجية الصحراوية، فيما عرف بعد ذلك بقبائل الزوايا البدوية، أو الامارات والمشيخات اللمتونية، التي واصت نفس المنهاج الدعوي الجهادي التعليمي على مدى القرون 5، 6، 7، 8 هـ. وفي هذه المرحلة لم يكن للعلم والنظم المعرفية شأن نوعي يذكر، بل تراكمات كمية في المجتمع البدوي الممثل لأغلبية السكان.

يفهم هذا من الرسالة التي وجهها المسمى عبد الله اللمتوني الى الامام السيوطي، وتدور الأسئلة فيها حول حكم الله في كثير من الممارسات المطبقة عند أهل الصحراء، والتي يتماهى فيها بعض ما هو ديني بما هو أقرب الى العادات الوثنية. وقد أجاب عليها السيوطي بتأليف يوجد في الجزء الثاني من كتابه: الحاوي للفتاوي.

ويبدو أن مركز الإشعاع والثقل المعرفي، ظل في هذه المرحلة محصوراً في الأساس في الحواضر التاريخية المترامية على طريق القوافل المنطلقة من وإلى جنوب المغرب، انتهاءً بتينبكتو، ومروراً بـ"بودان"، "شنقيط"، تيشيت"، "أودغست"، "ولاته"، الخ...

وفعلاً كانت هذه المدن على درجة من التمكن المعرفي، إذا قورنت بالبوادي أو تتبعنا أمثلة على ذلك. منها أن محمد بن أبي بكر الوداني، وضع كتاب «موهوب الجليل على شرح مختصر خليل» في فترة قريبة جداً من وفاة المؤلف وبرز شخصيات من أمثال سيدي أعمر الشيخ الكنتي صديق عبد الكريم المغيلي، والإمام السيوطي.

المحطة الثالثة وتبدأ مع القرن العاشر الهجري إلى الرابع عشر، وهي الأهم، والتي اتخذت فيها الظاهرة المحضرية توسعها الكمي وشكلها النوعي المميز، وقد نتجت عن تراكمات كمية عاضدتها عدة عوامل مساعدة، منها .

أولاً مرور قرنين على قدوم الهجرات المعقلية الكثيفة الوافدة من الشمال، والتي أفضت إلى انتشار اللهجة الحسانية القريبة من الفصحى على حساب اللهجات المحلية. وحيث تنتشر العربية، يسهل نشر علومها.

يقول العلامة محمد اليدالي (القرن 12 هـ): «إن لغة بني حسان كانت لأهل هذه الأرض بمنزلة القنطرة إلى الفصحى».

ثانياً · تحكم الإمارات والمشيوخ المغفرية الحسانية. وهؤلاء لم يكن الاشتغال بالعلم مهمهم، بل بالفروسية وأعرافها السلوكية. إلا أنهم خلقوا في المجتمع الصحراوي ثنائية (الركاب أو الكتاب) بمعنى أن هذا المجتمع المتسبب المطبق بطبيعته لقاعدة «من لا يظلم الناس يظلم»، لا يستحق فيه الاحترام إلا من حمى نفسه بقوة السلاح، أو من نذر نفسه لبث العلم والدين وانزوى بهما، وترك

السلاح جانباً. وكانت هذه المعادلة العرفية، متنفساً نسبياً للزوايا، وضاعفت أعداد المشتغلين بالعلم والدعوة، ممن غلبوا على أمرهم، هروباً من بطش الظلمة أو مكوس الإمارات.

وفي ظل المشيخات المعقلية، كسرت سلسلة التشدد الياسيني المرابطي، ورفع الحظر عن الموسيقى وفن الشعر الذي كان مقتصرًا على الأمداح النبوية والتوسلات الدينية. وظهر الشعر الحساني الذي هو في أصله أزجال هلالية تطورت مع الموسيقى البيضانية إلى قواعد عروضية قوية ومعقدة، وتحمل الكثير الجيد من الخصائص الإبداعية، ثم الشعر الفصيح والأصيل والذي تعود أقدم مروياته إلى نهاية الألف الأولى الهجرية.

وهكذا كان للثقافة أبعاد لافتة ومشرفة، غير البعد الديني المحض.

وهكذا أيضاً انتقل مركز الإشعاع من المدن التاريخية إلى البوادي في الجنوب والشرق والساحل الأطلسي، مع نزوح السكان الناتج عن اشتداد دورات الجفاف، وضعف الطريق التجاري القديم لصالح التجارة الأوروبية على شواطئ المحيط والنهر السنغالي.

ظهرت مئات ومئات من العلماء والفقهاء النوايغ، والمشتغلين بخدمة العلم والعاملين به حقاً والمئات المتكررة من الأدباء والشعراء المبدعين الأقحاح، وكتاب المقامات وأدب الرحلات وغيره.. وظلت المحاضر الشنقيطية على عهدنا جسوراً عديدة لعبور الإسلام والمعارف إلى كافة الأصقاع في إفريقيا الغربية وإلى الصحراء شرقاً (صحراء أزواد في مالي والنيجر إلى تخوم اتشاد). فلا توجد إجازة في تلك المناطق إلا وتمر سلسلتها بالمحضرة الشنقيطية، سواء تعلق الأمر بعلوم الفقه والحديث أو القرءان، أو الطرق الصوفية (القادرية، التيجانية، الشاذلية، الصديقية.. إلخ) التي تمر روايتها بالزوايا الصوفية في شنقيط : (البكائية، التيجانية، الفاضلية، الصعيدية إلخ..). يجدر التنبيه إلى أن أتباع

التيجانية في السودان تمر سلسلتها بسيدي مولود فال يعقوبي تلميذ الشيخ محمد الحافظ العلوي الشنقيطي.

وهذا المنهاج التعليمي هو الذي أنتج أعلاما مثل اليدالي وابن رازقه، وابن الأعمش، والحاج الداودي والمجيدري بن حبيب الله، والمختار بن بونا الجكني، والشيخ سيديا بن المختار بن الهيبة، والشريف الشيخ ماء العينين الفاضلي الذي شكلت زاويته في السمارة حضرة علم أوسع نطاق من المحاضرة، على غرار حلقات العلم عند افضان المسلمين كحلقة الإمام الغزالي.

والمشرق العربي استقبل على فترات متتابة نوابغ دوى ذكرهم وكان لهم قصب السبق من أمثال: محمد محمود بن التلاميذ التركي الذي تحدث عنه الدكتور طه حسين في كتاب الأيام قائلا : إنه من أحداث طفولته يتذكر «أحاديث الناس الدائمة عن الشنقيطي الذي ملأ الدنيا وشغل الناس»، ومثله العلامة محمد أمين فال الخير الحسني مؤسس مدرسة النجاة في الزبير بالعراق الذي تخرج على يديه فطاحلة في اللغة والادب واشتهر بمساهمته الشخصية في ثورة 1920 ضد الانكليز.

سمات مميزة :

من أهم خصائص المحاضرة، نضوجها واستمرارها في الأحياء الرحل كما رأينا حيث كيفت وجودها وبنيتها التحتية وأساليبها التدريسية مع بيئتها في جملة من القواعد التي تملئها الأعراف المتفق عليها اجتماعيا، أو يتبناها الأستاذ وينضبط لها الطلاب والوسط المحيط.

والبنية التحتية على درجة من البساطة لا تداني مردود هذه المؤسسة وثمرتها. فالسكن عرائش من حشائش تقام كلما نزل الحي مربعا جديدا؛ والأدوات ألواح وأقلام من خشب أو نبات، وحرر محلي لنسخ الكتب مستحضر من صدى قطع الحديد القديمة تعتنق في الماء مخلوطة بالصمغ العربي.

يقول أحد طلابهم في وصف خط شيخه :

إذا منح القرطاس ماء حديدة معتقة في الماء والكندرِ اليَبَسِ

هنالك لا تلقى ابن مقلة كاتباً وليس بذى سطو على صفحة الطرس

والمنح العرفية أنواع وأشكال مختلفة باختلاف المناطق. فمثلا يخصص كل حي فيه محضرة، الصدقات للطلاب المغتربين عن ذويهم في طلب العلم، وتخصص لهم شاة الذبيحة أو النحيرة في كل عقيقة لكل مولود جديد في الحي، و«الدنيا ملعونة وملعون ما فيها إلا عالم أو متعلم أو معين لهما». ظل هذا شعار المجتمع الزاوي قولا وعملا. ويبدأ الشيخ عادة رحلة التدريس بعد تخرجه في سن الأربعين، ويبقى مواظبا ليله ونهاره، وقد يتجاوز عمره التسعين، بدون أن يأخذ أي أجرة من أي طالب، إنها ذهنية الداعية المرابط الموروثة من الأجداد بلا كل ولا ملل.

والكثير من الأساتذة المحضريين القدامى، يروون متون الكتب وشروحها عن ظهر قلب ويباشرون التدريس بدون استعانة بالكتب. فالحفاظ الموسوعيون سمة بارزة في تلك الأوساط.

وبنظرة عامة الى تاريخ المنهاج الدراسي، نجد أن اللغة العربية والنحو، حظيا على الدوام بالتركيز والعناية الخاصة، الى جانب فقه النوازل، حيث يقول النوازليون إن عليهم استنباط الأحكام من خصوصية البيئة في الأرض السائبة، وأن أحكام الفقهاء المستنبطة لدى مالكيي فاس وقرطبة، لا تتفق وظروفهم في أحوال كثيرة.

ومظهر آخر له دلالته، وهو أن دليل المخطوطات أو المؤلفات يمكن تقسيمه الى أكثر من عشرين مادة أو فرع للتأليف: علوم القرآن والحديث والفقه بأنواعها.

والعربية والبيان بتفرعاتها، والمنطق والبيان، والسير وأيام العرب وأنسابهم، وعلم الكلام ومؤلفات التصوف.. والفلك والحساب والطب العربي. وحتى الموسيقى حظيت ببعض الكتابات مثل كتاب السماع لابن عبد الفتاح الأبيري ق 13 هـ.

وبعد، فإننا في نهاية هذا الملخص نريد أن نثبت :

أولاً: أن المصلح ابن ياسين أدى رسالته بنجاح وامتيان.

ثانياً. أن المحضرة الشنقيطية بكل نجاحاتها وإبداعاتها تبقى - إنصافاً للتاريخ - امتداداً لمدارس العلم في فاس وقرطبة، تطاول إلى ما وراء بحر الرمل في إفريقيا.

ثالثاً: وكما سبقت الإشارة، فإن البيئة البدوية، ظرف غير حاضن، فالمجتمع الشنقيطي بعد جفاف السبعينيات، والتوجه العام إلى التمدن أو الهجرة إلى المدن، يعيش بمنظومته المعرفية، بين مستقبل مدني يطمح إليه، وماض بدوي لم يعد بحاله. وفي الاضطراب الانتقالي، تتحول العقلية والمسلكيات، وتضيع الآثار المكتوبة، وتختفي وجوه الرعيل الأول، قبل نضوج المراجع في الرعيل الجديد :

تغيرت الأحوال ما أنا بالذي عرفت ولا أنت التي كنت أعرف

الهوامش

(1) «حواطة» جفاف شامل عرفته بلاد سنقيط لعدة سنوات ابتداء من عام 1185 هـ. كانت له نتائج سلبية على الإنسان والحيوان.

(2) الذريرة كارثة جفاف دامت سنتين مع بداية العقد الثامن من القرن الثامن عشر الميلادي. صحبتها مجاعة أهلكت الناس والحيوان وخاصة النقر.

النظام الأسري داخل مجال ثقافة الصحراء

العالية ماء العينين

في البداية لا بد من التأكيد على أن الخصوصية بمفاهيمها الغنية عسوية على الرصد ويستحيل القبض عليها فهي قابلة دائما للتجزئ والانشطار إلى مستويات عدة، وفي هذا الإطار فإن الحديث عن خصوصية صحراوية يتأرجح في عنوان مبدئي وكبير بين الثابت (الفضاء الصحراوي الصرف الذي تحكمه ظروف وخصائص حياة الرحل) والمتحول المحكوم بالتطور بفعل الحاجيات المتجددة لأي مجموعة بشرية والتي حتمها تغيير فضاء العيش. وفي مستوى ثاني يفترض أن نتناول هذه الخصوصية الصحراوية في علاقتها مع التراتبية التي ينبنى عليها مجتمع الصحراء (ونقصد به الطبقات أو المجموعات البشرية التي تمثل النظام الاجتماعي في مجال الثقافة الحسانية أو ما يسمى «تراب البيضان» : الزوايا، حسان، اللجمة....).

وفي مستوى ثالث، البحث أيضا في خصوصيات القبائل التي تكوّن كل مجموعة أو طبقة وهكذا نستمر بالانتقال من العام إلى الخاص إلى الأشد خصوصية.

وبمحاذاة هذه الخطاطة، التي حاولنا من خلالها، تقديم وصف بسيط لمزلق الحديث عن الخصوصية، تبرز على الهوامش اختلافات تتعلق بكيفية نشوء أو

تكوّن هذه المجموعات أو التغيرات التي مستها، وعلاقة التآثير والتأثر والانتقال من وإلى بعضها البعض (على اعتبار أن هذه المجموعات - خصوصا بين الزوايا وحسان - لم تكن مغلقة تماما مثل النموذج الهندي أو ما يعرف ب : "les castes"). هذا التنبية أو الاستهلال نعتبره ضرورة، نبتغي من ورائه التأكيد على أننا واعون بهذا المعنى العميق والإشكالي للخصوصية، ولا نتوخى الخروج بنتائج دقيقة، خصوصا في بحث ابتدائي متواضع، في هذا المجال الذي يعاني من قلة الأبحاث والدراسات التي يمكن أن تمثل أرضية للبحث في نظام الأسرة في فضاء الثقافة الحسانية.

اعتمادا على ما سبق، نحدد البحث في هذه الورقة على ما قبل التمدن. يعني فضاء الصحراء كإطار للعيش وممارسة الوجود وفي إطار الأعراف، مع الإشارة إلى بعض التغيرات الطبيعية التي مست الشكل الاجتماعي والتي حتمتها ظروف التطور والانتقال إلى المدينة، وبالتالي البيت كفضاء أضيق. مع التأكيد على أن الكثير من مناحي العيش والمعاملات لازالت تشع حياة، وأكثر التصاقا بوجودان أبناء الصحراء، كما أننا سنحاول ما أمكن أن يكون الحديث شاملا لمختلف المكونات البشرية مستفيدين في هذا المجال من التراث الشفوي، والذي نقسمه إلى جانبين :

أولا - المعاش أو اليومي والذي ننتمي إليه، وبالتالي يصلنا بوسائط متعددة، ولازلنا حاضرا في ممارستنا اليومية.

ثانيا - الاعتماد على التراث الشفوي من حكم وأمثال....لأنه يمثل مرآة حقيقية لحياة القوم. وقد استعنا أيضا ببعض الدراسات التي تناولت الموضوع، وإن بشكل غير مباشر، والتي تتأرجح بين الدراسات المختصة، مثل الدراسة الانثروبولوجية التي قامت بها الباحثة الفرنسية Sophie caratini عن الرُكبيّات. أو

بعض الدراسات التي تناولت ثقافة الصحراء بشكل عام على رأسها كتاب الجأش الربيط للعلامة الشيخ محمد الإمام، الذي تناول الكثير من مناحي الحياة عند أهل المنطقة.

وهناك أيضا مجموعة من الدراسات المهمة لأشقائنا في موريتانيا والتي لاتخفى أهميتها على اعتبار وحدة المجال الثقافي والاجتماعي لجنوب المغرب وموريتانيا.

الأسرة هي النواة الأساسية داخل البنية الاجتماعية الصحراوية كغيرها من المناطق الأخرى وعلى مستوى كل المجتمعات الإنسانية .

ولكن يبقى لكل نظام اجتماعي خصوصيته التي تتحدد بالإطار العام الذي ينمو داخله. ويبقى العنوان الأكبر لهذا النظام في الصحراء هو الارتباط العضوي والتام بين الأسرة والقبيلة. وسنلاحظ ، من خلال ما سيأتي ما يثبت هذا الانصهار الذي يكاد يكون كاملا.

للحديث عن الأسرة في الصحراء سنلقي الضوء على أربع نقط عبور هامة في بناء الأسرة الصحراوية وهي كالتالي

- بناء مؤسسة الزواج

- المرحلة الانتقالية

- الاستقرار في بيت الزوجية

- تزايد أعضاء الأسرة.

وسنحاول الحديث عن كل مرحلة على حدة لتقريبنا من المسار الذي تقطعه الأسرة الصحراوية في تكوينها.

المرحلة الأولى : الزواج، وهو بناء أو تأسيس محكوم بظروف اجتماعية واقتصادية تفرضها طبيعة العلاقات والمصالح التي تربط أفراد القبيلة بعضهم إلى بعض. ويتجلى هذا الارتباط في مستويات عدة .

- اقتصاديا : يساهم في الحفاظ على المصالح المادية التي تربط الأسر داخل القبائل، أي عدم انتقال أو خروج الأملاك إلى خارج إطار الأسرة القبيلة. وهو ما يعبر عنه الأستاذ زهير حطب، في دراسته لهذا الموضوع، في العشيرة العربية القديمة.

يقول "وهكذا فإن هذا التدبير يوفق بين أمور عديدة أولها أن يبقى الإرث في عشيرة الأب والأم على السواء"

سياسيا : في هذا الإطار ترى الباحثة الفرنسية "صوفي كراتيني" في دراستها الانثروبولوجية عن الرُكَّيْبَاتُ، أن زواج أبناء العمومة رباط سياسي، وتشرح ذلك بقولها، أنه ميثاق ورباط حتمي، في ظل التطورات الطبيعية التي تلحق القبيلة جيلا بعد جيل، والتي يمكن أن تتسبب في قطع أو حل أو تراخي العلاقات الأسرية. فهي ترى أن هذا الرباط عمل يتوخى منه الحفاظ على التحالفات الأسرية والقبلية على المدى البعيد.

هناك عدة قراءات يمكن أن نسوقها لهذا النوع من المصاهرة الذي ينبني على رابطة الدم، والذي كان شائعا في العديد من الحضارات الإنسانية خصوصا العربية والإسلامية والذي لا يزال محبذا في بعض المناطق في الوقت الحاضر.

ومن التفسيرات البسيطة والقريبة من اليومي والمعاش، تكيف الفتاة أو الزوجة في أسرتها الجديدة بأقل قدر ممكن من الصعوبة والتوتر، لأن وحدة المحيط وبالتالي المعاملات تسهل عملية الانتقال من بيت الأهل إلى بيت الزوجية.

شيوع زواج أبناء العمومة لا يعني أن العكس غير وارد. ذلك أن الزواج أو التزاوج بين القبائل عملية لها أيضا أبعاد سياسية - اقتصادية واجتماعية ترتبط كما أسلفنا بالمصالح التي تحددها طبيعة العلاقات السائدة بين المجموعات القبلية والتحالفات أو الخلافات التي تميز الروابط التي تجمع مختلف مكونات هذا

المجتمع. لذلك وفي هذا الإطار يصبح الزواج شراكة سياسية واجتماعية واقتصادية بين القبائل، نسوق في هذا الإطار مثالا واضحا وهو الشيخ ماء العينين الذي كان يمثل إحدى أهم الزعامات السياسية والدينية في المنطقة وكانت له مكانة كبيرة عند مختلف القبائل الصحراوية، وقد عمل الشيخ على مصاهرة أغلب قبائل الصحراء وذلك في إطار توثيق الصلات بهم. وقد كان لهذه الخطوات التأثير الكبير في توحيد هذه القبائل وتحالفها مع الشيخ.

قبل الانتقال من هذه النقطة لآبد من الإشارة إلى نقطة مهمة، وهي أن المصاهرة في المجتمع الصحراوي كانت ولا تزال - عند بعض القبائل - ترتبط بطبيعة تقسيم المجتمع البيطاني والتي يغلب عليها الطابع الوظيفي، ومن هنا يصعب بل ويستحيل أحيانا التزاوج بين طبقات معينة داخل المجتمع.

ويمكن أن ندخل هذا الترتيب تحت مسمى "التكافؤ" والذي يتنوع في حياتنا الحديثة حسب المنظور الخاص لكل مجموعة، فهناك من يطلب فقط التكافؤ الديني وهناك من يركز على الجانب المادي أو المستوى العلمي أو الإطار الاجتماعي.... الخ.

هذه إذن بعض الجوانب المتعلقة بالمرحلة الأولى. وقبل المرور إلى المرحلة الثانية، نسوق بعض الملاحظات العامة التي ترتبط بالزواج وهي على سبيل المثال لا الحصر :

- الحضور القوي للتكافل الاجتماعي في بناء مؤسسة الزواج، وهو ما يفسر بعض المظاهر التي تبدو نشازا وغير مناسبة للطبيعة البسيطة لأبناء الصحراء. من ذلك مثلا غلاء المهور أو المبالغة في تجهيز العروس، ذلك أن هذه المصاريف المبالغ فيها، التي كانت ولا تزال مثار نقاش حاد، يمكن أن نقلل من غلوها إذا عرفنا أن الزواج أمر لا يتعلق بالأسرة فقط، بل هو شأن العائلة الكبيرة وحتى القبيلة. فالكل يساهم بقسط في المصاريف المادية كما أن الهدية الثمينة

لأهل العرس هي من سمات المجتمع والتي تعبر عن تكافل كل أبنائه سيان منهم القريب والبعيد.

- القبيلة ليست حاضرة ماديا فقط، بل هي تمثل قوة ردع أخلاقية تحافظ على حدود متعارف عليها تقيد الرجل والمرأة ولا تسمح لهما بالتجاوز. من ذلك مثلا منع التعدد، بطريقة شرعية تجعل المرأة في حل من الاستمرار إذا تزوج عليها بعلمها فيشرطون في عقد زواجهم بان "لا سابقة ولا لاحقة وإذا حدث فأمرها بيدها". وهو شرط يعني وضع الطلاق في يد المرأة إذا تزوج عليها الرجل أو اكتشفت أنه كان متزوجا .

المرحلة الثانية هي مرحلة انتقالية بين العزوبة أو بيت الأهل من جهة والاستقرار في بيت الزوجية من جهة أخرى.

هذه المرحلة، تبقى فيها الزوجة في بيت أهلها مع زوجها، الذي ينتقل بين أهله وأهل زوجته. وقد تستمر هذه الوضعية إلى ما بعد ولادة الطفل الأول.

هذه العادة التي أصبحت تتآكل بفعل متطلبات الحياة الحديثة، يمكن أن نجد لها تفسيرات عدة، منها مسألة الزواج المبكر بالنسبة للفتاة والشاب على حد سواء، ولذلك فقد نعتبر هذه المرحلة فترة انتقالية ضرورية للاستئناس بالحياة الجديدة والتأقلم مع متطلباتها.

كما أن إنجاب الطفل - في بعض الدراسات الانتروبولوجية - يكسب المرأة سلطة شخصية جديدة تخفف من صعوبة الانتقال.

حاليا وكما سبقت الإشارة تراجعت هذه العادة بشكل كبير، أو يمكن القول إنها أصبحت تأخذ شكلا جديدا أكثر ارتباطا بالظروف الاقتصادية والتي أصبحت تحتم - أحيانا كثيرة - الاستقرار مدة من الزمن مع أهل الزوج أو الزوجة.

وهذا يعني أن هذه العادة كانت ترفاً اختيارياً وأصبحت بفعل متطلبات الحياة الجديدة حاجة ملحة.

المرحلة الثالثة : الاستقرار في بيت الزوجية، وفي هذه المرحلة يبدأ الرجل والمرأة البناء الفعلي لحياتهما في إطار من النكامل.

بالنسبة لطبيعة العلاقة بينهما والوظائف التي يمارسها كل منهما فهي مرتبطة بالطبقة التي ينتميان إليها ولكن هناك ملاحظات عامة تحكم هذه العلاقة : أولاً مكانة الرجل كرب الأسرة والمسير ومركز القوة وهي سمات عامة مستمدة من طبيعة المجتمعات العربية والإسلامية، ولكن تبقى للخصوصيات مظاهرها المتميزة والتي تتجلى في المكانة المتميزة التي تحتلها المرأة في الأسرة / القبيلة في الصحراء.

يقول الشيخ محمد الإمام "فاعلم أن النساء عند أهل ذلك القطر كأنما خلقن للتبجيل والإكرام فلا تكليف ولا تعنيف ولا تثريب ."

وفي شهادة للجغرافي الفرنسي c. douls عاشق الصحراء الذي قتل فيها - يقول متحدثاً عن طبيعة العلاقة بين الرجل وأسرته في الصحراء في النصف الأخير من القرن 19 : «إن الرجل رغم بربريتهم (عبر بهذه الكلمة بالضبط، لأنه عانى من العذاب الشديد عندما تم أسره على الشواطئ الصحراوية واتهم بأنه جاسوس للكفار) وقسوتهم ينقلبون داخل خيامهم إلى قلوب مفعمة بالرحمة اتجاه المرأة والأولاد وهم ضد التعدد والمرأة عندهم تتمتع بقدر كبير من الحرية. ولأنهم يعيشون في فضاء واحد فإنهم (أي الرجال والنساء) يتقاسمون الحياة بمتاعبها وأعمالها وبينهم وحدة وتوحد...ولذلك فالمرأة تتمتع بنفس الامتيازات التي يستفيد منها الرجل وهي مساوية له وتقوم مقامه في حالة غيابه، وتسير شؤون خيمتها (أولاد خدم ومتاع...) وهناك ميزة عندهم وهي أن المرأة تتعلم منذ الصغر مثل الذكور...» وبعد استفاضة كبيرة يختم c.douls شهادته بالقول «سنجد

قواسم مشتركة كثيرة بينها وبين المرأة الأوربية في وضعيتها الاجتماعية كما سنتها مؤسساتنا الحديثة».

المرأة إذاً لها مكانة خاصة ومتميزة داخل النظام الأسري، وهي مسؤولة عن بيتها وتسييره. كما أن الرجل يأخذ على عاتقه الأعمال الشاقة وقد لا تضطر المرأة للعمل إلا إذا كانت ظروفها خاصة، يقول الشيخ محمد الإمام «وليس من عادتهم أن تباشر شيئاً من الخدمة بنفسها، أي شيء ! إلا أن تكون في بيت فقر فلها أن تفعل من ذلك ما لا يحسن على الرجل مباشرته في عرفهم»

وهذه الملاحظة تدخل في إطار طبيعة الانتماء القبلي الذي تحدثنا عنه سابقا ويبقى لكل مجموعة خصوصياتها الوظيفية التي تتقاسمها المرأة مع الرجل، فهي عند الزوايا صاحبة علم وأدب وتشتغل بالأمر الدينية في السياق العام لوظيفة المجموعة التي تنتمي إليها. وهي عند حسان صاحبة مال وتجارة ومالكة رقاب...وهي عند الصناع صانعة ماهرة تساهم بمجهودها في الإنتاج الصناعي التقليدي..وهي عند العبيد أمة تخدم مصالح من تعيش في كنفه.وهي عند "اكاون" أي المطربين، تمتهن الغناء منذ حداثة سنها مثل الذكر تماما.

ويقول الدكتور شبيها حمداتي «فالمرأة الصحراوية تعتبر نفسها دعامة أساسية في الفعل الدائم في شتى مظاهر الحياة العامة وخصوصا في شتى الميادين التي تشاطر الرجل عمله فيها». (جريدة صحراؤنا عدد 37 - 26 يناير 1968).

المرحلة الرابعة . نخصصها لاتساع مؤسسة الأسرة بقدم الأطفال.

وهنا لا بد من الإشارة إلى عادة لازالت راسخة في المجتمع الصحراوي، وهي أن المرأة تضع مولودها دائما في بيت أهلها فبمجرد اقتراب الوضع تنتقل أو تعود لأسرتها.

ويخضع اسم المولود لقوانين خاصة تحتم التسمية على كبار العائلة كالجد المباشر أو الرجوع إلى ما قبل ذلك، ويستحسن أن يكون اسم المولود الأول لأهل الرجل.

بالنسبة لظاهرة تفضيل الذكور على الإناث، لا ننظر أن المجتمع البيطاني بريء منها، رغم أن ما نراه على الواقع لا يحيلنا على مبالغة أو عنف في هذا التفضيل، لأن مكانة المرأة تنفي هذا الأمر، ولكن كمجتمع مغربي لا ينفصل عن إطاره العام العربي والإسلامي، نتصور هذا الوضع بشكل طبيعي خصوصاً مع قسوة الحياة الطبيعية الصحراوية، فالمولود الذكر يعطي إشارات أقوى على تحمل العبء والمساعدة في استمرارية الامتداد.

أما بالنسبة للتربية، فنلاحظ أنه مع الأخذ بعين الاعتبار الاختلافات الطبيعية بين البنت والولد، والتي تضيق من هامش طفولة البنت على اعتبار إعدادها المبكر للزواج، فإنهما يتلقيان نفس التربية والمبنيّة أساساً على تثبيت المبادئ المتعارف عليها والأعراف التي تحكم المجتمع. فالطفل يتربى على احترام أخته واحتضانها. ومن الأمثال الشائعة في المجتمع الصحراوي قولهم لمن يعامل أخواته معاملة سيئة . «بطاط أخوات الشيعة ماخذاتو» وهو مثل يحذر الصبيان من أن من يضرب أخواته لا يحلم بأن يكون له صيت بين الناس في يوم من الأيام.

ومن هنا نفهم أهمية نظام الخوولة في المجتمع البيطاني والذي ينبني أساساً على هذه العلاقة المتينة بين الخال وأبناء أخته تقول s.caratin في هذا الموضوع، ودائماً في إطار دراستها عن الرقيبات «الأخ ومند طفولته وحتى مماته هو الحامي الحقيقي والممكن لأخته» وتستمر قائلة «الرابط الذي يجمع الأخ بأخته اضمن استمراراً من رابط الزوجية...الرجل يمكن ان ينفصل عن زوجته ولكن لا يستطيع أن ينفصل عن أخته...»⁽¹⁾

هذه العلاقة المتينة التي تحرص الأسرة - القبيلة على تكريسها بين الولد والبنت هي التي تفسر طبيعة المعاملة المتميزة التي يعامل بها الرجل المرأة - الزوجة - الأخت، فهما مترابطان.

بالنسبة للتعليم فإذا كان الواقع الحالي يشجع العلم للذكور والإناث، وهذا وضع طبيعي فإنه في الإطار الذي نتحدث عنه، وفي الفترات التاريخية السابقة كان امتيازاً، ذلك أن الفتاة تأخذ العلم مثل الصبي، خصوصاً عند قبائل الزوايا التي كانت معروفة بارتباطها بالعلم والدين. وأول ما تتعلمه القرآن. وقد كان من نتائج هذا الاهتمام بتعليم المرأة أن لعبت دور المدرسة الأولى لتربية النشأ فتلقن الطفل دروسه الأولى من تعلم الحروف الهجائية إلى تلقين القصص التاريخية... والقاعدة العامة أن وراء كل رجلٍ عالمٍ امرأة مهتد له السبيل إلى الالتحاق بالمحضرة في مرحلتها المتوسطة (الأستاذ الخليل النحوي، بلاد شنقيط المنارة والرباط، ص 289). ولا أدل على ذلك مما تنشره الكتب والتراجم من علماء أخذوا العلم من أمهاتهم.

وقد استرعت ظاهرة تعليم النساء في الصحراء، انتباه عالم كبير من علماء سوس هو العلامة محمد بن أحمد المانوزي (1886-1940) في زيارة له للمنطقة يقول: «وفيهن عالمات وأديبات، وأقلهن بضاعة في الفقه التي معها المرشد المعين لابن عاشر، وأرجوزة القرطبي. ومن الأدبيات المعلقة السبع وغيرها من أيام العرب. وفيهن مدرسات للعلم في جميع الأوقات وجميع الأنصبه وقد شاهدنا امرأة وسطا تملي عليهن الشيخ خليلا بلا شارح فخاضت في شرح متنه... وحولها من أخذات العلم ما يزيد عن ستين امرأة. (المعسول، محمد المختار السوسي، ج 3، ص 404)

ونختم هذه المشاركة المتواضعة بإيراد مجموعة من الملاحظات او الاستنتاجات التي يمكن للباحث أن يصل إليها، مما سبق ذكره :

الملاحظة الأساسية صعوبة الحديث عن مؤسسة الأسرة ككيان داخل مجال الصحراء، فالأسرة مرتبطة بشكل عام بالقبيلة وهذا الارتباط لا يبنني على الخضوع للسلطة بمعناها القانوني أو المادي بقدر ما يرتبط بالسلطة الأخلاقية. ويلعب السن دورا كبيرا في هذه التراتبية، ذلك أن شخصية الأب تتلاشى أمام شخصية الجد وهو وضع طبيعي وموازٍ لتلاشي الأسرة أو انصهارها في القبيلة. يقول المثل الحساني «يشوف الشيخ التَّكِّي لَمَا شافُ أَفْكَرَاشُ الوَاكْفُ» وهو يعني أن الشيخ العاجز عن الحركة من شدة الكبر قادر على رؤية ما يعجز عنه الشاب الحيوي النشط».

وفي هذا الإطار يصعب تصور شكل الأسرة النووية في المجتمع الصحراوي والتي تعني "تمركز الأسرة حول الزوج والزوجة والأطفال" والتي أصبحت سائدة في المجتمعات الحديثة وإن بدرجة أقل في المجتمعات العربية والإسلامية التي مازالت تحافظ على أهمية مشاركة الأسرة - الكبيرة.

هذا الوضع مثل عامل قوة للعلاقات الإنسانية، ذلك أن الطلاق مثلا لا يترتب عنه أي قطع أو تفسخ للعلاقات العائلية المحكومة بإطار أعماق القبيلة، كما أنها عامل قوة للمرأة في علاقتها بالرجل، فهي توفر لها الحماية اللازمة لتكون في منأى عن أي ضرر مادي أو معنوي كما سبقت الإشارة إلى ذلك. فالزوج إذا بدر عنه ما يسيئ له لن يكون في مواجهة الزوجة بل القبيلة.

الملاحظة الثانية : قوة رابطة الخؤولة في المجتمع الصحراوي ودلالاتها الاجتماعية والفكرية يقول المثل الحساني :

(لَجَاعُ إِكَيْسٍ أَخْوَالِ) ومعناه أن من أحس بالحاجة فليقصد أخواله.

وهنا لا بد من الإشارة إلى أننا نفضل الحديث عن الخؤولة بدل الأميسية أو الأموسية لأننا نلاحظ من خلال العديد من التفاصيل الحياتية الصغيرة المرتبطة

بحياة أهل الصحراء حضور الأخوال كقوة عاطفية كبيرة في مؤسسة الأسرة، ونسوق بعض مظاهر هذه العلاقة المتميزة والتي رأينا بعضاً منها في ما سبق :

- استقرار الزوجين في بيت عائلة الفتاة بعد الزواج

- ولادة الأبناء في بيت الأم

- الارتباط الكبير للأبناء بأخوالهم

- في حالة الطلاق يتكفل الأخوال بأولاد أختهم رغم صعوبة ظروف العيش.

- عندما تتزوج المرأة مرة أخرى - وهذا شائع - يبقى الأبناء مع أخوالهم.

الملاحظة الثالثة : العلاقات داخل الأسرة / القبيلة محاطة بسياسج من

الحياء والتي تثير استغراب الكثيرين، والتي لازالت سائدة في المجتمع إلى يومنا.

مثلا خجل المرأة من أب زوجها وأمه ونفس الشيء بالنسبة للرجل مع أهل

زوجته ذلك أنه يصعب على المرأة مجالسة والدي زوجها والحديث إليهم ببساطة

وعفوية ونفس الشيء بالنسبة للرجل.

الإحجام عن الحديث في بعض الأمور أمام الكبار سنأً وخصوصاً

الأصهار، مثلاً الحديث عن الحمل أو الزواج، فهذه من الأمور المسكوت عنها

والتي لا يتوجب الخوض فيها إلا بين الأقران.

هذا التركيز على سياسج الخجل الذي يحيط بعلاقات المصاهرة يمكن أن

نقرأه بأوجه مختلفة، يبقى أبرزها الحفاظ على شروط التعايش بسلام، ذلك أن

الاحتكاك المباشر يولد الاصطدام، وهو شيء ترفضه البنية الأخلاقية للمجتمع

الْحَسَانِي.

هذه إذاً باختصار بعض مظاهر الحياة الأسرية داخل مجال الثقافة

الْحَسَانِيَّة، وهي مظاهر رغم أنها لا زالت حاضرة بشكل أو بآخر في الواقع

المعاش واليومي، إلا أنها لم تسلم من التغييرات التي مست المجتمع المغربي

والمجتمعات العربية والإسلامية عموماً، في ظل التحولات العميقة الاجتماعية والاقتصادية التي يعرفها العالم في عصر العولمة والانفتاح وحتمية التواصل التي أصبحت تفرض نفسها مع التطورات الهائلة على مستوى قنوات الاتصال والحوار.

الهوامش

(1) (2) les rgaybat 1610-1934 tome 2 ص 222-223

الأعراف والتقاليد من خصوصيات ثقافة الصحراء

الدوى حمادة

مقدمة

عندما نبدأ الحديث عن حاضرننا، كدولة قائمة بذاتها، وكدولة تختلف ثقافاتنا، وكدولة عانت الأمرين من مخلفات الإستعمار، وظلت - رغم ذلك - تحافظ على هذا التنوع الثقافي، وحين نستحضر ثقافة الصحراء على وجه التخصيص من بين هذه الثقافات باختلاف نسيجها الاجتماعي، فإننا بذلك ندرك من خلال هذه الثقافة بأن حاضرها لم يكن أبدا لحظة في ذاتها، أو أنها ثقافة مستقلة بمكوناتها عما قبلها وما بعدها، أو بمعنى أكثر وضوحا، أن ثقافة الصحراء مستقلة عن الماضي والمستقبل، لا بل الماضي بالنسبة لهذه الثقافة هو أساس الحاضر، والحاضر هو إمكانيات المستقبل وأساسه.

لقد تعود الباحثون في ثقافة الصحراء الحديث في جل المنتديات والكتابات، والتركيز على الأعمال الإبداعية كالشعر، ومختلف أنواع الصناعات التقليدية والفنون، والكتابات الفكرية، وذلك من أجل إراحة الضمير من جانب هؤلاء الباحثين الذين هم ضمير أمتهم - كما يفترض فيهم - ولسانها الناطق بحالها وأحوالها، وهذه الطريقة التي يتبعها هؤلاء الباحثون، هي طريقة ممنهجة، تجنبهم الإصطدام بالمؤسسات السائدة، السياسي عنها والاجتماعية، والاقتصادية، والدينية، والثقافية، ليسمح لهم هذا النهج بتوجيه سهام نقدهم إلى هذه

المؤسسات مجتمعة أو متفرقة، عندما تقصر في واجباتها إزاء هذه الثقافة، أو عند إرتكابها أخطاء قد تكون فادحة في التعامل مع مستقبل أو حاضر أو ماضي هذه الثقافة أو كل ما تعلق بها، لكنه في الحقيقة هو نهج مجرد الوعي الثقافي من جوهره التقدمي الهادف، مما يحول بينه والقدرة على استقراء مستقبل هذه الثقافة، وأحيانا حتى القدرة على استنباط مقوماتها، إنطلاقا من واقعها الذي نعيشه بشكل يومي، إما عن طريق سماعنا لحكايات شفوية يحكيها لنا شيوخ وأمهات عايشوا مقومات هذه الثقافة، ولقد صدق المفكر المالي أمادو هامباتي با Amadou Hampâte Bâ حين قال «عندما يموت شيخ مسن في إفريقيا فمعنى ذلك أن مكتبة احترقت»⁽¹⁾ وإما عن طريق ممارستنا نحن لهذه المقومات.

إن علماء الإجتماع يعرفون الثقافة بأنها أسلوب حياة، كما يعرفها الدكتور سعيد علوش، بأنها «خبر يجمع ويحافظ عليه، وتتناقله المجتمعات الإنسانية»⁽²⁾ ويضيف بأنها «علم أنماط الكودات، التي تحدد عينة سوسيو-ثقافية معينة»⁽³⁾، والسوسيو-ثقافية تعني كل ما ينتمي إلى جماعة إنسانية وثقافتها، كما يمكننا قول، الإنتروبو-ثقافي، وكذلك الاتنو-ثقافي، ويعتبر مفهوم الثقافة مفهوما نسبيا وعالميا، وفي الوقت نفسه، إذا عينا به ثقافة مجتمع لساني مستقل، كما أنه توجد أجواء ثقافية، تخترق الحدود اللسانية، كثقافة إنسانية كونية مطبوعة بالممارسة العلمية والتقنية، وكذلك الإيديولوجية المشتركة.

إن الثقافة هي خليط من فنون المجتمع، ومعتقداته، وعاداته، وتقاليدته، مع عدم غفلان خليط مؤسساته، وقوانينه، وأعرافه، وإبداعاته، دون أيما نسيان لأساطيره. وفولكلوره، وخرافاته، ولغاته، وقيمه الإجتماعية المختلفة، مما يجعل الثقافة تهتم بكافة مجالات الحياة التي تتعلق بمجتمع معين، لتصبح هي ما يفرق بين الأمم والشعوب المختلفة، ولم لا حتى بين القبائل ذاتها. ولكي نفهم مفهوم الثقافة وواقعها بشكل عام، وثقافة الصحراء بشكل خاص، فإن علينا أن نعي جيدا ما يقوله دافيد روثكوف من أن «الثقافة ليست استاتيكية، فهي تنشأ عن

احترام منهجي حثيث لعادات وتقاليد منتقاة... واللغة، والمعتقدات، والأنظمة السياسية والقانونية، والأعراف الإجتماعية، هي إرث المنتصرين وأبناء السوق، وتعكس حكم السوق على الأفكار عبر التاريخ الشعبي ويمكن النظر إليها بحق أيضا بإعتبارها نتاجات حية، ومفردات متفرقة ترتحل عبر السنين من خلال تيارات التعلم، والقبول الشعبي، والتمسك غير الواعي بالعادات، وتستخدم الثقافة من قبل منظمي المجتمع، لفرض وضمان النظام الذي تغيرت مبادئه مع مرور الزمن وفقا لما تمليه الحاجة، وأي بحث عابر لتاريخ الصراع يبين تماما لماذا توقع صامويل هنتيجنون وكتابه «صدام الحضارات the clash of civilisation» حدوث صراع عبر خطوط الصدع الثقافي، وهي الخطوط التي تندلع عندها الصراعات تحديدا، والأسوء من ذلك أن الاختلافات السياسية كثيرا ما تُكْرَسُ من خلال إرتباطها بالجذور الغامضة للثقافة سواء الروحية أو التاريخية، ونتيجة لذلك يصبح تهديد ثقافة المرء تهديدا لدينه أو لأسلافه، وبالتالي تهديدا لجوهر هويته، وقد استخدمت هذه الصفة الملتهبة لتبرير العديد من أسوء الأفعال الإنسانية⁽⁴⁾.

مدخل إلى الموضوع

إن تحليل موضوع الأعراف والتقاليد، كخاصية من خاصيات ثقافة الصحراء يستدعي منا أن ندرس أولا، دور الأعراف والتقاليد في تمييز هذه الثقافة عن باقي الثقافات، وثانيا : البحث في مدى تأثير المجتمعات المحيطة على ثقافة الصحراء، بما في ذلك قوى الإستعمار الأجنبي.

وقبل الخوض في هذه المواضيع لابد أن نشير إلى الملامح التاريخية التي تكونت عبرها ثقافة الصحراء، كما يقول الدكتور عباس الجراري، حيث عرفت الصحراء في المراحل الأولى للتاريخ وما قبله في الفترة البدائية - كما في المجتمعات الحضارية القديمة - حضارة حجرية وكذلك برونزية وحديدية. تمثلت هذه الحضارات مجتمعة ومتفرقة، في معرفة سكان الصحراء لمختلف أنواع فنون

الصيد والحرب، وما يتبع ذلك من صناعتهم للأسلحة والأدوات وغيرها، وما يتبع ذلك من تطويع للحيوانات المخصصة للركوب كالخيول، وأصبح أسرعها يسمى عندهم «شارب الريح» وكذلك الإبل، وعلى ما تثبتته الآثار المستكشفة في منطقة الصحراء وكذلك الرسوم، التي تم العثور عليها. كما أن الصحراء دخلت مرحلة التاريخ، أو بمعنى آخر المرحلة التي تلي ما قبل التاريخ، فعرف سكانها في هذه المرحلة الجديدة الكتابة بخط تيفيناغ على حد ما أثبتته الصخور والأخاديد المكتوبة، والتي تم الحديث عنها من طرف علماء مهتمين بذلك مثل Flamand و the Monod.

إن خصائص ثقافة الصحراء، كباقي الثقافات الأخرى المغربية منها والأجنبية، لا بد لها من محتوى ومضمون وجب التمييز فيهما بين جانبيين اثنين، أولهما : الجانب الفكري المذهبي، وثانيهما الجانب اللغوي والأدبي، كما يوضح ذلك الدكتور عباس الجراري.

فمن حيث الجانب اللغوي والأدبي، فهو جانب يتمثل في اعتماد ثقافة أهل الصحراء على لغة عربية يعتمد أصحابها غالبا على الرجوع بصفة دائمة إلى القاموس العربي انطلاقا من حفظهم لأشعار العرب، وهم في هذا ينطلقون من الشعر الجاهلي والأموي والعباسي... الخ مما يجعل ملامح الأدب في تلك العصور وثقافتها تنطبع قوية على إنتاج الشعراء الصحراويين.

أما من حيث الجانب الفكري والمذهبي . فالاتجاه الذي يسير عليه أهل الصحراء هو الخط السني شأنهم في ذلك شأن بقية الأقاليم المجاورة شمالا وجنوبا سواء منها المغربي أو الموريتاني. وهو خط قائم على عقيدة الأشعري وفقه مالك. غير أن التراث الثقافي في الصحراء، ليس مقتصرًا فقط على هذا الحيز، بل هو تراث يشمل كذلك مجالات أخرى تتصل بالتراث الشعبي، وهو الحيز الذي يعطي للثقافة الصحراوية خاصية جديدة تتمثل في التنوع والغزارة، وهو

حيز ما زال بالنسبة لهذه الثقافة بمثابة العذراء التي لم تسبر أغوارها بعد لغناها بمختلف النفائس والدرر من العادات، والتقاليد، والأعراف المرتبطة بمظاهر الحياة، والمناسبات المختلفة، التي تعكس لنا ترسبات حضارية وثقافية متجذرة في عصور التاريخ - لانحدارها منه، مع طبعها بطابع الحضارة الإسلامية في المرحلة المتأخرة.

ويضيف الدكتور عباس الجراري، بأن ثقافة الصحراء وخصوصياتها، ومقوماتها المغربية، تتجلى كذلك في الفنون، التي تتمثل في الرسومات التي توضحها الأعمال اليدوية كصناعة الزرابي، والنسيج، والحلي، وما إليها من الصناعات اليدوية التي أمهرت يد الصانع التقليدي «لمعلم» في تنميقها وتزويقها حتى أصبحت في كامل حسن الصورة من الإبداع والجمال، ودقة الملمس والصنع والمنظر والمظهر، إضافة إلى الحياة اليومية وما تعلق بأقرايحها من رقص وغناء، وموسيقى تأخذ الألباب، وتأسر القلوب، وتحرك شجون الشوق والحنين.

وللأدب الشعبي أيضا تمثيل في التراث الشعبي الصحراوي، وللأدب حلقات دائمة تتمثل في السمر الليلي والذي يعد مجالا فسيحا من حيث الزمان والمكان لتداول القصة والحكاية الشعبية، والشعر والأمثال الشعبية، وكل هذه الأنواع الأدبية، تم الاعتناء بها من طرف مختلف القبائل الصحراوية، وبالتالي ثم الاعتناء من خلالها بالقصاصين والشعراء، نظرا لما لهم من دور في تثقيف الناس، والحفاظ على الثقافة الشعبية مع نوعية الناشئين بهذه الثقافة⁽⁵⁾.

عند الحديث عن الأعراف والتقاليد كخاصية من خصائص ثقافة معينة، لا بد لنا من الوقوف عند كل أثر مادي أو أدبي نجده، بما في ذلك المعمار، والمنقوشات، والمخطوطات، والرسومات⁽⁶⁾، ورغم أن مثل هذا النوع من الوقوف على الأثر المادي أو الأدبي غير متاح - لنا - إلا في استحضار ذاكرة من سكن

تحت تلك الخيمة التي تعتبر قصر أهل الصحراء، لأن الترحال عندهم يعني الاستقرار، لذلك كانت الخيمة بخفتها ولباقتها، ومرونتها، تستجيب أكثر من غيرها، لمتطلبات التنقل ومن ثمة كانت بمثابة المساكن والقصور لدى الصحراويين، فعاشت تفاصيل عادات وتقاليد وأعراف أهل الصحراء ثانية بثانية، وعاشت ما لم تؤرخ له القصور ولا الأبراج ولا الكتابات، من أفراح ومسرات ومنجزات، ونكسات مما يجعل الإحاطة الشاملة واليقينية بموضوع ما، متعذرة فكيف بثقافة الصحراء، وبالتالي ما علينا إلا الاستعانة بطرق أخرى، لتخريج المعرفة الاجتماعية والقانونية، وهكذا فإنه لا يمكننا سبر أغوار خصائص هذه الثقافة إلا بالاعتماد على ما يلي

أولا التاريخ الشفوي سواء انتهى به الأمر إلى التدوين أو لم يدون بعد.

ثانيا : شهادة الرواة الأجانب، واللاحقين زمنيا.

ثالثا الرجوع إلى مركز الثقافة الأم، لمعرفة ما جرى في هذه المنطقة.

لقد تعود الإنسان منذ تكوين أول شكل من أشكال التجمعات البشرية، وبفعل التغيرات والأحداث، والوقائع الاجتماعية، على نمط معيشي معين، بعاداته وتقاليده وأعرافه، ونظمه التي أصبحت مألوفة ومتعارفا عليها، ثم تطور الأنظمة ذات الطبيعة المتقاربة والأهداف المشتركة إلى مؤسسات، وهذا التطور المفروض لم يكن ليحصل ويبرز بشكل ملموس في المراحل الأولى للتجمعات البشرية، بالنظر إلى الترحال الدائم للجماعات البدائية التي وجدت في أول مراحل التطور الاجتماعي، ولذلك وقبل تحقيق نوع من الاستقرار، لم يكن هناك ما يستحق التنظيم بفعل سيطرة نمط اقتصادي ومعيشي بسيط مرتبط بالصيد وتربية المواشي، ومحكوم بمبدأ المشاعية. غير أن ضرورة التنظيم ظهرت بشكل ملح، منذ ظهور الاستقرار لدى مختلف المجتمعات، سواء فيما يخص تنظيم العلاقات الداخلية بين الأفراد في نفس الجماعة، أو العلاقات الخارجية بين جماعات مختلفة، فمع ظهور الحياة القبلية فإن طبيعتها اقتضت التفكير في توزيع العمل

الذي انصب أساسا على الصيد والقنص وجني الثمار، والدفاع عن النفس، سواء في مواجهة الأخطار الطبيعية أو الأخطار الآتية من الجماعات الأخرى. أو ضبط النظام، وهكذا ظهر تعارف على نمط معيشي معين، فإزادات الثقافة السكانية، بفعل توفر ظروف أفضل، وقلة المخاطر التي تؤدي بحياة الناس، مما ترتبت عليه حتمية الاحتكاك، واتساع دائرة التعامل فيما بين السكان في شكل مقايضة أو مصاهرة أو تعاون، وتولد بعض القضايا التي حتمت أيضا ضرورة الاتفاق على كيفية حلها، ومن تمة نشأت عادات وتقاليد، ميزت كل ثقافة عن باقي الثقافات، فكيف كان ذلك، وما تأثير الثقافات المجاورة على ثقافة الصحراء ؟

الفصل الأول : الأعراف كأساس لتمييز الثقافات

العرف لغة يطلق على جملة من المعاني، ففي معجم لسان العرب لابن منظور، يقال عرف الديك، وعرف الفرس، والدابة، وغيرها من منابت الشعر، والريش في العنق وعرف الرمل والجبل وكل عال ظهره وأعالیه، ومنه قوله تعالى ﴿وعلى الأعراف رجال﴾ والأعراف سورة وردت في القرآن الكريم، والعرف حسب المعجم العربي، الصادر عن المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، سنة 1989، هو جمع أعراف وهي الحاجز بين النار والجنة، وقال عز وجل ﴿ونادى أصحاب الأعراف رجالا يعرفونهم﴾ والأعراف هي ما تعارف عليه الناس في عاداتهم ومعاملاتهم، ويتبين من هذه المعاني اللغوية أن العرف يُنبئُ وضعه عن الظهور والوضوح، ويغلب استعماله فيما ارتفع من الأشياء.

وفي الاصطلاح الفقهي عرفه البيري في «شرحه للأشباه والنظائر» بقوله «العادة والعرف ما استقر في النفوس من جهة العقول وتلقته الطباع السليمة بالقبول»، وجرى الفقه الحديث على تعريفه بأنه «قاعدة قانونية معينة درج الناس على اتباعها في معاملاتهم زمنا طويلا حتى تولد لهم الشعور بإلزامها وبضرورة احترامها خشية الجزاء الذي يتعرضون له من مخالفتها».

وأول ما يتبادر إلى الأذهان من هذه التعاريف أن العرف قانون، وهو بطبيعة الحال قانون غير مكتوب، لأن قواعد العرف لم توضع في وثيقة رسمية مكتوبة، كما هو الحال بالنسبة للتشريع، وانطلاقاً من كل ذلك تكون العلاقة بين العرف والتشريع كالعلاقة بين التقاليد والعقل، لأن العرف يستمد أساساً من التقاليد، في حين يستمد التشريع من العقل أساساً لذا يكون العرف عندنا هو القانون التلقائي، في حين يظل التشريع في عصرنا الحالي قانوناً مكتوباً، ناتجاً عن التفكير والتأمل، وإن كان العرف أحد مصادر غالبية القوانين اليوم.

والعرف متكون عن طريق اتباع تصرف معين خلال مدة طويلة بحيث يتولد الإحساس بأن هذا التصرف واجب الاتباع، وعلى ذلك فالعرف يتولد باجتماع عنصرين، أحدهما عنصر مادي. وهو تكرار القيام بتصرفات معينة، وثانيهما عنصر معنوي وهو اقتناع الأشخاص بأن هذه التصرفات لها صفة الإلزامية.

إن أهم ما يميز العرف هو أنه ينشأ تدريجياً في الجماعة بحيث يأتي معبراً عن إرادتها بصدق، فهو يتلائم مع ظروف الجماعة وأحوالها المختلفة، ويتماشى مع حاجيات الجماعة ومتطلباتها، لأنه يتغير بصفة تلقائية مع تغير الظروف الاجتماعية، لذلك فالمجتمع الصحراوي كباقي المجتمعات نظم أمور الحياة اليومية المتعلقة به، ليضمن لنفسه العيش الكريم، والحفاظ على ماله ونفسه. فأقر هذا المجتمع كباقي المجتمعات مجموعة من الأعراف الخاصة التي استقصيناها من مختلف شرائح المجتمع، لإظهار المدى الذي يستمد منه العرف الصحراوي قوته، وهذا المدى هو الضمير الجماعي *conscience populaire*، ذلك لأن القواعد العرفية تنشأ وتتطور ألياً في ضمير الجماعة. وما دامت القواعد العرفية هي أكثر القواعد القانونية تعبيراً عن المجتمع، وأقلها يعتبر تعبيراً عن الفرد لأن كلا من الفرد والمجتمع، يعتبر جهازاً خالقاً لهذه القواعد العرفية.⁽⁷⁾

لقد تعارف أهل الصحراء على سبيل المثال لا الحصر، في حالة القتل العمد، أن القاتل يقتل، إلا إذا اتفق أهل القاتل والمقتول على عدم قتل القاتل، ففي

هذه الحالة يتم الافتداء وتأخذ الدية من أهل القاتل حقنا للدماء، أما القتل الخطأ فحكمه عند أهل الصحراء هو الفدية، والفدية حدودها في خمسمائة (500) من الإبل، يكون ربع كل مائة منها في سن مختلفة عن الأخرى، أي بنت مخاض، وولد لبون، وحقة (حقة) وجدعة، غير أنه تم الاتفاق في العرف عند أهل الصحراء بأن المائة حقة (حقة) تساوي الخمسمائة المذكورة سابقا. ولا يفرق أهل الصحراء في القتل بين المرأة والرجل سواء كان قتلا عمدا أو خطأ. فكلهما يعتبر قاتلا إن قتل ووجب في حقه القصاص.

كما أنهم في حالة ما إذا سلت سكين من طرف شخص في وجه آخر، فالعرف يحكم على الأول بدفع بيضة (20 م من الثوب) للذي سل عليه السكين، وإن جرحه بها ففي ذلك حكم الجراح أو القتل، أما من رفع بندقيته في وجه شخص آخر ولم يطلق النار، فعليه غرامة يدفعها له وهي عبارة عن حقة (التعريكية) أما إذا أطلقت الرصاصة ولم تصب أخذ الشخص المدفع (البندقية) ومعها جزور، كمرظاة له عن ذلك التصرف، وفي العينين فمن فقع عين أحد وقلعها فعلى الذي وقع له ذلك الاختيار بين فقع أو قلع عين من فعل له ذلك، أو الدية. وهي خمسون ناقة، إذا وافق. وفي الأسنان فقد تعارف أهل الصحراء على أن لكل سن خمسة من الإبل، أما الضرب وخاصة الصفع على الوجه فحكمه اتعريكية وهي ناقة واحدة، كما تعارف أهل الصحراء كذلك على إجازة الشخص لرعي أغنامهم أو إبلمهم بأن يتفقوا مع «السارح» الراعي على ابن لبون للسنة أو حقة (حقة) أو بيضة ونصف، لأن دفع الأجر كان دائما بعد تمام السنة، وليس كل شهر، والشخص الذي يتم معه الاتفاق على القيام بالرعي، غالبا ما يكون من قبائل اشتهرت برعايتها للأغنام والإبل. كما أن لساكنة الصحراء عرف في أمور الحراثة، فاتفقوا على أنه في حالة الشرك، لصاحب الزرع النصف من الانتاج، ولصاحب المحراث (ألمحرأثة) الربع، وللذي يقود الجمل ربع صاع من المحروث يوميا، وربع الصاع يقال له باللهجة الحسانية. "الربعية وقائد الجمل يسمى

الكواد، وحين يحين موعد الحصاد يكون نصيب الأجير هو صاع أو صاعين لليوم حسب الاتفاق.

أما في المسروقات فقد تعارف أهل الصحراء، على أن السارق الذي سرق سرقة وثبتت عليه، وجب ردها بمثلها أربع مرات، بمعنى أن من سرق جملا وجب عليه رده ومعه ثلاثة آخرون، وإن لم يفعل تقطع يده اليمنى، وفي حالة العود تقطع اليسرى. ومن دخل خيمة وصاحبها غائب عنها فعليه الجلد، أو يهدر دمه، أما الذي يقوم بأمر فيه افشال للقبيلة أو التفرقة بينها، فحكمه أن تنبذه القبيلة أو تتبرأ منه، وإن عفت عنه فإن عليه أن يدفع لأيتُّ أربعين حقة (حكة). أما الأذية والشتيمة فإن على القائم بها ذبح شاة، والاعتذار، جبرا للخواطر ودرء للمشاكل.

كما أن من بين أعراف أهل الصحراء هناك ما يسمى «بالدخيلة» والذي يقابله في القانون العام اليوم، مفهوم الجنسية، وإذا كانت القبيلة معيارا للتمييز بين الأشخاص، كما هي الجنسية حاليا معيار للتمييز بين الوطني والأجنبي، ورغم أن القبيلة ليست مفهوما حديثا بل هو قديم قدم الانسانية لقوله تعالى «وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا». فإن الجنسية مفهوم علماني حديث الظهور، ويتم من خلالها التمييز بين بني البشر على أساس الانتماء الوطني لكل شخص وليس على حساب الانتماء الديني، كذلك هو الانتماء القبلي، فإنه للتمييز بين الانتماءات القبلية، وليس للتمييز بين القبائل على أساس ديني أو وطني.

لكن كلاهما يعد رابطة قانونية تجسد الانتساب النفسي والروحي للشخص إلى وحدة اجتماعية معينة هي القبيلة في حالة النظام القبلي أو الجنسية في حالة وجود الدولة. وإذا كان مفهوم الجنسية الحالي مجهولا بل منعذما في بلاد الاسلام، والصحراء جزء من هذه البلاد - ولدى سفقهاء المسلمين وحتى وقت قريب وخصوصا القرن 19، وكان بذلك الانتماء الديني هو المعيار المعتمد للتمييز بين بني البشر، بقولهم «دار الحرب ودار السلام» فإن مفهوم الدخيلة ظل يلازم

مختلف قبائل الصحراء، وأهم هذه القبائل التي اشتهرت بفتح بابها «لدخيلة» أي المدخلاء هي قبيلة «الركييات» لذا يقول الأستاذ «محمد الغربي» عضو بالديوان الملكي وسفير سابق للمغرب في الأردن في كتابه عن الساقية الحمراء «ولم يعرف الركييات طيلة وجودهم في أرض الساقية الحمراء ووادي الذهب أي معنى للتفرقة أو العزلة، فمن دخل أحياءهم، فهم يهبونه أموالهم ويحمونه بما عرف عنهم من الشجاعة والشرف».

والدخيلة أنواع أهمها :

أولا . الخروج من حمى الأهل لظلمهم كالغرامة.

ثانيا : الهروب إلى قبيلة أخرى لحمل المرء ثأرا دفعه إلى اللجوء عند قبيلة أخرى للاحتماء.

ثالثا . إذا كانت القبيلة لها سمعة في بلد معين، وجاء شخص غريب الأوطان إلى ذلك البلد فإنه يدخل في تلك القبيلة، ويقوم بذبح شاة فيقال فلان ذبح على أهل فلان أو قبيلة فلان.

والنوعان الأول والثاني يقابلهما في القانون الوضعي حق اللجوء. أما النوع الثالث فيقابله التجنس في القانون الدولي الخاص.

لقد كان مجتمع أهل الصحراء كباقي المجتمعات العربية يعيشون في زمن تحكمه القوة ويسوده منطق الغاب والغلبة للأقوى. غير أن ذلك المنطق دفعتهم ضرورة التنظيم إلى تقنين استعماله. وقبل الوصول إلى تقنين استعمال القوة مرت التنظيمات القبلية بمراحل عدة، ابتكرت فيها عدة أساليب للتخفيف من الاستعمال العاري للقوة. ومن بين هذه الأساليب هناك الصلح وهناك افتداء حق الثأر إما بواسطة سحب الحماية القبلية على الجاني أي التبرؤ من الجاني أو خلعه، وهي الحالة التي أفرزت ما يعرف اليوم بالصعاليك، وأميرهم «عروة بن

الورد» «وتأبط شراً» أوبالتسليم للانتقام أو القصاص أو بدفع الدية كمقابل لحق الثأر، وهناك من احتكم إلى القوة العارية أو ما يعرف بالمبارزة . غير أن الذي ثبت في مثل هذه الحالات هو قيام أحد أعيان قبائل الصحراء بهدر دم ابنه وقتله لكثرة شره في القبائل فحكم عليه أبوه بالقتل بعدما أن اشتكى منه الناس وقال أبوه مقولته الشهيرة «نحن ألا نحمو الناس والكطبي شر فيهم ظاهر».

وإذا كانت المبارزة أسلوباً غير شائع، وإذا كان القصاص والدية أداة شائعة إلى درجة البداهة في أعراف أهل الصحراء فإن تسليم الجاني أو التخلي عنه وإن كان شائعاً في كل الحضارات، إلا أن هناك اختلافات جوهرية فيما يتعلق بهذا الأسلوب. ويتحقق هذا الأسلوب من أساليب التخفيف من القوة، ورغم أنه أسلوب نادر، بتخلي جماعة الجاني عنه وتسليمه إلى الضحية أو ذويه بالمعنى القبلي الواسع، لتتأثر منه كأسلوب لدرء استعمال شامل للقوة بين جماعتي الجاني والضحية. ويلاحظ أن التخلي والتسليم ينسبان إلى الجماعة ويقعان منها ككل، وهذا راجع إلى مفهوم الشخصية القانونية في التنظيم القبلي حيث تندمج شخصية الفرد في شخصية الجماعة وبالتالي فتسبب الفرد في عمل يوجب مسؤولية يجعل هذه المسؤولية تنسحب على جميع أفراد الجماعة، وتصبح بالتالي مسؤولية تضامنية. وحسب بعض الرواة فإن تسليم الجاني يستند إلى مبررات مختلفة نذكر منها :

- 1 - أن يكون الجرم مستنكراً من جماعة الجاني نفسه «كالفحشاء»
- 2 - إذا كان المجني عليه ذا حظوة في قومه، حيث يكون الثأر حينئذ مؤكداً، وخاصة إذا كانت جماعة المجني عليه هي الأقوى.
- 3 - إذا كانت جماعة الجاني لا ترغب في تحمل عبء الدية ولا مخاطر مسؤولية الجرم المرتكب.

لقد تميز العرف في الصحراء في هذه الفترة بتداخل ما هو دينوي بما هو ديني، أي أن هيمنة الميتولوجيا القديمة على كل فضاءات النشاط البشري، من

معرفة ومبادلات غير أن القاعدة العرفية الدينية كانت تتحدد في طبيعتها الدينية والتي هي أساس إلتزام أفراد المجتمع باحترامها، وفي الجزاء المقرر إنزاله بمخالفيها وكذلك في السلطة التي توقع الجزاء والمتمثلة في رئيس الجماعة.

إن الأعراف عند أهل الصحراء، هي إطار سلوك أفرادهم على اتباع سنة معينة في العمل مع اعتقادهم بلزوم هذه السنة أو هذا السلوك، وما دامت الأعراف كذلك فإن العرف يعد عادة مقتبسة بطريقة أفقية داخل الجيل الواحد، أي أنها تنتقل بين الأفراد من واحد إلى آخر عن طريق الاختلاط والتجاوز في زمن معين، فالعادات في محيط الحياة الاجتماعية تنبعث من مركز استحداثها إلى أماكن أخرى مجاورة أو بعيدة، تبعا للوسائل الناقلة لها، ويمضي الزمن وهو يتبع سائر أفراد الجماعة نفس الإجراء المستحدث في المناسبات نفسها، إما عن اقتناع بصلاحيته هذا الإجراء، وإما عن رغبة ملحة في التقليد فيصبح هذا الإجراء أمرا مقبولا بين الناس، وعندئذ يتكون العرف ويصبح ملزما للأفراد الذين يجدون أنفسهم مجبورين على إتباعه، ويكون حينها هذا الاتباع في حد ذاته تقليداً، فما هو دور التقاليد في تمييز الثقافات ؟

الفصل الثاني : دور التقاليد في تمييز الثقافات

التقليد مفرد تقاليد والتقليد في اللغة يطلق على مجموعة من المعاني، ففي المنجد في اللغة والإعلام «يقال تقاليد القوم الماء تناوبوه، والتقليد جمع تقاليد وتقليدات ويستعملونه لما يكتبه السلطان أو الأمير للحاكم مصرحا له به تقليده الحكم، وقيل التقليد هو ما انتقل إلى الإنسان من أبائه ومعلميه ومجتمعه من العقائد والعادات والعلوم والأعمال، ويقال كذلك التقاليد عند النصارى هي ما اتصل بهم من العقائد أو أمور العبادة خلفا عن سلف مما أوحى الله به لكنيستته دون أن يُسلم في الكتاب المقدس»⁽⁸⁾.

وفي معجم العلوم الاجتماعية لإبراهيم مذكور : «التقاليد طرائق جامعية للسلوكات المستقلة في وجودها عن الفرد، تفرض نفسها عليه، وتُعين على تقوية الشعور الجمعي، وتحقيق الاندماج التام بين عناصر المجتمع، وهي صنع الماضي ودعامة الحاضر، فهي حصيلة التجربة العلمية للمجتمع، ومقياس هام للنظم والقيم الاجتماعية»⁽⁹⁾.

وإصطلاحاً يقول محمد مفتاح وأحمد بوحسن، بأن «التقاليد جمع لكلمة تقليد Tradition وهي ذات أصل لاتني Tradicio، فعل التبليغ شفاهياً أو كتابة، للتقاليد من جيل لآخر، ويرى بعض الباحثين بأن التقليد يفيد المجازاة والسير على نفس المنوال، ومحاولة لإنتاج نفس الفعل كما يفيد أيضاً، فعل المحافظة ومحاولة تبليغ هذا الفعل»⁽¹⁰⁾.

والتقليد يعني «جملة من الطقوس والقيم المأخوذة من قبل الأجيال المعاصرة المتبناة من قبلها»⁽¹¹⁾، وهو كذلك مجموعة من القيم والرموز والأفكار والإكراهات التي تحدد الالتحام بنظام اجتماعي وثقافي يستمد مرجعيته من الماضي، والذي يضمن دفاع هذا النظام من عمل قوي التغيير والمعارضة الراديكالية⁽¹²⁾.

ولقد كان المجتمع الحساني كباقي المجتمعات البشرية، يتبع مجموعة من الأساليب لإشباع حاجاته المتعددة من مواردها المحددة، فقد واجهت هذه المجتمعات منذ بدأ ظهورها حقيقتين أساسيتين، تتمثل الأولى في تعدد حاجاتها وتزايدها باستمرار، تقابلها حقيقة ثانية تتمثل في محدودية الموارد التي تتوفر عليها والصالحة لإشباع تلك الحاجات وندرتها نسبياً حيث تنشأ المشكلات الاقتصادية⁽¹³⁾.

كما أن الأوضاع المعيشية التي سادت في منطقة الصحراء اعتمدت في اقتصادياتها على وجود بعض الحرف والأنشطة الاقتصادية، الأخرى، كالرعي

ومباشرة التجارة حيث اشتهرت بها القبائل كلها، وكانت القوافل التجارية تسمى «أَكْبَارُ» فحقق ذلك ثروات طائلة رمز الغنى فيها كثرت الإبل (فيقال فلان أو فلان عِنْدُ دَوْلٍ أَمِنْ أَلْبَلٍ) أو (فلان لديه حَوْظٌ أَوْ حَوْظَيْنِ مِنَ الْإِبِلِ) فالدولة والحوظ (الحوض) رمز واحد إلى ما يتعدى المائة من الإبل، فأفرز ذلك مجتمعا طبقيًا، من طبقة السادة الأغنياء المتنفذين، وطبقة العبيد والفقراء، وفيما عدا الأنشطة التجارية والرعي وبعض الأنشطة الزراعية، لم يسجل أهل الصحراء في الفترات السابقة فكرا اقتصاديا متميزا، رغم ما عرفته تلك الفترة من وجود بعض القيم الأخلاقية المتصلة بالشجاعة، والكرم، والغيرة، والوفاء.

ونظرا لما تميزت به الحياة المعيشية من بساطة في طبيعتها من متطلباتها وحجم وأساليب الإنتاج السائدة لتوفيرها، وبسبب نظرة الاحتقار نحو مختلف أنواع النشاط المعيشي، لم يحظى هذا النشاط بقدر كبير من الاهتمام، وقد عرفت هذه الفترة وجود بعض الصناعات الحرفية البسيطة، التي يعتمد عليها في توفير الاحتياجات الخاصة بالناس من أدوات بسيطة وأسلحة.

ويضاف إلى ما تقدم كله، عدم استخدام النقود في إطار المبادلات التي تتم بين الأفراد داخل القبيلة الواحدة، أو خارجها، حيث تأخذ في معظمها شكل عمليات مقيضة.

إن المجتمع الحساني هو مجتمع مسلم تسوده تعاليم الشريعة الإسلامية السمحاء، حيث جاء القرآن الكريم، وهو كتاب التشريع والإرشاد والهداية بالعديد من الأحكام الكلية العامة. كما تعتبر الأحاديث النبوية الشريفة وشروحها من أهم المصادر التي تبين كسب العيش الحلال وما يتصل به، كما تظهره قراءة كتب الحديث وتقسيمات محتوياتها، في تقليد المرء في كسب قوته اليومي، وقال عروة بن الورد

إذا المرء لم يطلب معاشا لنفسه شكى الفقر أو لام الصديق فأكثر
فسر في بلاد الله وألتمس الغنى تعشى ذا يسار أوتّمت فتعذرا

وهذا ما صار عليه قبائل الصحراء، فصارت رُحلاً تقلد من قبلها في كسب العيش، والبحث عن المرعى والقوت، ويقول الأستاذ محمد الغربي في كتابه عن الساقية الحمراء «وكعادة أهل الصحراء، نجد الركييات يعتمدون في مواردهم على الكسب، والفلاحة، والتجارة، وهم على جانب كبير من الثراء واليسار نظرا لقطعان الإبل الوفيرة التي يمتلكونها والقوافل التجارية التي يسيرونها نحو الشمال ونحو السودان».

إن التقاليد شيء معنوي أو نفساني عند الإنسان، يضعه لنفسه لينظم به روابطه الاجتماعية، مما يعني أن الإنسان يميل إلى المألوف ويثيره على غير المعروف، لأن الناس لا يحبون أن ينحرفوا إلى شيء يجهلونه، كأن الطريق التي يشقها الشخص لأول مرة هي الطريق التي يعود إليها ليعود منها، وذلك بسبب غريزة الإنسان في حب التقليد، فالناس مطبوعون على تقليد من يشهدونه في أمورهم، على تقليد آبائهم وأجدادهم. وهكذا تطرد العادة وتستقر حتى تصبح ثابتة وترسخ آثارها في النفوس، هذا إلى صبغة دينية قد تصطبغ بها العامة، فتعوضها بشيء من الهيبة والتقديس.

كما تعتبر التقاليد عادات مقتبسة اقتباسا دائما، أي من الماضي إلى الحاضر، ثم بعد ذلك من الحاضر إلى المستقبل فهي تنقل وتورث من جيل إلى جيل، ومن سلف إلى خلف، على مر العصور والأزمنة وهو اقتباس لا تقف في طريقه الموانع، لما بين الموروث من التقاليد والمقتبس منها من التباين العظيم في التأثير، فالطفل مثلا يميل إلى التقليد كما أنه سريع التأثير بما يشاهد من سلوك الكبار الذين يتعاملون معه، ولذلك كان تأثيره بمواليدته عظيما، والتقاليد

كالدرب الذي كلما طرقه المارة تمهد وتسهل السير فيه، حتى أنهم لا يستطيعون في آخر الأمر العدول عنه إلى درب آخر غير مطروق.

إن تقاليد أهل الصحراء في الزواج، ونظمه التي انبنت عليها مؤسسة الأسرة، يحتاج إلى وقفة متأنية لتحديد معالمه القانونية والفلسفية التي ابنتي عليها التطور الذي لحقه، ونبدأ هذه الوقفة بتحديد مفهوم الزواج، وظروف نشوئه، قبل أن نتطرق إلى مختلف نظمته، والزواج عامة «رابطة تقوم بين رجل وامرأة ينظمها القانون أو العرف، ويحل بموجبها للرجل أن يطاء المرأة ليستولدها، وتنشأ عن هذه رابطة أسرة تترتب فيها حقوق وواجبات تتعلق بالزوجين والأولاد»⁽¹⁴⁾.

وعرفته مدونة الأحوال الشخصية في الفصل الأول الذي جاء به المشروع المغربي «الزواج ميثاق ترابط وتماسك شرعي بين رجل وامرأة على وجه البقاء غايته الإحصان والعفاف مع تكثير سواد الأمة، بإنشاء أسرة تحت رعاية الزوج على أسس مستقرة تكفل للمتعاقدين تحمل أعبائها في طمأنينة وسلام وود واحترام».

انطلاقاً من التعريفين، ندرك أن الزواج لا بد له من أساسين هما الرجل والمرأة، لأن المعطى التاريخي الذي بين أيدينا يؤكد أن القانون فرع من الدين⁽¹⁵⁾، وهو القانون الذي وجد بدءاً لتنظيم الجنسي في شكل نظم زواج بنيت عليها مؤسسة الأسرة كما عرفت عبر التاريخ. فتكون نظم الزواج أيضاً ثمرة للخصائص الجنسية الذكورية، وهكذا نعرف من خلال الثقافات القديمة دور المرأة في حياة الرجل، مما دفعه إلى عبادتها وتأييدها، في مختلف مراكز الحضارات القديمة سواء في بابل أو مصر أو الهند، وبقيت آثار هذا الوضع مستمرة إلى عهد قريب يتجلى ذلك في تأنيت الآلهة، سواء في بلاد ما بين الرافدين، أو عند الهندوس، وكذلك المصريين والعرب، والقرطاجنيين، وهو تأنيت يمكن اعتباره من بقايا تأليه الأنتى وعبادتها، لهذا كله أصبح من تقاليد أهل الصحراء عند الزواج

تكريم المرأة التي ستصبح بعد العقد عليها ربة بيت وأم للأسرة، وقبلها في فترة الخطوبة ظلت تتربع على عرش من ذهب صنعه لها خطيبها في قلبه.

إن الطقوس التي يمر منها الزواج عند أهل الصحراء هي طقوس تخضع لتقاليد أصعب ما يكون، لأن الفتى حين ينوي الزواج بالفتاة، لا يصارح والده مباشرة لأنه يستحي منه، ويصارح في ذلك أمه، وإن كانت الأم غير موجودة، فإنه يبحث عن شخص آخر يكون قريباً من والده، ويقول له الأمر فيرسله إلى والده بذلك، وبعد قبول الأهل، تذهب جماعة من أهل الخطيب إلى أهل الفتاة التي تراد خطبتها. فتعلن في كل القبائل بأن فلان ابن فلان قد خطب فلانة بنت فلان، ويأتي أهل الخطيب محملين بالهدايا وهو ما يسمى الواجب، وعلى اثر هذا القدم تصبح الفتاة مخطوبة، وعلامة خطبتها ليست وضع الخاتم في أصبعها، بل يوضع في شعرها نوع من الخرز يقال له الفشة وهو تقليد لم يعد الآن موجوداً نظراً للتقدم الحضاري الذي شهده أهل الصحراء، وبعد هذه المرحلة يتم التحضير للزفاف الذي يكلف كل واحد حسب طاقته ومستواه العائلي، وخلال فترة الخطوبة يمنع منعاً شديداً كلياً على الخطيبين الجلوس في مكان لوجهما متفردين وذلك تماشياً مع الحديث الذي يقول ما من اثنين إلا وثالثهما الشيطان.

أما بالنسبة للعقد عند أهل الصحراء فقد جرى التقليد والعادة على عدم كتابته، ولكن عقد القران يتم بواسطة قراءة الفاتحة من طرف الجماعة مجتمعين. بما في ذلك أهل العروس وأهل العريس، وآخرون مدعوون لذلك. باستثناء بعض أهل الزوايا الذين يكتبون العقود. كأهل عبد الحي.

وقد أهل الصحراء بعضهم البعض في أيام العرس فتراوحت ما بين اليومين والسبعة أيام، تستمر خلالها الاحتفالات، ويأتي العريس في موكب رسمي كل ليلة، بينما العروس مختبئة، نادراً ما تجلس في جوار العريس، خلال الاحتفالات، اللهم ما كان من جلوسها في البيت المخصص لخلوتها ويسمى

(الْبُنْيَةُ) وهي نوع من الخيام أبيض اللون، تصنع من القماش، وكانت تضرب قديما للعريسين عند أهل العروس.

ومن تقاليد أهل الصحراء التي لا نستطيع حصرها، فمثلا منذ ميلاد المولود وحتى يوم زفافه، تمر حياته بطقوس وتقاليد كثيرة فمثلا عند ميلاده، إن كان مولودا كان لأبيه الحق في أن يختار اسمه من الأسماء والتي غالبا ما يتم اختيارها عن طريق القرعة وهو ما يسمى (أُخْبِيطُ الْعُودُ) ثلاثة مرات، وإن كانت بنتا، فإن أغلب الأسماء يتم اختيارها من طرف أمها وأهلها، وحين يصل المولود السنة الثانية من عمره، كبقية المجتمعات الأخرى، يتم فطامه، بخصوص الذكر فإنه يجب ختانتة قبل السن السابعة، وما يتعدها إلا القليل.

ولقد اعتاد أهل الصحراء على تقليد الآباء والأجداد، فتجدهم مثلا أيام الأعياد، يمتنعون بخمسة أيام، قبل العيد، وخمسة بعده، من ارتداء ملابس جديدة، ومن استعمال الحناء أو حلق الشعر، والسفر، وحتى الزفاف، والتخطيب بالحناء، وكذلك طيلة شهر محرم، ويسمى في اللهجة الحسانية «بعاشور»، ويمر الشهر كله كما تمر الأيام الخمسة، وتقلد الرجة زوجها في ذلك فيقال (أُفْلَانَةُ شُدَّةَ أَفْلَانِ أَوْعَادَتُ أَعَوْشَرُ) أي فلان تزوج بفلانة فاصبحت مثله «أ تعوشر». كما أنهم يمتنعون يوم سفر أحد أفراد الأسرة من كنس المنزل حتى تغرب الشمس.

ولقد قلد أهل الصحراء حضارات من سبقهم فتجدهم يخلفون الأخ مكان أخيه بعد وفاته، عن زوجته، ويتزوجها بعد الخروج من العدة، التي هي أربعة أشهر وعشرة أيام، ما لم تكن حاملا، وهذا نوع من أنواع زواج المشاركة الأخوية، وهو نوع أصيل في المنطقة العربية ولم يذمه الإسلام حينما أتى، حيث أقرها قبل ذلك، الآشوريون بشروط وضعوها اختيارية.

وقلدت القبائل الصحراوية بعضها البعض، في تكريم «إيكاون» وهم طائفة من الشعراء المغنيين، يمدحون القبائل، ويقيمون عندهم الحفلات الغنائية، وتكريم هؤلاء بمثابة شراء العرض كما يقول الشاعر العربي القديم.

أصون عرض بمال لا أدنسه ولا بارك الله في المال إلا بعد العرض
 وهم الشعراء الذين كانوا يمدحون القبائل فيبدوون بالإبل دليلا على طمعهم،
 ثم يعرجون على بقية الخيام يقول سدوم ولد أب، في مدحه قبائل الركييات .

مَاهُ أَعْلَ عَارُ أَوْلَاهُ أَبَّاسُ يَيْبَلُ لِبُلُولُ أَوْ لَفْتُوحَ
 إِيْبَلُ نَجَعُ أَرْكَيْبُ أَلْرِيَّاسُ لَعْدُ وَفِيكَ أَعْرَبُ وَشَلُّوحَ
 زَعْفُوكُ أَوْ حَكْرُو حَرْبُ أَلْفَاسُ لَحْكُوكُ أَكْسَيْبُ مَمْدُوحَ

وإنطلاقا من كل هذا كانت كل قبيلة تحافظ على سمعتها، فلا يصدر عنها
 ما يشين وتكرم «إِيْكَاوْنُ» خوفاً على سمعتها بين القبائل وهو تقليد حميد، وخير
 دليل على ذلك ما قاله الشيخ ماء العينين :

خَيْرُ أَمَاسِيْهِ أَنْسَاهُ وَيِسَاءَ فِيكَ أَخَيْرُ أُنْفُوتُ
 أَوْ خَيْرُ أُنُوسَالِكُ لَا تَنْسَاهُ أَوْ لَا تَنْسَ مُوْلَانَ وَالْمُوتُ

إن مسألة التقاليد والأعراف، تخضع بحكم الواقع لعادة كل مجتمع معين،
 وما دامت كل قبيلة تُعدّ وحدة اجتماعية، وداخل كل قبيلة أسرة، فإن لا غرو أن
 نجد مجموعة من الأعراف والتقاليد التي تختلف بين القبيلة والأخرى، وبالتالي
 يظهر تأثير تقاليد، وعادات، وأعراف كل قبيلة على محيطها، لذا سوف نتساءل عن
 مدى تأثير المجتمعات المحيطة بالصحراء، على ثقافة أهلها ؟ وكذلك الاحتلال
 الإسباني هل له تأثير على هذه الثقافة ؟

الفصل الثالث : تأثير المجتمعات المحيطة على ثقافة الصحراء

إن ثقافة الصحراء ظلت دائما وكما كانت ثقافة تواصل حيث نجد العلماء
 والأدباء والشعراء والقصاصين الصحراويين يتوافدون على مدن الشمال كما

الحال مع الجنوب في موريتانيا وشرقاً مع الجزائر ومالي، وذلك بقصد الدراسة أو التدريس، أو للاتصال بالملوك لمدهم وتقديم البيعة والطاعة لهم، دون أن ننسى أن هذا التواصل إن لم يفرضه طلب العلم والتعلم. فإن الأنساب تفرضه، وصلة الرحم كذلك، حيث نجد أن لكل أسرة من أسر الصحراء العريقة والشريفة أصل هناك أو هنا أو فرعاً هناك أو هنا، وسبب هذا هو تفاوت المسافات الممتلئة من طرف الأسر والعشائر والقبائل، إضافة إلى التفاوت في عدد أفراد هذه الخلايا الاجتماعية، مما أدى إلى ترسيخ فكرة الملكية التي ساهمت في تعقيد العلاقات الاجتماعية بين قبائل الصحراء وعشائرها وحتى الأسر ذاتها، مما دفع إلى ضرورة التنظيم، إما على مستوى تنظيم العلاقات بين الجماعات المتميزة، أو غيرها من المجتمعات الأخرى المجاورة، ويمكن القول بأن تمايز الأسر وتمايز العشائر والقبائل ساهم أيضاً في ظهور عادات وتقاليد وأعراف تنبع بين هذه المكونات الاجتماعية في حالتي السلم والحرب.

غير أن الحديث عن تأثير المجتمعات المجاورة على ثقافة الصحراء يستدعي منا الحيطة والحذر، حتى لما نقع في فهم الغير الخاطئ للأمور، الذي قد يجعل - أي الفهم الخاطئ - من هذا التأثير مفهوماً لوجود تبعية لم تكن ولن تكون، أو محاولة تقسيمها من بعد ما أنعم عليه الله بنعمة الرجوع إلى الوطن الأم. إن المجتمع الحساني كباقي المجتمعات المجاورة له، له أعراف وعادات وتقاليد وبينه وبينه هذه المجتمعات صلات مختلفة تختلف ما بين النسب والمصاهرة ورابطة الدين، والتعاملات التجارية بين مختلف القبائل.... الخ وهذه العلاقة فيها بطبيعة الحال نقاط اختلاف، ونقاط تلاق.

إن قرب المجتمع الموريتاني الحالي بعد تقسيم الاستعمار، في عاداته وتقاليد وأعرافه، يتقارب مع المجتمع الحساني إلى درجة تقارب 95 / من التأثيرات المتبادلة بين المجتمعين، فمثلاً نرى المرأة المطلوبة للزواج في كلا المجتمعين لا بد لها قبل الزواج من أن تخضع لعملية تسمين وهي التي تسمى

بلهجة البلدين «بلوح»، ورغم ما قاله الفقهاء من تحريم لهذه العملية، مدعين في ذلك بأنه تمييز على حد قول الأخ أحمد بن المختار حمين، وقد أفتى بتحريمه بأبا بن أمحمد بن حمدي المتوفي 1316 وعارضه في ذلك الشيخ محمد المامي المتوفي سنة 1282 في كتابه البادية، رغم أن رسول «ص» يقول «إن الله يحب أن يرى أثر نعمته على عبده» وكذلك حتى من حيث الملابس التي يلبسها الرجال وأشهرها الدراعة، وملابس النساء وأشهرها الملحفة والبستيدو والرمباي ولحزام.....الخ.

كما أن في صنع الشاي عند كلا المجتمعين تشابه ومطابقة فكلاهما اشتهر بحسن صناعة الشاي وحبه إلى درجة التقديس، فيقال «أَتَايُ زَيْنُ» أو «أَتَايُ معلوم» أي أنه شاي كَمَلٌ حسنه، وطاب مذاقه. وحسن صنعه. وترى التقارب حتى في وسائل النقل فالراحلة التي توضع على الجمل و «أَمَشَغَبُ» «أي الهودج» الذي تركب فيه المرأة، تراه عند كلا المجتمعين. مما يعني وجود تأثير متبادل بينهما سببه الرئيسي التقليد، الذي دأب عليه أهل الصحراء. وفي المجال الديني نرى كلا المجتمعين يتبع المذهب المالكي، وفقه الأشعري.

أما بالنسبة للمجتمع الجزائري فإن تأثيره قليل على المجتمع الصحراوي، فنرى بينهما بونا شاسعا حتى في أبسط الأمور والمتعلقة بالدين الإسلامي فعلى حد قول أستاذنا الجليل الدكتور عبد الهادي التازي فإن أهل الجزائر فيهم من يتبع مذهب الحنفية أو مذهب الإباضية إلا أن المالكية يتبعها أهل الصحراء إلى درجة التعصب لها. ولقد ذكر أستاذنا الجليل بأن من بين الوسائل التي أقرت بها محكمة العدل الدولية في رأيها الاستشاري حول الصحراء، هي الرابطة الدينية بين أهل الصحراء والملوك المتعاقبين على عرش المغرب.

غير أن الجزائر تلتقي مع المجتمع الصحراوي وكذلك الموريتاني وحتى الشمال المغربي في مسألة الترقية بالأعداد العربية التي تعني ترقيتنا الحالي أي

1 و 2 و 3 و 4 الخ وليس الأعداد الرقمية التي تأخذ بها دول المشرق العربي ١، ٢، ٣، ٤، ٥، ٦ الخ والتي حسب أستاذنا كذلك هي ذات أصل هندي وليس عربي.

ومظاهر التأثير والتواصل بين أهل الصحراء والمجتمعات المحيطة بهم كثيرة إلى حد كبير يصعب معه إحصاءها في هذه العجالة، وهي المظاهر التي ترقى في بعض الأحيان إلى مستوى التشارك في صنع الحدث داخل هذه المجتمعات، بل تذهب هذه المظاهر التأثيرية إلى أبعد من ذلك لتصبح شكلا من أشكال النماذج بين العناصر الأفريقية الزنجية المجاورة لأهل الصحراء وجاراتها الأمازيغية والعربية في الشمال.

ولقد أفضت المبادلات التجارية بين أهل الصحراء والقوافل التجارية المارة منها إلى خلق نواة لجايات مختلفة من هذه المجتمعات لتستقر بالصحراء. وتفرز لنا مجتمعات مولدة كانت حصيلة طبيعية للتزاوج والتصاهر بينها.

ولقد أثبت البحث العلمي في مجال الروابط القائمة بين ساكنة الصحراء والمجتمعات المحيطة بها والمجاورة لها ما للطرق الصوفية من أثر كبير في الكشف عن وجوه الشبه بين ثقافات هذه المجتمعات، فلو حللنا مثلا وجود ظاهرة الزاوية في كل من المغرب وموريتانيا والجزائر ومالي والسينغال والصحراء المغربية، يزداد فهمنا جيدا لقوة تأثير الثقافة الإسلامية على هذه المجتمعات في تشكيل وبناء المقومات الحضارية والثقافية الخاصة بها. ومن هذه الزوايا المنتشرة في الصحراء وإفريقيا الطريقة القادرية والتيجانية.

وفي خضم هذه التأثيرات المتبادلة التي خلقها التعايش بين أهل الصحراء ومختلف المجتمعات المجاورة - المسلمة منها على الخصوص - كان لابد أن تنبثق روابط وعلاقات جديدة، تجاوزت تبادل المصالح والمنافع المادية المتمثلة في التعامل التجاري، إلى ظهور تلاحم من نوع آخر هو التلاحم الفكري، وذلك في

ظل سيادة التعاليم الإسلامية وانتشار الكتابة العربية، وقد أفضى هذا التلاحم الجديد إلى بروز أعلام أفذاذ ساهموا في تعميق تلاحم هذه الثقافات المختلفة، وخلق أسس التمازج بينها من طرف علماء أفذاذ أمثال ابراهيم الكانحي الذي تفنن في مدح يعقوب المنصور الموحي كما يقول الدكتور محمد بنشريفقة⁽¹⁶⁾ في حين يذكر لنا الدكتور عبد الوهاب ابن منصور، عالما آخر وهو ابراهيم الأنصاري السالمي المعروف بالطويجي والذي كان يدرس علوم الغرب ونظمه وصناعاته لرجال الدولة في مملكة مالي.

كما أن هذا التأثير يتضح لنا في مجال الغناء فحين يقول أهل الصحراء «ايگيو» أي المغني فإنها تبقى بنفس المصطلح عند الموريتانيين أما في لغة ولوف فيقال «گيول» وفي لغة توكولور يقال «گالو»، وعند الجمع تصبح كلمة ايگيو تعني ايكاون وهو نفس الجمع في اللغة الأمازيغية «إِمْرِيَاَزُنْ» وكلاهما تعني الشعراء الذين يتكسبون بغناهم⁽¹⁷⁾.

أما فيما يخص تأثير القوة الاستعمارية على عادات وأعراف وتقاليد أهل الصحراء فإنه لا يوجد أي تأثير يذكر. فإسبانيا وفرنسا اللتان أحكما سيطرتهم على المنطقة الصحراوية لم تستطعا التأثير على حياة السكان الصحراويين والمنتشرين في الفيافي والقفار. وذلك بسبب عامل اللغة رغم ما قامت به الدولتان من محاولة لخلق مراكز لنفوذهما وإعمار هذه المراكز، غير أن أهل الصحراء اكتفوا بالترحال في الصحراء مما حال دون نشر المعمرين الإسبان والفرنسيين لأفكارهم ونمط عيشهم بين السكان الصحراويين، الذين ظلوا رغم مضايقات المستعمر يحافظون على عاداتهم وتقاليدهم وأعرافهم كما تركها لهم السلف الصالح دون أن يبدلوا فيها أو يغيروا. هذا دون إغفال بعض العائلات التي تركزت - رغم قلتها - في الحواضر التي أنشأت من طرف المستعمر. ومحاولة الاندماج معهم بسبب الحاجة، وبذهم لحياة الحل والترحال، ولكن ذلك لم يمنعهم من التمسك بعاداتهم وتقاليدهم وأعرافهم، دون تركها.

وما دامت مسألة المذاهب قد حسمت في حل مسألة الصحراء وتأكيد مغربيتها، فإنه لا بد أن نرد على من يقول بوجود دولة داخل الدولة، فالسيد نايمي مصطفى محمد في كتابه «الصحراء من خلال بلاد تكتة، تاريخ العلاقات التجارية والسياسية»، قال بوجود كونفدرالية لتكتة قائمة على شمال الصحراء وهو ما يدحضه الواقع في وجود دولة قائمة الذات تعاقب على حكمها أسر كانت تتلقى البيعة حتى من حوض السنغال فكيف بشمال الصحراء. ويزيد نايمي افتراءً فيقول بأن أولاد بنسبع ولعروسيين وأولاد تيدرارين بالساحل الصحراوي كانوا تحت الرعاية المحلية لتكتة، ثم يقول بأن الركيبات داخل الصحراء كانوا تحت حماية آيت لحسن وأزوافيط خاصة، وقد كان جزء من القبيلة يدفع الغفارة لآيت خباش بتيسنت.

ولكن ليس العيب عيبه بل كل العيب على المشرفين على المعهد الجامعي للبحث العلمي بالرباط، الذين ينشرون مثل هذه القنابل دون التحقيق من صدقها وحسن نية أصحابها، ولقد صدق اللورد نينج في كتابه «أفاق القانون في المستقبل» حين قال «لا تضع ثقتك في كتاب ناشئ». ولكن وكما يقول هو أيضا، «أمل في أن أرى إضفاء الحماية المقيدة، ليس في حالة النقد العادل فحسب بل في حالة الأخبار العادلة في مسألة تتعلق بالصالح العام».

أما فيما يخص مسألة أغراممة الركيبات فيرده قول الأستاذ محمد الغربي سفير المغرب بالأردن سابقا وعضو بالديوان الملكي في كتابه عن الساقية الحمراء، وقد تمكن الشيخ سيدي أحمد الركيبي من شراء كل المنطقة المحصورة بين درعة والساقية الحمراء وزمور.

وعندما جاء الأوروبيون في أواخر القرن التاسع عشر، وجدوا الركيبات حيث هم، ووجدوا مقاومة عنيفة لمنعهم من الاستقرار فوق ترابهم أو استعمارها.

- 9) ابراهيم مذكور، معجم العلوم الإجتماعية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، بدون تاريخ.
- 10) محمد مفتاح وأحمد بوحسن، التحقيق، التقليد، القطيعة، السيرورة، منشورات كلية الآداب الرباط، 1997، ص 69 و 70.
- 11) Michael Gialobbi et Jean Pierre Parx, "initiation à la sociologie" Hatier. Paris, 1990. P. 159.
- 12) G. Balondier "Sens et Puissance" POF. Paris. 1971. P. 105.
- 13) الدكتور وليد عبد الرحمن الرومي، مبادئ علم الاقتصاد السياسي، الطبعة الأولى 1996، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، ص 75.
- 14) عبد السلام الترسانيني، الزواج عند العرب في الجاهلية والاسلام، دراسة مقارنة سلسلة عالم المعرفة. الكويت 1984، ص 1.
- 15) ثريا منقوش التوحيد في تطوره التاريخي التوحيد بمان، دار الطليعة بيروت ، الطبعة الأولى، 1977، ص 11.
- 16) الدكتور محمد بنشريف «إبراهيم الغمالي، نموذج ميكرو للتواصل بين المغرب وبلاد السودان»، منشورات معهد الدراسات الأفريقية سنة 1991، ص 36.
- 17) أحمد أمين الشنگيطي «الوسيط في تراجم أدباء شنگيط»، الطبعة الثالثة، مكتبة الغانجي مصر، مكتبة الوحدة المغربية، البيضاء سنة 1960، ص 75.
- 18) نيمة محمد، «جوانب من التراث الحساني»، الطبعة الأولى 2000، مطبعة بني إزناسن، سلا، ص 09.

ملاحح من إشعاع ثقافة الصحراء في إفريقيا السوداء

ماء العينين مربيه ربه

لا بد في البداية أن أحيي أكاديمية المملكة المغربية على هذه المبادرة الكريمة بتنظيم هذه الندوة المباركة التي جمعت هذه النخبة الطيبة الحصيفة الرائعة من العلماء والشعراء والباحثين والمهتمين حول موضوع ثقافة الصحراء. وهو موضوع ما أشد حاجتنا إلى التنقيب والحفر في ذاكرته، وسبر أغواره واستشفاف مكانه لاستجلاء مضامين كنوزه والاستفادة منها في استشراق غد معرفي يقوم على أسس سليمة ودعائم أصيلة راسخة منيعة.

مساهمتي المتواضعة في هذه الندوة تندرج في موضوع إشعاع ثقافة الصحراء في الأقطار الإفريقية الغربية جنوبي الصحراء. وسأتطرق بصفة خاصة إلى فرع من الطريقة الفاضلية القادرية التي لعبت دورا بارزا في نشر الإسلام وعلومه في عدة بلدان إفريقية⁽¹⁾ منذ منتصف القرن التاسع عشر هو فرع الشيخ المحفوظ⁽²⁾ بن الشيخ الطالب أخيار بن الشيخ محمد فاضل⁽³⁾.

إلا أنه قبل ذلك لا بد من الإشارة، وباختصار شديد، إلى عدة أوجه من التواصل الثقافي والروحي الذي كان وما يزال قائما بين علماء ومشايخ وسكان

الصحراء وبين البلدان الإفريقية المجاورة لها، والذي تمتد جذوره إلى عدة قرون⁽⁴⁾ كمقدمة لنشاط فرع الشيخ المحفوظ من الطريقة الفاضلية.

فلقد لعبت الطرق الصوفية والمحاضر وقوافل التجارة دوراً متميزاً في نشر اللغة العربية وتعاليم الإسلام في كل من مالي والسنغال أولاً ثم بقية البلدان الأخرى على أيدي علماء ومشايخ صوفيين وتجار من الصحراء لا مجال هنا لعرض تفاصيله، فهي معروفة ومبسوطة في الكتب والبحوث والدراسات. (وقد تطرق البعض إلى ذلك التواصل الحضاري)⁽⁵⁾. ويجمع المؤرخون والباحثون أنه كلما ظهرت أحداث مهمة دينية أو اقتصادية أو سياسية في الشمال الإفريقي بصفة عامة، إلا وتنعكس بسرعة على المناطق المجاورة الأخرى⁽⁶⁾. وذلك لأن أهل الصحراء شغوفون بالأسفار والترحال إلى جانب تفتحهم على المجتمعات والبلدان التي يزورونها وما جبلوا عليه من هواية التواصل والاستطلاع.

ويتضح ذلك جلياً في عدة مظاهر ما تزال قائمة اليوم منها :

- أن المذهب المالكي هو المذهب السائد في جل البلدان الإفريقية المحاذية للصحراء

- الطرق الصوفية السائدة في هذه البلدان الإفريقية هي نفس الطرق الصوفية السائدة في الصحراء وفي الشمال الإفريقي بصفة عامة كالقادرية التي تعتبر من أقدم الطرق ظهوراً وانتشاراً في إفريقيا والعالم الإسلامي، وتعتبر محطة رئيسية في معظم الأسانيد الطرقية كالشاذلية والجزولية⁽⁷⁾ وهي الطريقة التي انتشرت في المغرب منذ القرن السادس الهجري على يد الشيخ أبي مدين الغوث الذي لقي الشيخ عبد القادر الجيلاني في مكة⁽⁸⁾.

وكذلك الطريقة التيجانية التي انتشرت بسرعة هائلة في المنطقة إثر ظهور الشيخ سيد أحمد التيجاني المتوفى بداية القرن التاسع عشر.

- قراءة القرآن الكريم برواية عثمان بن سعيد الملقب بورش ومن مميزاتها الأساسية استعمال الإمالة⁽⁹⁾.

- انتشار الخط العربي المغربي في كل هذه المناطق والذي يتميز عن الخط العربي في المشرق من جملة ما يتميز به كتابة حرفي الفاء والقاف بنقطة تحتية للفاء ونقطة واحدة فوقية للقاف⁽¹⁰⁾.

- الكتب المستعملة للتدريس في البلدان الإفريقية هي نفس الكتب المستعملة في الصحراء وفي المغرب مثل مختصر الشيخ خليل وألفية ابن مالك وغيرهما إلى جانب مصنفات الإمام جلال الدين السيوطي وكتب ومصنفات علماء معروفين من الصحراء ومن شمال إفريقيا بصفة عامة.

هناك جانب آخر من إشعاع ثقافة الصحراء في البلدان الإفريقية المجاورة لها، يتمثل في الاتصالات والمراسلات العلمية المتواصلة والمساجلات الشعرية بين علماء الصحراء وشعرائها وأعيانها ونظرانهم في تلك الأقطار، منها قصيدة العلامة الكبير الشيخ محمد المامي⁽¹¹⁾ بن البخاري المتوفى سنة 1875م والذي يعتبر من ألمع أقطاب العلم والتصوف في الصحراء المغربية، إنها قصيدة تحية قدوم يسلم بها على الشيخ المجاهد الحاج عمر بن سعيد تال الفتوي⁽¹²⁾. يقول في مطلعها:

سلام على من نورٌ مغناه فائح ومن نوره للشمس والبذر فاضح
ومن ضره للكفر ماح وهادم ومن نفعه للخلق غاد ورائح
إلى أن يقول :

وفي عمر الحاج الموقف وسم ما نحاوله من ذلك الكنز لامح
.....
وقد حزتم الأمرين فالله ناصر لكم وزمان المهْدوية جانح⁽¹³⁾

وهي قصيدة من 43 بيتاً مثبتة في ديوان الشيخ محمد المامي.

فيجيبه الشيخ الفوتي بقصيدة من نفس الوزن والقافية مطلعها

صلاة على المختار ما ذر شارق وما فاح نشر للشريعة فائح
وألٍ وصحب ما تأول ذاهب وما قام يهديه الحبيب المناصح
إلى أن يقول .

إمام إلى التقوى دعانا لبيعة بلى كل ما قرت له العين صالح
فبايعته والحمد لله وحده فقلت وماء العين سكب وراشح.
ألا يا عباد الله هلاً أنتبهتم أما فيكم للحق بالحق ناصح⁽¹⁴⁾
إلخ.

وهي قصيدة من 38 بيتاً.

ومعلوم أن الشيخ محمد المامي بن البخاري هو سمي عبد القادر المامي أحد كبار مؤسسي الدولة الفوتية كما يذكر الشيخ محمد المامي نفسه في أحد أنظامه⁽¹⁵⁾ إذ يقول:

سمي والي بوصيابا المامي صاحب الاستهداف بالأنظام

وعبد القادر المامي⁽¹⁶⁾ هذا هو الذي مدحه العلامة حرمة ولد عبد الجليل

ببيتين هما:

فَفَقَّتْ كل ملوك الأرض قاطبة وَفُقَّتْ في العلم والعرفان كلُّ ولى
ما سار سيرك في شأو التقى رجل إلا سميك عبد القادر الجبلى

كما أثنى عليه النابغة الغلاوي⁽¹⁷⁾ في منظومة له :

ولعبت بالمامي عبد القادر
ومزقت ما عنده من خَزَنَه
وفات فوته عدل ذاك الصالح
لذاك لم يصلح لها إمام
وغادرته بين كل غادر
وصيرت دولته للخزنه
فأصبحوا من بعد قوم صالح
عوض ما قد قاله الأعلام

وهذا أيضا العم ولد أحمد فال⁽¹⁹⁾ يمدح أحمد⁽¹⁸⁾ بن الحاج عمر بن سعيد
تال الفوتي في قصيدة⁽²⁰⁾ مطلعها:

سلام عليكم ما أمر نواكم
ويقول فيها :

دعانا إلى ذي النور من حاله العلي وحقُّ علينا أن نجيب دعاكم

وهي من أربعة عشر بيتا مثبتة في كتاب "الشعر والشعراء في موريتانيا"
للدكتور محمد المختار ولد أباه.

وبالإضافة إلى المساجلات الشعرية والرحلات العلمية، هناك كم كبير من
الرسائل من علماء وأعيان الصحراء إلى نظرائهم في البلدان الإفريقية المجاورة،
ومن هذه البلدان إلى الصحراء، تتوزع هذه الرسائل على المكتبات العائلية
الخاصة في الجانبين كرسائل الشيخ سعد أبيه بن الشيخ محمد الفاضل إلى
أعيان أفارقة ورسائله بهذا الشأن إلى الشيخ ماء العينين، وكمراسلات الأمير
بكار بن سويد أحمد والحاج عمر الفوتي، التي من نوادرها رسالة من بكار إلى
الحاج عمر⁽²¹⁾ وهي رسالة نستشف منها مدى تمكن بعض العلماء الأفارقة
وتفوقهم على نظرائهم العرب. يقول فيها: «بسم الله الرحمن الرحيم. من سيد
العرب بكار ولد سويد أحمد إلى سيد العجم عمر الفوتي. موجه...»

فرد عليه الحاج عمر: «بسم الله الرحمن الرحيم. من العبد الحقير الفقير إلى
عفو مولاه عمر الفوتي إلى بكار بن سويد أحمد، موجه أنك لست سيد العرب لأن

سيد العرب والعجم محمد ﷺ. وأنا لستُ سيد العجم لأن العجمي لغة هو من لا يتكلم العربية وأنا أتقنها وأنت لا تعرف منها ولا كلمة واحدة....»

يمكن القول بأن ازدهار الثقافة العربية الإسلامية في البلدان الإفريقية المحاذية للصحراء بلغ أوجه في القرن التاسع عشر الميلادي وبداية القرن الماضي. وظهور أعلام أفارقة كبار من عيار الحاج عمر الفوتي راجع إلى كون علماء الصحراء ومشايخها كان لهم في كل العهود القديمة والحديثة دور متميز في نقل الإشعاع الثقافي الإسلامي إلى الشعوب السمراء، إذ يؤكد أغلب المؤرخين أنه بجهودهم تغلغت الثقافة العربية إلى إفريقيا الغربية قديما وأصبحت اللغة العربية لغة التخاطب في المراسلات الرسمية للدول الإفريقية الإسلامية بالإضافة إلى أنها كانت اللغة المستعملة في التجارة التي كانت بأيدي العرب، وكان للعرب في عاصمة غانا القديمة إثنا عشر مسجدا، ألحق بكل مسجد مدرسة لتعليم اللغة العربية والفقهاء الإسلامي، ثم أصبحت اللغة العربية لغة التدوين في شتى أنحاء القارة(22).

يقول الشيخ محمد المامي بن البخاري في مؤلفه "كتاب البادية": «لقد رأيت ألمان بوبكر يقيم الحدود في جولمة، فله دره»(23). وألمان هذا هو أحد أقطاب المملكة المامية.

وإذا كان المؤرخون والباحثون قد تناولوا ما كان لنشاط الطرق الصوفية والمحاضر وقوافل التجارة من أثر وإشعاع حضاري في البلدان الإفريقية المحاذية للصحراء، فإن هناك فرعا من الطريقة الفاضلية القادرية هو فرع الشيخ المحفوظ بن الشيخ الطالب أخيار بن الشيخ محمد فاضل لم يتطرق له إلا قلة قليلة في بحوثهم ودراساتهم، وهو فرع لم ينل حظا من المعرفة في الوسط الثقافي المغربي رغم ما يكتسيه ذلك من أهمية في توطيد وتقوية العلاقات والروابط الثقافية والروحية بين المغرب والبلدان الإفريقية التي يحظى فيها هذا الفرع بمكانة وتقدير كبيرين. خاصة إذا علمنا أواصر القرابة بين هذا الفرع

و فرع كل من الشيخ ماء العينين⁽²⁴⁾ والشيخ سعد أبيه⁽²⁵⁾: فالشيخ المحفوظ هو حفيد الشيخ محمد فاضل بن مامين وابن كل من الشيخ ماء العينين والشيخ سعد أبيه.

أرسله أبوه الشيخ الطالب أخيار إلى الشيخ ماء العينين ثم بعد ذلك إلى الشيخ سعد أبيه الذي أرسله إلى السنغال للقيام بالدعوة للإسلام هناك، ثم إلى غينيا البرتغالية (غينيا بيساو حاليا) التي مهد طريقها أمامه ابن عمه الطالب أخيار بن الشيخ سيد أحمد. كان ذلك سنة 1876م⁽²⁶⁾ وقضى سنوات هناك ينشر الإسلام إلى جانب بعض إخوته ومريديه ليعود بعد ذلك ويتخذ من منطقة كازامانس بجنوبي السنغال قاعدة لنشر الإسلام حيث بنى بها أربعة قرى ما تزال قائمة حتى اليوم هي: دار السلام ودار الخير ومحمودة وبنافو. كما بنى أخوه القطب في غينيا بيساو قريتين هما "بيت المقدس" و"أم القرى"⁽²⁷⁾.

وقد درب الشيخ المحفوظ تلامذته هناك على العمل حتى صاروا يباشرون جميع الحرف فكان أتباعه ومواريدته في قرية بنافو يمارسون مختلف أنواع الزراعات و صار السكان المحليون يقلدونهم في ذلك.. وبما أن المنطقة منطقة أودية وبرك محاذية للبحر، فقد اصطنع الشيخ كثيرا من الزوارق المختلفة الحمولة لتسويق منتجاتهم إلى الأقاليم المجاورة وهو أول من أدخل صناعة الزوارق الكبيرة إلى هذا القطر، كما يقول ابنه الشيخ شمس الدين في كتابه "مصباح الخير في قصة دار الخير". وقد أسلم على يديه كثير من الوثنيين، خاصة من سكان غينيا بيساو التي تقارب نسبة المسلمين بين سكانها حاليا 70%⁽²⁸⁾.

وأثناء تنقلات الشيخ المحفوظ تعرف على كل من أحمد بن الحاج عمر الفتوي والإمام الساموري توري⁽²⁹⁾ والأمير موسى مولو الذي لقيه سنة 1877 بقرية حمد الله وهي قرية بمالي أسسها أحمدُ لُبُّه في القرن الثامن عشر. وربطته بالجميع علاقات وثيقة⁽³⁰⁾.

كما كانت للشيخ المحفوظ علاقات وثيقة كذلك بالتجار المغاربة المقيمين في البلدان الإفريقية التي انتشر فيها أتباعه بسرعة كبيرة وهي على وجه الخصوص السنغال وغامبيا وغينيا بيساو وغينيا كوناكري وسيراليون وغانا ونيجيريا. ومن هؤلاء التجار السيد الدباغ بنسودة الذي كان قاطنا بمدينة بانجول عاصمة غامبيا، وأصله من مدينة فاس - كما يقول الشيخ شمس الدين في كتابه "مصباح الخير..." إذ كان الشيخ يبعث إليه بلائحة الكتب التي يريد اقتناءها من فاس أو من مصر، وكان الدباغ يلبي طلباته دائما، كما كان يزوده بالشاي الأخضر الذي لم يكن السكان المحليون يتعاطونه. إلا أنني لم أعر على نبذة أو تعريف بهذا التاجر المغربي الذي كان قاطنا في بانجول حتى سنة 1917م⁽³¹⁾.

كان الشيخ المحفوظ رجلا عالما ورعا تقيا، كرس كل حياته لنشر تعاليم الإسلام واللغة العربية في بلدان غرب إفريقيا وكان راسخ الإيمان قوي الشكيمة كريما رقيقا.

قال رحمه الله عندما أتم بناء قريته الأولى دار السلام سنة 1900م بمنطقة كينيا:

يا ربنا إني نزلت كينبا بك ومنك راجيا دفع الوبا
عنها وعن ساكنها مدى الزمن بجاه أحمد الرسول المؤمن⁽³²⁾
وهو نظم من 19 بيتا. وكان يكرر دائما:

قبل السؤال اصغ لمن أتك وإن يك استعجل فاستعطاكا
فهل جواب هات غير هاكا فهذه نصيحتي إياك

ويقول فيه الشيخ سعد أبيه بن الشيخ محمد فاضل بن مامين

باسم الذي أمر بالدعاء وفتح الأبواب بالأسماء
وقال أدعوني أستجب دعاءكم ولكم أجزي على إذعانكم
إلى أن يقول :

للسيد المحفوظ بالمراد بالنفس والأتباع والأولاد
أكرم وأكرم بالحضور والشهود له على الركوع رب والسجود

توفي الشيخ المحفوظ بعد صلاة الظهر يوم 17 ربيع الأول 1338هـ الموافق لـ 19 نوفمبر 1919م بدار السلام في مقاطعة كازامانس⁽³³⁾. وترك عدة رسائل وأدعية وأنظام ما زال مواريد وأتباعه وأحفاده يرددونها في حلقات نكرهم وعباداتهم ومواسمهم الدينية السنوية التي ما زالوا يحيونها حتى اليوم بدار السلام.

تولى خلافة الطريقة الفاضلية بعد الشيخ المحفوظ نجله الأكبر الشيخ محمد فاضل الذي تولاهما من بعده أخوه الشيخ الحطاب ثم الشيخ شمس الدين الذي بحوزتي 7 كتب من مؤلفاته هي:

- «مصباح الخير في قصة دار الخير وأهل الخير»

- «جغرافية كاص ماص»

- «هدى المهتدين»

- «دليل الرحمة»

- «الدين النصيحة»

- «إرشاد المسلمين»

- «قصة الأماجد في حياة الوالد»

ومن بعد الشيخ شمس الدين تولى الخلافة العامة في دار السلام ابنه الشيخ المحفوظ، ثم أخيرا الشيخ محي الدين وهو الخليفة العام الحالي للطريقة الفاضلية هناك. وما زال هذا الفرع من الطريقة الفاضلية محافظا على علاقاته بالفروع الأخرى من خلال المراسلات وتبادل الزيارات. فقد قام الخليفة العام السابق الشيخ المحفوظ بن الشيخ شمس الدين بزيارة لفرع آل الشيخ ماء العينين هنا بالمغرب سنة 1973 كما جدد زيارته قبيل وفاته سنة 1994. وقد درس العديد من أبناء تلك الأسرة بجامعة القرويين وغيرها من المعاهد والجامعات الأخرى كما أن بعض أعيان أسرة الشيخ ماء العينين زاروا ذلك الفرع في كازامانس وفي السنغال. تم آخر تلك الزيارات سنة 2000 (34).

وفي شهر غشت الماضي جاءنا منهم وفد يضم كلا من الأستاذين المحفوظ بن الشيخ الحطاب وفاماراديمبا الذي يعتبر من ألمع موارد الشيخ سعد أبيية للمشاركة في موسم الشيخ ماء العينين بتيزنيت.

وبعض أحفاد الشيخ المحفوظ يتسمنون مناصب هامة في الدول الإفريقية التي يقطنونها ويحظون بمكانة رفيعة لدى حكوماتها.

والخلاصة من كل ما تقدم أن العلاقة بين الصحراء والبلدان الواقعة جنوبها كانت علاقة إسلامية تاريخية قوية وقديمة وعلمية ثقافية وصوفية أدبية وفقهية وسياسية تتناول جميع الروابط الاجتماعية.

وإن كانت هذه العلاقات تعرف من حين لآخر فتورا يقصر أو يطول حسب الظروف المستجدة، فإن ثقافة الصحراء تعرف اليوم حالة من الانبعاث والصحة تستهدف استعادة الشخصية التاريخية لهذه المنطقة التي وهنت أثناء فترات الانحطاط الشامل الذي عرف حضيضه أثناء فترة الاستعمار.

وبما أن الثقافة بمختلف مكوناتها وألوانها هي روح الشعوب، فإن من الأهمية بمكان اعتناء المهتمين المتخصصين بدراسة تاريخ وواقع وأفاق هذه

الثقافة ومقوماتها في مختلف ميادين الحياة الدينية والاجتماعية والبشرية والاقتصادية والسياسية.

من هنا ندرك أهمية هذه الندوة المباركة الهادفة إلى المساهمة في سد فراغ قاتل في مجال التوعية بقيمتنا وثرواتنا الثقافية المتنوعة وبعثها من جديد للاستفادة منها في استشراف آفاق واعدة لبناء المستقبل على دعائم سليمة وصحيحة.

وفي هذا السياق أسوق بعض المقترحات التي ربما تكون مفيدة في هذا المجال.

1 - الاهتمام بالمجال الثقافي لتعزيز مكانة الثقافة العربية الإسلامية في تلك المناطق وخاصة لدى الزوايا والطرق الصوفية دون تمييز من خلال المساعدة على بناء المدارس والمساجد وتزويد المكتبات بالكتب، واستثمار العلاقات الروحية من أجل تعزيز المكانة القارية والدولية للمغرب.

2 - تسهيل إجراءات قبول الطلبة في المدارس والجامعات وتقديم المنح لهم، وقد قطع المغرب خطوات تستحق التنويه في هذا الميدان.

3 - العناية بالتراث العربي الإسلامي المخطوط في تلك البلدان والعمل على تحقيقه وتصحيحه وطبعه ونشره.

4 - تخصيص حصة من هذا المجهود لتدوين وجمع التراث الشفوي الذي تتناقله الأجيال في شكل روايات، والذي يعتبر مصدرا حقيقيا غنيا وزاخرا بالمعلومات الثمينة عن تاريخ المنطقة وأنسب قبائلها وأمرائها وتاريخ تنقلاتها إلى غير ذلك.

5 - تشجيع الطلبة والباحثين بصفة عامة على تخصيص جزء من أبحاثهم ودراساتهم لهذا الميدان، ودعمهم ماديا من طرف المؤسسات والجهات الرسمية.

6 - تشجيع التبادل التجاري بين المغرب والبلدات الإفريقية.

ويمكن إدغام هذه المقترحات في ثلاثة أو أربعة.

وأخيراً، لا بد من التنويه بالجهود التي بذلها جلاله الملك الراحل الحسن الثاني لإحياء العلاقات التاريخية مع الدول الإفريقية جنوبي الصحراء الكبرى، لأن المعروف أن للمغرب دوراً تاريخياً في هذا المجال نظراً لأصالة وقوة شخصيته ذات الثقافة المتنوعة وكيانه المستقر على مر التاريخ واستمرارية الحركة العلمية فيه من خلال مدارسه ومعاهده ومكتباته الزاخرة بأهميات ونفائس الكتب والوثائق؛ ولأن إشعاع ثقافة الصحراء في بلدان إفريقيا السمراء هو مظهر من مظاهر إشعاع الثقافة المغربية في تلك البلدان.

نتمنى صادقين أن تكون الأيام والسنون والحقب المقبلة أوفر حظاً وأكثر انفتاحاً على محيطنا الإفريقي.

الهوامش

(1) راجع كتاب الشيخ شمس الدين بن الشيخ المحفوظ مصباح الخير في أخبار دار الخير وأهل الخير، مخطوط، بحوزتي نسخة منه.

(2) هو الشيخ المحفوظ بن الشيخ الطالب أخيار بن الشيخ محمد فاضل بن مامين، عالم داعية إلى الإسلام في إفريقيا الغربية، توفي بدار السلام بمقاطعة كازامانس بجنوب السنغال سنة 1919.

(3) الشيخ محمد فاضل بن مامين، عالم صوفي، ولد سنة 1197هـ بالحوض جنوب شرقي بلاد شبيقت. مؤسس الطريقة الفاضلية التي هي فرع من الطريقة القادرية. هو والد كل من الشيخ ماء العينين والشيخ سعد أبيه والشيخ سيد الخير. توفي بالحوض يوم 10 محرم 1288هـ/ 2 أبريل 1871م. ترك عدة مؤلفات منها رسالة بمعنى الهيلة وفصلها، منظومة النور الساطع في أسماء الله الحسنى، سيف السكت في الصلاة في أول الوقت وسيف المجادلة وغيرها.

- 4) يقول محمد أحمد شفيق إن «المصادر التاريخية العربية القديمة أثبتت تلك العلاقة وذلك التواصل الوثيق بين المناطق المحيطة بالصحراء الكبرى منذ فجر الإسلام الذي هو من أكبر أسباب هذا التواصل الذي كان سابقا أيضا على العهد الإسلامي..» انظر التواصل الحضاري العريق بين المناطق الإفريقية الواقعة شمال الصحراء الكبرى وجنوبها ، ضمن أعمال ندوة التواصل الثقافي والاجتماعي بين الأقطار الإفريقية على جانبي الصحراء، ص. 160، كلية الدعوة الإسلامية، 1999.
- 5) من أهم الأعمال الجادة في هذا المجال كتاب بلاد سنقيط، المنارة والرباط ، للخليل النحوي، منشورات المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، تونس، 1987.
- 6) محمد أحمد شفيق التواصل الحضاري العريق بين المناطق الإفريقية الواقعة شمال الصحراء الكبرى وجنوبها ، ص. 163.
- 7) د. محمد الظريف، الطرق الصوفية وأثرها في أدب الصحراء ، ص. 83، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، المحمدية، 2000.
- 8) د. محمد الظريف، الحركة الصوفية وأثرها في أدب الصحراء المغربية ، ص. 83-85، كلية الآداب، المحمدية، 2002.
- 9) ذ. محمد أحمد شفيق، التواصل الحضاري العريق بين المناطق الإفريقية الواقعة شمالي الصحراء الكبرى وجنوبها ، أعمال ندوة التواصل الثقافي والاجتماعي بين الأقطار الإفريقية، ص. 164-165، كلية الدعوة الإسلامية، طرابلس، 1999.
- 10) نفس المرجع.
- 11) الشيخ محمد المامي بن البخاري من أهل براك الله (1206هـ/1791م = 1292هـ/1875م) عالم كبير، شاعر وصوفي، يقال إن مؤلفاته بلغت 400. تكلم في كروية الأرض. من مؤلفاته كتاب البادية (مخطوط)، القصيدة السلطانية إلى جانب ديوان شعر كبير.
- 12) هو الشيخ عمر بن سعيد تال العوتي. مجاهد وصوفي. خلف شيخه محمد الغالي أبا عبد الله الشريف الحسيني المغربي في الطريقة التيجانية. قاد جهادا دؤوبا لإقامة دولة إسلامية في فوتا ولتوحيد السودان الغربي ضد الاستعمار. توفي سنة 1280هـ/1864م وهو يكافح لتحقيق أهدافه تلك. (د، محمد بن محمذن وثائق من التاريخ الموريتاني، جامعة نواكشوط، 2000).
- 13) ديوان الشيخ محمد المام بن البخاري، مرقون ضمن رسالة لنيل دبلوم الدراسات العليا من كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط أعدها الطالب عبد العزيز بن الطالب موسى، 1998.
- 14) المرجع نفسه، الملحق الثاني، النص رقم 2.
- 15) نظم الشيخ محمد المامي حول شهداء معركة بدر، توجد نسخة خطية منه بحوزة الأستاذ أحمد ابن المختار بن حمين في نواكشوط.

- 16) عبد القادر المامي، عالم مجاهد. تنازل له سليمان بال عن عرش المملكة المامية. كانت له علاقات وثيقة بأعيان وعلماء الصحراء. وهو خريج محضرة خديجة بنت العاقل العالمية الشنقيطية المشهورة. توفي سنة 1222هـ.
- 17) النابغة الغلاوي (1245هـ) عالم متبحر من بلاد شنقيط، رحل كثيرا في طلب العلم. ترك عدة مؤلفات منها السند العالي في مناقب اليدالي ونظم بوطليحية (سيدي محمد بن محمد عبد الله معجم المؤلفين في القطر الموريتاني)
- 18) هو العم بن أحمد فال العلوي (1315هـ)، لغوي، شاعر. ترجم له في الوسيط، ص. 85. له شرح وتذييل للامية الأفعال.
- 19) أحمد بن الحاج عمر الفوتي (1249هـ/1833م = 1315هـ/1897م)، خلف أباه على عرش دولة سكو الفوتية (د. محمد بن محمدين، وثائق من التاريخ الموريتاني، ص. 223، جامعة نواكشوط، 2000).
- 20) د. محمد المختار ولد أباه، الشعر والشعراء في موريتانيا، ص. 276، الشركة التونسية للتوزيع، 1987.
- 21) توجد نسخة منها عند الأستاذ أحمد بن المختار بن حمين في نواكشوط.
- 22) الخليل النحوي بلاد شنقيط، المنارة والرباط، ص. 261-262، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، تونس، 1987، وكذلك أنور الجبدي العالم الإسلامي والاستعمار السياسي والاجتماعي والثقافي، ص. 371.
- 23) الشيخ محمد المامي كتاب البادية، ورقة 35، مخطوط، محفوظ بالمعهد الموريتاني للبحث العلمي تحت رقم 1336.
- 24) الشيخ ماء العينين بن الشيخ محمد فاضل بن مامين (1246-1328هـ). ولد بالحوض سنة 1830م وتوفي بتيزنيت سنة 1910. علم من أعلام الدين والسياسة والتصوف، وهو عم الشيخ المحفوظ.
- 25) الشيخ سعد أبيه بن الشيخ محمد فاضل بن مامين هو أخ الشيخ ماء العينين وعلم من أعلام الطريقة الفاضلية القادرية. ترك عدة مؤلفات ورسائل في الفقه والتصوف إلى جانب ديوان شعر صخم. وانتشر أتباعه الكثر في بلدان إفريقيا الغربية للدعوة للإسلام. توفي سنة 1335هـ/1917م بالنمط، جنوب غربي موريتانيا.
- 26) الشيخ شمس الدين بن الشيخ المحفوظ، مصباح الخير في قصة دار الخير، مخطوط. نفسه، الورقة 140.
- 28) معلومات زودني بها القنصل العام لغينيا بيساو بالجمهورية الإسلامية الموريتانية السيد محمد عبد الله بن عمر، حفيد الشيخ المحفوظ.

29) الساموري توري (حوالي 1837-1900)، زعيم سوداني أعلن نفسه سنة 1868 زعيماً دينياً وبسط نفوذه على كل الأجزاء الغربية من عينيا الحالية. وابتداء من سنة 1883 كافع الفرنسيين الذين احتلوا للتو باماكو. وفي سنة 1891 اندلعت الحروب من جديد بينه وبين الفرنسيين الذين هزموه، فالتجأ إلى ساحل العاج حيث حطم مدينة كونغ التجارية سنة 1895، لكن وحدات أخرى بقيادة الجنرال كورو طاردته حتى اعتقل ونفي إلى الغابون وبقي فيها حتى وفاته سنة 1900 (محمود بن محمدن وثائق من التاريخ الموريتاني"، ص. 223).

30) الشيخ شمس الدين، قصة الأماجد في حياة الوالد، مخطوط، الورقة 3-12.

31) الشيخ شمس الدين، مصباح الخير في قصة دار الخير، مخطوط، الورقة 138.

32) الشيخ شمس الدين، مصباح الخير في قصة دار الخير، مخطوط، الورقة 113.

33) الشيخ شمس الدين، مصباح الخير في قصة دار الخير، مخطوط، الورقة 141.

34) من الذين زاروا ذلك الفرع ماء العينين هيبة أحمد بن الشيخ مريه ربه والشيخ ماء العينين محمد مصطفى بن الشيخ محمد الإمام.

الصحراء المغربية ... والمناورات الأجنبية

ماء العينين محمد تقي الله

باستحضار التاريخ المغربي، يقف المنطق والحقيقة معا على تأكيد معلومة برؤية بديهية، مفادها أن المغرب كان على الدوام بفضل وحدته الوطنية والترايبية وازدهاره التجاري والاقتصادي ولحضارته الأصلية وليقضته الدائمة ولدفاعه المستميث عن كرامته وعزته ولحرصه بين الأمم والشعوب على استتباب السلم والأمن في ربوع المملكة وحفظه لعلاقاته الطيبة مع الدول وفق حسن الجوار ومبادئ وأعراف القانون الدولي، وكان دائما ذا مكانة حضارية استقطبت حول أنظار الدول منذ قرون.

غير أن تحريف إرادة الغير من أكبر الشائبات وأوصاف الشر التي تسيطر على الكثير الجانح إلى هذه الممارسات المزيفة لحقائق التاريخ قصد تنفيذ أغراض الحقد والطوايا الماكرة بتربصات استعمارية، ولا أدل على ذلك من بصمات مظاهر الحضارة المغربية الشامخة والثرية والتي لم تقو أبدا هذه الممارسات من النيل منها بما تجسده من ثقافة أصلية تحثها الإبداعات المغربية المجبولة على الأنفة والعزة والبطولات بميزة الوحدة الترابية وتماسك المغاربة والتفافهم حول ملوكهم، هذه الخاصية الفريدة هي بإيجاز واضح ما طبع المغاربة من أي شبر من المملكة المغربية بالنسبة لقضية الصحراء المغربية التي لا يمكن

فصلها عن الوطن الأم باعتبارها جزء لا يتجزأ أبداً عن التراب الوطني المغربي وعن باقي المناطق المغربية لتكاملها ولتماسكها ولقيامها على نفس القيم الدينية الإسلامية والإيمان الراسخ للمواطنة كهوية ينفرد بها الإنسان المغربي تجاه وحدته الترابية وهي مقومات تبلورها البيعة المستمرة بين قاطني الصحراء المغربية أيضاً وبين ملوكهم، وأبسط دلالة على هذه الظاهرة هي كافة المستخلصات من مرجعية النهضة الثقافية الصحراوية المتميزة التي تطفح الفضاءات الأدبية والعلمية التي ساهمت إلى حد كبير في إثراء حركية التأليف والبحث، بنبغاء علمائها وأدبائها الكبار.

لا غرو أن الحضارة بمفهومها الشمولي الواسع هي التي تحدد مكانة الشعوب والأمم وتبرز أهمية مجتمعاتها ومقوماتها التاريخية، فإن المغرب بهذا الاعتبار كان يشتمل وحدة ترابية تميزها هذه الروابط المتلاقية في محصلها التاريخي المرسوم إلى يومه في العديد من الإبداعات الثقافية والعلمية والفنية التي طبعت المواطن الصحراوي المغربي والمنطقة الصحراوية المغربية بصفة عامة والتي تؤكد حقيقة مغربية الصحراء، محورها الأساسي الالتفاف المدهش حول العرش وملوك الدولة العلوية الجالسين عليه كملحمة رائعة للدود بوطنية عن مقدسات المواطن المغربي أينما كان ومتى كان، وهي أيضاً ظاهرة لم تفلح المحاولات الطامعة المتربصة من طمسها أو القضاء عليها عبر الزمان.

فبحلول النهضة الأوروبية وبدء الزحف الاستعماري بمختلف الصور والأساليب على مناطق المحيط الأطلسي بدافع الاستيلاء على أسواق جديدة ويهدف استغلال منتوجات بديلة وتسخير يد عاملة رخيصة تحولت أنظار البورجوازية والانتهازية الأوروبية من القارة الآسيوية والبحر الأبيض المتوسط.

تحضيرات هذه الحقبة باستكشاف للمناطق وبخلق مصالح استغلالية أينما أمكن تموضع الاستعمار وتوظيف الضغط على السلطات الحاكمة وصولاً إلى

المرامي التوسعية والاستغلالية والاستعمارية وصياغة هذا الضغط في الاتفاق بين الدول المتنافسة لتوزيع المناطق وسط النفوذ ودعم هذا السلوك بالتواجد العسكري الممهد للتقسيم.

فبالنسبة للصحراء المغربية يعتبر الاستعمار الاسباني نموذجا لهذه الحقيقة وللنزعة التوسعية والطبيعة الاستغلالية وصورة واضحة لما اتسمت به هذه المراحل السالفة الذكر وقد ساعد عليها تزامن الازمات الاقتصادية والتجارية والاجتماعية التي عرفها المغرب آنذاك والتي أملت على سلطاته تحويل اهتماماتها إلى قضاياها الداخلية فحسب. من بين هذه الأزمات انكماش واضمحلال صناعة السكر وتدهور تجارة القوافل.

ومجمل القول ، فقد تركزت المحاولات الأوربية الحاقدة والطامعة بنزعتها الاستعمارية ومختلف الوسائل على المغرب قصد اقتسامه وخلق بؤر لإرساء مصالح المستعمر لتتحول هذه البؤر فيما بعد إلى مراكز نفوذ، وقد تجلت هذه النزعة كظاهرة اقتصادية متسترة وراء مؤسسات وشركات تمويلية ، كشركة الصيد (الكناريو-الإفريقية) التي تمكنت بمؤثراتها الضاغطة على الحكام من إنشاء مرفأ (بونتون) بمدينة الداخلة حصلت من خلاله على امتياز الصيد البحري بمرسوم ملكي ، والشركة الاسبانية الإفريقية التي ظفرت ببناء محطة تجارية لخط دائم للبواخر التجارية سنة 1883 وكذلك شركة (ليوبيز) المتخصصة في صياغة الأسلحة سنة 1883 وأيضا شركة افريقية تمكنت سنة 1883 من استغلال منطقة بمساحة 500 كلم² تمتد من بوجدور إلى لگويرة.

لهذه الأسباب، أخذ الاستعمار يتوغل في المنطقة لولا قوة السلاطين التي حدثت من انتشاره في وقت اشتدت فيه الأزمات العميقة للدفاع عن حوزة تراب المملكة المغربية ضد الاطماع الاسبانية إلى درجة اعتبار كل أجنبي وافد على الصحراء من وراء البحار عدوا، مما حدا بالاسبان إلى طلب الحماية من السلطان كلما كانت وجهتهم الصحراء .

انتبه المغاربة إلى البيئة الاستعمارية الخفية وراء مختلف المحاولات الهادفة إلى الاستيلاء على الأطراف الجنوبية للمغرب كما في شماله ووسطه على مراحل، ومن أهم هذه المحاولات السافرة التي أخذ المستعمر يعتمد عليها في المنطقة قرار مجلس الوزراء الاسباني سنة 1884 وضع وادي الذهب تحت الحماية الاسبانية، وأشعرت الحكومة الفرنسية والحكومة الانجليزية بمضمون القرار التي احتجت عليه الحكومتان معا، الحكومة الفرنسية والحكومة الانجليزية، وأبدت ألمانيا أطماعها في المنطقة وتحت تسوية مشاكل الأطراف المعنية في مؤتمر برلين حيث كان نصيب فرنسا شمال افريقيا وانجلترا الشرق الأوسط فيما استحوذت ألمانيا على افريقيا السوداء مقابل تخليها عن المغرب والصحراء.

وجدت هذه المحاولات التي كانت تنفذ على مراحل مقاومة شديدة وما يستوجب التصدي للاستعمار من تضحيات جهادية كبيرة ومتواصلة بفضل توحد قبائل وادي الذهب وإيقاظ ضمائرهم والتفاهم حول الشيخ ماء العينين لشخصيته البارزة التي عملت على ضم صفوفهم للحيلولة دون المد المسيحي بتنسيق الجهاد مع السلطان المولى عبد العزيز الذي كان الشيخ ماء العينين يتردد عليه في كل من مراكش وفاس لتزكية ما يجب اتخاذه من حلول في هذا الصدد والاستعانة بالمخزن فيما كان هذا المجاهد الكبير يراه يوصل القبائل الصحراوية إلى هدفهم الجهادي.

كان من نتائج رفع راية الجهاد في الصحراء المغربية استرجاع طرفاية باتفاق أرغم المستعمر على النزوح عنها مقابل أداء المخزن تعويضات للانجليز مقابل المنشآت والحق التجاري المتدرع بها، وقد أمضى هذا الاتفاق نيابة عن السلطان الصدر الأعظم وعن بريطانيا ممثلها بطنجة. وتوالت بعد ذلك اتفاقيات ومعاهدات بين الأطراف الاستعمارية لتوضيح حدود المناطق المستولى عليها والمقتسمة كمعاهدة 27 يونيو 1900 الموقعة بين فرنسا واسبانيا تهم ساحل الصحراء وخليج غينيا دون توضيح للحدود الشرقية والغربية. وقد كانت هذه

المنطقة تسمى آنذاك بإفريقيا الغربية الفرنسية، كانت موضوع معاهدة سرية بين فرنسا واسبانيا سنة 1904 وقعها وزير خارجية فرنسا «ديلكسن» وسفير اسبانيا «كاستيو» هدفها اعتراف فرنسا لاسبانيا بمنطقة نفوذ على شمال المغرب واستكمال رسم الحدود الشمالية للصحراء الاسبانية وحق هذه الأخيرة في الإقامة في إيفني في أي وقت شاعت شريطة موافقة السلطان.

تعززت هذه المحاولات الاستعمارية في أجواء الجهاد المتواصل ببسالة من طرف قبائل الصحراء المغربية بعقد مؤتمر الجزيرة الخضراء في 7 أبريل 1906 الذي وقعت معاهدته كل من ألمانيا وإيطاليا والنمسا والنيجر وفرنسا وإيطاليا والمغرب وهولندا والبرتغال وروسيا والسويد واليابان، حيث تم التأكيد فيه على : (أولا) سيادة السلطان على المغرب، (ثانيا) الحرية الاقتصادية بالمغرب بدون تمييز بين الدول الموقعة.

غير أن طبيعة الاطماع الاستعمارية لاتحترم الاتفاقيات ولانصوص المعاهدات متى كانت مصالحها في توسيع النفوذ بالمنطقة، وبهذا الأسلوب الاستعماري كانت عملية «ECOUVILLON» ضربة قاسية للمغاربة، شاركت فيها القوات الفرنسية والاسبانية بما يناهز «10.000» جندي مدججين بأحدث أسلحة عصرها وأكثر من 6304 شاحنة... أحدثت هذه العملية عامل انطواء نفسي بين الصحراويين واهتمامهم بقطعانهم وجمالهم..... إلى الفرصة السانحة حيث يتواصل الجهاد بواسطة المناضلين في جيش التحرير الذي نهض وشارك في العمليات التحريرية مكبدا خسائر فادحة للعدو وبتنسيق تام مع المخزن وبتوجيهاته ومساعداته المادية واللوجيستكية كلما تواصلت المناورات الانتهازية والاستعمارية، من بين هذه المناورات المحاولات الفرنسية بزعامة الجنرال (دوگول) الذي أوفد لهذه الغاية «ERIC LABON» المقيم العام بالمغرب (عام 1948) فلم يفلح في تحقيق المنظور "الديگولي" المتمثل في تكوين دولة

اقتصادية صحراوية بالمنطقة بما فيها الأقاليم الجنوبية الصحراوية ومع ذلك لم تستكن فرنسا وأولت نفس المهمة إلى سفيرها «PARDET» سنة (1957) بهدف مناقشة الحدود الجزائرية المغربية، فلم تستطع حتى هذه المناورات أيضا أمام الصمود الجهادي واليقظة الدائمة للملك المجاهد المغفور له محمد الخامس، فاستمر المغرب مداوما على طلب استرجاع حقه الأحق في أقاليمه المغتصبة وبكافة السبل والوسائل السلمية والحضارية .

أمام تعنت واستخفاف اسبانيا بشرعية استرجاع أراضيها المغتصبة واستعادة حقوقه التاريخية، عرض المغرب رسميا ملف صحرائه على أنظار محكمة العدل الدولية "بلاهاي" منذ أكتوبر 1975 والتي أقرت بحق المغرب على أراضي الصحراوية موضوع طلب المغرب للعلاقة التاريخية والجغرافية القائمة ولرابطة البيعة الدائمة بين القبائل الصحراوية وملوك الدولة المغربية تبعا للشريعة الاسلامية وطبقا لمبادئ القانون الدولي.

ترسيخا لهذا المبدأ وتأسيسا على هذه الحقوق ، أعلن جلالة الملك الحسن الثاني طيب الله ثراه في (17 أكتوبر 1975) مسيرة خضراء سلمية ، بمشاركة (350000) متطوع ومتطوعة من جميع أنحاء بالمغرب وبمعية ممثلة للدول الشقيقة والصديقة إحياء لعلاقة الرحم ولرابطة الدم بإخوانهم سكان الصحراء في (6 نونبر 1975) كانت تتيجتها أيضا إحدى إبداعات الفكر الحسني، استرجاع أقاليمنا الصحراوية بصفة نهائية، الأمر الذي لم تستطع معه الجزائر اخفاء نواياها وأصدائها متسترة بالدفاع عن تقرير مصير دويلة مصطنعة وتحت غطاء جبهة "البوليساريو" كدمية تستغلها في كافة المؤتمرات والتظاهرات الدولية في تناقض صارخ وسافر مع التصريحات الرسمية لرؤسائها القائلة بأن ليس للجزائر أية أطماع في الصحراء المغربية، وكان هذا بدء بمنظمة الوحدة الافريقية وذلك بتحرير التوصية رقم (104) في قمة الخرطوم آنذاك والقاضية بإجراء مفاوضات مباشرة بين المغرب و (البوليساريو) وقد تبنتها بعنذ لجنة الأمم المتحدة

الخاصة بتصفية الاستعمار والتي تصدى لها المغرب بحكمة وبضبط النفس في جميع المنديات والملتقيات الاقتصادية والاجتماعية والثقافية الدولية والتي ظلت حجة قائمة على مزاعم وطوية الجزائر مؤكدة على ما لا يدع مجالا للشك على عدم احترامها لمبدأ حسن الجوار وعلى عدم احترام الصداقة والأخوة القائمة وما أسداه إليها المغرب إلى غاية استعادتها سيادتها بالإضافة إلى عدم احترام الروابط الاسلامية وصلة الدم بين الشعبين الشقيقين المغرب والجزائر، كما تملصت من إبداء الاحترام لا في القوانين الدولية ولا الأعراف الأممية.

أمام هذه المناورات، قرر الأمين العام للأمم المتحدة تعيين ممثله السيد "جيمس بيكر" لتنفيذ سائر مبادرات الأمم المتحدة لفظ النزاع المفتعل، غير أن الأجهزة الجزائرية الرسمية كانت قد تعودت على عدم استقرارها على أي رأي في هذا الخصوص، التجأت مرة أخرى إلى طبيعتها بدافع نيتها الحاقدة والطامعة لما أخذت الأمم المتحدة بمقترح السيد «جيمس بيكر» (كحل إطار) وأعرب المغرب كدأبه عن قبوله الاقتراح الرسمي بهدف إنهاء النزاع بكيفية عادلة وشرعية، فالتجأت الجزائر إلى أسلوبها المكشوف باقتراحها تقسيم الأقاليم الصحراوية بكيفية أبانت عن طمعها حتى يتسنى لها استغلال إقامة دويلة دخيلة تحركها وصولاً إلى مراميها في المنطقة، مما دفع المغرب مرة أخرى ملك وحكومة وشعباً إلى الوقوف صفا واحداً موحداً ضد المزاعم الجزائرية بقيادة جلالة الملك محمد السادس أيد الله خطاه، سيرا على نهج أسلافه الملوك في الحفاظ على الوحدة الوطنية والترابية، قياماً بواجب البيعة، فتفضل جلالاته نصره الله وحفظه بإعطاء إشارات بليغة وقوية على تماسك المغاربة وتكتلهم أمام كل ما يتهدد مقدساتهم، وترأس مجلساً وزارياً بإقليم وادي الذهب تم تفضل كذلك بإلقاء خطاب سامي على شعبه المغربي من إقليم الساقية الحمراء، أكد فيه التشبث الدائم للمغرب بالشرعية الدولية وباللحلول السلمية الحضارية وأنه لن يتنازل عن حبة رمل من

ترابه وأنه متمسك (بالحل/الإطار) وفق ما تيناه مجلس الأمن، مجسداً بذلك مفهوم الجهوية وما تكتسيه من أهمية في إطارها التنموي الاقتصادي والاجتماعي والثقافي.

لا غرو، إذن، وأن هذه الزيارة الملكية المولوية الرمزية لتعبير قوي يؤكد مرة أخرى بما يقطع دابر الشك على رابطة البيعة القائمة إلى الأبد بين الشعب المغربي وملكه وعلى العلاقة الدائمة بالعرش العلوي والجالس عليه جلالة الملك محمد السادس أيده الله بنصره المبين وفق مبادئ الشريعة الإسلامية والحقوق القانونية .

محطات من التاريخ المغربي برزت فيه رجالات من الصحراء

لارباس الشيخ ماء العينين

إن للمغرب تاريخا مجيدا وغنيا بما خلد رجالاته الأفاضل من أعمال تذكروا فتشكروا ولا يمكن لباحث واحد أن يحيط علما بتاريخه الغني بالذكريات الجميلة فكم أعطى هذا البلد الأمين من أعلام شرفوا تاريخ الإنسانية بما تركوا من إسهامات علمية وعملية وبما نشر أبنائه من العلم في كثير من أصقاع العالم فجنّدوا أنفسهم لبعث الإسلام وتبليغ دعوته منذ ظهوره في هذه الربوع وكانوا خير مثال يحتذى به في العمل البناء لأنهم لم يتركوا الوقت يضيع لكونهم شغولهم فيما يفيد دينا ودنيا.

وكل من تتبّع ما بذله أبناء هذا الوطن العزيز، من أعمال جبارة، يجد أن ما حققوه للإنسانية في شتى مجالات الحياة كثير، وشواهد ماثلة للعيان :

هذه أثارنا تدل علينا فانظروا بعدنا إلى الآثار

فلقد صانوا هذا الوطن وذبو عن كرامته، ودافعوا عن وحدته، وكرسوا الجهد لبنائه وحملوا ثغوره من الغزاة، وجنبوا الوطن والمواطنين ما رامه أعداء

هذا البلد من تمزيق وتشردم وتفكيك له، ليقظة ولد المغرب، وحزمه وغيرته، وشهامته واعتباره لقيمة هذا الوطن التي لا تقدر بثمن، ولتاريخه المبيض الذي هو غرة في جبين حياة الأمم وهو كذلك نور وضياء يوضح سبيل الشمم والعزة والكرامة لمن أراد أن يسلكها.

فلا شك أن من يحمل القلم ليكتب عن موضوع يهم جانبا من أنواع تاريخ هذا البلد سيجد نفسه محرجا، لكونه لا يمكنه الإحاطة بالموضوع الذي يريد تناوله، لغناه وغزارة مادته، ولا تسمح له نفسه بترك التحدث عنه لأهميته واحتياج الأجيال الصاعدة للإطلاع عليه أو على البعض من جوانبه، ففي المثل «ما لا يمكن كله لا يترك بعضه».

وانطلاقا مما أسلفت ذكره، فسأتناول بالذكر وبكل اقتضاب بعض المحطات من التاريخ المغربي برزت فيها رجالات من الصحراء المغربية.

وقبل أن أتعامل مع هذا الموضوع بتركيز وتوثيق وإيجاز، لابد أن أشير إلى أن رجالات الصحراء المغربية الجنوبية، هم رجالات شمال المغرب والعكس صحيح لأن المنبع السلالي في تاريخه القريب واحد، ولا أقول البعيد لأن الكثير من المصادر تشير إلى أن السكان الأصليين الذين عمروا شمال المغرب أتوه نازحين من اليمن، والبعض ينفي هذا الطرح. وفي هذا الموضوع خلافات في الأقوال ولكل حجة ودليله على ما يقول. المهم عندي أن أنبه على لفظه ولد الصحراء المغربية التي يمكن أن نطلقها على من أصله ومنبعه وسلالته هي في الحقيقة من زرهون، أو من جبل العلم، أو اخنيفرة، أو الريف، أو مراکش، أو أغمات... وهلم جرا.

إن الدولة المغربية واجهت في تاريخها من الاعتداء عليها الشيء الكثير ولكن النصر يكون دوما وأبدا حليفها لكونها تدافع عن الحق ولا تنشد غيره وتلك عاداتها وذلك دأبها فلا تجد في تاريخ أمتنا العظيم أنها اعتدت على الغير ولا

ركنت للظلم خوفاً من أن يصدق عليها قول الله تبارك وتعالى ﴿ولا تركنوا إلى الذين ظلموا فتمسكم النار﴾ ومنذ دولة الأدارسة المسلمة والمغاربة جاعلين نصب أعينهم نصيحة الإمام إدريس المرسل إلى المغرب والتي جاء فيها بعد أن ابتدأها بالبسملة قال رضي الله عنه : [ولا يؤيسنكم من علو الحق اضطهاده وقله أنصاره فإن فيما بدأ من وحدة النبي ﷺ والأنبياء الداعين إلى الله قبله وتكثيره إياهم بعد القلة دليلاً بيناً وبرهاناً واضحاً، قال الله عز وجل : ﴿ولقد نصركم الله ببدر وأنتم أذلة﴾، فنصر الله نبيه، وكثر جنده وأظهر حزبه، وأنجز وعده، جزاء من الله سبحانه وثواباً لفضله وصبره وإيثاره طاعة ربه ورأفته بعباده ورحمته وحسن قيامه بالعدل والقسط] إلى آخر ما جاء في هذه الرسالة المرسل إلى المغرب من أول مؤسس لدولة إسلامية في هذا البلد الأمين، فحرص الشعب المغربي كل الحرص على التشبث بالقيم، كما نشر علماء المغرب وزعماءه وكافة شعبه بقيادة ملوكه الذين تعاقبوا على تسيير دولته الإسلامية العدل ورسخوا عقيدة الإسلام في النفوس. وفي ظل هذه الدولة الإسلامية المغربية تعايش جميع الأديان في أمن وسلام واطمئنان، ولا ظلم ولا اضطهاد ولا اعتداء على حقوق الإنسان. يسود الكل الحرية المنضبطة التي يتحكم فيها الوازع الديني والأخلاقي. قال تعالى : ﴿والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض﴾. وقال : ﷺ «الراحمون يرحمهم الرحمن». فالرفق لا يكون في شيء إلا زانه، كما أن العنف لا يكون في شيء إلا شانه.

فبدأت هذه الدولة الإسلامية المغربية تعتمد في توجهها على المنهاج النبوي السليم وعلى هذا الأساس الرباني انطلقت دولة الإسلام في هذا البلد الأمين، وتمت وحدتها، وقوي انسجامها، وتوطدت روابطها، وتعاقق أبنائها شمالاً وجنوباً، وشرقاً وغرباً على تقوى من الله ورضوان، من عهد أول والي من الأدارسة على مناطق الجنوب وهو عبد الله ابن إدريس الثاني الذي ولاه أخوه محمد ابن إدريس الثاني على المناطق التالية... مدينة أغمات، وبلاد نفيس، وبلاد المصامدة. والسوس والصحراء.

قال البكري إن السوس كانت تطلق على الصحراء، فأعلام الجنوب الصحراوي المغربي ظلت تتوافد في هذا التاريخ على شمال المملكة إلى يومنا هذا من مسؤولين إداريين، وطالبي علم، وقادات، وأعلام مرموقين، لاندماج السكان بعضهم ببعض. وإلى هذه الولاية أشار ابن أبي زرع في الأنيس المطرب، وضمن ذلك عبد الهادي التازي عضو أكاديمية المملكة المغربية في كتابه «التاريخ الدبلوماسي للمغرب من أقدم العصور» المجلد الرابع...

إذن منذ بزوغ شمس أول دولة إسلامية، والتزاور بين أعلام شمال المغرب وجنوبه يعم جميع جهات المملكة المغربية ولا يمكن لعرض وجيز أن يحيط بالمحطات التاريخية لزيارة أعلام الصحراء المغربية لشمال المملكة وذلك يحتاج إلى مجلدات، ووقت كاف، وتضافر جهود علماء مختصين، لغزارة هذه المادة، وكثرة أعلامها، وأهمية ما خلدوه من ذكر تحدث عن بعضه المؤرخون المختصون بإسهاب، وما زال الكثير منه يحتاج إلى الكتابة عنه، كي يستفيد أجيالنا وغيرهم مما لهذا الوطن العزيز من رصيد تاريخي غني بالأعمال البناءة التي صرفت في خدمة الإنسان وما زالت آثارها المشرفة ماثلة للعيان خلدتها أسلافنا الأماجد وبقيت دليلا قاطعا وبرهانا ساطعا على عظمة هذا البلد وسمو حضارته الضاربة جذورها في أعماق تاريخ الإنسانية.

ولنشرع في ذكر محطات من التاريخ المغربي برزت فيها رجالات من الصحراء المغربية وأبناء الجنوب مع أنني لا أعمد في هذا العرض الوجيز على تفاصيل الأعمال التي قامت بها كل شخصية وإنما أضمن ذكر اسمها وبعض خلال الحميدة التي تتحلى بها لكون تتبع أعمال كل علم من الأعلام التي ذكرت يحتاج إلى وقت أطول.

وقد اعتمدت في كثير من أسماء الشخصيات التي تطرقت إلى ذكرها في هذه الكتابة على كتاب «الإعلام فيمن حل بمراكش من الأعلام».

ولضيق الوقت فقد اختصرت على ذكر النزر القليل من أعلام الجنوب لأن الإحاطة بأسماء جلهم تحتاج لوقت طويل وبحث شامل ومتأنى الشيء الذي لم يسمح به الوقت وقد يلاحظ القارئ أنني ذكرت الأسماء دون أن أتتبع التاريخ الذي عاش فيه كل علم بالترتيب كما لم أذكر إنتاجه وفي كثير من الأحيان لم أذكر تاريخ ولادته ولا وفاته.

فمن أعلام الجنوب البارزين يوسف ابن تاشفين اللمتوني الصنهاجي، كان من أعلام عصره الذين واجهوا قساوة الطبيعة وصعوبة الوقت الذي عاش فيه بإرادة هندوانية، وإيمان الواثق من نفسه، المتواضع في سلوكه، المحاسب نفسه دينا ودنيا.

فاستطاع يوسف ابن تاشفين اللمتوني الحميري بما وهبه الله من نعوت المجد، أن يترك بصماته المشرفة البارزة في أعماله البناء وجهاده الوجدوي خدمة لهذا الوطن ولا غرابة في ذلك فهو من قوم قال فيهم الشاعر مادحا له :

قوم لهم شرف العلى من حمير وإذا دعوا لمتونة فهمو هموا

لما حووا عز المكارم جملة غلب الحياء عليهم فتأثموا

كان يغلب على حياة يوسف الخاصة التقشف، ويقال إنه لم يلبس قط إلا الصوف وأكله يقتصر فيه على الشعير ولحوم الإبل وألبانها. ولد ببلاد الصحراء المغربية سنة 400 هـ وقد توفي في أواخر القرن الخامس ودفن بحاضرة مراكش رضي الله عنه وأرضاه. وقد بذل ما في وسعه من الجهد لبناء هذا الوطن والدفاع عن قيمه وأصالته...

ومن أعلام الصحراء المغربية الولي الصالح والشريف الشهير الذي عم ذكره كثيرا ومن جهات العالم لما أعطاه الله من القبول والتأثير على قلوب الناس

لاستقامته وورعه وقيامه بالواجب حول ربه ولمحبته على قلوب الناس فكان رضي الله عنه آية من آيات الله في نفع البلاد والعباد وقد ظهرت عليه كرامات كثيرة زادت الناس في اعتباره وتقديره، ألا وهو التقي النقي المتوجه إلى الله بكله وبعضه الشريف الإدريسي الشيخ سيدي أحمد الركيبي المتوجه إلى الله بجميع جوارحه سليل الولي الصالح الشهير مولاي عبد السلام ابن امشيش الإدريسي العلمي نفعنا الله ببركته وبركة آل البيت جميعا. فكان الشيخ سيدي أحمد الركيبي أعجوبة زمنه في الإنفاق والفضل والتوجه لله بالذكر والعبادة، وله محل كان يختلي فيه لعبادة ربه مازال معروفا عند السكان يقال له الخلوة بواد أشبيك جنوب مدينة طانطان يبعد عنها بحوالي 70 كيلومتر على وجه التقدير وكان رضي الله عنه في زمن السعديين حسبا تقول بعض المصادر، وانتشرت ذريته وأتباعه فكانوا مثالا في الجهاد، والفضل، ومقاومة النصارى، ونفع الضعيف، وشهامة النفس، فكم من معارك خاضوها جهادا في سبيل الله ودفاعا عن هذا الوطن العزيز ولا غرابة في ذلك فسكان هذا البلد الأمين كلهم أهل فضل ونبل وشهامة، كما أشرنا إلى ذلك لأنني لا أدون في كتاباتي عن أهل بلدي عامة إلا ما يشهد لهم به التاريخ من أعمال تعتز بها الإنسانية، وقد خلدت وتخلد لنا نحن المغاربة فخرا وعزا ومكانة في قلوب الكل يرجع الفضل ذلك لله أولا ولعباده الصالحين الذين منهم من نحن شرفنا قلمنا بالحديث عنه وهو الشيخ سيدي أحمد أرقبيبي الولي الصالح التقي النقي، وذريته المجاهدة الكريمة المحتد، والتي شرفت هذا البلد الأمين بجهادها وصمودها أمام النصارى في المعارك التي خاضتها معهم ولا ينكر ذلك إلا جاحد.

ومن أعلام الصحراء المغربية الذين عرفوا بصلاحهم ومكانتهم الاجتماعية في شمال المغرب وصحرائه وغيرهما الشريف الولي الصالح الشيخ سيدي أحمد لعروصي كان صاحب فضل واستقامة ومحبة في قلوب الناس عم صيته العظيم وانتشر ذكره الحميد وتمكنت محبته من قلوب الناس فهو رضي الله عنه من أعلام صحرائنا المغربية المرموقين في الشمال والجنوب وكان أخذ عن الولي الصالح

سيدي رحال الكوش أبو العزم يقال له البدالي. وقد خلف الشيخ سيدي أحمد لعروصي الشريف ذرية صالحة تاريخها مجيد وعملها بناء وشجاعته مشهورة ومازالت على ما تركها عليه جدها الشريف من الفضل والاستقامة... .

وأشير أن هذا البلد الأمين أعني المملكة المغربية صان أبناؤها الأماجد كرامته، وشرفوا سمعته، وخذلوا له ذكرا جميلا تبقى الألسن تلهج بمدحه وتصدع بالإعجاب به، فأعطى تلاحم العرش العلوي المجيد والشعب المغربي الوفي ملاحم كثيرة ذاق منها العدو الأمرين ولم يستقر له قرار نتيجة الهجمات المتكررة التي لاقاها المد الاستعماري الظالم فتحركت أبناء هذا الوطن من جميع جهاته وبدون استثناء حتى تيقن المتسلط أن لهذا البلد الصّامد رجالا لا تلين قناتهم ولا يتخلون عن القيام بواجبهم مهما كلفهم ذلك من ثمن.

ولمن أراد أن يتتبع البعض من ذلك ولا أقول الكل لأن الكثير من تاريخ هذا البلد العزيز ما زال لم يدون، أقول إن من أراد أن يتتبع البعض من هذا التاريخ المجيد فعليه أن يرجع إلى تاريخ المقاومة المغربية فإذا كتب له أن راجع ما دون وكتب عن جهاد هذه الأمة وذبحها عن كرامتها ونضالها عن حدودها التاريخية سيجدها خير أمة حمت وطنها وحافظت على كرامتها بقيادة ملوكها العلويين الأماجد، ولا شك أن هذا الوطن المغربي العظيم الذي تشهد له حضارته العريقة والمتجذرة في عمق تاريخ الإنسانية سيعتني بأبنائه البررة المتفانين في القيام بالواجب عليهم، وذلك أضعف الإيمان، وهم منتشرون في شمال وجنوب وشرق وغرب ووسط المملكة المغربية، لأن الاستعمار وأذنابه حاربوا أولئك المجاهدين وأهلهم وذويهم، ولا ننسى ما واجه به أعلام الصحراء المغربية الغازي، ففي سنة 1905 انعقد أكبر مؤتمر بمدينة السمارة الصّامدة عند العلامة المجاهد شيخنا الشيخ ماء العينين جمع قادة وعلماء وأعيان الساكنة لتدارس وضع المد الاستعماري والعمل على مقاومته بشتى الوسائل المتاحة، وتقرر في هذا الملئقى التاريخي أن يتوجه جميع أعلام الساكنة للسلطان بمراكش أو فاس لتدبير الأمر

واتخاذ ما يراه جلالة الملك مولاي عبد العزيز من تدابير في الموضوع وفعلا مثل الكل أمام السلطان لإبلاغه حقيقة الوضع في الصحراء المغربية، وزود المغفور له مولاي عبد العزيز الموفدين بنصائحه المفيدة وتوجيهاته السديدة لمجابهة العدو وجزر مده، وكانت لتلك الزيارات التي قام بها هؤلاء الأعلام الأوفياء أكبر مردودية أغنت تاريخ المغرب الجهادي بفضل الله وما قام به العرش العلوي المجيد والشعب من نضال يجسم الوحدة ويكرس الوفاء.

وللحقيقة والتاريخ فأبناء الصحراء المغربية مفخرة لهذا الوطن ولصمودهم في وجه الغازي ولما نشروا من العلم في شرائح مجتمعاتهم بعضهم من البعض وكلهم مع الغير، فلهم تربية خاصة تمتاز بالجد والإخلاص والاستقامة التلقائية، وهذا طبع فيهم، ولهذه الصفات الفاضلة المتجذرة فيهم تلمس في سلوكهم تفانيهم في خدمة الصالح العام لأن طبعهم المهذب بالتلقائية نادر من نوعه.

هكذا كان ولد الصحراء المغربية، النقي المظهر والمخبر فساعد هذا السلوك الطبيعي الفاضل الذي كان سائدا في أبناء صحرائنا المغربية على أن يخلد قادتها، وزعمائها، وعلمائها، ومجاهدوها الذكر الجميل والأحدث الطيبة.

وما الشيخ ماء العينين الذي ترك عمله البناء ماثلا للعيان علما، وجهادا وعمرانا ومكانة في قلوب الكل إلا واحد من أبناء الصحراء المغربية المجاهدة، فقد أنجبت من الزعماء والمقاومين والقادة المرموقين ما لا يأتي تحت حصر، فأهلها وذووها مفخرة لهذه الأمة المغربية التي شرفها ولد الصحراء بجهاده وعلمه وإخلاصه. فالشيخ ماء العينين الذي انعقد عنده وتحت رئاسته المؤتمر السالف الذكر، مفخرة العلماء العاملين، وشمس أعلام المجاهدين، وغرة كمل الأولياء الصالحين، ونادرة المجددين المجتهدين. أتعب نفسه في خدمة المؤمنين وأخذ بما جاء به سيد الأولين والآخرين وأحيا السنة بعلمه واستقامته وأمات البدعة بعمله وبورعه وبحكمته، وخدم وطنه وأخلص لمقدساته. فالشيخ الفاضل،

والمجاهد الواصل، والسلفي السني الصوفي الكامل، شيخنا الشيخ ماء العينين ابن الشيخ محمد فاضل ابن مامين، ازداد هذا الشيخ في 27 شعبان عام 1246 هـ موافق 08 فبراير 1831 م، فتلقى العلم على يد والده وتخرج من مدرسته الفاضلية التي أطرها الشيخ محمد فاضل بأعلام العلماء المرموقين.

وكان الشيخ ماء العينين نادرة زمانه في الحفظ واستيعاب الدرس وكمال القدرة على جمع العلم، وكان عبقرى زمانه لا يوجد مثله في سرعة الفهم، وهضم المعارف لما وهبه الله من النجابة الفائقة. تخرج وهو ابن عشرين سنة وبقي عند والده يدرس بمحضرتة للطلبة 8 سنوات وتخرج على يده الكثير من طلبة مدرسة والده وعندما تيقن الشيخ محمد فاضل من أهلية ولده وغزارة علمه وتمكنه من المعارف الإسلامية صدره. وتوجه الشيخ ماء العينين من بلده شرق موريتانيا من الحوض الشرقي يوم الثلاثاء 27 شعبان 1274 هـ. وتوجه لملك المغرب جلاله الملك مولاي عبد الرحمان والتقى به في مكناس، وجدد له البيعة الشرعية وأكرم السلطان وفادته وأنعم عليه بالتوجه للحج لبيت الله الحرام هو ورفاقه، وبعد رجوعه من الحج شمر عن ساعد الجد لخدمة ملكه ووطنه وشعبه، وكان عند حسن ظن الملوك الخمسة الذين عايشهم وخدمهم بقلبه وقالبه، وهم على التوالي : ملوكنا أصحاب الجلالة والمهابة : مولاي عبد الرحمان، ومولاي سيدي محمد، ومولاي الحسن الأول، ومولاي عبد العزيز، ومولاي عبد الحفيظ. تغمدهم الله برحمته فكان عمله بقيادة هؤلاء الملوك العلويين بناءً وحباً لله برضاهم لوفائه، وإخلاصه، وغيرته على دينه ووطنه، فجدد نفسه للجهاد حسب توجيهات الملوك الذين خدمهم وصرف وقته في نفع العباد، وكان محبباً عند الخاص والعام. ولقد برهن هو والمجموعات الذين عاش في تاريخهم من أبناء هذا الوطن الغالي عن تقانيهم في العمل المجدي.

وكان أبناء الجنوب المغربي بصفة عامة مثلاً يحتذى بهم في الوفاء والصفاء والالتزام بالأعمال المشرفة وكل من تتبع حياة الشيخ ماء العينين من

خلال المصادر التي تحدثت عنه يعلم أن رجالات الصحراء المغربية كانت لهم مساهمات مشرفة جدا في بناء هذا الوطن والذب عن قيمه ونشر الدعوة فيه إلى الله والتي هي أحسن وصون وحدته الترابية تحت ظل العرش العلوي المجيد الذي كان هذا الشيخ منارا في الإخلاص له وللمقدسات الوطنية... وكم كتب عن جهاده وعلمه ودفاعه عن القيم فهو نادرة زمنه، وغرة عصره، ومفخرة أوانه، رضي الله عنه وأرضاه.

ومن أعلام علماء الأمة الإسلامية البارزين ومشاهير قمم العلم في الجنوب الصالحين المصلحين، العلامة الجليل الذي بلغ رتبة الاجتهاد وتلمذ عليه الأعداد الكثيرة من العباد وانتشر صيته في الأفق ومدح نظما ونثرا لعلو كعبه في ميادين العلوم الإسلامية التي شغل وقته بها، فأحيا السنة، وأمات البدعة، وهو في عصره لا يجارى ولا يبارى في العلم ومكارم الأخلاق ونفع الخاص والعام فقد إنتالت إليه قلوب الناس لما وهبه الله من الفتح الرباني فكان مضرب الأمثال في نشر العلم وتلقيه وانتفع به أعداد كثيرة من الناس في إفريقيا وغيرها ألا وهو العلامة المجتهد الكبير الشيخ سيدي عبد الله بن الحاج إبراهيم ابن الإمام محنض أحمد العلوي، يقول فيه صاحب الإعلام . (مكث أربعين سنة يرتاد العلم لم يتسبغ منه جمع أولا ما في الصحراء ثم أقام بفاس مدة كثيرة للنظر والتحرير)، له أنظام بديعة مع شروحا أشهرها نشر البنود على مراقي السعود، توفي رضي الله عنه عام 1230هـ فكان رضي الله عنه موسوعة علمية متحركة فكثرت أتباعه، وانتشر علمه، وانتفع به الكثير رضي الله عنه وأرضاه. وكتبه من المراجع المعتمدة عند العلماء أصحاب الاختصاص.

ومن أعلام الجنوب المرموقين العلامة البارز والولي الكامل والرحالة المشهور صاحب الفتاوى الموقفة، والأحكام العادلة، والولاية الشهيرة الشيخ الطالب أحمد المصطفى ابن اطوير الجنة فقد انتشر صيت هذا العالم وترك في نفوس الذين التقى بهم من العلماء في المشرق والمغرب إعجابا به منقطع النظير

والتقى بمراكش بمولاي عبد الرحمان سلطان المغرب رضي الله عنه وأنزله السلطان بجامع الولي القطب سيدي ميمون الصحراوي وزار رجال أغمات لأن أصله منها، توفي ق 13 هـ رضي الله عنه وأرضاه.

ومن الأعلام البارزين والعلماء العاملين والأولياء الصالحين العلامة الولي الصالح الشيخ سيدي المختار ابن الهيب، قدم مراكش في أيام مولاي عبد الرحمان ونال حظوة عظيمة عند السلطان وقد قدره كل من التقى به لعلمه وفضله ومكانته في قلوب الناس. وشهرته تغني عن التعريف به فلقن العلم ونشره، ونفع الناس، وظهرت حكمته للكل، وتيقن من تتبع حياته المليئة بالمفاخر على بعد نظره وسديد رأيه وتمام حنكته....

ومن أعلام الجنوب المشهور بنعوت الفضل في الآفاق الشيخ سيد المختار الكنتي فكان رضي الله عنه من أبرز علماء عصره واشتهر بالصلاح والولاية، ولقد عم صيته الوضأ كثيرا من جهات المملكة وغيرها ونشر العلم ولقنه للراغب فيه من شتى الآفاق ومشهور بمنطقة اتوات وغيرها ولا يمكن أن يحصى ما أعطى الله له من الفضل والعلم والكرم ونفع العباد والبلاد جزاه الله بوافر رحمته وأسكنه فسيخ جناته إنه سميع مجيب.

ومن فقهاء الصحراء المغربية العالم الجليل السيد امبارك ابن الشيخ المختار السباعي الدميسي الشيخ البركة الصالح. عرف بالعلم ونشره ونال القبول عند الناس وسمعته بين الأوساط مشرفة وكان حظيا عند السلطان مولاي عبد الرحمان وكان يبعث إليه ويجالسه ويعتني به غاية الاعتناء وكان السيد امبارك ابن الشيخ المختار من العلماء المحبوبين عند المجتمع لورعه واستقامته وحسن سلوكه رضي الله عنه... توفي رحمه الله عام 1284هـ بمراكش.

ومن أعلام الصحراء المغربية العالم العظيم، المتوثب لنيل المكرمات، ذو الطموح الفائق لاستيعاب المعارف، التقى الورع الطاهر المظهر والمخبر، من

تحدث عنه عارفوه بأنواع الثناء لما وهبه الله من غزير العلم وحب تلقينه للراغب فيه : الشيخ سيدي عثمان ابن شيخنا الشيخ ماء العينين كان محترما عند الخاصة والعامّة، معروفاً بنفع عامة الناس، ساعياً لبعث الإسلام في نفوس الكل، لا يفتر عن ذكر الله، عزيز عند طبقات المجتمع، كثير الأسفار فيما بين الصحراء المغربية وداخل مدن المغرب الشمالية. توفي في مراكش عن نحو 30 سنة عام 1305 هـ.

من علماء الجنوب العلامة محمد الأمين ابن عبد الله الحجاجي الجعفري الحسني كان عالماً وأديباً وشاعراً ومتصوفاً. شارك مشاركة فعالة في المناظرات العلمية مع عدة علماء، ويفرض احترامه بعلمه وحسن عطائه وقبول إنتاجه، وكان للسلطان مولاي سيدي محمد فيه محبة كبيرة. توفي رضي الله عنه عام 1290 هـ.

ومن أعلام الصحراء المغربية العلامة الورع الناسك التقي البشير ابن عبد الحي البربوشي دفين مراكش توفي في حدود التسعين من القرن الثالث عشر. اتصل بعلماء مراكش وفاس وتوطدت علاقته بهم وكان له عطاء فكري متميز ومحترم عند الجميع.

ومن أعلام الصحراء المغربية الناظم الناصر ذو التأليف العديدة في شتى أنواع المعارف الفريدة، نادرة عصره وأوانه عبقرى مكانه وزمانه، خريج مدرسة السمارة العلمية والجهادية العلامة الشيخ محمد تقي الله ابن الشيخ ماء العينين الملقب محمد بوياء، لقد كان لهذا التقي النقي والعبقري الذكي من التأليف ما يشهد على سعة معرفته وغزارة علمه واتساع مشاركته فكان لإنتاجه الرفيع مكانة خاصة عند علماء الجنوب الذين استفادوا من معارفه الجمة فلقد صدر فتاوى وألف في النحو والبلاغة وفي علم العقائد، وله ديوان شعر. كما ألف في علوم القراءات وله شرح لنظم العلامة الطالب عبد الله في رسم القرآن. وكل إنتاجه لحد الساعة ما زال مخطوطاً وإذا قدر له أن يطبع فسيغني الخزانة العربية كما أنه

يثيري المعارف الإسلامية لما للشيخ محمد تقي الله ابن الشيخ ماء العينين من علم مفيد، لعبقريته وتوقد ذهنه، وحسن تعبيره، وسلاسة إنتاجه. توفي رضي الله عنه بمراكش وبها دفن عام 1320 هـ.

ومن أعلام الجنوب المغربي السيد أحمد ابن الأمين اليعقوبي نسبا زار مراكش وأكرم وفادته بها السلطان مولاي سيدي محمد ابن السلطان مولاي عبد الرحمان واشتهر هذا العالم بالفقه والأدب وكان عارفا بعلم الهندسة ولقن هذا العلم لطلابه من طلبة مراكش. وله مدائح شعرية في السلطان سيدي محمد ابن السلطان مولاي عبد الرحمان رضي الله عن الجميع. توفي في القرن الثالث عشر رحمه الله.

ومن علماء الصحراء المغربية الذين جندوا أنفسهم لنشر العلم وتلقيه الأستاذ أحمد ابن عبد الوهاب الذي استوطن مراكش وتوفي بها سنة 1284 هـ.

ومن مشاهير الصحراء المغربية العلامة المجاهد الشيخ أحمد الهيبة ابن الشيخ ماء العينين المولود في شهر رمضان المعظم عام 1293 هـ فلقد رباه والده أحسن تربية ونهل وعلم من شتى أنواع المعرفة وكان من علماء مدرسة السمارة المجاهدة، الصامدة بالصحراء المغربية وتخرج على يديه من تلك المدرسة كثير من الأعلام البارزين لكونه من ألمع العاملين بهذه «المحضرة» الذي يشرف عليها عميدها ومؤسسها والده الشيخ ماء العينين الذي أطر هذه المدرسة بالعلماء الأكفاء فكان الشيخ أحمد الهيبة من جملة أبنائها المجاهدين وأساتذتها المرموقين وعلمائها البارزين وأدبائها المجيدين. وله مناظرات في أنواع العلوم الإسلامية مع علماء فاس ومراكش وسوس وغيرهم لما له من مشاركة علمية مشرفة وقد قال عنه صاحب الإعلام المراكشي ص 473 «فقد كان يكاتب سلطان المغرب مولاي عبد الحفيظ ومن جملة مكاتبيه التي وقفت عليها حين كنت بفاس يقول صاحب الإعلام، ربيع عام 1330 هـ ما نص المقصود منه : سيدنا أمير

المؤمنين وناصر الملة والدين غيثنا وغوثنا مولاي عبد الحفيظ... إلخ». توفي بكردوس 24 رمضان عام 1337 هـ.

ومن علماء الصحراء المغربية الفقيه التقي، الزاهد الورع، ذو الفتاوى المصيبة، والأعمال السديدة، والأخلاق الحميدة. من جند نفسه لتحصيل العلم ومجاهدة النفس وصحبة الأخيار العلامة محمد المهدي بن البشير البربوشي، الذي صرف عمره في العلم والعمل، وكان محل تقدير عند الجميع قال فيه صاحب الإعلام المراكشي بالحرف : {العلامة المشارك الصوفي الشيخ الزاهد محمد المهدي ابن البشير البربوشي قرأ في مراكش وسافر لإداواعلي التي في القبلة وقرأ هناك وأخذ طريقة سيد أحمد التيجاني وأتى بعد ذلك الشيخ بن حامني ومكث ثم ولما تلاقى مع ابن حنوب وكان يعرفه قبل وسأله عن شيخنا الشيخ ماء العينين رضي الله عنه أتى شيخنا المذكور وأخذ عنه وكان يلزم المكث عنده ويرسله لأهله وبلغ مبلغ القوم السادات} ص 58 ج 7.

ومن أعلام الصحراء المغربية الشريف سيد المختار الولي الصالح الكائن بأرض تغسريت موطن قبيلة الشرفاء أبناء أبي السباع، قدم هذا التقي الورع والعالم العامل من الصحراء المغربية ونزل في بداية أمره بتامكروت على الشيخ أحمد ابن ناصر وبقي عنده برهة من الزمن كان فيها عند الشيخ محل تقدير وتكريم لما لمس فيه من العلم والورع وحسن السلوك ثم توجه لقبيلة الشياظمة واشترى بها أرضا وصار هذا البلد موطناً له ولذويه ولكل المحترمين به ومازال صيتهم، أعني الشرفاء أبناء أبي السباع، منتشرا في هذا البلد وفي غيره زادهم الله توفيقا.

ومن علماء الجنوب العاملين ونبغائه المرموقين، وأوليائه الصالحين وشعرائه المجيدين وبلغائه الناثرين العلامة التيجاني ابن بابا العلوي من قبيلة إداواعلي المشهور بالعلم والعمل والتقوى وهو مؤلف «منية المرید» الذي يقول في هذا النظم المفيد معرفا بنفسه :

قال ابن بابا العلوي نسبه المغربي المالكي مذهبه

وله عدة تأليف تبيين ما له من غزارة علم وسعة اطلاع ومشاركة متميزة في أنواع العلوم الإسلامية، ولا غرابة في ذلك فالدر من معدنه.

ومن علماء الجنوب العلامة محمد الأغظف ابن أحمد مولود الحوضي أصلاً كان من أهل النسك والتعب، ومجاهدة النفس والغيرة على محارم الله، وكان ممن جالس مولاي عبد الحفيظ، وكان السلطان ينظره بعين الاحترام لعلمه، وورعه، ووفائه للقيم. توفي بمراكش عام 1337 هـ ودفن بروضة الإمام السهيلي.

ومن علماء الصحراء المغربية الذين عم ذكرهم الأفاق لشهرته ونشره للعلم وتلقيه الخاصة والعامة ولكثرة مرديه الفقيه الفاضل، المنفق في سبيل الله، النافع لعباد الله كبيرهم وصغيرهم، المعروف بتمكنه من أنواع العلوم. ألا وهو الفقيه بمعنى الكلمة الشريف الفاضل السيد عبد المعطي بن أحمد السباعي، فهو علامة عصره لهجت الألسن بالثناء عليه وانتفع بعلمه كثير من الناس وتخرج من مدرسته العلمية أفواج كثيرون وساهمت مدرسة الفقيه عبد المعطي مساهمة علمية عظيمة يعتز بعملها الرائد أبناء المغرب في الجنوب والشمال، يقول عنه صاحب الإعلام المراكشي : {أنه ولد بأولاد أبي السباع القاطنين ببلاد بوحمادة في أول عشرة السبعين ومائتين وألف، أخذ عن الفقيه الصوفي الطالب أحمد بن عبد الوهاب الحوضي الغلاوي الأصل المتوفى بمراكش العقائد والتصوف ومقدمة ابن أجيروم الصنهاجي في النحو، وأخذ عن الشيخ محمد خوي ابن مصطفى المجلسي المتوفى بمراكش نصف رسالة ابن أبي زيد قراءة حفظ وإتقان، وجملة صالحة من الأدب ولقي بالصحراء السادة الكرام أهل محمد سالم والشيخ محمد المقرئ، سيد إبراهيم الشيخ بن حامني المستقل بقراءة العلم} إعلام المراكشي ج8 ص 386، رضي الله عن الفقيه عبد المعطي ابن أحمد السباعي بفضل وجوده وكرمه، فكان علماً من أعلام هذه الأمة المغربية يعتز به العالم الإسلامي قاطبة رضي الله عنه وأرضاه.

ومن أعلام الصحراء المغربية الأديب الشاعر الناثر الشيخ سيدي محمد ابن الشيخ ماء العينين الملقب سيداتي، كان هذا الأديب والشاعر المجيد والوطني الغيور الذي عرف عند الساكنة باستقامته وحيويته وعمله الجاد خدمة للصالح العام ولقد ذكره السيد العلمي المكناسي في رحلته عندما كلفه مولانا عبد العزيز بالذهاب لمدينة طرفاية على متن باخرة من مدينة الصويرة إلى شاطئ طرفاية، ذكر أنه استقبله في المدينة الشيخ سيدي محمد المتحدث عنه على رأس وفد وجهه الشيخ ماء العينين للبعثة التي على رأسها العلمي والتي جاءت لتزويد الحامية المخزنية بما تحتاجه زيادة على المهام الأخرى التي جاءت البعثة للقيام بها، وذكر العلمي في رحلته والتي أشار إليها ابن زيدون في كتابه الذي أرخ فيه لمن حل بمكناس من الأعلام... فكان الشيخ سيدي محمد على أدبه وعلمه ممن نوبه والده الشيخ ماء العينين في كثير من الأعمال وقد أظهر كفايته ومقدرته على القيام بالأعمال التي كلف بها، وله إنتاج ما زال لم ينشر وكان رضي الله عنا وعنه من ألمع أبناء السامرة المجاهدة وترك السمعة الطيبة لتفانيه في خدمة وطنه ووفائه لمقدسات هذا البلد الأمين رضي الله عنه وأرضاه.

ومن أعلام الصحراء المغربية العالم الجليل سليل نخبة الأصفياء ومنازة الأتقياء العلامة الجليل عبد الله بن محمد ابن محمد سالم الملقب حمد الله والد الموسوعة العلمية المشهورة بالعلم والتدريس عبد القادر الملقب قار كان حمد الله هذا الذي نذكر النزر القليل من محاسنه، صاحب مدرسة عظيمة في الصحراء المغربية لقن فيها العلوم وصدر الكثير من رواد هذه المدرسة وتلك شنشنة معروفة في هذه الأسرة العلمية النقية آل محمد ابن محمد سالم وما حمد الله إلا أحد أعلامها المشهورين ونبغائها اللامعين وأستاذتها المرموقين له عدة انظام في الفقه ويعتمد على القول الأصح فيما يتناول الحديث عنه، توفي بتاريخ 1330 على وجه التقريب وعرف بحبه لهذا الوطن ودفاعه عن مقدساته رضي الله عنه وأرضاه.

من علماء الصحراء المشهورين وزعمائها المجاهدين وأتقيائها الصالحين وأوليائها الورعين العلامة البركة الشيخ أشببهنا ابن شيخنا الشيخ ماء العينين

صاحب الفتاوى المفيدة والكتابات العديدة والأشعار الرائعة، لم يترك السيف للقلم بل تصدى هو بنفسه للمعتدي على الوطن المغربي وفاء منه للواجب وتمسكا بالكرامة وعلى هذا يشهد كل من حباه الله بمرافقته أو تتبع تاريخ حياته الذي كله علم وعمل، وكم عبأ من جماهير هذه الأمة لمناهضة الغازي وقادها بنفسه للجهاد... وله إنتاج في مناحي المعرفة مازال مخطوطا وينتظر نفص الغبار عنه ليستفيد منه المهتم وإذا قدر أن رأى النور فسيزيد الخزانة الإسلامية بفوائده الجمة لكون ذلك الإنتاج صادرا من علامة بارز مثله قليل في العلم وجمعه ومعرفته ونشره رضي الله عنه وأرضاه وجعل الجنة مثواه.

ومن علماء الصحراء المغربية العالم الناظم الناثر الشيخ محمد الإمام ابن الشيخ ماء العينين، لقد كرس هذا الوطني الغيور جهده منذ ريعان شبابه إلى أن لقي ربه لخدمة الوطن والتقاني في مصلحة المواطنين، فلحن العلم ونشره بكتابه الشيقة، وكتبه الرفيعة المستوى في شتى ميادين العلوم والفنون، وكانت مواقفه الموفقة في أحلك الظروف مشرفة إذ سخر كل إمكانياته لخدمة دينه ووطنه ومملكه وفرض احترام شخصه الكريم بما له من حكمة بالغة وحنكة فائقة، فهو العالم العامل والموجه لما فيه خير الدين والدنيا بصدق وأمانة لكل من تعلق به أو رأى أو رافقه أو والاه. وقد سخر قلمه السيال وفكره المتوقد وخياله الصافي وفراسته الصادقة لخدمة هذا الوطن ونشر محاسنه وتوجيه أجياله الصاعدة لما يخدم الدين والدنيا.

ومن أراد أن يتأكد مما أشرت إليه فليرجع إلى كتاباته المفيدة وإنتاجه الرفيع فمن كتبه القيمة : كتابه «الجأش الربيط»، وكتابه «المنتخب من تاريخ العرب»، زيادة على ما له من فتاوى وكتابات في أنواع المعارف، وله دواوين شعرية من اطلع عليها يعلم مدى قدرة العلامة الشيخ محمد الإمام وغازة علمه وتفوقه على غيره، ولقد تخرج على يديه كثير من العلماء نهلوا من بحر علمه الفياض وانتفع بما تلقوه منه كثير من العباد وقد وضعت على شخصه الكريم

كتابات مفيدة من اطلع عليها يعلم أن الشيخ محمد الإمام نادرة زمانه شرف الوطن والمواطنين بما خلد من علم غزير ومن عمل مشرف رضي الله عنه وأرضاه.

ومن أعلام الصحراء المغربية العالم العامل المجاهد، التقي النقي، السلفي الصوفي، علم الأعلام، بدر التمام، زينة عصره ومفخرة دهره، محل التقدير والاحترام من طرف الخاص والعام، جالب النفع لعباد الله ودافع الضر عن الخلق بلا تناه، من كرس جهده لدفع الظلم ووظف جميع إمكاناته لنشر السلم من يعبر جميع المخلوقات ويقدر شرائح الإنسانية على مختلف الطبقات من انجذبت إليه قلوب الناس من جميع الجهات بلا منازع وكان هادما للظلم وبالحق صادق، غرة دهره وزينة عصره، باذل المعروف لوجه الله، لا فرق عنده في مد يد المساعدة بين القريب والبعيد، يرفع الإنسانية حقها ويقدرها حق قدرها، لا يترك عمل اليوم للغد، ويشغل وقته الثمين بما هو أفيد، كل همه في نفع العباد وفق ما يدعو له الكتاب وتأمّر به سنة أحب الأحاب سید الأولين والآخرين خاتم الأنبياء والمرسلين. من جعل نصب أعينه قول اله تبارك وتعالى : ﴿وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون﴾ فكان عمله لبناء الوطن ومجاهدة النفس شمس زمانه وخير أقرانه الفاضل الرباني والمجاهد ألفذ الإنسي، حامل الكل ونافع الكل، الشيخ محمد الأغظف ابن الشيخ ماء العينين. لقد ناهض الاستعمارين الإسباني والفرنسي بما له من حنكة ووطنية ووزن ومكانة في قلوب الناس. وكان في نضاله موفقا حيث ينطلق من الشرعية ويعمل بما تقتضيه المصلحة من دفاع عن الكرامة، لا يقدم على عمل إلا إذا كان منطلقا من أرضيته الصلبة كغيره من زعماء الجهاد ورموز التضحية، وكانت خطواته موفقة وبقي على الجادة المستقيمة لا يحيد عنها قيد أنملة. فقبل الحماية لم يستقر له قرار هو و المجاهدون الأوفياء للمقدسات الوطنية فواجه المستعمر وخاض معه معارك جهادية تحدث عنها المدونون لبعض هذه المعارك الجهادية الوجدوية من أجانب وغيرهم فكتب عن مقاومة الشيخ محمد الأغظف ابن الشيخ ماء العينين الوجدوية الكتاب الفرنسيون

وغيرهم من المهتمين المنصفين المتتبعين لواقع الحركات الجهادية التي قام بها المغاربة الأوفياء ضد الغزو الأجنبي. ومن الكتاب الفرنسيين من تحدث عن المعارك التي خيضت ضد الغزو الأجنبي ككتاب التوغل داخل موريتانيا للرائد جيلي على سبيل المثال لا الحصر، كما كتب عن هذه المقاومة غيره من الفرنسيين والإسبانيين الذين ذاقوا ألم المقاومة الشرسة التي أشعل فتيلها أبناء المملكة المغربية الأشاوس فكتبوا عن وقتها كما سموا كل معركة على حدة في مكانها وتاريخها ومن يقودها. فمن رجع إلى تلك المصادر التي كتبت بدقة وتمحيص يتضح له بكل جلاء أولئك الذين نظموا مقاومة المستعمر ولم يبخلوا بالنفس والنفيس لجزر المد الاستعماري كما اهتم بالكتابة عن البعض من هذه الحركات الجهادية بعض المؤرخين من مغاربة وغيرهم وما زال الكثير لم ينصف في التعريف به وبعمله البناء، ومسؤولية ذلك تقع على أبنائنا المثقفين من أجيالنا الصاعدة وفق الله الكل لقول الحق ونشره بدون تحيز حتى يطلع القارئ على ما قام به أبناء وطننا المغربي من أعمال بطولية ذباً عن المشروعية وتدعيماً للحق وتوفيراً للكرامة، ومن حسن طالع أبناء المملكة المغربية أنهم لم يسجل عليهم التاريخ اعتداء على أحد لكن ولد المغرب الأصيل لا يقبل من أي كان المس بكرامته والتناول على أمته والاعتداء على وطنه.

ولقد كان الصدر الأعظم الشيخ محمد الأغظف المتحدث عنه والمعين بظهير خليفي صادر من مولاي الحسن ابن المهدي خليفة السلطان بالمنطقة الشمالية الخاضعة فيما سبق للحماية الإسبانية المغربية المعينة بتاريخ 1 أكتوبر سنة 1934 م كان منذ أن صار نائبا عن خليفة السلطان بهذه المناطق الصحراوية وهو يستأنف مسيرته النضالية الجديدة في ظل الحماية في شتى الواجهات الوطنية والدينية والروحية والإدارية، في توجه مغربي وحدوي، يخدم البناء والأمن والانضباط والتعبئة لمواجهة ثورة منتظرة على المستعمر فجرها وقادها المجاهد الأكبر والمقاوم الأول جلالة الملك المغفور له محمد الخامس

ورفيقه في الكفاح وجناحه الأيمن جلالة الملك المغفور له الحسن الثاني طيب الله ثراهما عندما أعلنها العرش العلوي المجيد انتفاضة ساحقة للمستعمر وأذنا به ووصلت يد المستعمر الأثمة للمغفور له محمد الخامس وأسرتة المقاومة. أمر الصدر الأعظم الشيخ محمد الأغظف بالحداد، حزنا على الجريمة النكراء التي أقدم عليها الماكر جوان من نفى بطل التحرير والأسرة المجاهدة الشريفة العظيمة... ولم يقتصر الصدر الأعظم على الحداد والحزن على نفى الأسرة المالكة والمقاوم الأول بل جمع علماء المنطقة وأفتوا بتقصير الصلاة حتى يفرج الله عن الأمة المغربية ورائدها ومنقذها هو وأسرتة وأشعلها المغاربة مقاومة شرسة حادة على المستعمر الفرنسي حتى رجع المغفور له وأسرتة حاملا معه وثيقة الحرية والاستقلال مرفوع الرأس وموفور الكرامة. وعم الاحتفال جميع جهات المملكة بهذا الانتصار الفريد من نوعه فرفعت الرايات المغربية في المدن والقرى والمداشر والمخيمات مزينة بصور جلالة محمد الخامس والحسن الثاني وباقي أفراد الأسرة الملكية الشريفة... في لگويرة ونواحيها، والداخلة وما جاورها، والعيون وأحياءها، والسمارة ومناطقها، وطانطان وأريافها، وإيفني ومداشره، وهكذا باقي جهات المغرب ومدنه... ولقد ذكرت هذه الأماكن لكونها آنذاك تخضع للحماية الإسبانية وكان أهلها وما زالوا وسيبقون أوفياء مخلصين مناضلين. بعد أن عمت الاحتفالات باستقلال وطننا الغالي كل الأماكن المذكورة وغيرها انعقد أكبر مؤتمر عرفه تاريخ المنطقة عند مخيم الشيخ محمد الأغظف ابن الشيخ ماء العينين في محل يقال له أم أشكاك سنة 56 حضره علماء وقادة وأعيان وأهل الحل والعقد من أبناء الصحراء المغربية وكان هذا التجمع المنقطع النظير وقع على رغم أنف المستعمر الإسباني وحاول إفشاله بشتى الوسائل ولكن بدون جدوى. فالوطنية المتأججة في نفوس السكان لإخلاص الكل للعرش العلوي المجيد وللجالس عليه، كانت أكبر مانع وأقوى سلاح أفشل به المؤتمرون مؤامرات المستعمر الإسباني الدنيئة، وانبثق من هذا المؤتمر العظيم وفد من قادة الصحراء المغربية يمثل الساكنة وتوجه للعاصمة المغربية الرباط بالرغم مما

وضع في طريقه من أشواك لتجديد البيعة وأخذ التوجيهات والتعليمات بصفة مباشرة من الملك محمد الخامس.

وفعلا كان لهذا الوفد المنطلق من عند الصدر الأعظم الشيخ محمد الأغظف ابن الشيخ ماء العينين ما أراد فمثل أمام المغفور له وجدد البيعة لجلالته وكلف بالموفدين ولي عهده جلالة المغفور له الحسن الثاني طيب الله ثراهما... وكان لممثلي السكان ما أرادوا وانتظم العمل الوطني من جديد بتخطيط مباشر من العرش العلوي المجيد وعندما تماطلت إسبانيا في تسليم إيفني وطانطان والساقية الحمراء ووادي الذهب أشعلها جيش التحرير المغربي نارا التهمت قوات المستعمر... يتكون هذا الجيش الوفي من جميع جهات المملكة، فقتل مضجع المستعمر وخيضت معارك طاحنة مع الغازي تركت لتاريخها الوطني أصدوتة تذكر فتشكر، كانت مساهمة الكل فيها حميدة نبيلة ومشرفة، وحررت هاته المعارك طانطان وطرفاية سنة 1958 م وبعدها سلم المستعمر الإسباني سيدي إيفني بعد أن ذاق الأمرين من المجاهدين سنة 1969 وتوج هذا العمل النضالي المشرف بالمسيرة الخضراء التي هي من وحي عبقرية الموحد الباني جلالة المغفور له الحسن الثاني... فانتصرنا وتمت الوحدة رغم ما يحاك ضدنا من أعدائنا. ﴿وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون﴾.

ولنرجع إلى ما نتحدث عن شخصه الكريم وهو المقاوم الشيخ محمد الأغظف خليفة السلطان في المنطقة الشمالية بهذه الأقاليم المجاهدة، ففي أوائل سنة 58 صب عليه المستعمر الإسباني وابلاً من قذائفه في كل من «واد أبدو» ثم في موضع يقال له «الخرفان قرب الساقية وفي عملية أكوفيون المشهور التي أرغمت جيش التحرير المغربي على الانسحاب بعد أن كبد المستعمر هزائم لن ينساها، كان هذا الشيخ المجاهد انسحب هو بدوره وجميع الذين يوجدون معه من مخيمات وملتقات حتى وصل إلى مدينة أكلميم باب الصحراء المدينة التاريخية المجاهدة المضيفة فتلقوه أهلها بالبشر والترحيب وأكرمت قيادة جيش

التحرير وفادته لما تعلم فيه من عمل بناءً وغيره وطنية وتوجيهات سديدة كانت السر في كثير من الانتصارات التي أحرزنا عليها ولما وصل للمدينة المذكورة وساكنتها المجاهدة بعث له جلالة المغفور له محمد الخامس طائرته الخاصة اليمامة... وكان في ضيافة القصر الملكي. وكتب عن هذه الضيافة وتجديد البيعة للمغفور له محمد الخامس الأستاذ الكبير والعلامة الجليل علال الفاسي في جريدة الصحراء المغربية، كما عقد وزير الداخلية آنذاك السيد إدريس لمحمدي ندوة صحفية بين فيها للصحافة الدولية ما لاقاه هذا المجاهد من معاناة وفاءً منه للبيعة وإخلاصاً للواجب هو وجميع ساكنة الصحراء المغربية في هذا التاريخ وبقي على الخط السليم مدافعاً عن الحق والمشروعية لاستكمال وحدة هذا الوطن الغالي تحت ظل القيادة الرشيدة للعرش العلوي المجيد وللجالس عليه. وبعد رجوعه من عاصمة المملكة الرباط الذي اجتمع فيها بزعماء المغرب وقادته ومقاوميه وشخصياته المرموقة وهو في ضيافة المغفور له محمد الخامس الذي حباه بحدبه وعطفه وحنانه وإكرامه الحاتمي، بعد رجوعه من العاصمة المذكورة لمدينة طانطان وافاه الأجل المحتوم وهو على الجادة السليمة بتاريخ 11 أكتوبر 1960م رضي الله عنه وأرضاه، فترك الأحدوثة الطيبة، والذكر الجميل لا غيب الله عنه أجر أعماله الصالحة إنه سميع مجيب.

وإنما المرء حديث بعده فكن حديثاً حسناً لمن وعى

نرجو من الله أن يأخذ بيدنا إلى طريق الخير والنجاح، إنه على ما يشاء قدير وبالإجابة جدير.

ولا بأس بإدراج نماذج من رسائل بعض قادة الصحراء ونماذج كذلك من بعض الظهائر المعين بها البعض من مسؤولي الصحراء المغربية، حيث أنكر من وجه الرسالة والموجهة إليه وتاريخها وكذلك بالنسبة للظهائر المذكورة في هذا النموذج استهدافاً للتوثيق وزيادة في الفائدة، سبق لي أن نشرتها في البحث الذي

قدمته في الدورة الثانية لندوة "البيعة والخلافة" بمدينة العيون تحت عنوان «وفاء علماء الصحراء المغربية لبيعة الملوك العلويين» المنعقدة بتاريخ : 12/11/10 صفر الخير 1415 هـ الموافق 22/21/20 يوليو 1994.

وهي كالتالي .

1. رسالة من القائد إبراهيم الثكني إلى السلطان مولاي عبد الرحمان مؤرخة في 1 ذي القعدة 1263 (1847/10/11).

2. رسالة من السلطان مولاي الحسن الأول إلى القائد محمد ابن الطاهر الدليمي مؤرخة في 1886/4/7 - هكذا الاسم الموجود بالوثيقة.

يأمر بالبحث عن نصارى قذف البحر بسفينتهم في الشواطئ الصحراوية وعندما يعثر عليهم يسلمهم حالا لخليفة السلطان، الصفحة 116 من كتاب «السيادة المغربية في الأقاليم الصحراوية» لمؤلفه محمد بن عزوز.

وقد أرسل إلى القائد دحمان بن بيروك رسالة سلطانية تماثل تلك الرسالة شكلا وجوهرا.

3. رسالة من السلطان مولاي الحسن الأول إلى الباشا حم ابن الجيلاني مؤرخة في 1882/7/17 هـ.

4. ظهير السلطان مولاي الحسن الأول يسدل به أردية التوقير والاحترام على مجاط بالساقية الحمراء مؤرخ 1875/6/24 الصفحة 89 من نفس الكتاب.

5. ظهير السلطان مولاي الحسن الأول يسدل به أردية التوقير والاحترام على أهل ابن الأعمش من تجاكنت مؤرخ 1886/5/26 هـ.

6. ظهير السلطان مولاي الحسن الأول يسدل به أردية التوقير والاحترام على الطالب إبراهيم بن امبارك الزركي مؤرخ في 1886/5/28 هـ.

7. ظهير السلطان مولاي الحسن الأول يرتب به أجرة شهرية للشيخ ماء العينين إعانة له على ما يقوم به من بث العلم ونشره مؤرخ في 29 أبريل 1887 هـ.
8. ظهير السلطان مولاي الحسن الأول يولي به محمد بن لحبيب التيدراريني قائدا على قبيلة أولاد تيدرارين مؤرخ في 5/12/1890.
9. رسالة الشيخ ماء العينين بتاريخ 19 جمادى الأولى 1323 هـ (1905/7/22).
- نشرت لأول مرة بمجلة العالم الإسلامي الفرنسية بباريس مجلة سنتي 1915-1916 صفحة 210 ثم نشرت بمجلة صحراء المغرب عدد 54 صفحة 16.
10. ظهائر السلطان مولاي عبد العزيز عين بمقتضاها ثلاثة عشر قائدا على قبائل الصحراء المغربية في الأقاليم الصحراوية صفحة 221 لمؤرخه محمد بن عزوز.
11. رسالة من الشيخ ماء العينين إلى السلطان مولاي عبد العزيز ألحقت صورتها مع الترجمة الفرنسية بالملف المغربي أمام محكمة العدل الدولية تحت عدد 82 تتناول طرد السكان بإقليم واد الذهب لإسبان امتثالا للأوامر السلطانية الصادرة لهم بذلك من مولاي عبد العزيز بتاريخ 2 رمضان 1321 هـ 22/11/1903.
12. رسالة من السلطان مولاي عبد العزيز إلى قبيلة أزركيين، أولاد دليم بتاريخ 25/3/1903 نشرت لأول مرة صفحة 205 من كتاب السيادة المغربية في الأقاليم الصحراوية لمؤلفه محمد بن عزوز.
13. ظهير السلطان مولاي عبد العزيز يكلف بمقتضاه القائد محمد الأمين بن مبارك ومحمد الأمين بن اعل بن عبد الله بحراسة بعض الشواطئ الصحراوية مؤرخ في 14 رمضان 1314 هـ، (1897/2/16).

14. ظهير السلطان مولاي عبد العزيز يولي به محمد الأمين ابن أعل التكني قائداً على أولاد موسى ولعبيات وولاد اعل من قبيلة أولاد تيدرارين بالصحراء المسترجعة مؤرخ في 3 رمضان 1316 هـ، (1899/1/15).

15. ظهير السلطان مولاي عبد العزيز عين بمقتضاه إبراهيم بن امبارك الزرقي اشتوكي قائداً في الصحراء المسترجعة مؤرخ في 23 ربيع الأول 1317 هـ، (1899/8/1).

16. رسالة من السلطان مولاي عبد العزيز إلى القائد محمد الأمين بن عبد الله التكني الحسني مؤرخة في 24/9/1900.

17. ظهير السلطان مولاي عبد العزيز يكلف بمقتضاه القائد إبراهيم اشتوكي التكني من قبيلة ازرقيين بحراسة الشاطئ الصحراوي الممتد من طرفاية إلى رأس بوجدور مؤرخ في 20/4/1901.

18. ظهير السلطان مولاي عبد العزيز يعين بمقتضاه القائد بابا أحمد بن سيد يوسف الزرقي التكني ناظرا على قواد قبائل إزرقيين مؤرخ في 7 شعبان 1319 هـ موافق 19/11/1901.

19. رسالة من السلطان مولاي عبد العزيز إلى القائد محمد الشيعة التكني مؤرخة 1/6/1908.

20. ظهير شريف مؤرخ ب 15 شعبان 1325 موافق 1905 يجدد فيه السلطان مولاي احفيظ للشرفاء الرقيبات ما بأيدهم من ظهائر سيدنا السلطان الحسن الأول وغيره من أسلافه الملوك العلويين الكرام قدس الله أرواحهم ونعم أشباحهم في دار السلام.

بعد ذكر القلة القليلة من قمم الجنوب وأعلام الصحراء المغربية الذين ساهموا في تلقين العلوم الإسلامية بعد أن تلقوها، كما نشروا العقيدة الحنفية

وفق الكتاب والسنة ملتزمين بمذهب إمام دار الهجرة وعقيدة الإمام الأشعري لما في ذلك من توحيد الأمة والسير على المنهاج الذي يجمع ولا يفرق ويبني ولا يهدم، بعد التطرق إلى النزير من أولئك الأعلام لابد أن أؤكد للقارئ أن أقطاب الجهاد والتضحية ورواد الإباء والشمم تزخر بهم الصحراء المغربية، ولقد تركوا بصماتهم المشرفة على صفحات الجهاد ودفع المتسلط، إذ جميع أبناء الصحراء المغربية حملوا السلاح ضد الغازي ولقنوه دروسا من التضحية لا ينساها كل من سولت له نفسه المس من كرامة هذا الوطن المتماسك بشريا من وراء العرش العلوي المجيد والجالس عليه أمير المؤمنين جلالة الملك محمد السادس الذي يبادل شعبه الوفي حبا بحب ووفاء بوفاء، والمدافع عن وحدته الترابية لا يتنازل عن حبة رمل من رمال الصحراء المغربية.

إننا ندعو للسلام ولا نبحت عن التوتر في أي بقعة من بقاع العالم، ولكن في نفس الوقت لا نرضى بالذل ولا الهوان ولا نتنازل عن قدر قلامة ظفر من أرضنا، فلا نتناول على حقوق الغير ولا نعتدي على أي كان ولا نرضى من أحد أن يتناول على حقوقنا كيفما كانت صفته.

ولقد يتفق الكل أن أبناء المغرب الأشاوس لا يقبلون التجاهل بحقوقهم ولمن أراد أن يتيقن على ذلك فليراجع تاريخ جهاد هذه الأمة من وراء العرش العلوي المجيد وليعلم الخاص والعام أننا كتلة موحدة من طنجة إلى لگوية، ومن وجدة إلى أقوينيت من وراء حامي حمى الملة والدين جلالة الملك محمد السادس دام عزه وعلاه.

بيعة أهل الصحراء المغربية للملوك العلويين

محمد المختار المداح

لا يسعني في البداية إلا أن أزجي عظيم الشكر وخالص الإكبار عرفانا بالجميل لأكاديمية المملكة المغربية على تنظيمها لهذه الندوة المباركة حول ثقافة الصحراء : مقوماتها المغربية وخصوصياتها، إذ تروم بذلك نفث غبار النسيان عن بعض الكنوز الأثرية والأعلاق التراثية والنخائر الأدبية عند أهل الصحراء المغربية لاستكناه خفاياها وسبر أغوار خباياها. ولا غرو في ذلك، فهذه الأكاديمية نتاج العبقرية الحسنية السامقة لصاحب الجلالة الملك المعظم المجاهد الباني المغفور له الحسن الثاني، طيب الله ثراه.

إنه مما لا ريب فيه، أن الشعوب تقاس في رقيها وأصالتها بقدر حفاظها على تراثها تحقيقا وغربة ونقدا لاستكناه جوانبه الوجيهة وتخطي رواسبه التي قد تقف حجر عثرة في وجه أي إبداع إنساني، لأن التراث ملهم عقلية الأمة التي أبدعته لأنه يذكي إرادتها ويمحص عبقريتها، إذ هو شاهد على سماتها الحضارية الأصيلة. ولربما تكون لتراث الغرب الإسلامي كل هذه المميزات والخصال رغم كونها مازالت في أشد الحاجة إلى تضافر جهود النقاد والباحثين، بغية تنزيله المنزلة المرموقة بالمقارنة بصنوه المشرقي، ذلك أن الأدب المغربي عامة يشكل منطقة للبحث والدراسة، غير أن هذه الحقيقة قد تنجر عنها عدة صعوبات قد تعترض كل من يحاول خوض غمار مجال ما من مجالاته، وتتجلى هذه الصعوبات

في مادة البحث ذاتها ومصادره، وحتى في المنهاج الذي يقتضيه هذا الموضوع أو ذاك. ويندرج في هذه السياقات تراث الصحراء المغربية الذي ما التفت إليه حتى فصلت العير، إذ ظل مسرحا للكثير من التجاوزات والانتهاكات الجائرة من طرف الاستعمار وأذنابه إن بالمحاربة والتهميش سرّياً، أو التنكيل بالعلماء وإحراق ذخائرهم العلمية.

ولئن عرفت بلاد الصحراء دخول الإسلام باكراً بداية من القرن الثاني الهجري، فإن هناك عنصرين بارزين طبعا الحياة الثقافية الصحراوية، هما :

1 - توافد القبائل الحسانية⁽¹⁾ في موجات هجرة متتالية بداية من القرن السابع الهجري، حيث بسطت سلطانها عسكريا وسياسيا على السكان الأصليين الذين هم عبارة عن مجموعات بشرية تتكلم البربرية وتعتنق إسلاما سنيا موروثا عن دولة المرابطين.

2 - نجاح دولة المرابطين⁽²⁾ في نشر تعاليم الدين الإسلامي القائم على فقه سني أشعري، مع الأخذ بالمذهب المالكي وقراءة ورش.

وهناك عنصران نعتبرهما هامين في الحياة الثقافية للصحراء المغربية :

1 - التواصل المثمر الذي ما فتئ قائما بين الصحراء وسائر الأقاليم الأخرى من المغرب منذ قيام دولة المرابطين، إذ الكثير من علماء الصحراء قاموا برحلات علمية إلى الأقاليم الشمالية كمراكش وفاس وتطوان للدراسة أو التدريس بها أو التوجه إلى الديار المقدسة عبرها، مقتنين الكتب مستنسخينها، ومقيمين روابط متينة مع زواياها الصوفية. فعلى سبيل المثال نجد ابن الحاج إبراهيم يحظى بهدية ثمينة من طرف السلطان العالم مولاي اسماعيل وهي عبارة عن خزانة نفيسة من الكتب النادرة. وتكالب الناس على اقتناء الكتب وجمعها حتى بيع القاموس بعشرين بعيرا. وأهدى السلطان الأديب محمد العالم⁽³⁾ إلى الشاعر

ولد رازكة خزانة ثمينة فيها مئات المؤلفات النفيسة أسهمت في تأصيل الثقافة الأدبية تفتقا وازدهارا، فامتلك على إثرها هذا الشاعر ناصية الشعر.

2 - وجود بعض المحطات الثقافية التي كانت عبارة عن جامعات بدوية متنقلة عرفت بالمحاضر⁽⁴⁾ تدرس فيها جميع العلوم، فكانت كذلك معبرا تجاريا تمر به القوافل المسافرة بين المغرب وبلاد السودان. إن أرض الصحراء المغربية لم تكن خالية لا أناسي بها، كما يدعي أعداء وحدتنا الترابية، ولم تكن عطاءات أبنائها الخيالية والتخييلية والمعرفية جافة كطبيعتها، كما قد يتوهم بعض رواد نظرية البيئة، وإنما ظلت قنطرة عبور وهمزة وصل بين شعوب عديدة، ومركز إشعاع ثقافي وحضاري متميز، انداح إشعاعه خارج المغرب لينير أصقاعا واسعة ظلت مظلمة.

وبعد أن عادت الأمور إلى مجاريها الطبيعية والأصلية، إذ استرجع المغرب صحراءه، فلم يعد هناك من مبرر لبقاء تراثها مهمشا ونسيا منسيا، خاصة في هذا الوقت الحاسم من تاريخنا الوطني حيث تحاول قوى الشر التكالب علينا للذيل من وحدتنا الترابية، لكن هيهات ثم هيهات، ورغم ذلك، فإن تراثنا ما يزال عرضة للضياع بسبب الإهمال وتضافر عوامل الإندثار عليه بشتى أنماطها نتيجة :

1 - نظام الحياة البدوية المتميزة بالإضطراب وشظف العيش والكوارث الطبيعية إذ تضيع الكتب حرقا أو غرقا أو إتلافا، لأن المكتبات ظاعنة كأصحابها.

2 - الموقع الجغرافي الخاص والمتميز، إذ تترامى من ورائه المجابات الكبرى من جهة وبحر الظلمات من جهة أخرى.

لقد اشتهر أهل الصحراء بثقافتهم الموسوعية وفضائلهم العلمية بسبب قوة حافظتهم، مما جعل فقهاءهم المجوالين يختطفون الأضواء، إذ كانت ثلاثمائة فتاة في قبيلة تجكانت تحفظن موطاً الإمام مالك والغلام في قبيلة مدلش (مجلس العلم)

يحفظ المدونة قبل البلوغ والعبيد الأميون يغنون على أنغام الطبل مقامات الحريري⁽⁵⁾.

لقد اعتمدت النهضة الأدبية في الصحراء على بعث القديم وإحداث نماذج الأصيلية في بداية الأمر، لقوة سلطانه على نفوس الشعراء والعلماء الصحراويين؛ فتعددت بسبب ذلك، أطهرهم الاستيحائية المرجعية. فكانت لنا من كل هذا ثقافة موسوعية.

وأهم ما يميز الثقافة الصحراوية الطُّعْنُ والبدَاوة، لأن ثقافة القوم ثقافة عربية إسلامية بدوية؛ واعتمدها على علوم الشرع وعلوم الآلة والتممات.

وتعتبر المحاضرة عند أهل الصحراء منبعاً للعلوم والمعارف، إذ نهل منها القوم وعلّوا، مما جعلهم يسيحون في الأرض سُرْجاً مضيئة، حاملين تبليغ رسالة المعرفة والعلم، منتضدين صبر المجاهدين عزماً وجلداً، ووقار العلماء علماً مذخوراً في الصدور، مشاعاً في الناس مصنفاً طرية غضة.

وقد تكمن طرافة دراسة المجتمع الصحراوي المغربي في شدوده على مسلمة رائجة في الحقل الأدبي، تعتبر ازدهار الأدب نتاج السياسة؛ ذلك أن واقع المجتمع الصحراوي يبرهن على أن فترة الانحطاط في المشرق العربي، لم تكن البتة منسحبة على تراث الصحراء المغربية، بل ولا على الحياة المغربية عامة، التي عرفت تفتقاً إبداعياً في عدوتها الإفريقية (المغرب العربي) والأوروبية (الأندلس). ذلك أننا نعتبر ازدهار الأدب نتاج مجموعة من العوامل والمحفزات قد لا يمثل المنحى السياسي فيها سوى عامل من بين عوامل شتى، متشعبة ومتداخلة في نفس الوقت. ويمكن القول - ولو بشيء من التجوز - إن أهم الأحداث التي أسهمت في تبلور أكبر مميزات وملامح المجتمع الصحراوي المغربي، قد تتمثل في دخول الإسلام وهجرة القبائل العربية إلى الصحراء المغربية.

ومما يؤسف له إهمال سائر مراجع تاريخ الأدب العربي العامة هذا الأدب الصحراوي، بل وحتى المراجع المتعلقة بمناطق جغرافية إليها يعود انتماء ذويه أو يصاقبونها.

لقد ظلت البيعة الشرعية للملوك العلويين تطوق عنق الصحراوي أينما كان، فعلى سبيل المثال نجد الشيخ محمد المامي بن البخاري الذي يعتبر فريد نوعه، يهنئ مراكش الحمراء بتولي الملوك العلويين زمام أمرها، معتبرا أن منطقة «تيرس» (واد الذهب) وقف على السلاطين العلويين إذ لولا بيعتهم لعبدت فيها الطواغيت والأوثان. يقول من قصيدته الدلينية :

وَتِيرِسُ وَقَفُ مُرَاكِشَ لَدَى فُتِحَتْ لَوْلَاهُمْ عُبِدَتْ فِيهَا الْأَوَاتِينُ⁽⁶⁾

ويذهب إلى أن معرفة السلطان واجبة، يقول .

ومعرفة السلطان واجبة كما على الناس عرفان الإله المقدس⁽⁷⁾

وكثيرا ما كان يبدأ تأليفه بهذين البيتين المعبرين عن مغربيته، وهما :

قَالَ عُبَيْدُ رَبِّهِ الْمُقْتَدِرِي مُحَمَّدُ بْنُ الْبُخَارِي الْأَشْعَرِي⁽⁸⁾

الْقَادِرِيُّ الْمَالِكِيُّ الْمَذْهَبِ الْمَغْرِبِيُّ الْبَارِكِيُّ النَّسَبِ

ومعروف عنه أنه كان - في أغلب الأحيان - يختم قصائده الشعرية وأنظامه

ببيت نموذج يدعو فيه للملوك العلويين، يقول :

بِجَاهِهِمْ بَارِكْ لَنَا فِي الْمَغْرِبِ وَالْعُمْرِيَا رَبِّ وَفِي ذَا النَّسَبِ⁽⁹⁾

وتعتبر قصيدته «السلطانية»، التي بايع بها السلطان محمد بن عبد الرحمان

بمراكش الحمراء، نموذجا للبيعة الشرعية لأمير المؤمنين، فقدمها إليه مقرضا بها

كتابه «نظم الشيخ خليل»، وهي رجزية طويلة جدا، منها .

قَد تَمَّ نَظْمُ الْمَذْهَبِ الْمُنتَثِرِ لَكِنْ قَلِيلٌ مُكْتَبَرٌ لَمْ يَعْثُرِ (10)
 فَانزَلَ الْمُلُوكُ عَنْ ذَا الشَّانِ لِلْمَلِكِ ابْنِ عَابِدِ الرَّحْمَانِ
 كَأَنَّ مَا كَانَتْ لَهُ مُدْخَرَهُ لِأَنَّهَا عَنْ غَيْرِهِ مُؤَخَّرَهُ

فإهداء هذه الدرة الثمينة إلى غير آل البيت النبوي الشريف إزاء وحط من قيمتها في نظر شاعرنا، يقول .

فإِنْ تَلَّحَ لِغَيْرِ مَنْصِبِ الشَّرَفِ يَصِحُّ أَنْ يُقَالَ إِنَّهَا خَرَفُ
 وَإِنْ تَلَّحَ لِغَيْرِ كُفُوِّ فِي الصَّفَا لَمْ يَسْتَطِعْ طَرْفَاهُ عَنْهَا مَصْرِفَا
 إلى أن يقول :

إِمَامٌ أَهْلُ الْمَغْرِبِ الْمُوَفَّقُ لِرِوَاؤِهِ مِنْ (سَمَرْقَنْدِ) يَخْفَقُ
 وَمِنْ فَوَائِدِ الْخَزَائِنِ الَّتِي مِنْهَا ارْتَوَتْ نُفُوسُنَا وَعَلَّتِ
 وَثَمَرَةٌ مِنْ ثَمَرَاتِ فَضْلِكُمْ وَنَفْحَةٌ مِنْ نَفْحَاتِ أَصْلِكُمْ
 يَسْعَى بِهَا إِلَيْكُمْ قَصِيرٌ فِي عَثْرَاتِ دَهْرِهِ أُسِيرٌ
 نَالَتْهُ مِنْ بَيْنِ الزَّمَانِ أَسْهُمٌ لِأَزَلَّتْ فِي ظِلِّ أَمَانٍ مِنْهُمْ
 وَمِنْ جَمِيعِ الْخَلْقِ مِنْ إِنْسٍ وَجِنٍ وَمُؤْمِنٍ وَكَافِرٍ وَمِنْ وَمِنْ
 فَالْحَمْدُ لِلَّهِ عَلَى الْمُعَاصِرَةِ لِحَافِظِ لِكُلِّ خَفٍ أَصِيرَةِ
 وَاللَّهِ أَسْأَلُ نِسَاءَ الْأَجَلِ فَيَتَمَتَّعُ بِهِ ذُو أَمَلِ
 فَإِنْ يَعِشْ فِي الْمُسْلِمِينَ مُصْعَبٌ فَذَلِكَ مِنْ زَمَانِنَا مَا نَطْلُبُ
 بِعَصْرِهِ نُبَاهِي الْأَعْصُرَ الْأَوَّلُ وَكُلِّ دَوْلَةٍ خَلَّتْ مِنَ الدُّوَلِ
 وَبِنَيْهِ الْغُرَّ الْأَكْرَمِينَ زَوَاخِرِ الشَّرَفِ الْأَعْظَمِينَ

الْوَارِثِينَ الشَّرَفَ الْأَثِيلاً سِلْسِلَةَ الْيَاقُوتِ إِسْمَاعِيلاً
 أَبْقَاهُمُ اللَّهُ لَنَا فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيًا فِي طُولِهَا وَ الْعَرْضِ
 قَاعِدَةً عَلَى رِقَابِ الْمَرَدَّةِ هَادِيَةً لِلْكَتُبِ الْمُمَجَّدَةِ
 حَاشَى مَنَاقِبُ بَنِي الرَّسُولِ مِمَّنْ يُقَالُ عَنْ بَنِي رَسُولِ

لقد اشتهر أهل الصحراء المغربية بثقافتهم الشعرية نتيجة قوة وتواصل روابطهم مع غيرهم، إذ وصل أهل الصحراء المغربية قبس من نور النهضة الأدبية السوسية الثانية على حد تعبير المختار السوسي⁽¹¹⁾. وهو يومئ بذلك إلى الإزدهار الأدبي الذي شهدته (تارودانت) - التي هاجرت منها قبائل تشمشه الخمسة إلى نواحي انواكشوط حالياً - في عهد خلافة الأمير محمد بن العالم بن المولى اسماعيل، وجدته الأميرة الأدبية العالمة اخناثة الصحراوية⁽¹²⁾، ذلك أن هذا الأمير الأديب ظل يدير حلقة أدبية تؤمها نخبة من العلماء والشعراء، وكان من بينهم عبد الله بن محمد بن القاضي العلوي الصحراوي المغربي. فظلت بين الرجلين صلوات ودٍّ و عز و صداقة. يقول الأمير محمد العالم مرحباً بشاعرنا

مَكْنَسَةُ الزَّيْتُونِ فَخْرًا أُصْبَحَتْ تَزْهُو وَتَرْفُلُ فِي مَلَاءٍ أَخْضَرَ⁽¹³⁾
 فَرَحًا بِعَبْدِ اللَّهِ نَجْلِ مُحَمَّدٍ قَاضِي الْقُضَاةِ وَمِنْ ذُوَابَةِ مَغْفَرٍ

فيجيبه سيد عبد الله قائلا :

يَا سَيِّدَ السَّادَاتِ أَنْتَ فَقِيهُنَا وَنَبِيهُنَا وَنَزِيهُنَا الْمُحْتَطَا⁽¹⁴⁾
 مَهْمَا أَصَابَ الدِّينَ فِي سَيْرَانِهِ خَرَقُ الزَّمَانِ، فَإِنَّكَ الْخَيَّاطُ
 فَكَّرُ يَحِلُّ الْمَشْكِلَاتِ وَحِكْمَةُ مُتَقَاصِرٍ عَنْ سِرِّهَا بُقْرَاطُ

ونرى - في هذه العجالة - أنه لا بد من ما يلي :

1 - العمل على رد الاعتبار للتقاليد الصحراوية المغربية كإحياء دور الكتابات والمحاضر لمحاربة داء الجهل والتخلف.

2 - يتعين انتشار ما تبقى من مخطوطات مغربية صحراوية من أكل الأرضة ومخالب النسيان، وذلك لجمعها وتحقيقتها تحقيقا علميا رصينا.

3 - من المستحب إنشاء خلايا للبحث العلمي على مستوى أكاديمية المملكة المغربية وتكون لها بعض الفروع على مستوى بعض الكليات، ممحضة للبحث في تراث الصحراء المغربية وإدراج بعض نصوصه الأدبية في برامج التعليم.

وغني عن الذكر، أن أدب الصحراء المغربية ظل ضحية الكثير من الأحكام الجاهزة والنظريات النقدية التي سادت في ساحتنا العربية، مقيمة أسسها على شفى جرف هار، نتيجة نظريات عجلى وتدوينات ناقصة، منطلقة من «المركز» ومتجاهلة «الأطراف» ورابطة الأدب بركاب السياسة، مع تقسيمه حقبا وعصورا وأزمانا، وهو تقسيم لا يستقيم على النظر المعرفي ولا يطرد على المعايير العلمية الرصينة.

وإذا كانت صحراؤنا المغربية - وتراثها صنوها - ظلت ضحية مؤامرات استعمارية صاخبة ومكشوفة لم تزدها الا قوة وإبداعا - كالتى يحاول أعداء وحدتنا الترابية أن يحوكوها اليوم - أفلا يحق لنا أن نقول إن نهضة الأدب العربي الحديثة نشأت في الصحراء المغربية، فكانت عرضة لمؤامرة دنيئة تجلت في «الصمت» عليها جحودا وإنكارا ؟¹

وفقكم الله وسدد خطاكم وجعلكم عند حسن ظن أمير المؤمنين وحامي حمى الملة والدين جلالة الملك المعظم محمد السادس، حفظه الله ونصره :

سلالة بيت المصطفى خير خلقه فهم بجميع الفضل من خلقه أحرى
نماهم إلى العليّ عليّ أبوهم وبضعة ختم الرسل فاطمة الزهرا

إليك أمير المؤمنين مقالةً وليدة هذا الوقت مجلوة بكرة
تزف إلى ذاك المقام وحسبها تقبلكم منا إلقاءها مهرا

الهوامش

(1) للمزيد من التفصيل، يمكن الرجوع إلى عملنا

«المديح النبوي عند شعراء الصحراء المغربية (ق 12 - 13) ه».

«دراسة في البنية»، أطروحة لنيل دكتوراه الدولة في الآداب تحت إشراف د. محمد علي الرباوي، ود. حسن الأمراني ص 300، السنة الجامعية 1420هـ/1999 - 2000 م، جامعة محمد الأول، كلية الآداب والعلوم الإنسانية.

(2) تعتبر دولة المرابطين أول حركة إصلاحية شهدتها صحراؤنا، إذ قاد عبد الله بن ياسين دعوة جهادية مرابطية، ولما تجاوز عدد الوافدين إلى الرباط الألف، دعاهم إلى التوبة والجهاد في سبيل الله، ولم يكن هدفه نشر الإسلام فحسب، وإنما كان يحمل مشروع توحيد المغرب كله (المغرب العربي والإسلامي) في مواجهة المسيحيين الذين كانوا يتحرشون بالمسلمين بالأندلس وجزر البحر الأبيض المتوسط، راجع المرجع السابق ص 65.

(3) لقد أثرت الزيارات المتكررة للشاعر ولد رازكه إلى بلاط هذا الأمير العالم في شحذ ملكات شعراء الصحراء الشعرية، يضاف إلى ذلك رحلات محمد بن حبيب الله المجيدري (ت 1204 هـ) إلى فاس، حيث اتصل بالسلطان محمد بن عبد الله، وأبلى بلاء حسناً في المناظرات التي كان هذا السلطان يجمع لها الفقهاء، موجها إياهم صوب الميادين الأكثر إلحاحاً في ذلك العصر كقضية الإصلاح الديني والوهابية ووضع فقه الفروع، مما جعل ابن حبيب الله يتجه إلى المنحى العقدي الذي آمن به ونشر دعوته. فاستجاب له نزر من أبناء جلدته من أهل الصحراء المغربية، وبدّعه أكثرهم. راجع المرجع السابق، ص 68.

(4) المحاضر جمع محضرة. وهي مؤسسة جامعية متعددة الاختصاصات، غير أنها متنقلة. يقول العلامة الصحراوي المختار بن بونه من قصيدة طويلة

وَ نَحْنُ رُكْبٌ مِنَ الْأَشْرَافِ مُنْتَضِمٌ أَجَلُ ذَا الْعَصْرِ قَسِراً دُونَ أَدْنَانَا

قَدِ اتَّخَذْنَا ظُهُورَ الْعَيْسِ مَدْرَسَةً بِهَا نُبَيِّنُ دِينَ اللَّهِ تَبْيَانَا

(5) راجع حياة موريتانيا، ج 2 (الحياة الثقافية) للمختار بن حامدن، الدار العربية للكتاب 1990، ص 5.

(6) راجع أطروحتنا السالفة، ص 90.

(7) المرجع نفسه، ص 200. وحب أهل الصحراء الملوك العلويين شائع منتشر شعراً ونثراً. فهذا الشاعر أحمد فال بن محمد الأمين اليعقوبي الشمشوي (ت 1968 م) لما سمع بقدم السلطان سيدي محمد الخامس، نصره من إجلاء الأعداء له، يقول

بُشْرَى لَنَا مَعِشَرِ الْإِسْلَامِ بَشْرَانَا	أَمَاتْنَا اللَّهُ أَحْيَانَا فَأَحْيَانَا
بطلعة الغوث مُحْيِي الدِّينِ سَيِّدِنَا	جَمَّ الْمَحَامِدِ مَوْلَانَا بِنِ مَوْلَانَا
مَنْ ذَبَّ عَنِ دِمَّةِ الْإِسْلَامِ مُحْتَسِبَا	بِالْعَزْمِ جَلْدًا وَعِنْدَ الْكُرْبِ مَالَانَا
تَجْرِي مَقَادِيرُ نَصْرٍ لَا مَرَدَّ لَهَا	تَأْتِي بِتَأْيِيدِهِ سِرًّا وَإِعْلَانَا
دَلَّتْ بِرَاهِسِينَ حُكْمَ اللَّهِ ظَاهِرَةً	فَانذَعَتْ عِنْدَهَا الْأَعْدَاءُ إِذْغَانَا
فَالْحَقُّ إِنْ جَالَ لَا تِيَّاسُ بِجَوْلَتِهِ	سَيَسْتَقِلُّ وَلَوْ قَدْ كَانَ مَا كَانَا
يَا مَنْ تَأْتَلَّ إِرْتَهُ الْمَجْدِ ضِيئُهُ	بَيْنَ الْأَمَاجِدِ سُلْطَانَا فِسُلْطَانَا
لَا زَالَ حُكْمُكَ مَحْرُوسًا بَعِينِ رِضَى	وَأَنْتَ دَمْتَ لَتَلِكِ الْعَيْنِ إِنْ سَاغَانَا

راجع عملنا لنيل دكتوراه السلك الثالث بعنوان

«ديوان الأبحر المعينية في بعض الأمداح المعينية ج 2 لمحمد الغيث النعمة. تديم وتحقيق. تحت إشراف د. محمد بنشيفة، السنة الجامعية 1415 - 1416/1994 - 1995.

جامعة محمد الخامس، كلية الآداب والعلوم الانسانية بالرباط، ص 24.

(8) المرجع السابق ص 80.

(9) المرجع نفسه ص 70.

(10) المرجع نفسه ص 55.

(11) المرجع نفسه ص 76.

(12) المرجع نفسه، ص 90.

(13) المرجع نفسه، ص 100.

(14) المرجع نفسه، ص 156.

قراءات شعرية

مهلا حبيبي

خديجة أبي بكر ماء العينين*

مهلا حبيبي هل تعذب من هواك وتقصّ أجنحة السبيل إلى لقاك
وتزجُّ في قفص الغرام متيماً طارت به الأشواق يوماً في فضاك
ما كان ضرّك أن يظلل مرفرفاً حرّاً طليقاً لا يتوق إلى سواك
ما هام يوماً أو تعلل بالهوى إلا لأنه في الحقيقة قد رآك
امنن عليه بما يديم وصاله فالهجر مسقمة تؤدي للهلاك
ناجاك من يهواك ليس بجاحدٍ ألى بآئه لم يطق أبداً نواك
رحمك، قلبي عاشق متولّه بل مدنف لم يشفه إلا دواك
تشكو الغلالة لوعة من حرقة في الجسم أضرّمها الهوى تحكي العكاك
والصبُّ ويحه إن تملكه الهوى فالجسم وآه والنواظر في شراك
سارت به الأفلاك شعّ بريقها من ها هنا، وهناك، ما أبهى سناك
بصر الجمال على الرُّبى منقوشةً بصماتُه، صار الأسير فلا حراك

ورآك في الواحات بردَ ظلالها فاشتاق للظلِّ الظليل إذ ارتجأكَ
 حاشاء، حبيبي، أن تخبِّب سائلا أنت المجيب، فلا تردن من دَعَاكَ
 هويي المتيِّمُ ما أخاله مسرفا إن كان هام بما يرى صنعت يداكَ
 كم من حبيب معرب لحبيبه ما إن يراه . هل اعتراني ما اعترأكَ
 أمّا أنا لي مهجة سكنت بها ذات الحبيب بخلوة أو غير ذاك
 إن بات يؤنسني النديم فإنني أدركت يوما أن أنسه من رضاكَ
 وطفقت أسعد بالحديث مفصلاً لا ريبه شابته كلاً، لا انتهأكَ
 فصن الفؤاد من الأذى وجوارحي ثبت على الإيمان قلبا قد هوأكَ

الهوامش

(* أنشئت لأول مرة بمقر أكاديمية المملكة المغربية، بأيام ندوة ثقافة الصحراء مقوماتها المغربية وخصوصياتها، 11- 12 مارس 2002.

لِمَ البعد ؟ *

ماء العينين ماء العينين

حتى متى بنوال الوصل أمتطَلُ
إن كان حبكِ غيثاً غير منقطع
وَأطول هذا النوى مالي به قبلُ
يجيش بالوجد قلب أنتِ مهجته
أمنه حظي يكون الغيظ والرملُ ؟
فكيف أنكر أني بالهوى دَنِفُ
وأنتِ عندي المنى والحلم والأملُ
وكيف أَرْضَى ببعد عنكِ ذا صَعْدِ
وكيف أحكم في أمري وما العملُ ؟
شَتَّى الخواطر في فكري تتأزعه
منذ انتأيتِ، ونار الشوق تشتعلُ
وأحتمت العين مني لم تذوق وسناً
أنى رحلتِ فؤادي سوف يرتحلُ
أما الجوارح قد قالت، مودعة
وتبصر الروح ما لا تبصر المقلُ
بالروح أنستِ، ولو بُعدتِ، ما ثلثهُ

الهوامش

* (أُلقيت باكاديمية المملكة المغربية، ندوة لجنة القيم الروحية والفكرية، ثقافة الصحراء مقوماتها المغربية وخصوصياتها . الرباط 26 - 27 ذو الحجة 1422 / 11 - 12 مارس 2002.

+ ماء العينين ماء العينين بن العتيق طالب جامعي من مواليد 1981. حفيد العلامة أكبر ماء العينين بن العتيق. ابن الشاعرة خديجة أبي بكر ماء العينين.

أحبابنا الأهل

أحمد ولد عبد القادر

وادي الأحبة هلا كنت مرعانا ؟ إن الحبيب حبيب حيث ماكانا
ويا أخا البعد هل تشفيك قافية تبوح بالروح أنفاسا وأشجانا
أف على الشعر والدنيا باجمعها ما لم تقرب إلى الإخوان إخوانا!
هون عليك فذاك الشمل مجتمع والنجع لاقى على التحنان خلانا
إن الحمائم قد عادت مفردة فوق الغصون وعاد البان نشوانا
أما رأيت طيور البحر حاملة في أفقنا ترسم الأفراح ألوانا ؟
وسل معللة الأنخاب هل نسيت بعد الرحيق كؤوسا كن هجرانا ؟
وسل أحبائك الآتين كيف أتوا وكيف ناموا على الهجران أزمانا ؟
وشائج الأرض أقوى من نوازعنا والحر ينسى طباع الحر أحيانا !
أحبابنا الأهل مرحى يوم مقدمكم هذا لقانا فهل تنضم أشلانا

هذا لقانا فهل آمالنا انعتقت
 نريده صفقة للأمس توجعه
 نريده غرسة للمجد واحدة
 ولا نريد موثيقا مطرزة
 ولا نريد ابتسامات مؤقتة
 وجهه الصباح ولم تطلبه عنوانا
 شرا وعقبة لم يمرر بمغنانا !
 نبذل الشوك عبر الدرب ريحانا !
 دمنا بغاثا وطار الغير عقبانا ؟
 نجم الطريق ولم تعرف له شاننا
 نورا إذا الليل في بلواه اعشاننا
 تسبي الذي يعبر الأمواج وسنانا
 ونترك الغيم في علياه ظمئنا
 من وحي أوراس تبرى الكون ألعانا ؟
 من القلوب تحيل الصخر وجدانا ؟
 عبد الكريم بما صانا ومازاننا

وناد شنقيط واستنفر منابعتها
والقيروان وتطوانا وفزاننا
فالكرم قد عانق الزيتون في مرح
والطلح يزهو عساليجا وأغصانا

بشرى البشائر مُدِّي ألف مَعَلْمَة
فوق السماوات تحيي عهد لقيانا
وسائلي عن بريد القدس هل وصلت
خيوله البيض تستسقي روايانا ؟

وعن ماذنها الثكلى فإن لنا
هناك أهلا ضحاياهم ضحايانا
تزوبعت همم الأطفال عندهم
وانبقت لعيون الورد أسناننا

لو أن سيف أبي بكر ويوسف لم
نغمده فينا تخطى اليوم بيساننا !
ومض الحجارة يزهييه ويسألنا :
متى تطاول سيل الدمع بركاننا ؟

ما أروع الجرح تجفوه ضمائده
حيا ويرمي وجوه الظلم نيراننا !
أحبابنا الأهل لاشط المزار بكم
بعد التداني ولا ملته دنياننا !

لولا المربع والذكرى لما انطفأت
بعض الجروح التي تشوي حناياننا !
فيما التفرق والأهداف تجمعنا ؟
لا يعلم السر إلا الله مولانا !

ما كان أقربكم منا وأبعدكم !
ما كان أقربنا منكم وأنئانا !
كم ذا أخاصم قلبي حين أهجركم
وأمتري منه سلوانا ونسيانا

ويرفض القلب أن ينأى قلوبكم
إن الحبيب حبيب حيثما كانا

ربيع غرجدة *

غرجدة ماذا ترى الأدمع ؟ وأعينك الزرق هل تشفع ؟
 وأين الربيع وسحر التلال وندنة البدر إذ يطلع ؟
 سأسال جرحك : أين الطيور ؟ وأين الفراش وما يصنع ؟
 وانشد قبرك يوم اللقاء وأسمع منه كما ما يسمع !
 لقد عدم الصبح طعم النسيم و"نام" على المرضع المرضع !
 سينساک قوم وقوم نسوك ولكن ربيع الدما ممرع !
 فقولي معي قبل موت الحروف · حوار الحضارات هل ينفع ؟

(* مدينة بوسنية تعرضت لمذبحة شهيرة على يد الصرب.

حديث النهر

نزلت رباط الفتح يرفل في الضيا وروضة أنوار تباهي العوالم
 وقد نممت أي الجمال رحابه فأسكرت الدنيا وجلت معالمها
 وللحب والأشرف ألف حكاية تغنى بها التاريخ يزجي الملامح
 وللشعر دين أن يؤدي إذا رأى جمالا وحباً في الفؤاد توامها

فزرت أبا رقرق والطل والندى
 تباركه البيض الغمام وتارة
 مناظر من ذوب اللجين تقلدت
 لعمرى لأنت الشاهد الأصدق الذي
 فحدث بما ترويه عن مغرب الحمى
 تلقيت من إدريس بشرى قدومه
 وحييته بالود منسي وطالما
 ورد سلامي والنسيم معبر
 فكيف وجدت الأهل؟ قلت أراهم
 وجدتهم نبلا وعلما وحكمة
 ومملكة كالأرض يزهو ربيعها
 وقد عظمت آمالهم بمحمد
 ويرمي ثمار الخير في كل خطوة
 هو الطالع البدر المنير على المدى
 يهدد فوق العدوتين البراعما
 نجوم السما تضيء إليه المباسما
 مجرة حسن تثل القلب هائما
 تأصل في أمجاده وتقادما
 وكيف الحمى أبقاك للدهر سالما؟
 وفي ظل إسماعيل أصبحت عالما
 حننت إليه أن يراني قادمما
 إذا النهر ناجي بالعبير وناسما
 كما عرفوا قدما سراة أكارما
 وأندلسا يحيا على العز قائما
 فتشمخ أعلاما وترقى مكارما
 ملك بفعل الفعل يبيري العزائما
 لمن كان بالعهد المبشر حالما
 بيارق نصر الله تسطع دائما

أمة وسط *

محمد الكبير العلوي

غرر القصائد قد علقت ببالها
أخذت بلبك مذ أخذت بلبها
راحت تساجلني وكنت هجرتها
ودنت إلي تطل من شرفاتها
ضاققت بهجري واستبد بها الهوى
فانسج روائعك الحسان بديعة
درر تروق معنيا وعواطفها
أعلمت فكرك في القريض فأبرزت
فجثا لها الشعراء تقديسا وما
فاجعل بدائعها مديح المصطفى
بعث الرسول وقام ينتشل الورى
فأبت قریش وكذبت ودعت إلى
أغررت بدعوته الخصوم لمحوها
فغدوت فيها مستهاما والهـا
فأهنأ بعهد دنوما ووصالها
دهرا فها أنا عائد لسجالها
فكأنهن الزمر في أطلالها
شوق النجوم إلى بزوغ هلالها
لم تنسج الدنيا على منوالها
وتشير في أسلوبها وخيالها
درر البيان مخدرات حجالها
فتؤوا قياما ركعا لجمالها
ودع الأديب متيما بدلالها
من جاهلية غيها وضلالها
أوثانها تتلو خطى دجالها
ولقتلها في المهد واستئصالها

وتألبت من كل صوب وانتدت
وتقاسمت محو الهدى بسيوفها
فاختار يثرب وجهة ومهاجرا
وأنته والبشرى تطير حشودها
وتظل مكة بعده في وحشة
ظلمت قريش وأسرفت في غيها
وأنت إلى بدر يهيج همومها
ظمئت إلى حيث المنايا والردى
ما زال يلقاها الأمين بعصبة
فتجود فيها من هناك ومن هنا
حتى أضياء النور مكة واعتكى
واجتاح أوثان الجزيرة هاديا
فتسلمت حمل الأمانة أمة
أيام أن غضبت تخر لها السما
ويذل موج البحر تحت سفينها
وتسير خلف الشمس جرد خيولها
أيام تمتلك العوالم وحدة
أيام عز العدل تحت نظامها
الشرق مذعور لبيض سيوفها
في قصر عزتها ودار نكالتها
وتعامدت في منتدى جهالها
يا سعد طالعها وبعد منازلها
فرحا فلا استقبال كاستقبالها
شوقا إليه تهيم في بلبالها
ومضت مجاهرة بشر فعالها
حنق عضال في صدود رجالها
وردا وقد سيقنت إلى أجالها
خوض المعارك من كريم خصالها
سحا بنضح سيوفها ونبالها
علم الهدى الخفاق فوق جبالها
وشفى القلوب الغلف من أعالها
أبقت وطيء المجد في أنجالها
وتميد هذي الأرض في أهوالها
فزعا وتمخر فيه حمر جمالها
قدرا تهز الكون في تصهالها
وتخلص الأكوان من أوجالها
وانهد طود الظلم تحت جلالها
والغرب مرتعد لسمر رجالها

عهد مضى وأتت عهود بعده
فتفرقت شيعا وهد كيائها
نامت على الخطر العظيم ولم يزل
نامت وأجراس البلاء تدق في
سارت وراء الركب تخبط في الدجى
الغرب يدعوها إلى أغوائها
فتسير خلف الشرق في ظلماتها
وتريد من هذا وذلك نصرة
تشكو إلى من لا يرق لحالها
اسف الأديب لما تكابد من أسى
ورأى دعاة الزهد حال سلوكها
ما هكذا يا سعد تورد إنها
لو أنها سلكت سبيل المصطفى
لتحكمت في العالمين وحيدة
لولا تناقضها ونكث عهودها
وفشو فرققتها لما رضيت بما
ولما انحنت تحت السماء لواقع
هي أمة وسط عظيم شأنها
حاشا تواخذي بنقد لاذع
ما هي إلا أمتي وأنا ابنها

ونوائب تدعو إلى اضمحلالها
وفشا تدابرها وصرم حبالها
داء الجمود يدب في أوصالها
أذائها والأرض في زلزالها
مهدودة العزمات في أغلالها
والشرق يجرفها إلى اضلالها
وتسير خلف الغرب في أحوالها
وهو المجد لمحوها وزوالها
عجبا لمحض جنونها وخبالها
وشجى فقام ينوح في أطلالها
فتعوذوا من حالها ومآلها
حال غريب أن تظل بحالها
وتمسكت بجهادها ونزالها
ولعاش هذا الكون تحت ظلالها
حنقا وضرب يمينها بشمالها
درج الزمان عليه من اهمالها
ولما انتهى قدر إلى اذلالها
لو لم تحد عن نهجها وخلالها
ما قلته إلا لشحن نصالها
حقا فلا أصغي إلى عذالها

ما زال مغربها العظيم يعيش في
 قد قاده الحسن الهمام إلى العلى
 وغدت مسيرته العظيمة آية
 فكأنها القدر المحيط تحديا
 جادت على أرض الفخار بعارض
 فكأنها الصبح المنير أضاءها
 وكأنها الأكام بين سهولها
 ما تلك إلا أمة قد قادها
 ودعا إلى الأمجاد فيها والعلی
 هي أمة دأبت على خوض المعارك
 ورثت عن أبطال الحمى صون الحمى
 فاسأل بها الجولان أو سينا فسو
 واسأل بها زاير يوم توثبت
 فليشهد الثقلان أنا أمة
 أيام عزتها وعهد نضالها
 واحل أمته ذرى أمالها
 يتساجل الثقلان في أجالها
 في عزمها الماضي وفي استبسالها
 متهلل من غيدها ورجالها
 فاجتاح عهد ظلامها وفصالها
 وكأنها الأنواء فوق تلالها
 حسن الثنا لرقبها وكمالها
 شعبا شغوفًا بالمكارم والهـا
 والفدا في نهجها ومجالها
 لله ما ورثته عن أبطالها
 ف يجيبك التاريخ عن سؤالها
 وتغلغل كالأسد في أدغالها
 لا يستطيع الدهر رد مصالها

* أُلقيت القصيدة بمدينة سمارة بمناسبة الهجرة النبوية واسترجاع هذه المدينة من يد الاستعمار.

"اللاهث وراء السراب"

حبيبة البورقادي

يا أخا الزيغ تستحق عذابا يوم فكرت حائرا كذابا
عشت وهما ويا له من خيال خائن قد كشر الأنيابا
غالك الزيغ مع بريق الكراسي وعلى العقل قد ضربت الحجابا
أتظن الأوطان تشرى بمال فتدوس الأقوام والأنسابا
يا أخا الزيغ ويح حال كسيح قد أضع الحياة، منها الشبابا
ناسيا أننا أباة كرام ننصر الحق ناشرين الصوابا
وحمينا على مرور الليالي أرضنا، إن تفاوضا أو حرابا
كم بنينا لشعبنا من صروح شامخات من المعالي قبابا
يا أخا الزيغ لا غرابة إن عشت ت لأوهام تخالهن صوابا
وغدا المرجفون حولك يوما فرأيت الوعود تنبت صابا
ذاك شأن لمن يرى الزيغ حقا ويعادي الأحباب والأقربا

ينكر الأصل، كي يفوز بحكم
صانعا من رؤاه إيوان كسرى
يا أخا الزيف هل تذكر يوما
يسوم ثار الأحرار صوبك لما
أنكروا أن تكون ابن صحاريهم
نحن أبطال أرضنا بفيافيها
كم لنا في الجهاد من مكرمات
قد خبرنا على مرور الليالي
وهزمننا بعزمننا كل غر
إن يرم كائد قلامه ظفر
سوف يحظى بخف رجل حنين
حاله كالذي يناطح صخرا
يا أخا الزيغ نحن شعب وعرش
ذهل القوم في المحافل لما
قرأوا كُلاً ما يسفه قولاً
عجبا للمحافل تستفتي
أهو الغدر؟ أم ضياع حقوق
في بحار الظلام، تيهها يبأبا
ومن الغدر موطننا وترأبا
سقط الحلم مستحيلا سرايا
رفضوا أن تبيع فيهم رقابا
وقد أنجبت أسودا غضابا
وفي الهيجا نصنع الأقطابا
يذكر التاريخ نصرنا والغلابا
مغرب المجد مستقلا مهابا
وسقينااه علقما ثم صابا
من تراب، فما أعزا الطلابا
مبدلا بالغنيممة الإيابا
ليوهي قرونه فتصابا
قد ملكنا للوحدة الأسبابا
رأوا السهل حولنا والهضابا
زائفاء، أو يستزيح النقابا
الدخيل، وترتجي الترحابا
وفصال عن الكيان اغتصابا

يا لها من حلول دمنة لما
أبلغ الغادر المدلس : أنا
خدعة الخادعين مهما توالى
وعيون الحماة يقظى لحق
غدت الأرض ملعبا مستطابا
بملايين شعبنا لن نهابا
فهي لا بد تستحيل سرايا
تتحدى الأقفال والأبوابا

حسن المجد والاعلا

محمد المختار ولد باه

ليس يدري مصبُ كيف يمسي
وسفين الحياة في الموج يجري
تجزع النفس أم يحين قضاء
والمقادير لا ترد بتُرس
لا يراعى شراعه أين يرسى
بمصير تذوقه كل نفس

حسن المجد والاعلا كنت فينا
كنت للدهر حاية لم يضرها
ذهل الناس من رحيلك عنهم
حدث هزُّ هولاه قادة العا
فتداعوا ما بين عُرب وعُجم
شيّعوا نعشك المهيب بجمْع
ومحا الخطب خلفهم فنسوه
خاشعي الصوت لست تسمع منهم
مشهد قد يعز عن واصفيه،
إذ يخاف اللسان عُقدة قول
في بهاء من الجلالة قدسي
لوح نعش ولا الثواء برمس
فأصيبوا من الدهول بمس
لم طراً من كل سنخ وجنس
وتنادوا ما بين روم وقرس
كجُودٍ تسير خلف الدرفس
هكذا تذكر الخطوب وتنسى
غير وجس من الخطاب وهمس
أمراء البيان فيه كخرس
ويهاب اليراع صفحة طرس

زَمَرَ الشعب يندبون حيارى،
ألفوه منك الحضور بهيجا
ينثرون الورود حولك حبا
وعلى الثغر راحتك تحيى

أيسجى من كان غرة كرسي
لم تسمه الخطوب يوما بطمس
من قلوب تهفو بقرب ولمس
بابتسام يجول في كل حس

عهدوه السماع منك خطابا
ودروس للذكر تجلو الخفايا
وأكفّ وسبحة ودعاء
بحر علم لدى مجالس علم
قمم السلم قدها لجهاد
ومسيرات وحدة وعلوم
أيّ ثان مكمل المجد بانٍ
كم مشيد بنيت يشهد "آذ"
كان ظني أن قد تعيش دهورا

ببيان يزري بصنعة قُوس
وتزيح المريب من كل لبس
يختم الدرس في سنا كل درس
روض أنس لدى مجالس أنس
لحمى الدين أو لتحرير قدس
حطمت بالنماء أطواق يأس
ورث السُر من مُكْمَل خمس
ك بانیه في الملوك بنكس"
أين ظني من القضاء وحديسي

غاب جسم والنور باق فهذا
أيها السادس المليك المفدى
طبت غرسا ومحتدا ونباتاً
عن أبيك الأبى ورثت المعالي
ويقيننا بأن تروض قريبا

ضوء شمس ينير من بعد شمس
أنت فوق الرجا وأعلى التأسى
وخيار الثمار من طيب غرس
فلك اليوم ما تعرفت أمس
كُبريات من المآثر شُمس

قد برزت الهمام ثابت جاش
 صنعت ملك الوفاء وهيبة عرش
 بايعتك الجموع بيعة عهد
 سرت هونا على جوادك تلقى
 وتقربت للصلاة فأذكت
 فبكوا ثانيًا بدمع مزيج
 ودموع الوداع أنَّهُ حزن
 والرشيد الأمين رمز التأخي
 شد أزرًا لفتح باب المزايا
 آل بيت النبي هذا عزاء
 حفظ الله عرشكم وحماكم
 رغم وقع الفراق رافع رأس
 قد بناه التقى على خير أس
 وولاء لا بيع نكث وبخس
 بإشارات حبك المترسى
 جذوة الشوق من جماهير حمس
 ألم البين والتقاء المؤسى
 ودموع اللقاء فرحة عرس
 وظهير بدون مَنْ ومكس
 ولسدّ السبيل عن كل دس
 من فؤاد على المحبة حُبس
 ووقاكم من شر جن وإنس

مناقشات

1 - محمد بنشريفقة

أودُّ أن أفتتح كلمتي بقول المتنبي .

وَلَيْسَ يَصِحُّ فِي الْأُذْهَانِ شَيْءٌ إِذَا احْتَجَّ النَّهَارُ إِلَى دَلِيلٍ

الندوة موضوعها ثقافة الصحراء ومغربية الصحراء في طي ذلك. فمغربيته كالشمس في رائحة النهار التي لا تحتاج إلى دليل.

استمعت هذا الصباح إلى الحديث المدخل الأساس لهذه الندوة للزميل عباس الجراري، وكان حديثاً جامعاً شاملاً، وضع المداخل للأحاديث التي جاءت بعده والتي لا شك أنها ستدور في هذه الندوة. لكن كلمة الزميل أبي بكر القادري خطّطت لمسالك الندوة ولمناهجها ولتحديد موضوعها، عندما تساءل أي صحراء؟

وفاتني أن أستمع في الصباح، بسبب ارتباطي بموعد مع طبيب، أن أستمع إلى أحاديث لاشك أنها كانت مفيدة جداً كالمحاضرة التي ألقاها السيد حمداتي شبيهنا ماء العينين، ومحاضرة السيد أحمد مفدي وبقية الإخوان. وفي أحاديث هذا المساء لا حظت أن كل ما قيل مفيد ولكن بعضها يرقى بنا إلى العهد القديم، إلى البدايات، إلى عهد المرابطين وما تلا ذلك. فمن خلال العروض التي استمعنا إليها حول ثقافة الصحراء هناك شمول واتساع يشمل الصحراء المغربية وسواها. كل هذا مفيد وجيد لأن ثقافة الصحراء ما هي في الواقع إلا الثقافة المغربية في انتشارها.

كان من أوائل ما قرأته وأنا طالب في كلية ابن يوسف كتاب : «الوسيط في أدباء شنقيط»، وفي سن الخامسة عشرة كنا نكاد نحفظ جل ما في هذا الكتاب. ومؤلف هذا الكتاب وأترابه من العلماء، لو أدركوا زمننا هذا ورأونا نناقش مغربية الصحراء لأصابهم ما أصابهم من الاستغراب ومن التعجب. فهؤلاء العلماء

روابطهم بالمغرب وبثقافة المغرب من الواضحات، فصلاتهم بملوك المغرب معروفة، وهناك، ربما، موضوعات لم تقع الإشارة إليها لحدّ الآن وهو أن هؤلاء العلماء كانوا يحجون عن طريق المغرب، وكان ملوك المغرب هم الذين يقومون بنفقات حجّهم وبتهيئة حجّهم وتسهيله. وهذا شيء معروف. أذكر أن أحد هؤلاء العلماء الذي كان في كلية ابن يوسف وظل حتى الفترة الأخيرة وهو العالم ابن العتيق، ألف رحلة توجد مخطوطتها في الخزانة العامة وطُبعت أخيراً، وهي وثيقة فيها كثير من الدلالة على الموضوع الذي نتحدّث فيه اليوم.

عندما حل هذا الوفد بتطوان وأقام فيها مدة، لأنه في ذلك الوقت كانت هذه المناطق التي كان يقوم عليها الإسبان، كانت صلتها بالمنطقة الخليفة، في هذه الرحلة وفي غيرها من الرحلات لعلماء الصحراء الشيء الكثير الذي يثبت أن هذه الثقافة مغربية لا غبار عليها. هذه الرحلات متعدّدة ومتنوّعة. وكل شيء في هذه الثقافة، ثقافة الصحراء، يوحدنا مع ثقافة الشمال، من المذهب المالكي إلى العقيدة الأشعرية إلى التصوف إلى الخط ورسم الحرف. فنحن نعرف أن ما يميز المغرب عن المشرق هو الخط وترتيب هذا الخط، فابن خلدون في «المقدمة» أشار إلى هذه الناحية المغاربة لهم ترتيب معروف في الخط، في الألف - باء والمشاركة لهم ترتيب، وأهل المغرب ترتيبهم معروف. وكذلك نقطهم فيما يرجع إلى الفاء والقاف. هذه كلها جزئيات ولكنها من العلامات الدالة على وحدة الثقافة. وأما فيما يرجع إلى أصول هذه الثقافة وكذلك إلى صانعي هذه الثقافة، فقد استمعت باهتمام كبير إلى حديث الزميل المختار ولد أباه، ولعلّي أودُّ فقط أن أعقب وأناقش بعض ما ورد في هذا الحديث، ولا سيما بالنسبة إلى السبب الباعث للمغاربة على اختيار مذهب مالك وإلى رأي ابن خلدون في هذا الموضوع.

ومعروف ما قاله ابن خلدون، ولعل له حظاً من النظر، ولكن هنالك رأي آخر ذهب إليه ابن حزم وهو أن المذهب المالكي سادَ بحكم السلطان، فقد فرضه الأمويون

ولاسيما هشام منهم بعد أن دعا له الإمام مالك واستقر بعد ذلك وتمكن بعد أن أخذه تلاميذ الإمام مالك من الأندلسيين. ومن أشهرهم .

- يحيى ابن يحيى الليثي، وروايته «الموطأ» هي أشهر رواية في هذا الباب.

- أبو زهرة الفقيه المصري المعروف، له كتاب عن الإمام مالك، ناقش فيه رأي ابن خلدون مناقشة ربما فيها شيء من الشدة والعنف وذهب حتى إلى تخطئته في هذا الباب. وقال بأن قضية البداوة لم تكن هي الباعث على اختيار المغرب للمذهب المالكي. وكما أشرت إلى ذلك فإن هناك قسماً لا بأس به من أهل العراق الذين ترجم لهم القاضي عياض في «ترتيب المدارك»: كآل إسحاق، كان منهم قضاة، وقاضي القضاة إسماعيل وعقبة. كانوا مالكية في قلب بغداد! إذن فمسألة البداوة فيها نظر. هذه الجزئية لا بد من أن نراعي فيها قضية النقاش الأكاديمي والعلمي وتلمس الجوانب الموضوعية أو جوانب البحث فيها.

أما قضية الأشعرية وأنها وصلت عند المغاربة بواسطة المهدي بن تومرت، فهذا أيضاً يُراجع. لأن الأشعرية وُجدت قبل ذلك وأُلفت فيها عقائد قبل المهدي بن تومرت. وربما كان ابن أبي زيد القيرواني، الذي كما تعلمون فإن مقدمة رسالته ذات صبغة أشعرية، وقد كان ذا صلة بالباقلاني، والباقلاني كان مالكياً. فالأشعرية جاءت قبل المهدي بن تومرت، على أن أشعرية المهدي بن تومرت ليست أشعرية صافية خالصة كما هو معروف، فهي ممتزجة بعناصر أخرى.

الأحاديث التي استمعنا إليها هي ذات مستويين مستوى يرقى بنا إلى زمن المرابطين وما بعده ومستوى لعله هو الذي كنا في حاجة إلى التركيز عليه لأنه الأقرب إلى زمننا ولأنه الأوثق صلة بنا وهو ثقافة الصحراء في القرون الثلاثة أو الأربعة الأخيرة.

هذا ما كنا نود أن يقع عليه التركيز، ولكن مع ذلك هذه الأشياء كلها من قبيل الممهّدات، كما أشرت إلى ذلك، مسألة القاضي عياض والمرادي اللذين ما

يزالان من بين الرموز في ثقافة الصحراء. هنالك أيضاً الشيخ خليل المعروف وعناية المغاربة به تجاوزت غيرهم في هذا الباب. فالشيخ خليل معروف بشروحه وحواشيه وترجيذه وأنظامه إلى غير ذلك.

هنالك مسألة كان ينبغي أن تضبط وهي الأسانيد التي وقعت الإشارة إليها في المدخل التمهيدي لهذه الندوة. هذه الأسانيد هي ، كما تعلمون، دليل قوي، لا نريد أن نقول إن هناك أستاذية وهناك تلمذة لأن الأمر يختلف أحياناً، يوجد شيوخ لبعض المغاربة من الصحراء وثمة الأكثرية هم شيوخ من الشمال سواء تعلق الأمر بفاس أو بمراكش أو غير ذلك ، فقضية الأسانيد أيضاً من العناصر التي تحتاج إلى بيان وإلى إيضاح، وهي التي تمثل الصلات الوثيقة بين العلماء. وهنالك الكتاب أيضاً، الكتاب المدرسي أو المتون التي تحفظ، وهذه مظاهر وحدة الثقافة. فمجموع المتون الذي كان يروج ويُستعمل في التعليم الأصيل، أو العتيق، هو نفسه الموجود في الصحراء. وهنالك أشياء تتعلق بالنوازل وبغيرها.

الأخ الكريم، المتحدث الأخير عن قضية التجديد، ولعلّه أراد أن يشير إلى مسألة الاجتهاد. كما تعلم فإن ابن رشد الجد في نوازل المطبوعة خصّص نازلة كبيرة جداً لموضوع الاجتهاد وقسمه إلى ثلاثة أقسام اجتهاد مطلق، واجتهاد في داخل المذهب واجتهاد في الفروع ولعل ذلك هو المرجع أو الأساس لما كان بين العالمين اللذين تحدثت عنهما.

أثنى الحديث الذي تقدم به الزميل محمد الظريف الذي نعتبه اليوم من السائرين في طريق التخصص الدقيق في ثقافة الصحراء، ولا سيما أنه نشر مجموعة من الأعمال في هذا المجال، وقبله كان الأستاذ أحمد مفدي في مجال الشعر فيما نشره من ديوان «الأبهر المعينية» وهنالك طالب من العيون كان قد أكمل هذه «الأبهر المعينية» تحت إشرافي فتم ذلك العمل، ولست أدري أين يوجد هذا الطالب اليوم. المهم أن هذه الثقافة كانت مكوناً فعلاً وكانت جزءاً لا يتجزأ من

ثقافتنا. كنت قد أشرت إلى أنني قد قرأت «الوسيط» وما أزال أذكر أننا كنا نتناقش فيه مع زميل لنا هو العالم سيدي أحمد الشرقاوي إقبال، وكنا نعجب بما يرد فيه من غرائب محفوظات أدباء الصحراء، مثل صاحب «الجيمية» الذي عارض جيمية الشماح وكذلك أخبار بعض النساء. وخلال اشتغالي بالأمثال العلمية لأهل الأندلس في المغرب، كان من جملة المصادر التي لجأت إليها : «الوسيط» وفيه قسم من الأمثال هي نفسها الأمثال الشائعة أو الراجحة في المغرب.

نحن في هذه الندوة إنما في أحيان كثيرة ننعش ذاكرتنا بهذا الموضوع الكبير والمهم، ونُسمعُ كذلك من لم يكن لديه الوقت أو من لم تكن لديه الإمكانية للتعرف على هذه الثقافة.

2 - إدريس العلوي العبدلاوي

لقد تتبعت باهتمام الأبحاث القيمة التي عرضت علينا في هذا اليوم بدءاً بالعرض التمهيدي الجامع للأستاذ الدكتور عباس الجراري، وانتهاء بعروض بعض أعضاء الأكاديمية والسادة الخبراء.

والحقيقة أن لجنة القيم الروحية والفكرية بأكاديمية المملكة المغربية إن كانت قد خططت لتنظيم هذه الندوة المهمة منذ مدة، وكان من المفروض أن تعقد قبل هذا التاريخ، إلا أن الظروف شاءت لهذه الندوة أن تحظى بشرف المجاورة في الزمان للزيارة المباركة الميمونة لعاهلنا المفدى نصره الله والتي سيسجل التاريخ وقائعها بأحرف ذهبية ناصعة.

لتأكيد ما قيل في هذا اليوم، وما أشارت إليه بعض العروض من تمسك أهل الجنوب بالصحراء كأهل الشمال بالمذهب المالكي، مما يؤكد وحدة المذهب الذي اعتمده محكمة العدل الدولية في حكمها، وفي مجال عرض بعض جوانب ثقافة

الصحراء الفقهية التي كنت أتوق إلى الاستماع لجوانبها ولهذا تطلعت لبحث الزميل الأستاذ المختار ولد باه المعنون بثقافة الصحراء من خلال مقوماتها المغربية لدى الفقهاء والشعراء إلا أن جانب الأدب طغى على الجانب الفقهي وأرجو أن تتاح الفرصة لتسلط الأضواء على هذا الجانب المهم (بحث الأستاذ أحمد بن المختار حمّين) وإن كنت لازلت اتطلع لبحثين مبرمجين في يوم الغد لهما ارتباط بالثقافة الفقهية، الأول للسيدة الفاضلة العالية ماء العينين والثاني للأستاذ الدوّى حمادة في مجال ثقافة الصحراء الفقهية، أوكد أنه إذا كان الإمام مالك رضي الله عنه يشير إلى موصول الوشائج ومتين العرى بينه وبين من سبقه من علماء التابعين، وأفاضل الصحابة الكرام، أمثال سيدنا عمر رضي الله عنه الذي كان معجبا به وبفتاويه التي نقلها عنه سعيد بن المسيب، وعنه ابن شهاب الزهري أحد شيوخ الإمام مالك البارزين، وإلى التقارب بين مذهب الإمام مالك ونهج سيدنا عمر رضي الله عنه في الاجتهاد والفتوى، يقول الشيخ محمد حبيب الله الجكني الشنقيطي :

فمالك على طريقة عمر والشافعي على أبي بكر الأبر
 كذا عثمان نجل حنبل ثم أبو حنيفة على علي
 لكن إمامنا الفروع قد حوى مع الحديث والقياس فقوى

وحيث إن كتاب «الموطأ» يعتبر نسيج وحده في بناء الفروع على الأصول، ودائرة ربط الوقائع بأدلتها والتدريب على ذلك، وبذلك كان كتاب «الموطأ» أقدم ما يوجد عندنا من التراث الإسلامي، بل هو أقدم كتاب بعد كتاب الله عز وجل بالحرف العربي بصورة عامة.

وفي هذا المجال ذكر الشيخ محمد حبيب الله : «أن الموطأ أصل للمذاهب الإسلامية هداية وارشادا، وحجة ومنهاجا، ومن تتبع مذاهبهم ورزق الإنصاف من

نفسه علم - لا محالة - أن الموطاء عدة مذهب مالك وأساسه، وعمدة مذهب الشافعي وأحمد ورأسه، ومصباح مذهب أبي حنيفة وصاحبيه ونبراسه، فهذه المذاهب بالنسبة للموطاء كالشرح للمتون، وهو منها بمنزلة الدوحة من الغصون، وأن الناس وإن كانوا من فتاوى مالك في رد وتسليم، وتنكيت وتقويم، فما صفا لهم المشرب، ولا تأتي لهم المذهب، إلا بما سعى في تربيته، واجتهد في تهذيبه».

ومن أمثال وحكم بعض فقهاء الجنوب في مجال الفتوى والإفتاء :

شر الأقوال ما أوجب الملام

وشر الأفعال ما جلب المذام

وشر الفتوى ما حلل الحرام

وشر الآراء ما خالف الإسلام

وفي مجال إقرار قاعدة لا اجتهاد مع النص يقول فقهاء الجنوب

والاجتهاد إنما يكون في كل ما دليله مطنون

أما الذي فيه الدليل قاطع فهو كما جاء ولا منازع

إنما الفتوى بما فيه عمل وغيره يُصد عنه من سأل

ومكثرُ فيه السؤال لا يُقر ويقتدى فيه بما قضى عمر

وحتى لا أطيل اكتفي بسر هذه النماذج البسيطة وشكرا.

3 - حمداتي شبيها ماء العينين

ينبغي أن نحدد الحيز الترابي الذي تختص به هاته الندوة، إنها تختص بما نسميه اليوم جهتي الساقية الحمراء ووادي الذهب. والمؤرخون والكتاب سرقتهم

البحوث الأجنبية وسرقتهم الرحلات التي أعدت على طرق القوافل القديمة، حيث كانت تخرج من مراكش وتأتي شرق غلميم وتمرّ بمدينة آقا فتخترق لحماًدة فتذهب إلى ودان في قلب موريتانيا، ثم يعرج، من هو ذاهب منها إلى الجنوب نحو الجنوب، ومن هو ذاهب إلى الشرق نحو الشرق دون أن يكون هناك ذكر للساقية الحمراء وواد الذهب.

هذه المنطقة، إذا نحن أردنا الكلام عنها فينبغي أن نكلف أنفسنا عناء البحث لأن جلّ الموروث الحضاري والثقافي الذي يعينها لا زال مخطوطاً. ولم يكن مخطوطاً بالدرجة التي يمكن أن نستفيد منها، وهو مكتوب في كنانيش أصحابه، سواء تعلق الأمر بالفتاوي أو ببعض الكتب أو تعلق بالشعر. فالشعر، لو لم يكن الأستاذ عباس الجراري هداه الله إلى أن أسس الخلية الفكرية لمتابعة هذا الإنتاج كان ضاع اليوم، لأنه لم يكن له أثر في الكتابات القديمة ما عدا ما يخص واد الذهب الذي ارتبط شعراءه بشعراء موريتانيا فالتحم هذا الفكر هناك فكُتب عنه كما كُتب عن شعراء شنقيط، وبقي ما يخص الساقية الحمراء مجهولاً ولا زال مجهولاً إلى حد الآن. ولا بدّ أن ننقب في البحوث، ولا بدّ أن يجتهد الباحثون حتى يعرفوا الناس بهاتين المدرستين. المدرسة الأدبية لواد الذهب والمدرسة الفقهية في الساقية الحمراء. والدليل على ذلك، أن الأستاذ محمد الظريف تجاوز، لضيق الوقت، مدرستين عظيمتين في الساقية الحمراء لم يذكرهما مدرسة آل الليلي ومدرسة آل سيدي أبوبكر العلويين اللذين قدما على الصحراء من الأسرة العلوية أيام مولاي إسماعيل، وأسّسا مدرسة في مكان يسمّى الحكونية، وأحد أعلامهم ألف طرة على الشيخ خليل لأنه كان يدرس بهذه المدرسة. فإذن هذا الجانب مجهول.

في الشعر الذي سمعناه ذرر قيمة، ولاحظوا معي على أننا نحن الأحياء استشهد بشعرنا والأموات لم يُستشهد بشعرهم لأننا نحن استطعنا أن نكتبه في الجرائد أو نعطيه للطلبة أو نتحاور به في الأندية، لكن أولئك الذين بقي عند

أحفادهم وأولادهم، لا زال مجهولاً¹ فمثلاً الشيخ محمد الإمام، هذا الشاعر العظيم والمؤلف الكبير، يكفيه فخراً على أنه في سنة 1947 استدعاه مولاي الحسن بن المهدي ليحضر زفافه بتطوان فلماً مرّ بواد المخازن قال في رائعة من الروائع المغربية :

خَيْلِي مُرّاً بِي بَوَادِ الْمَخَازِنِ	نُجِدُّ شُكْرًا بَيْنَ تِلْكَ الْمَوَاطِنِ
مَوَاطِنُ كَانَتْ لِلْجِهَادِ مَشَاهِدًا	بِهِنَّ مِيَاهُ الْعِرْزِ غَيْرُ أَوْسِنِ
بِهِ وَقَعَةُ مَا زَالَ يَسْرِي نَسِيمُهَا	عَلَى بُعْدِ عَهْدٍ وَأَبْتِعَادِ الْأَمَاكِنِ
بِأَيْدِي رِجَالٍ شَيَّدُوا الدِّينَ وَارْتَدَّوْا	رِدَاءً مِنَ الْعُلَيَاءِ ضَافِ الْمَحَاسِنِ

إذن هذا أدب مجهول نظراً لِعَرَابَتِهِ وللظروف التي كانت تحيط به فينبغي على الباحثين أن ينقبوا عن هذا الأدب المجهول، والذي سمّاه الأستاذ عبد الوهاب بنمنصور حفريات الصحراء، وكتب فيه بعض الروائع التي قيلت في محمد الخامس في أول عيد من أعياد ميلاده.

فلا بدّ إذن، من تحديد الموقع الجغرافي الذي ينبغي أن نتكلم عنه.

4 - أحمد ولد عبد القادر

أبدأ بالثناء على موضوعات اليوم التي جاءت غنية بالبرهان والشواهد الإثباتية. لفت انتباهي ما جاء في عرض الأستاذ التازي حينما تكلم عن التحف التي كان يهديها سلاطين المغرب إلى الملوك والرؤساء الأجانب كالنعام وما إلى ذلك، وهي فكرة أطلقها الأستاذ التازي ونطلب من الباحثين الشباب المهتمين بثقافة الصحراء أن يهتموا بجانب الثقافة المرتبطة بالمهن كزراعة النخيل وما إلى ذلك. وهذه ملاحظة جيّدة أنوّه بها حتى لا تكون بحوثنا منحصرة على الجانب الشرعي والأدبي دون غير ذلك من مجالات الثقافة للصيقة بحياة الإنسان وتاريخه .

على ذكر النعام الذي كان تحفة، أتذكر أن مدينة «تيشيت» وهي مدينة غنية بالمخطوطات توجد فيها وثائق كثيرة تثبت أن أهل تيشيت في القرن الثامن عشر والقرن التاسع عشر كان ريشُ النعام لديهم يحتل محل العملة في التعامل على طول الخط.

على ذكر الرحلات إلى الحج، أؤكد، حسب تجربتي لأنني سبق أن اشتغلت لعدة سنوات في الآثار المخطوطة في موريتانيا، أن رحلات أهل الصحراء وأهل موريتانيا وأهل شنقيط إلى الحج، الرحلات المكتوبة منها كثيرة جداً وإن كانت لم تجمع بعد ولم تحقق في أغلبها، وفعلاً كانوا في أغلبهم يذهبون إلى المغرب لمحاولة الإبحار من طنجة قصد أداء فريضة الحج، لأن هذه كانت هي الطريق الآمنة إلى الحج. لأن الطريق الصحراوي، طريق سـجلماسة أو طريق قدامس غير مأمونة وقليل من سالكيها من يعودوا إلى ديارهم سالمين.

من تلك الرحلات أتذكر رحلة قرأتها للبشير ابن مباريكي تلميذ الشيخ سعد بوه ابن الشيخ محمد فاضل، ذهب من طنجة مع رفيقين له من جنوب موريطانيا، ولما وصلوا إلى مكة قبل موسم الحج لم يستطيعوا أن يذهبوا إلى المدينة بسبب كثرة اللصوص وكتب: «وانتظرنا أياماً وأياماً ننتظر انطلاق قافلة الحجّ المغاربة للاحتماء بها من اللصوص لأن حجّاج المغرب كان يصحبهم مسلّحون للحماية، وعازفون للطبول لترهيب اللصوص». بهذه الرحلات نجد كثيراً من أدب الرحلات الجيد وكثيراً من براهين الصلات ما بين الشمال والجنوب.

أخيراً أوصي الباحثين بالتثبت من الأسماء، ففي موريطانيا وفي الصحاري وفي الجنوب الأسماء تتشابه كثيراً. ولذلك وجب التثبت منها وتحققها وضبطها. لأن الأسماء تحمل كثيراً من الدلالات. فمثلاً وقع خلط اليوم بين شخصية ابن الأعمش العلوي الشنقيطي هذا الفقيه الذي درس في مدرسة ابن رازكة فيما بعد، وهو أول من كتب «فقه النوازل»، وفقه النوازل هذا هو اجتهاد لحل مشاكل لا يوجد لها حل في المراجع الفقهية المعروفة في فاس أو قرطبة أو القاهرة وذلك بسبب

خصوصية الأعراف والعادات. أول من كتب في هذا الميدان في الصحراء وفي موريتانيا هو ابن الأعمش العلوي. لكن اليوم وقع خلط بينه وابن الأعمش الجكني صاحب المحاضرة الشهيرة في تندوف ولهما ثالث أيضاً يسمّى ابن الأعمش الأبيري وهو فقيه ومؤلف.

5 - أحمد مفدي

إن بضاعة الثقافة الوطنية في الصحراء المغربية لا تخضع أبداً لمفهوم خارطة الدولة الحديثة. فالثقافة في الصحراء، في تاريخ المغرب لها خصوصياتها، كما أن الثقافة العربية في الدولة الإسلامية لها خصوصياتها . وللأسف فإن دراساتنا وبحوثنا الجامعية والهيئات العلمية أصبح فيها كثير من الحيف على البحث العلمي وكان فيها كثير من الجور وكثير من الظلم إلى درجة أننا نجد بعض المثقفين يؤقلمون الثقافة ويحصرونها في خانة دون أن يبقى لها ذلك الامتداد الروحي والإشعاعي، ولذلك تلحّ مناهج البحث العلمي على تحديد الزمان والمكان، فعندما نحدّد ثقافة الصحراء المغربية في القرن الحادي عشر أو في القرن الرابع عشر، نجد شيئاً آخر هو غير ما توجد عليه الآن الكتابات والمنشورات والمطبوعات التي نراها تصدر من جهات متعدّدة، لأن الثقافة الوطنية في خريطة الصحراء المغربية غير مقنّنة وغير محدودة بخرائط الدولة الحديثة.

ثانياً، من الإجحاف ومن الظلم العلمي أننا نبحث ونتلمّس عن الحجج وعن الأدلّة عن صحراوية المغرب أو ثقافة المغرب. فكما قال الأستاذ بنشريفة فإن الشمس في واضحة النهار لا تحتاج إلى دليل. جميع الثقافات المغربية التي ظهرت في خريطة الوطن ولنذهب بعيداً، خاصة من عهد المرابطين إلى الآن هي ثقافة مغربية، ثقافة مغربية من حيث الشكل ومن حيث الجوهر، وثقافة مغربية من حيث التأطير. فعشرات البعثات العلمية حسب الحقب الزمنية كانت تخرج من فاس أو

مرآكش لتعرّج إلى الصحراء وتصل إلى السينغال، ثم تعرّج إلى كائو في نيجيريا، وقد تصل إلى تمبوكتو في مالي. ما يخص شمال النهر، كانت هناك طبيعة لثقافة مغربية صرفة. والشيخ ماء العينين بما أوتي من ذكاء وبما أوتي من فطنة وبما أوتي من نباهة ربّانية، ولا شك، لأنه قطب ربّاني في المعرفة وفي الولاية وفي القيادة وفي الزعامة الوطنية، هذا الشيخ اهتدى إلى أن الخلافات القبلية أو الإقليمية قد تضرر بالثقافة، فألف كتباً يخاوي فيها بين الاتجاهات الصوفية وبين الاتجاهات الفقهية ويحاول أن يؤطر ذلك في توجه وطني يخدم الوطن ويخدم العقيدة. أما التقاء الأسماء، فلا مشاحاة في الأسماء كما يقول العلماء وهناك في المراجع أو المصادر الصحراوية نفسها في الكراسات وفي التسجيلات التي رجعنا إليها، هناك كثير من التناقضات بين هذه الكناشات نفسها، بل رجعنا إلى رِوَاة ما يزالون أحياء من تزنيّت إلى الرباط إلى أكادير حيث وجدنا روايات متناقضة فيما بينهم، لا يضبطون الأسماء، وهم صحراويون، ولا يضبطون سند الرواية إلا من رحم ربك. وكل يتمسك بصدق روايته وهذا ممكن، نحن نعرف فن الرواية عندنا في الثقافة الإسلامية قد يختلف المستوى من راوٍ إلى راوٍ، وقد يختلف من مدرسة إلى مدرسة ومن جماعة إلى جماعة، لكن نحن الآن في هذه المؤسسة العلميّة الرائعة، نحاول أن نضع أصبعنا على ما ينبغي أن نخطّط له مستقبلاً، وهذا عمل ليس بسيطاً. أنا أعرف أن الأستاذ عباس الجراري لما أسس هذا التوجّه عانى كثيراً، وعانينا معه كتلامذته الشيء الكثير، هذا الشيء ليس بسيطاً، لذا يجب أن تقوم به مجموعات ومدارس علمية ممولة ولها إمكانات علمية، ولا يمكن أن تقف على الإمكانيات الذاتية للباحث وحده. لأنها غير مجدية من كثرة السفر وكثرة التصوير والتنقيب. وهناك ظاهرة خطيرة جداً في هذا الصدد، أقولها للشيخ ماء العينين وهو عانى معي في هذا البحث وهو أن أهل الكتب وأصحاب الكراسات يعتبرون ذلك شيئاً لا ينبغي أن يوجد به صاحبه. ولو كانت هناك هيئة علمية تنتمي إلى مؤسسة الدولة هي التي تقوم

بجمع هذه الأعمال لسهل الأمر كثيراً على الباحثين وعلى الجامعيين كما يفعل العالم أجمع. والغريب في الأمر أنه حتى حركات النضال السياسي عندنا في المغرب حركة متكاملة متجانسة رغم أن الظرف الزمني كان صعباً جداً، وكان لا يسمح بهذا التجانس وبهذا التكامل وبهذا التلاحق. وفي فترات زمنية قريبة جداً كانت حركة المجاهد عبد الكريم الخطّابي في الشمال، وحركة موحى وحمّو الزياني في الأطلس، وحركة الشيخ ماء العينين الذي أخی بين جميع قبائل الصحراء بأمر سلطاني وبولاية سلطانية، كل هذه الحركات نشأت في ظرف واحد. هذا لا يمكن إطلاقاً أن يكون اعتباطاً إن لم يكن هناك وجدان وطني هو الذي يحرك هذه المجموعة. ثم ترى الزعيم علال الفاسي وهو يخوض معركة مع جلالة الملك محمد الخامس رحمه الله، من أجل تثبيت الاستقلال للمغرب الذي كان وما زال مهدداً بكثير من الأطماع الفرنسية والإسبانية، ورغم ذلك أسس جريدة للتنقيب عن العلائق الروحية التي تربط الصحراء المغربية كلّها شرقاً وجنوباً بالعرش العلوي المجيد. ورأينا ما قدمه في هذه الجريدة لتثبيت هذه الروابط، في حين وأنا تلميذ صغير أقرأ في بداية الستينات، ولا أتذكر اسم الجريدة التي رسمت علال الفاسي آنذاك في صحيفتها وهو يركب الجمل والعقال على رأسه، ومازلتُ أتذكر الكلمة التي كتبت تحت الصورة: «تائه في الصحراء».

هؤلاء العظماء كانوا بإلهام ربّاني يقدر في قلبهم نور الوطن وحبّ الوطن من أجل أن يبقى هذا الوطن مشعاً في النفوس، وما أعتبر رسالته إلا امتداداً لرسالة الشيخ ماء العينين وامتداداً للشيوخ المناضلين الكبار.

6 - العالية ماء العينين

أريد أن أشكر الأكاديمية على هذه الندوة المباركة، لأنني أعتبر هذا النوع من المواضيع مهم جداً لسبب بسيط هو أنه - ولنعد إلى التاريخ، ونحن في حمى

الحديث عن ما يثبت شيئاً هو في الحقيقة بديهياً ما يثبت انتماء الصحراء للمغرب- نتحدث دائماً عن التواصل الثقافي والاجتماعي والفكري قبل أن نتحدث عن التواصل السياسي الذي هو معروف وأكد.

أنا أتصور أن هذا التواصل الفكري والاجتماعي كان قوياً جداً في ظل ظروف صعبة، هي ظروف الاستعمار وعدم التواصل نظراً لبساطة العيش وبساطة الظروف وصعوبة التنقل، كان التواصل حاضراً بقوة ، ويؤسفني أن أقول إنه كان حاضراً ربما أكثر من الآن . فنتساءل لماذا ؟ فالطبيعي أنه، منذ نهاية الخمسينيات وبداية الستينيات والسبعينيات كان عندنا هم سياسي شغلنا عن الاهتمام بهذا الجانب. نجد أنفسنا أمام شخص يشكك في انتمائنا، من الطبيعي أن ننشغل بذلك ، ولكن ليس من الطبيعي أن نذهب بعيداً في هذا الصدد، لأنه في الحقيقة هذا المشكل السياسي بسيط جداً، لأن التاريخ لا بد أن يحترم مبادئه وثوابته. فبالنسبة لي، وربما تكون هذه من شطحات المشتغلين بالثقافة، يجب أن يكون هناك تواصل ثقافي واجتماعي، فهذا أهم عندي من أي نصر سياسي! فالأستاذ عباس الجراري فطن مبكراً لهذا الشيء، ففتح وحدة الأدب الصحراوي في الجامعة والتي تشرفت بالانتماء إليها واشتغلت فيها. فتح هذه الوحدة أهم من أي شيء. فتصوروا معي لو وجدنا في كل تخصص أو في كل جامعة مغربية أستاذ مثل الأستاذ عباس الجراري، في الأنترولوجيا وفي علم الاجتماع وفي الفلسفة، وفي جميع التخصصات، فما هو حجم التراكمات الذي سيكون عندنا الآن ! أريد أن أستغل هذه الفرصة لكي أقول : أنا شخصياً لا يهمني ما يحدث في السياسة لأنني على ثقة أن هذا التاريخ وهذه الثوابت ستجد حلها كما نريد كمغاربة. ولكن الصعب ، ونتائج الاستعمار الحقيقية هي النتائج الاقتصادية والاجتماعية والثقافية، هو اتساع الرقعة، هو عدم التواصل، هو أن لا أعرف أنا أشياء كثيرة عن السوسي أو ألا يعرف السوسي عن الشمالي أو عن الدكالي إلى غير ذلك. نحن بلد يتميز بخصوصياته ويتميز بتنوعه، ويتميز بغنى هذا التنوع.

هذه نقطة قوية إذا استطعنا أن نستغلها كما يجب، ولكنها نقطة ضعف إذا لم نعمل دائماً في إطار من التواصل.

وأريد أن أقول إن الحكمة من المسيرة الخضراء هي أنها لم تكن مسيرة لجنود ولا لسياسيين، بل كانت مسيرة شارك فيها الطبيب والسياسي والصحفي والعامل والفلاح. لأنها كانت صلة رحم، فلذلك نتمنى أن لا نفقد هذه الروح، وأن نعزز أكثر هذا النوع من اللقاءات.

7 - خديجة أبي بكر ماء العينين

كان للحديث عن المخطوطات وعن الموروث الثقافي بالغ الأثر على نفسي. هذا الموروث الذي نخشى عليه من الاندثار وهو رهين الصناديق لولا الأستاذ عباس الجراري الذي بدأ بالنبش عنه، وكذلك الأستاذ محمد الظريف ومؤسسة الشيخ مربيه ربه التي أنا عضو فيها. هذه المؤسسة جعلتني أتحدث بلسان مخطوطة، ولذلك أريد أن أسمعكم مناقشة مخطوطة تتكلم تريد من يفتك أسرها إذا كان ممكناً :

نحُوا الغُبارَ تروا سنى ورقى	أنا لم أكن حبراً على ورقٍ
للفكر لا للعثّ منتجعي	إن تُهملوه فغاية الخرقِ
إنّي القريّ للضيف أتحفه	ما حلّ في بستانيّ العبقِ
أنا روضة العُشاقِ موعدهم	يحلّو لبثّ الشجورِ والحرقِ
أنا واحة بالعشق نخلتها	تُسقى بروقِ ريقِ غديقِ
فيها تجلّى الله قُدرُته	جأت بِمَـرأى النُورِفي الأفقِ

وَحَمَامَةٌ غَنَّتْ عَلَى فَنَنْ
 قَدْ أَمَنْتُ بِاللَّهِ شَاعِرَةٌ
 أَنَا غَادَةٌ رُفَّتْ لِعَاشِقِهَا
 لَبِسْتُ سَرَابِيلَ الْهَوَى فَهَوَى
 أَنِي حَكَايَا مِنْ مَضَاوَا وَغَدَاً
 فَتَّحْتُ أَحْضَانِي بِلَا مَلَلٍ
 وَخَى لِنَيْلِ الْعِلْمِ مَطْلَبُهُ
 مَا كُنْتُ فِي رَفِي سِوَى طَلَلٍ
 حَتَّى تَدَارِكُنِي مَوْسَسَةٌ
 كَمَا اتَّلَجْتُ صَدْرِي وَقَدْ نَشَرْتُ
 فَاهْتَزَّ مَا فِي الرَّوْضِ مِنْ وَرَقٍ
 كَحَمَامَةٍ فِي الْأَمْنِ وَالْفَرْقِ
 مَا عَطَلْتُ لِلصَّدْرِ وَالْعُنُقِ
 لِمَا رَأَاهَا كُلُّ مُؤْتَلِقِ
 أَحْكِي وَأَنْتُمْ مَهْدُ مُنْطَلِقِي
 عُمْرِي يُبَاحُ لِبَاحِثِ لَبِيقِ
 وَهَوَى رُفُوفِ الْوَهْجِ وَالْأَلْقِ
 مِنْ طِينَةِ الْأَخْشَابِ وَالْخِرْقِ
 تَحْيِي التَّرَاثَ فَخَفَّفْتُ قَلْبِي
 سِرّاً يُوَاخِي مَجْمَعَ الطَّرْقِ

8 - تقي الله ماء العينين

إن موضوعاً كهذا الذي يتعلّق بثقافة المغرب الصحراوي لا يمكن بأيّ شكل من الأشكال أن يُعالج بصفة دقيقة وعميقة وشاملة في بضعة أيام، ولكنها ولا شك بداية محمودة ومبادرة كريمة من أكاديمية المملكة.

لا شك أن الكل هنا يعلم أن تاريخ الزوايا في الصحراء المغربية هو تاريخ قديم جداً وكذلك كل الرسائل التي قامت بها تلك الزوايا في تلك المناطق كانت دائماً مستهدفة من طرف المستعمر. ولا شك أن انعدام الوسائل المادية وكذلك الصعوبات التي مرّت بها المنطقة كانت تحول دون تنظيم تلك الزوايا. وكما قال منذ قليل الأستاذ أحمد مفدي - وأنا أتفق معه جملة وتفصيلاً - فإن الكثير من

الوثائق قد أُتلفتُ وكذلك كثير من الكتب تعرّضت للتلفُ ومنها ما أحرق من قبل الاستعمار. مثلاً زاوية الشيخ ماء العينين في السمارة كانت تعرّضت لحريق من طرف المستعمر الفرنسي وضاعت كثير من الوثائق من جرّاء هذا الحريق.

كما أن بعض الأعلام وبعض الشعراء اختلطت أسماءهم كما قال الأستاذ ولد عبد القادر. ولذلك فهناك خلط كثير في بعض المفاهيم وفي بعض المعطيات التاريخية التي قامت بها تلك الزوايا في المنطقة. وهذا الموضوع يحتاج إلى مناقشة وربما يمكن أن يكون موضوعاً مهماً جداً إذا عمّق البحث فيه، لأنه من خلاله يمكن التفتيح عن بعض الوثائق التي هي محتكرة من بعض الأشخاص الذين يملكونها. فهي بالنسبة لهم شيء تميز لا يمكن التفریط فيه، ولذلك أعتقد أن عملاً كهذا يتطلب جهداً كبيراً ومبادرات متكررة. ولا شك أن نخبة من الأساتذة، منهم من هو حاضر معنا الآن، ومنهم الغائبون، يجعلون محلّ تفكيرهم هذا الموضوع.

في بعض المداخلات التي تمت هذا الصباح أستوقفتني بعض المعطيات التي لا بدّ أن أشير إليها، فقد ورد على لسان بعض المتدخلين من الناحية التاريخية، وحتى أحاول أن أفيد في هذا المجال، أن المقاومة والجهاد في الصحراء المغربية بدأت منذ القرن التاسع عشر وخاصة منذ 1884. فقد كان من السباقين لهذه المبادرة الشيخ ماء العينين رضي الله عنه، وخير دليل هو أنه فرض على النصاري أنذاك، في إقليم وادي الذهب الذي كان يسمّى «قيلا سيسينيروس» (لأن الكاردينال سيسينيروس هو من أقام تلك القليلاً واستقرّ بها، وبعد استرجاع واد الذهب كانت تلك القليلا هي المقر لجلالة الملك الحسن الثاني رحمه الله). فرض عليهم أن يدفعوا الجزية بأمر من السلطان أنذاك، فكان الجهاد مستمراً وكان بمثابة قاعدة اجتماعية وسياسية وثقافية، حتى توفي سنة 1910. وبعد وفاته قاد الجهاد بعده الشيخ أحمد الهيبة. والوثائق تثبت كل ذلك، وقاده بأمر من السلطان مولاي حفيظ، برسالة هي موجودة كان قدمها الشيخ محمدي

رضي الله عنه لجلالة الملك محمد الخامس عام 1956 في محاميد الغزلان. بعد ذلك قاوم الاستعمار الفرنسي بمعية القبائل الصحراوية والسوسية إلى أن توفي، ثم بعد ذلك قاد الجهاد الشيخ مربيّه ربه، وكبّد العدوّ الخسائر الفادحة حتى أنه أوقف مدّ الفرنسيّين في تلك الأقاليم الجنوبية.

ذكرت هذا لإنصاف التاريخ، لأن التاريخ هكذا.

9 - ماء العينين النعمة علي

أثار الأستاذ الدكتور عبد الهادي التازي قضية النخل والتمر عند أهل الصحراء المغربية. وأشار في هذا الصدد إلى رسائل مطولة بعث بها الشيخ ماء العينين إلى بعض علماء منطقة سوس وهم علي بن عبد الله الإلغي والحسين الإفراي والمحفوظ الأدوزي يخبرهم فيها أنه بعث ابنه الشيخ الولي إلى طاطا وأقا وورزازات وزاكورة ونواحيها ليأتي له بالنخل كي يزرعه في مدينة السمارة واستأذنه في أن يأتي لنفسه ببعض النخل كي يزرعه هو بدوره. وفي هذه الرسائل يشرح المقصود بالنخل والتمر والفوائد الصحية المتنوعة التي يحتوي عليها، كما يبين الوقت الذي يزرع ويحصد فيه والطرق التي يتم بها ذلك، مما يعكس أهميته عند أهل الصحراء. ولازال هذا النخل الذي زرعه الشيخ ماء العينين وابنه الشيخ الولي في بداية القرن العشرين يتواجد حتى الآن بمدينة السمارة العاصمة العلمية والروحية للصحراء المغربية التي بناها هذا الشيخ بأمر وتوجيه من السلطان المولى عبد العزيز والتي دشنت أول مشروع حضري في المنطقة وقامت بأدوار طلائعية متعددة على المستوى العمراني والديني والعلمي والاجتماعي والسياسي وساهمت في إغناء ثقافتنا الوطنية ورصيدنا الحضاري والفكري.

المسألة الثانية التي لا يجب أن تغيب عنا ونحن ندرس ثقافة الصحراء المغربية هي أن الشيخ ماء العينين ألف كتابا سماه «ضياء الظلم في الأمثال والحكم» ضمَّه الكثير من الأمثال المغربية والعربية مع ترتيب وشرح مفصل لها. وقدم له بتقديم عرف فيه المثل ومغزاه ومقصده وأسباب نشأته وأهم رواده في العالم العربي والإسلامي. مشيرا إلى أنه استقى جميع الأمثال التي استشهد بها من المدن التي كان يزورها سواء في المغرب أم المشرق كالحوض وولاتة وأدرار وأطار وتندوف والصحراء وتيزنيت والصويرة ومراكش والرباط وسلا ومكناس وفاس وطنجة وطرابلس والقاهرة ومكة. وكان يجتمع بسكانها ومختلف شرائحها وطبقاتها ويتذاكر معهم في هذا المجال، وخلص في النهاية إلى أن هناك نقاط تلاق وتشابه بين بعض هذه الأمثال. إلا أن هذا الكتاب المهم والمتميز لا يزال مخطوطا، ولاشك أنه سيفيد الباحثين والدارسين حين يحقق ويطلع ويخرج إلى الساحة الأدبية والثقافية.

المسألة الثالثة التي أريد أن أشير إليها هي ظاهرة التواصل بين الشيخ ماء العينين وبين الأسر والعائلات المغربية في عدد من المدن الشمالية، التي تعكس التواصل الذي كان قائما بين شمال المغرب وجنوبه والذي يثبت مغربية الصحراء ويفند ادعاءات خصوم وحدتنا الترابية ودعاة النزعة الانفصالية الواهية. وقد قمت بإحصائها فوجدتها تتجاوز ألف رسالة.

وهذه الرسائل في مجملها عبارة عن إجازة علمية أو فتوى في نازلة أو شرح لقضية لغوية وأدبية أو إجابة عن سؤال حول حكم شرعي. وقد تتضمن بعض الأسرار والفوائد أو الشوق والإخوانيات كما هو معروف في فن الرسائل. وهذه أسماء بعض الأسر والعائلات التي راسلها وراسلته في بعض المدن المغربية.

- فاس :

بلحاج - بن عاشر - بنيس - بن سودة - بن جلون - برادة - بناني - الفهري -
التازي - السراج - الأزرق - العراقي - الصقلي - الطاهري - الجوطي -
القيطوني - الشفشاوني - الخزرجي - القباج - سكيرج - النميشي - بن
زاكور - الكتاني - بن حمون - السقاط - السرغيني - القادري - الحوات - بن
عيسون - العلمي - اليملاحي - بلمليح - لفضيلي - البلغيثي - بوغالب - الدباغ.

- الرباط :

فنجيروا - بورينو - بلامينو - كليطو - دنيا - باينا - لوباريز - بيرو - بيدجونج
- بريطل - برطال - كراتشو - حكم - بلافريج - جوريو - فرج - القباج -
التازي - بركاش - الرگراكي - الوزاني - التادلي - الروندة - البطاوري -
الغندوري - بربيش - السمار - بناني - بوجندار - العكاري - لوديبي - سباطا
- الرغاي - بن يعيش.

- سلا :

زنيبر - معنينو - حجي - الصبيحي - لمريني - البارودي - الوزاني - الكتاني
- القادري - شماعو - العياشي - الحدراني - البدرائي - فنيش - السبيطي -
بن السايح - السلاوي.

- وزان :

لغزاوي - الوزگاني - الزيزوني - الرهوني - الزواقي - المساري - الزكاري -
القلقولي - الزراري - بن خليفة - التهامي - الطيبي - الخطيب - الشاهدي -
القشريني - الحسنوي - الوزاني.

- طنجة .

بن الصديق - التمسسماني - الفصحي - البقالي - الطنطاوي - الجوهري -
عجول - الرحلي - الوزاني - الدرقاوي .

- تطوان .

داود - الوزاني - الودراسي - الوطاسي - البقالي - بنونة - بلحاج - قطيوط -
بن قريش - التمسسماني - الريفى - بركة - الصفار - أشعاع - سكيرج -
التطوانى - الرهونى - بن زاكور - بناني - البزاز - الهبطينى - الكرفطينى -
السريفي - اليوسفي - البدرى - لغمارى - البوخالدي - مشيش العلوي -
السراج - العروسي .

- مكناس

برنوس - عطوش - دادوش - فرموس - عبدوس - السقاط - بوعشرين -
الصفار - بناني - برادة - الناصري - العلوي - الحرني - الإسماعيلي -
المحمدي - الزيداني - العبدلاوي - الوزاني - البلغيثي - السوسي - فضول
السوسي - الحدرائي - الزموري - اليحيائي - الزياتي - المطيري - الولالي -
التولالي - الولائي - الحسنوي - السهيلي - العامري - الحساني - التادلوي
- المعداني - العميري - لكثيري - بن عزوز - بن يحيى - الدخيصى - المجاطي
- المنيعي - الشبيهي - الطاهري - العمري - بن عبود - لمزوري - بن فقير -
أولاد بن يعيش - العيساوي - الشبوكي - أولاد بادو - المصطاسي - برطال -
حديقة - بلفقير - الصنهاجي - أگومي - بوزكري - لحريشي - القسطالي -
حماموش - التاغي - صفندل - بن عثمان - الخياري - بن زكري - الفيلاي -
السلجلماسي - الزهراني - الزهراوي - الزريهني - الزرهوني - الصات - أولاد
بصري - القبري - الخلطي - البخاري - علوش - بن سعيد - المنوني - أجانا

- الأجنبي - بن شقرون - بن سلمون - بن رحمون - بن رحيلة - بن حلام - بن حليلة - الجنان - عمور - والجروندي.

وهناك عائلات وأسر أخرى في مراكش وسوس ووجدة والصويرة وتازة لازلت منشغلا بدراسة رسائلها لإحصاء أسمائها كاملة.

10 - أحمدو ولد المختار حمين

المحور الأول : هو قضية الحيز المكاني لثقافة الصحراء وإن شئنا قلنا ثقافة المغرب لأنه في موريتانيا يوجد علماء في أقاصي الجنوب «الموريتاني» - بمفهوم ما بعد 1960 - بايعوا ملوك الدولة العلوية واستجلبوا الكتب من المغرب مثل الشيخ سيد يا الذي استترى خزانة من الكتب من المغرب من ضمنها كتاب «الضروري في صناعة النحو» لابن رشد ولا توجد منه نسخة اليوم عدى الموجودة في خزانة أهل الشيخ سيد يا في بوتلميت وقد تم طبع هذا الكتاب العام الماضي في موريتانيا. والأمثلة على هذا كثيرة كما أن السنغال رافد ثقافته رافد مغربي إما عن طريق الشناقطة او باتصال مباشر. وحتى أن غامبيا ومالي والنيجر وغينيا بيساو احتضنت علماء مغاربة وتجار كذلك....

المحور الثاني : هو قضية عدم اهتمام علماء الصحراء بموطأ الإمام مالك مع أنهم مالكيون «متعصبون» لهذا المذهب فاهتمامهم البالغ يكمن في الارتباط بمختصر خليل بن إسحاق المالكي حيث أن أحمد بابا التنبكتي يقول قولة اللقاني : نحن قوم خليليون إن ضل ضللنا، وربما السبب في ذلك يعود إلى إهمال الحديث وعلومه من طرف هؤلاء القوم عدى النزر القليل منهم حيث أن موطأ الإمام مالك كتاب في الحديث وليس نص فروع.

المحور الثالث : وهو قضية ابن رازكة فأنا أرى أن البحث في نشأة الشعر الصحراوي - البيضاني مازال قاصرا - شيئا ما - حيث أننا نقول بأسبقية سيد عبد الله بن رازكة ونحن عندنا معطيات تاريخية تدل على أن ابن رازكة هو أحد شعراء تلك الفترة وليس هو الوحيد ومن هذه المعطيات ما يلي :

- ابن رازكة أورد صاحب «فتح الشكور» مشاعرة بنيه مع الفقيه مينا نحن والأخير شيخ ابن رازكة.

- يذكر أن ابن رازكة لما قدم على المولى محمد العالم وحكاه قصيدته في مدح محمد الكريم الديماني والتي مطلعها :

تخافت البروق على الغميم شفال يا مقيلة أن تشيم

خاطبه المولى محمد العالم: بما أجازك ممدوحك هذا؟ فرد عليه . سمى علي ابنه وأعطاني المال «ومدحني بالشعر».

- إنه في عهد ناصر الدين إمام الزوايا في حرب شرببه - قبل ميلاد ابن رازكة - عزّر شاعراً من اليعقوبيين على أبيات قالها في الغزل مطلعها هو :

رب حوراء من بني سعد الأوس حبها عالق بذات النفوس

جعلت بيننا وبين الغواني والكرى والجفون حرب البسوس

- كذلك وقفت العام قبل الماضي في كناش على قصيدة شاعر هو كذلك قبل ميلاد ابن رازكة اسمه مولود بن متليله الديماني يمدح بها شرفاء وهي من مجزوء الرجز

يا رب ابق الشرفا فينا على مر الدهور

لحفظ دين المصطفى نبينا الهادي الشكور

11 - أمانة اللّوه

لقد سمعت خلال هذه الندوة المخصصة لثقافة الصحراء من عُمر الكلام وعيون الشعر وما أثير فيها عن التواصل بين المغاربة جميعهم شمالا وجنوبا قديما وحديثا ما جعلني في موقف كأن الشاعر العربي القديم كان اياه يعني عندما قال:

وذو الشوق القديم وإن تعزى مشوق حين يلقي العاشقين

فقد أعادت إليّ هذه الندوة ذكريات أعتز بها كل الاعتزاز لأن لها علاقة وثيقة بالتواصل الذي كان بيننا وبين إخواننا الصحراويين في وقت كان فيه الاستعمار مسلطا سيفه علينا وكان لنا بالمرصاد في كل التحركات.

ذكرياتي عن الصحراء كثيرة وعلاقتي بثقافة الصحراء ليست وليدة اليوم ويكفي دلالة على ما أقول أن أهم جائزة نلتها في حياتي كانت عن قصتي «الملكة خنائة» بنت بكار المغافري الصحراوية المحتد زوجة سلطان المغرب المولى اسماعيل... ولأن الذكريات كثيرة، والوقت لا يسمح بذكرها جميعا فإنني سأقتصر هنا على بعضها، أوجزها في التالي :

أولا - بعد المسيرة الخضراء المظفرة، قدم من الصحراء المحررة إلى الرباط وفد نسائي صحراوي هام، وقد استقبل بحفاوة وتكريم، وأقيمت على شرفه احتفالات وتجمعات. وقد دعيت لإلقاء محاضرة في ذلك الوفد الكريم، وكان ذلك بتاريخ 29 مارس 1976 بوزارة الأنباء على الساعة السابعة والنصف مساء.. وأذكر أنني افتتحت محاضرتي بعد كلمات الترحيب والتعبير عن فرحة اللقاء بقولي : «ما أشبه اليوم بالبارحة ! لقد نكّرني هذا الوفد النسائي الصحراوي الكريم بوفد مماثل له حل بالرباط غداة استقلال المغرب، وبالتحديد، بعد انتهاء الاستعمار الإسباني بالشمال وعودة المنطقة إلى حظيرة الوطن، وفد نسائي

مكون من طالبات وأستاذات ومديرة مدرسة المعلمات بتطوان، ولقد لقي ذلك الوفد كل أنواع الترحاب والتكريم، واستضافته العائلات الكريمة بالرباط. كان عيداً من الأعياد التي لا وجود الدهر بمثلها إلا نادراً، وتوجت الزيارة باستقبال الوفد من طرف الأميرة عائشة كريمة المغفور له محمد الخامس... إنها نفس الظروف ونفس الأحداث... تحرر الشمال من الإستعمار الإسباني، فكان اللقاء في الرباط عاصمة المغرب الموحد، واليوم تحررت الصحراء من الاستعمار الإسباني فكان اللقاء في الرباط عاصمة المغرب الموحد... انتهى.

الحدثان معا كانا دليلين قاطعين على وحدة المغرب التي لن تنفصم عراها أبداً إن شاء الله مهما تعددت المؤامرات وتكاثرت الافتراءات.

واليوم يفرض علينا اثبات الهوية في الهوية ! يا للمهازل ! إنه الظلم الدولي، ولكن أشد منه قساوة ظلم ذوي القربى !

وظلم ذوي القربى أشد مضاضة على المرء من وقع الحسام المهند

ثانياً - لقد أشار بعض الاخوان في كلماتهم إلى الوفد الصحراوي الذي حل بتطوان في طريقه إلى الديار المقدسة إشارات خفيفة، وتتميماً للفائدة وتذكيراً ببعض التفاصيل حول الموضوع، أترك الكلام هنا للأستاذ ابراهيم الإلغي ليحدثنا عن هذا الوفد، فقد كان من بين المرشحين بهم... ووجود الإلغي بتطوان كان بسبب بطش الاستعمار الفرنسي بالوطنيين بالمنطقة السلطانية، فلجأ إلى تطوان في ظروف صعبة في نفس الوقت الذي نُفي فيه شقيقه العلامة المختار السوسي إلى قريته إلُغ بسوس حيث مكث هنا حوالي عشر سنوات، ومكث الإلغي بتطوان عشرين سنة (من 1938 - 1958).

وسأقرأ عليكم النص الذي كتبه الأستاذ ابراهيم الإلغي عن الوفد الصحراوي الذي مرّ بتطوان في طريقه إلى الديار المقدسة. يقول الأستاذ الإلغي: «كان ذلك اللقاء في الهزيع الأخير من الثلاثينيات (1357 هـ - 1939 م) يوم حل بتطوان وفد

عظيم من أبناء أقاليم الصحراء المغربية في نحو أربعين فردا في طريقهم إلى الديار المقدسة ملتحقين بركب الحاج الشمالي الرسمي لتلك السنة، وكانوا برياسة الشيخ الوقور مولاي مربيه ربّه ابن الشيخ الأكبر ماء العينين الأشهر ومعه أخوه الشيخ الأجل محمد الإمام ونخبة من أبناء عمومتهم وتلامذتهم الأدباء النجباء. والمعروف أن آل ماء العينين انتهت إليهم الرياسة والزعامة إذ ذاك في الأقاليم الجنوبية الصحراوية التابعة آنذاك إداريا لمنطقة الشمال، وكانت الوطنية والدعوة إلى الإصلاح والوحدة حظا مشاعا ومبدأ منتشرًا بين الجميع هنا وهناك.. لذلك احتفلت الأوساط الوطنية بتطوان بمقدم ذلك الوفد الكريم وأقيمت مآدب ونظمت لقاءات تبودلت فيها الكلمات والانشادات.. وقد كنت من الذين رحبوا وأطنبوا حيث ألقى القصيدة الآتية التي كثيرا ما أشار إليها المتتبعون للحركات الأدبية، حاولت فيها أن أعبر عن صدق شعوري بقاء أولئك الأعلام الأمثال وأن أساير أسلوبهم المألوف في الشعر التقليدي وأشيد ببعض ماثرهم ومواقفهم.. ولا سيما أن عائلتنا تربطها بعائلة ماء العينين علائق جد وثيقة... وكنت حديث عهد بتطوان ألجأتني الظروف القاهرة إليها ثم طاب لي المقام بها وأنستني ما عداها بما لقيت من تكريم واعتزاز ولم أعد فيها «غريبا» كما بدر مني في القصيدة».

وهذه هي القصيدة :

خطر النسيم مبشرا بالأسعد	ويد الصباح تبل وجه الأنجد
هذي الربا تختال في أعطافها	فتخال ساحتها كثوب برجد
نثر الغمام لها جواهر زهرها	فتزينت جنباتها بزبرجد
وتبادلت أطيّارها ألعانها	في نشوة فوق الغصون الميد
والأفق يبسم عن ثغور مسفرا	عن سابحات الجو في الروض الندي

والورق حين تناوحت في أيكها
وتناسقت أنوار روض خلاته
والنهر طوقه كدملج معصم
أين التفت تر الطبيعة فتنة
والشمس في عليائها تحكي سنى
هجرت صريع جوى بوحشة ليله
فوصالها يشفي صباية عاشق
جاءت وزارت بعد طول تماطل
الدهر يسمح بالمؤل تارة
السعد نغبة طائر في فرصة
فاليوم لاحظت السعادة خلصة
من قبل كان الدهر فرق بيننا
أن صح ترحيب (الغريب) بمثله
هذى الوفود النازلون برحبهم
يحدوهم الشوق الكمين على النوى
وقلوبهم تتنازع من بين الحشا
فلحجهم من غير شك حطة
تحكي بترنيم أغاني معبد
حسنا ترفل في غلائل لبد
ينساب مثل أراقم في فدفد
تسبي النهى بمناظر لم تعهد
سعدى التي بوصالها لم تسعد
يرعى الكواكب بالجفون الشهد
أفنى الليالي في رقابة موعد
والمطل من دل الحسان الخرد
ويشح أخرى بالقليل ويعتدي
فانهز إذا سنحت مليا تسعد
بعيونها قلب (الغريب) المبعد
فالآن أمسينا كعقد منضد
فأنا أرحب بالوفود الورد
لبوا نداء الله دون تردد
كيما يحجوا بيت عتق سرمد
كيما يزوروا روضة لمحمد
فهمو أتوه من مكان أبعد

إن نحن قمنا بالتجلة نحوهم
فإله يبلغ سؤلهم ويحوطهم
هذا أميرهم مـربيه ربّه
بصروا به علما أشم وشامخا
علموا مكانته العلية في الورى
يكفيه فخرا أنه الحصن الذي
فالسوس يعرف فضله ويجله
قد قاوم الدخلاء في طغيانهم
لا غرو ان كرم الهزبر وإنما
أسلاف هذا الشيخ كانوا حجة
أعظم بهم أعلام قطر ما سعوا
كم من معارف قد أجادوا نسجها
كم سنة فاعت بظل خيامهم
كشفوا القناع عن الحقيقة فاغتنى
في المغرب الأقصى شعور جيد
فلئن تفاخرت البلاد بشعرها
فابن العتيق الفحل بازل قومه
أما معانيه فوحتى ملهم
لو قيل للأدب الرفيع الا انتسب
فسل المحابر تعلمن بأنهم
فالفضل منهم لا يقاس بأزيد
حتى يفوزوا بالمنى والمقصد
أنعم به من قدوة للمقتدي
ارشاده يهدي الجميع فيهتدي
علما وأخلاقا ورفعة محتد
حرس الأمانة في الجنوب الأبعد
وله عليهم عهدة المتقلد
وأذواقهم شر الويال الأسود
أقدامه طيعا نجابة فرهد
في الدين والعلم الصحيح المسند
إلا لرفع الدين فوق الفرقد
في نول زاوية ومغزل مسجد
فقضوا على البدع التي لم تحمد
صرح الديانة في مناعة ملحد
وخيالهم عين الخيال الجيد
فلهم طوالع كالدراري الوقد
يرمي بفكر كالقسي مسدد
واللفظ منه كلؤلؤ وزمرد
لأجاب : شنغيطي، هناك محتدي
أرباب نثر أو قريض أجود

وسل الخزائن تعلمن بأنهم
وسل المحافل تعلمن بأنهم
وسل المساجد تعلمن بأنهم
وسل المكارم تعلمن بأنهم
وسل السيادة تعلمن بأنهم
وسل المعارك تعلمن بأنهم
فالمجد يركض خلفهم أين ارتموا
والعز والنصر المبين حليفهم
هم أوقفوا عدوان كفر هاجم
صدعوا وقالوا ما يعز سماعه
لكنهم صاحوا بواد مقفر
إن خالف الأقوام حكم أميرهم
وتكاسر الآساد في أجامها
الداءُ كلّ الداء في تفريقنا
لله عهد نحن فيه وحدة
لا شيء يصلح حالنا كتعارف
يا رب أصلح في البرية حالنا

كرسوا حياتهم لكل مجلد
لهم الكلام الفصل عند المشهد
فيها لا فضل ركع أو سجد
خير الأولى مدوا إليها باليد
ورثوا السيادة سيذا عن سيد
لهم بها شتى الكمأة الشهد
من قادة منهم إليه ينقد
ان أقدموا فعل الكمي الأيد
صمدوا له باسنة وتجلد
إذ ذاك من قول الحكيم المرشد
ذهبت نصيحتهم ولم تتردد
فالأمر فيهم للدخيل المفسد
يعطي الغلاب لذئبها المستأسد
فمتى نسير إلى الوفاق المنجد !
والقطر تحست أوامر لموحد
وتزاور وتععاون وتوود
واجعل له حسن الختام كما بدي

وعلى الأثر ارتجل الشاعر المفلق الأستاذ ماء العينين ابن العتيق الشهير قطعة
جوابية عما ألقى في الحفل جاء فيها :

يا إخوة المجد يا أعلام سبسه والنازلين بأعلى ذروة الرتب
 لله ايخاؤكم هذا فبينكم أخت لبان العلا والعلم والأدب
 قد سرنا اليوم ما ألقىتموه لنا تبارك الله من شعر ومن خطب

كما أنشد الشيخ الأجل سيدي محمد الإمام قائلا .

جزاكم الله إجمالا وتفصيلا أجملتم الصنع شبانا وفتيانا
 تالله ما أبصرت عين نواديكم الا رأاكم لعين المجد إنسانا

وأنشد الشاعر الأديب ماء العينين يحجوب :

في مثل هذا المنتدى كمل الندى ورأى المنى للنفس في ذا المنتدى
 حبي لمن بالمنتدى من مبتدا عمري وأخره يرى كالمبتدا

وأنشد الشاعر الأديب محمد ماء العينين ابن الشيخ أحمد الهيبة :

قابلتهمونا بأوفى ما نطيب به فخرا من أعظم ترحيب وأطيبه
 وليس ذلك إلا من سيادتكم وما من المجد قدما توصفون به

هذا وقد جرى في تلك الحفلة قول الشاعر القديم

نحن في المشاة ندعو الجفلى لا ترى الآداب منا ينتقـر

فنسخ عليه الشاعر ابن العتيق المتقدم بقوله :

دعوتهمونا سماحا دعوة الجفلى فكنتمو خير من بالزائر احتفل
 لو قيل فيكم : أستم خير متصف بالمكرمات لقال السامعون بلى
 من كان داعي أقوام لمأدبة ولم يكن هكذا فعلا فما فعلا

كما أنشدني ابن العتيق :

بك الفضلاء ان فخرؤا تباؤوا ومثلك من به فضلا بباهى

وان نام الكرام عن المزايا فإن لمقلتيك بها انتباها

ثالثا - أذكر أنه كان من عادة المسئولين في تطوان (أيام الحماية البائدة) أن يقيموا أنشطة ثقافية متنوعة خلال السنة الدراسية تدرج تحت اسم «دورة» يحضرها عموم المثقفين في تطوان مغاربة واسبان..

وفي أواخر الأربعينيات، جريا على العادة، أراد المسئولون الاسبان أن ينظموا «دورة» للمحاضرات يشارك فيها الأساتذة المغاربة والاسبان، وتركوا الحرية للمحاضر ينتقي الموضوع الذي يروقه، ووقع الاختيار على الأستاذ ابراهيم الإلغي لتدشين دورة المحاضرات هذه، واختار الإلغي لمحاضرتة موضوع «إقليم شنجيط»، وقد نالت المحاضرة إعجاب الجميع، وكان الإقبال عليها عظيما من طرف جمهور المثقفين. غير أن المسئولين الاسبان أزعجهم شيء ما في هذه المحاضرة، مما جعلهم يلغون دورة المحاضرات نهائيا ولم يعودوا لإثارتها بعد ذلك.

ونعود إلى المحاضرة، فعندما عزم الأستاذ الإلغي على تهيبّ موضوع محاضرتة، كاتب في شأنه صفيه الكبير محمد الإمام بن الشيخ ماء العينين، طارحا عليه أسئلة شاملة حول إقليم شنجيط، ملتصا منه إمداده بمعلومات عن هذا الإقليم ليعتمد عليها في تحضير موضوعه بالإضافة إلى مراجع أخرى عربية واسبانية كانت تحت يد المحاضر، وقد أشار إليها في محاضرتة.

وتلقى الأستاذ الإلغي رسالة جوابية من الشيخ محمد الإمام ومعها كناشة بالغة الأهمية هي جوابه على أسئلة الإلغي.

وفيما يلي نص رسالة محمد الإمام إبراهيم الإلغي .

«العالم العامل سلالة المجد والأماجد الأبر الأنور الأعز الأستاذ الأشهر قررة أعيننا ثمرة افئدتنا السيد ابراهيم بن الأستاذ الأكبر سيدي ج علي، السلام عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته ما دامت تجرى على الكون من ربنا رحماته... وسيصلكم سداد من عوز في الكلام على المسائل التي سألتكم عنها ومنكم نلتمس القبول وأن تنظروها بعين الإغضاء بل بعين الرضى فقد وجدنا الحال مشتغلين في تأليف وسَمْنَاهُ «بالدر المنتخب في تنقيح أخبار من في المغرب من العرب»، أشبعنا فيه الكلام في جميع ما يتعلق بالقطر وعسى الله أن ييسر طبعه فيعم النفع به، هذا وكن على بال من هذه الورقات التي تصلك فإن نسخة المؤلف فيها لم تكن تحت اليد الآن لأنني جعلتها في بعض الكتب ولم أدر الآن أين هي فأخذت هذه النسخة بخط بعض الطلبة لم تنقح وخطه لم يبلغ الإجابة ولكن أحوجني على بعثه إليكم محبة اسراعها إليكم لأنني لم أعلم بسفر الحامل إلا ساعة إتيان الطائرة فأخذت هذه النسخة فبعثتها إليكم بعجزها ويجرها فصحوها ونقحوها وإن أحببت الزيادة في الكلام على موضوع فأخبرنا به لنفعل من ذلك ما ظهر لكم والجواب يأتي بعد تصفحك الورقات بتحقيق وتدقيق بالتمام وعلى المحبة والسلام.

18 جمادى الأولى عام 1367

محمد الإمام بن شيخه الشيخ ماء العينين غفر الله له

وكما ذكرت، فقد كانت هذه «الورقات» موضوع الرسالة، جوابا على أسئلة الأستاذ الإلغي وقد سماها سيدي محمد الإمام «إسعاف السائل بالكلام على بعض المسائل» يقول في مدخلها :

«... أما بعد فيقول عبد ربه وأسير ذنبه محمد الامام بن شيخه الشيخ ماء العينين غفر الله لهما ولجميع المسلمين أمين . إنه ورد علي من بعض الأحناب الفائقين

في المعرفة والآداب سؤال عن بعض المسائل التاريخية التي تختص بالقطر الشنجيبي فلم يسعني الا إجابة السؤال مع تبليل البال وكثرة الأشغال وسأتي بها إن شاء الله مرتبة على حسب سؤاله :

فالمسألة الأولى : شرح كلمة شنجيبي ومتى أطلقت على ذلك الإقليم.

المسألة الثانية : تحديد الإقليم من نواحيه الأربع وهل هو في المغرب أو خارج المغرب مع ذكر طبيعته ومياهه وجباله ومعادنه وأشجاره ومدنه العامرة والدارسة.

المسألة الثالثة : فهل سكانه كلهم عرب ومتى نزلوا ذلك الإقليم وأسماء أشهر القبائل وهل كان فيهم ملك ورياسة وكيف يسوسون أمورهم في الوقت الحاضر، وذكر أشهر رجالاتهم حديثاً وقديماً، ومشايخهم وأعلامهم وأدبائهم.

المسألة الرابعة : عاداتهم وأخلاقهم في حالات الحرب والسلم وفي حالة الحضارة والبداءة وفي بيوتهم ومعاشرتهم ومخالطتهم للأجانب وكرمهم وغيرتهم وسائر أخلاقهم التي يتوارثونها خلفاً عن سلف.

المسألة الخامسة : درجة معارفهم وفنونهم وأدابهم وطريقتهم في التعليم والتهذيب وما هي الفنون والآداب التي يميلون إليها ويحسنونها مع ذكر علمائهم الحاليين وشعرائهم المعاصرين والذين ماتوا قريباً مع منتخبات من أشعارهم ومؤلفاتهم ومدارسهم ومساجدهم أو زواياهم.

المسألة السادسة : قيمة المرأة ودرجة تعلمها وتربيتها ومبلغ مشاركتها للرجل في الأحوال العامة مع التعرض لملابس الرجل وملابس المرأة ومن هي أشهر النساء قديماً وحديثاً.

المسألة السابعة . الكلام بتوسع على عائلة الشيخ ماء العينين ونسبتهم وأفراد عائلتهم الأحياء منهم والأموات.

المسألة الثامنة · كل ما يمكن أن يفيد في هذا الشأن من حيث التقسيم الإداري الحالي وتبدل الأحوال وازدياد العمران وانتشار الزراعة وإقبال السكان على العصر الحديث والأخذ من الحضارة الحديثة وغير ذلك من كل ما يناسب المقام. هكذا نص السؤال. ولا يخفى أن كل مسألة من هذه المسائل إن أطلقنا العنان فيها تحتاج لمؤلف مستقل، ولكن السائل من حسن أدبه وإنصافه أسند الينا النظر فيما ظهر لنا مما يقتضيه الحال فقال موجها الخطاب للمسئول : «فله أن يجيب عما شاء ويترك ما فيه عسر، كما أن له أن يزيد من عنده كل ما يراه مناسباً» إلى آخر ما قال مما وسع به عنا الموضوع جزاه الله تعالى خيراً. وسنتكلم على المسائل المذكورة مرتبة على حسب السؤال وبما يسمح به الوقت من إيجاز وإطناب وعلى النقاط المتأكدة. ونكل إشباع الكلام في ذلك المعنى على تأليفنا المسمى «الجوهر المنتخب في تنقيح أخبار من في المغرب من العرب» فقد جمعنا فيه ما عسى أن تمس إليه الحاجة وعسى الله تعالى أن ييسر طبعه ليعم نفعه فيغني عن كثير من المطولات لأن التأليف إذا كان خاص بموضوع يجمع ما كان متبعثراً في غيره، ويلم ما كان متفرقاً في بطون الدفاتر، ونسأله تعالى أن يوفقنا في القول والعمل ويحفظنا من الزيغ والخلط، إنه على ما يشاء قدير وبالإجابة جدير، وقد سميت هذه النبذة : «إسعاف السائل بالكلام على بعض المسائل».

الكناشة أو «الورقات» كما يسميها مؤلفها تحتوي على معلومات قيمة وحقائق تاريخية جد مهمة، وهي وثيقة نفيسة يستأنس بها ويعتمد عليها كل من يريد أن يكتب عن إقليم شنجيط ففيها من الذخائر ما يثري الباحث والقارئ معاً، وتتألف من ثمانية وثلاثين صفحة (38) من الحجم الكبير ومكتوبة بخط مغربي واضح وبأسلوب سهل رصين مختصر مفيد.

وفي رسالة أخرى بعثها الشيخ محمد الامام إلى ابراهيم الإلغي، تقول بعض فقراتها : «...إن الله فتح علينا بتأليف جديد أسميناه . «الجأش الربيط في

النضال عن مغربية شنجيط وعربية المغاربة اليوم من مركب وبسيط» فإن يسر الله طبعه لعلكم ترون منه نسخة. وذيلناه برسالة أسمىناها «حلى الأوراق في حكم الاسترقاق». الرسالة تحمل تاريخ 16 ذى الحجة 1367 هـ.

هذه شهادتي التي أردت أن اشارك بها في هذا المنتدى الأدبي الرائع الذي أعاد إلينا ذلك التواصل الأدبي الذي كان يتم بين الجنوب الأقصى والشمال الأقصى... وسيبقى هذا التواصل ممتدا وقائما إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.

12 - عبد الكريم غلاب

أريد أن أؤكد فقط على أن هذه الندوة نجحت بكل معاني النجاح ، وأن ما كنا نتمناه لها فاقه الواقع بكثير، وما ذلك إلا بفضل البحوث والدراسات والملاحظات التي قدمت في هذه الندوة المباركة والتي أكدت أن الثقافة المغربية هي الواصل الأكبر بين الشماليين والجنوبيين، بين الذين يسمون صحراويين وبين الذين يسمون جبليين أو ريفيين أو غير ذلك من الأوصاف.

إن الثقافة في الصحراء المغربية هي ثقافة متميزة تميز الثقافة المغربية، ولكنها أوسع من ذلك أفقاً، ذلك أن المثقفين الصحراويين الذين سعدنا بسماع كثير من الأمثلة عنهم وكثير من تراجم بعضهم، هؤلاء المثقفون يؤكدون معنى الثقافة الحقيقية ومعنى المثقف ومعنى رسالة المثقف. المثقف الصحراوي كان عالماً بكل معنى الكلمة، بالمفهوم القديم للعالم. فالعالم بالمفهوم القديم لا يختص فقط بعلم الفقه أو التوحيد أو القراءات القرآنية، ولكنه عالم شامل. وكذلك هي الثقافة في الصحراء، كانت ثقافة عالمية شاملة تشمل علوم الدين والدنيا، تشمل التاريخ والأدب وتشمل كل المعارف الإنسانية في وقتها. وكل الذين كتبوا من المثقفين الصحراويين كانت لهم سعة المعرفة هذه. ولا أدل على ذلك مما سمعناه عن

الشيخ ماء العينين رضي الله عنه، وعمّا كتب من كُتّب في مختلف المعارف في وقته، وكذلك ما تركه لأبناءه وحفدته، أي الصحراويين جميعهم الذين يعيشون معنا الآن من سعة الفكر وسعة الثقافة وسعة المعرفة وكذلك الأفق الواسع الذي يسع المغرب شمالاً وجنوباً كما يسع المعارف أدباً ولغة وفقهاً وتوحيداً وقرآناً وغير ذلك من المعارف.

هذه الثقافة التي استمعنا إلى نماذج وافية منها يجب أن تستمر. وهذا هو موضوع تعليقي. والصحراويون، ولا أقول الصحراويين بالمعنى الجغرافي، ولكنني أعني الصحراويين المهتمين بقضايا الصحراء ومنهم الشماليون كالأستاذ عباس الجراري والأستاذ الظريف والأستاذ أحمد مفدي وكل الأساتذة الذين تحدثوا في هذا الموضوع والذين سيتحدثون فيه، والذين يجب أن يستمروا في إعطاء إشعاع للثقافة المتميزة الموحدة في هذا الوقت بالذات. واقتراحي هو أن تكون لجنة أو اتحاد أو ما شئتم من الأسماء ليرعى هذه الثقافة، فقد سمعنا أن كثيراً من الكتب ضاعت، أُحرقت مثلاً، أُحرقها الاستعمار، أو ضاعت بسبب جفاف الطقس، أو ضاعت لأنها بقيت مخطوطة ولم يتح لها أن تنشر. وكذلك هذه المعارف التي تحدثتم عنها، فيما أظن وبعض الظن إثم، أنه بعد عقد أو عقدين من السنين ربما ستضيع. هذه المعارف الكبرى يجب أن تستمر، ليس فقط بمعناها القديم أو بمعناها التاريخي، ولكن بمعناها الحديث، بمعنى أن الثقافة الصحراوية يجب أن تستمر الآن وأن تحرص على استمرارها لجنة أو اتحاد أو ما شئنا من الأسماء، ليكون نبراساً لاستمرار لمعان الثقافة الصحراوية في عصرنا هذا.

فالنشيء الذي أوكدّه أني كنت جاهلاً بكثير ممّا قيل، وكنت غافلاً عن كثير ممّا قيل. ولست وحدي، فالكثيرون قد استفادوا وسيستفيدون جداً حينما تنشر هذه الأبحاث، وسيعجبون بما قرأوه وما سمعوه في هذه الندوة القيمة ولذلك أريد لها

أن تستمر بهذه الطريقة التي أقترحها . وقد سبقني إلى اقتراح مثل هذا أو شبيهه به ، الأستاذ ماء العينين مربيه ربّه. واقتراحاته على الرأس والعين ، فالأكاديمية ستأخذ بها ولكن مع ذلك أقترح أن تؤسس لجنة خاصة بثقافة الصحراء تكون مشتركة ، بحيث يكون فيها كل المغاربة الذين يهتمون في دراساتهم اهتماماً شاملاً بالمغرب كله شماله وجنوبه ، ويستمررون في هذا العطاء . مثل ذلك مثل الشعر، الشعر الذي سمعناه من إخواننا في هذه الجلسة كان شعراً جيداً جداً ، شعراً يحكي شعر العرب في الجاهلية وفي بداية الإسلام ، شعر قوي لغة وأداءً وإلقاءً كذلك . فالشعر لا ينبغي أن يضيع ، بل يجب أن يتجدد وأن يستمر وأن يتطور وأن يحفظ وينشر عن طريق هذه اللجنة التي أقترحها .

اقتراحي الثاني ، وهو مرتبط بالأول ، هو أن إخواننا المهتمين بقضية الصحراء، يجب أن لا يحجموا عن النشر بالصحف المغربية عن هذا الموضوع .

بعض الأخوات المشاركات بهذه الندوة ، قالت بالأمس بأن السياسة لا تهمها لأن مشاكلها ستحلّ مع الزمن ، وأن الذي يهمها هو الثقافة ! وهذا صحيح إلى حدّ كبير . يهمنّا أن تنتشر الثقافة وأن تستمر الثقافة الصحراوية في جميع صحف المغرب ومجالاته ، وألا يحجم إخواننا الذين يعرفون عن هذا الموضوع أكثر ممّا يعرف الآخرون ، ألا يحجموا عن نشر ما لديهم من معلومات وتطويرها وعن ربط الحاضر بالماضي وبالمستقبل حتى لا تكون الثقافة الصحراوية ثقافة الماضي، لا نجتمع فقط مرة أخرى سواء في الأكاديمية أو في غيرها لنتذكّر الماضي ولكن لنذكر الحاضر كذلك ولنتأمل في المستقبل كما نريد أن نصنعه ثقافياً .

اقتراحان أتمنى أن يحوزا قبولكم.

13 - حمداتي شببهنا ماء العينين

من بين العروض التي استمعت إليها، استوقفني عرض شيخي الأستاذ الحسين وگاگ، ذلك أنه طاف بنا في التاريخ الإسلامي في الجنوب المغربي، وكيف تأسست هذه الوحدة التي سميتها كالقَطْر لا يُدْرَى أولها خير أم آخرها؟ لأن صرح الحضارة الذي بُني في هذا البلد تضافرت فيه جهود أبناءه من الجنوب إلى الشمال، ففي هذه المنطقة التي تكون الحيز الترابي الذي خصّصت له هذه الندوة، استوقفني في التاريخ، سواء عند المسعودي أو ابن عبد البر في «الأنساب» أو في «الاستقصا» أو عند ابن خلدون، استوقفني دقيقة أساسية من التاريخ عسى أن تكون هذه المناسبة دافعاً للباحثين حتى يستجلوا لنا حقائقها .

فنحن نعلم جميعاً قصة ذهاب عبد الله ابن ياسين عند شيخه وگاگ ابن زلو الذي تحدث لنا عنه شيخنا الحسين وگاگ اليوم وتحدثنا مصادر التاريخ بإجماع على أنه كان يجاهد في الوثنية في المنطقة التي توجد بعمالة تنزيت الآن وفي ولاية كلميم أي في قبائل سملالة التي كانت مركزه وموطن محضرته. وكل الوثائق التي بين أيدينا تحدثنا على أنه مرّ على واد درعة من شرق «أقا» في قدومه الأول، ولقي الشيخ الوثني الموجود هناك وقتله، وسباً منه عشرة آلاف ناقة في مجيئه الثاني. ثم تحدثنا نفس المراجع على أنه مرّ برأس درعة، وعلى أنه لما خرج من درعة إلى الشمال وقعت مواجهات بينه وبين سكان تارودانت وسكان ماسة، ولكن ما تحدثت لا عن تيزنيت ولا عن كلميم ولا عن قبائل واد نُون ولا عن قبائل آيت بآ عمران، لا في ذهابه ولا في رجوعه، وتضيع لنا حوالي خمسة قرون من الحديث عن هذه المنطقة، لا يحدثنا عنها أي من المراجع الموجودة الآن والمتأية لدينا.

نضع على أنفسنا سؤالاً : هل هؤلاء الناس ما وصلتهم الردة التي وصلت القبائل الأخرى وبقوا مسلمين نظراً لهيمنة مدرسة وگاگ الذي هو شيخ عبد الله ابن ياسين فلم يردوا؟ ولهذا فهو لم يعرّج عليهم لأنه يعرف أنهم مسلمون وأنه لا

يريد قتال المسلمين وأنه تركهم على ما هم عليه ؟ أو أن هذه المنطقة آنذاك انكمش فيها السكان بسبب الوقائع التي كانت موجودة ؟ نحن نفتقد حلقة تربط لنا بين التاريخ قديمه وحديثه في هاته المنطقة.

المنحى الثاني، هو أن المراجع التي بين أيدينا تحدثنا على أن هناك أثريات وهناك قبائل جزولة وقبائل صنهاجة التي هي قبائل حميرية، وتحدثت في كتابي عن الصحراء، عن سبب قدومها إليها، ولكن تثبت لنا الوثائق على أن محمد بن عبد الله ذهب إلى أخواله في واد نون والصحراء ومكث معهم عامين قبل أن يعين ملكاً. وقد نشر ذلك ابن خلدون ونشر في «الاستقصا». إذن هذه قضايا تبين لنا أن هناك حلقة في التاريخ لا بدّ أن نبحت عنها حتى تكتمل لدينا الموسوعة التاريخية أو على الأقل المسار التاريخي لدولة المرابطين. هذا بالنسبة لما قاله أستاذنا الحسين وكاگ، وأنا أشكره على مقال على مدرسة السمارة التي لا بدّ أن أقول كلمة حولها في هذا الموضوع.

عندما كان يتكلم لنا الأستاذ المختار المداح عن قصائد شيخنا الجليل شيخ الجماعة الشيخ محمد المام. هذا الرجل كان غريباً جداً أنه قام بعمليات حسابية وفلكية غريبة من نوعها، وكانت عنده مكاشفات وطموحات لم يدركها معاصروه، والعلم يبين كل يوم منها جديداً. هذا الرجل يستحق منا وقفة حتى لا تضيع هذه المواهب التي عاشت في زمن وتنقرض.

أقول إن الشيخ ماء العينين، وهي النقطة التي أردت أن أركز عليها، لما مرّ بمولاي عبد الرحمن في طريقه إلى الحج وسأله عن حاله وحال والده قال له : إرجع عندي من الحج. وفي حجه - وهذه قضية أخرى من قضايا البحث - أخذه الجدي في الأسكندرية، وتخلف عن الباخرة وشفي منه فذهب إلى مكتبة الأزهر فوضع يده على الشاطبي لأول مرة في التاريخ ! كنا نقول قبل السنة الماضية، أول مرة يعرف فيها الشاطبي في الشمال الإفريقي، وفي السنة الماضية اكتشفنا

على أنها أول مرة في التاريخ يعرف فيها الرجل ؟ قال : «وجدت الشاطبي لا ذكر له في أرضنا ولا أحد يعرفه فعكفت عليه فنظمته»، نظمه في الثمانية أشهر التي بقي فيها وراء القافلة، وصحبَه وسمَاه «المُوافق»، ولما قدم هنا طلب منه علماء فاس أن يكتب عليه شرحاً فكتب عليه «المُوافق» فسمَاه «المُرافق على الموافق»، والكتاب طبعه مولاي عبد الحفيظ في مطبعة الطالعة لأنها أتت بعد المطبعة الحجرية، ويحققه الآن الأستاذ النابغة ماء العينين.

نحن كنا نظن على أن هذه القضية وقعت في الشمال الإفريقي فقط، لكن السنة الماضية قدم إليّ طالب يحضّر الدكتوراه على «نوازل الشاطبي» فقلت له ليست للشاطبي نوازل، لم تكن هناك نوازل للشاطبي¹ قال لي: يوجد أستاذ تونسي خرج فتاوي الشاطبي من كتبه فسمّاها «نوازل الشاطبي»، فحققتها فأخذ عليها شهادة دكتوراه وأنا الآن أحقق التحقيق. فسلمني النص فوجدت فيه تقدماً لمصطفى الزرقا يقول فيه - والكتابة لمصطفى الزرقا مرّ عليها الآن عشرون سنة، معناها أن المغرب اكتشف الشاطبي بأربعين سنة قبل المشرق عن طريق الشيخ ماء العينين¹ - «لم يكن للشاطبي ذكر، ولم يخطر ببال أحد ولم يعزو إليه أحد في مشرقنا حتى أتت هذه النوازل».

ذكرتني الأخت خديجة أبي بكر ماء العينين ، بقضية وطنية. ففي 1938 عين سيدي عثمان بن حسّنا، قاضي القضاة بطرفاية بظهير خليفي، وعين والدي الشيخ الغظيف قاضياً بطنطان وزمور. وفي سنة 1942، وجدّ خديجة محمد تقي الله هو قاضي العيون، قال له الإسبان . أنت لست تابعاً لسيدي عثمان لأنه يوجد في منطقة حماية، لأن طرفاية مكتوب فيها صك الحماية. هذه الواقعة بالذات حملت نائب الخليفة العالم الجليل الشيخ محمد الأغظف وجميع قوات الصحراء، إلى القول رداً على الاستعمار لا يمكن بحال من الأحوال أن نكتب حكماً ولا أن نفصل في نازلة إلا إذا كان هذا القضاء تابعاً لقاضي القضاة ! فأرغم السكان الإسبان

في الداخلة والعيون على أن تكون التبعية لقاضي القضاة بطرفاية، بل ذهبوا أبعد من هذا، فالشيخ محمد الإمام وأخوه الشيخ محمد الأغظف الذي هو أكبر منه والذي كان نائباً للخليفة، بينما محمد الإمام كان رئيساً للديانة بإفني، اتفقا مع الناس على أنهم لا بد أن يضغطوا حتى يكون هناك مجلساً شرعياً، أي محكمة للاستئناف. فعُيِّن مقرها بمدينة إفني تحدياً للسلطات الإسبانية، وعُيِّن على رأسه بلوش من آيت بآ عمران، وأصبحت تعقد جلسيتين في السنة، ياتيها سيدي عثمان بن حسّاناً وماء العينين بن العتيق وقاضي العيون. ويجلس المجلس الشرعي شهراً في إفني يَبْتَثُ في القضايا التي حكم فيها في طنطان والعيون والداخلة والسامرة وآيت بآ عمران. فكانت هذه القضية التي أثارت الأخت خديجة اليوم هي التي حملتني على هذا التعليق.

وأختم بخبر، مفاده أنني عثرت على حكم كتبه والذي من خط العالم الجليل والولي الصالح محمد الأمين الذي خطه عن عالم آخر كتبه منذ 600 سنة حول مكان من الأرض توجد فيه الآن مدينة بوجدور، والحكم بين بني أبي السباع وقبيلة أخرى، ويحكم فيه حكماً مغربياً بين طرفين مغربيين يقول: « وحكم المغربي فلان الفلاني بهذه الأرض المغربية ... لأبناء بني السباع ... ».

نحن لا ننطلق من فراغ ولكن مع الأسف ندافع بجهل، أقولها وأكررها، لا ننطلق لحقنا من فراغ، ولكن ندافع عنه بجهل. لنا قضية عادلة وضعناها بين أيدي من لا يحسن الدفاع عنها. ولهذا ذهب أوراقتنا جميعاً، وقلتها وكتبتها بشجاعة، ما بقي منها إلا جرأة وكفاءة الحسن الثاني وقوة العرش العلوي.

ولهذا فنحن الآن في بحبوحة من الترف الفكري بهذه الندوة ومن الفرح بها، ولكن أنا أضم صوتي إلى الأستاذ غلاب على أنه لا بد من تكوين خلية أو مجلس أو رابطة أدباء، ولكن أنبه إلى أن الأدب العربي في الصحراء ينقرض. فالآن طغى على الأدب ما يسمّى بالأدب الحساني، وهذا الأدب يتعاطاه نوع معين من الناس،

نحن صنّاعه ونقولُه ونعرفه، ولكن هو ليس أدباً بهذا الشكل الذي نعطيه الآن. فإذا عملنا رابطة الآن فلا ينبغي أن تكون مختلطة ينبغي أن تكون رابطة الشعر العربي العمودي المقفَى حتى لا تضيع اللُّغة العربية في الجنوب.

14 - خديجة أبي بكر ماء العينين

بالنسبة للإشارة إلى اقتراح مؤسّسة أو خلية تهتم بالتراث، فعندنا مؤسّسة الشيخ مربّيه ربّه لإحياء التراث والتبادل الثقافي، وقد طبعت لحدّ الآن عشر كُتب ويوجد تحت الطبع 12 كتاباً أو أكثر. وحتى هذه المؤسّسة تحتاج إلى مساعدة وتحتاج لمنح وتحتاج إلى عاملين بها من مختلف جوانب المغرب. وسأعرض على أنظاركم لأئحة الكُتب التي أنجزتها هذه المؤسّسة.

15 - المصطفى القباح

أعلّق فقط على التدخل الهام والطريف والموثق للأخت العالية، التي قدمت توصيفاً مهماً للنمط الأسري في الصحراء .

أريد أن أعرف هل الإخوة في الصحراء، أو الباحثين بصفة عامّة في مجال السوسيوولوجيا ومجال الأنثروبولوجيا قاموا بدراسات ميدانية لاستجلاء معالم التطورات الحاصلة في النمط الأسري بالصحراء ؟ أقول هذا، لأن النمط الأسري في الصحراء الآن عانى من بعض الازمات الناجمة عن الاستعمار بالدرجة الأولى، وعن التمدن. ذلك أن النمط الأسري في الصحراء هو نمط رُحّل ونمط منعزل إلى حدّ ما، الآن مع التمدنّ ثم مع الإعلام ثم العلاقة مع الشمال، هذه كلّها ظواهر اجتماعية واقتصادية أثرت كثيراً على الخلية الأسرية. إننا اليوم في الشمال

المغربي نعاني من تفكك خطير، ومن أزمة قيم أُسرية ومن ظواهر سلبية كثيرة ولا نريد أن يلحق بالنمط الأسري في الصحراء مثل هذه الظواهر السلبية.

حبذا، ونحن كمهتمين بالدراسات السوسولوجية والتربوية، لو حَصلنا على بعض المؤشّرات من سكّان الصحراء عن التطورات الحاصلة على النمط الأسري لديهم.

16 - العالية ماء العينين

بالنسبة للاهتمام بهذا الجانب، هو متجمّد للأسف الشديد، فعلى حدّ علمي هناك رسالة جامعية للأستاذ محمد دحمان، ناقشت هذا الموضوع «ما بين حياة الاستقرار والترحل، البداوة والاستقرار» تحت إشراف الأستاذة رحمة بورقية. فلأسف إن الأبحاث الأكاديمية في هذا المجال مُنعدمة. وربّما هناك اهتمام أصبح يظهر في الأفق على مستوى أبحاث الإجازة. فإذا لاحظنا في كلية الآداب بالرباط هناك أبحاث كثيرة في هذا المجال، لكن على مستوى الإجازة، وطبعاً نحن نعرف مال أبحاث الإجازة وحتى مستواها العلمي.

إذن فالمجال مفتوح وهي دعوة لكم ولجميع المختصّين، لأن هذا الجانب، فعلاً، لا زال بكرةً ويحتاج للعديد من الدراسات.

17 - تقي الله ماء العينين

أتقدّم بالشكر الجزيل للأستاذ عبد الكريم غلاب على اقتراحه الذي كنتُ أنوي أن أتقدم به، والذي يتمثل في إنشاء خلية تعمل تحت إشراف أكاديمية المملكة المغربية من أجل جمع ما يمكن جمعه من تراث ومن كُتب والمساعدة على

طبعها. كما أريد أن أتقدم للأستاذ غلاب بملتمس، ليتقدم به إذا كان ممكناً، إلى نقابة الصحافة وهو أن تخصص الجرائد الوطنية صفحة للمغرب الصحراوي. وهو أمر سيساعد كثيراً على الحفاظ على ثقافة الصحراء.

18 - عبد الكريم غلاب

ما أحوجنا إلى أن نقرأ رواية عن الصحراء أو مجموعة قصص عن الصحراء أو شعراً عن الصحراء. والصحراويون وغير الصحراويين المهتمون بثقافة الصحراء قادرون على ذلك. ولهذا يجب أن يمتزج الأدب القديم بالأدب الحديث وأن تطور كل هذا التراث نحو المستقبل، ولا بدّ أن ينشر. فكثير من الشعراء يكتبون شعرهم ويبقونه عندهم. ولذلك فالقليل من يطلع عليه. أما إذا نشر هذا الأدب سواء كان تراثاً أو أدباً حديثاً فبطبيعة الحال سيصبح مشاعاً بين جمهور القراء وسيأخذ حظه من الدراسة ومن النقد والبحث والترويج، وهكذا.

لذلك أجدد الدعوة إلى الكتابة في الصحف المغربية، وجريدة «العلم» بصفتي مديراً لها، مفتوحة لجميع الذين يكتبون عن الصحراء، سواء ما كتبوه عن القديم أو ما يكتبونه عن الحديث.

19 - تقي الله ماء العينين

أريد فقط أن أذكر أن الموضوع الذي عالجه هذا المساء هو موضوع يمكن أن يكون تاريخياً وسياسياً واجتماعياً. ذلك أن أوجه الاستعمار قاموا بتحجيم تلك المناطق ثقافياً وكذلك فكرياً بدراسات معمّقة في مجال السوسيوولوجيا والأنثروبولوجيا. أذكر من بين هؤلاء الباحثين الذين قاموا بدراسات في تلك

الفترة ميشو بلير، وكذلك شولتر، وجاك مونبي وغيرهم، كل هؤلاء جندهم الاستعمار آنذاك ليقوموا بأبحاث في جميع الميادين التي تتعلق بالمجتمع المغربي. ولذلك، حبذا لو أخذنا هذا المجال وخضنا فيه بالدعم الكافي من الناحية الثقافية والسوسيوولوجية والأنثروبولوجية في تلك المناطق .

كما أُجِدَّ شكري لمؤسسة الشيخ مربيّه ربّه على ما قامت به من عمل محمود في مجال المعرفة والعلم .

20 - أحمدو ولد المختار حمين

أذكر بمسألة ذكرها الأستاذ حمداتي وهي قضية مهمّة وأنا أدعوكم لمطالعتها وهي قضية «المُرافق على المُوافق» وهذا الكتاب ابتكر فيه الشيخ ماء العينين، قضية منفردة في التأليف وهي أن يجد هذا العالم كتاباً بحجم «الموافقات» للشاطبي وينظمه على أمل ألا يجد منه نسخة بعد ذلك، وبعد ذلك يجد نسخة ويقوم بشرحها، وهي قضية مهمّة أردت أن أوكد عليها من جانبي.

كما أريد أن أقول للدكتور أحمد رمزي بأن اللهجة الصنهاجية في موريتانيا قريبة من الشلحية في المغرب، وعندنا اهتمام بهذه اللهجة وأنا كنتُ أقرأ ليلة البارحة كتاب «حفريات في الذاكرة» لمحمد عابد الجابري، واستوقفتني قصيدة شعبية قال إنها كانت تدلّه بها أمّه، وفهمت منها كلمات بالصنهاجية لأننا نتكلّمها في موريطانيا، والأستاذ أحمدو ولد عبد القادر ممّن يجيدونها. وفي مرة كان المرحوم المختار بن حامدن العلامة المؤرخ مع العلامة المحدث محمد بن أبي مدين كما حدثني من حضر مجلسه، جالسين في فندق حسان في السبعينات وكانوا مدعوين لحضور الدروس الحسنية، وكان المختار ولد حامدن يتحدث مع مطرب موريتاني اسمه محمد بن النان بلهجة صنهاجية، ومحمد بن النان يتحدث معه

باللهجة التي يُتكلم بها عند الطوارق. وكان بعض المستخدمين في الفندق يضحكون لأنهم كانوا يفهمونها ، فوق تفاهم بين اللهجات الثلاث.

كما أن هناك منجد عمله المختار بن حامدن في هذه اللهجة مع المستشرق نيكولا وسمعت المختار حامدن في شريط يقول بأنهم أنجزوه في دكار مدة إثني عشر يوماً، وقد طبع وهو موجود مع أنه لم يعد طبيعه.

أريد كذلك أن أهيب بمداخلة السيدة العالية ، وهي مداخلة قيّمة، وأدعوها إلى العمل المتواصل في هذا الاتجاه، لأنها ستكون بطة البحث في قضية الأسرة في الصحراء، أدعوها إلى استنباط المادّة من النوازل الفقهية لأنها هي المرجع في قضية الأسرة، حيث أنها وهي حفيدة الشيخ ماء العينين، لا بد أن تكون تعي فتوى له في الطلاق بالخلع وطلاق الغضب وهي قضية مهمّة، لأننا إذا قُمنّا اليوم بمقارنة بين مدوّنة الأحوال الشخصية. وهذه الفتوى تظهر عمق نظر هذا الرجل مع أنني أعتبر الشيخ ماء العيّنين نموذجاً آخر من العلماء لا تجوز مقارنته بأي كان، لأنني لا أعرف عالماً من المتصوفة الكبار وعلماء الفروع وعلماء الأصول مثله. لا نعرف هل الشيخ ماء العيّنين عالم أصول أم عالم فروع ؟ وإذا صحّ القول فهو عالم أصول وفروع بشكل مطلق.

قضية الأشعرية قضية مهمّة أثارها الأستاذ الحسين وكاك، وهذه القضية ينبغي أن نتواصل نحن الموريتانيين وأنتم المغاربة، لأننا لدينا خصوصية وميزة، وهي أن الدولة المغربية والدولة الموريتانية بالمفهوم الحديث، هما اليوم حماة المذهب المالكي والمذهب الأشعري والتصوّف السنّي، لأنه لا توجد دولة في العالم العربي تتحد في مذهب فأحرى دولتين.

21 - الحسين وكاك

لا يسعني إلا أن أشكر هذه الأكاديمية وأشكر رئيس لجنة القيم، كما أشكر الأستاذ غلاب على تدخله الذي أتى بفكرة مهمّة، خاصة إذا كانت هذه اللجنة التي نادى بها ستقوم بدور مهم في المستقبل، وسيكون عملها مثمراً إن شاء الله. وكما يقول الشاعر الفحل عمُّ الأستاذ حمداتي :

أشكو إلى الرحمن من دهر غدا قد قلّ من تلقاه فيه على هدى
أهل الديانة لا ثقافة عندهم وذووا الثقافة عن الهدى

فمن هذا الحكيم الذي سيلفح لنا هؤلاء بهؤلاء حتى يكون التوازن؟ والأكاديمية هي التي ستفعل ذلك!

الفكرة التي قالها السيد حمداتي عن عبد الله بن ياسين والطرق التي مرّ منها، من منّا يعرفها؟ لقد جاء هو وأبويكر، ومن تمّ لم نعلم هل مرّ من البحر أو من الجو حتى وصلا إلى النيجر. وقد قرأت عن هذا الموضوع 60 كتاباً تقول كلها إن عقبة ابن نافع فتح بلاد المصامدة. من منّا يعرف بلاد المصامدة؟ وأنا أبحث في عشرين مرجعاً، عن تلك (الغريبة) التي تقول: إن أولئك المصامدة الأمازيغ هم الذين ذهبوا عند النبي يباحثون عن الدين ليأتوا به إلى هنا. أولئك المصامدة أنفسهم، تقول بعض الأخبار، على أنهم هم الذين ذهبوا إلى الصحراء. والمرجع الذي بيّن هذه الأشياء هو للشيخ محمد الإمام: «الجاش الربيط في مغربية شنغيط».

22 - ماء العينين مربيّه ربّه

كنتُ أتوقّع أن يثير أحد الإخوة أن إشعاع ثقافة الصحراء في البلدان الإفريقية المجاورة هو جزء من إشعاع الثقافة المغربية في إفريقيا بصفة عامّة، ولكن أحداً

لم يثر ذلك. وسبب اهتمامي بهذا الموضوع هو أن عدداً من البلدان الإفريقية وخاصة التي ذكرت، يعترف جلّها بجمهورية الصحراء المزعومة. بعضها سحب اعترافه وبعضها ينتظر. فيجب الاهتمام بالعلاقات المغربية الإفريقية.

تحدثت كذلك عن علاقة الشيخ المحفوظ بمغربيّ من فاس اسمه الدبّاغ بنسودة، كان يزوده بالكتب ويزوده كذلك بالشاي الأخضر، وهذا يظهر أن همّ الدبّاغ وهمّ الشيخ المحفوظ شيء واحد . الكتب والشاي الأخضر. لم أعتز على وثيقة تتحدث عن الدبّاغ بنسودة ولكنني من خلال قراعتي لبعض الكتب المؤلفة هناك، علمت أنه كان يعيش في عاصمة كامبيا بنجول حتى 1917.

فيما يخصّ الشعر الشعبي الذي أثاره بعض الإخوة، فهو نمط لا يمكن اعتباره في الصحراء، إلاّ فوق الشعر العربي الفصيح ! لأن شعرانا في الجنوب ، وهذه حقيقة أحبّها من أحبّ وكرهها من كره، أجود ما قالوه في الشعر هو ما قالوه في الشعر الحساني. لأنّ اللهجة الحسانية هي لغة الفطرة، هي اللغة الأم. ولهذا هناك نصوص من الشعر الحساني ربما تفوق أروع النصوص في الشعر العربي الفصيح. فالشعر الملحون في فاس مثلاً، هو شعر له قيمة أكبر ممّا لأنماط الشعر الشعبي الأخرى لأن له تاريخ وله أصول، وعندما نقارن ما بين الشعر الحساني والشعر الملحون نجد أنهما متقاربان بشكل كبير، ثم أن العبارات لا تختلف في كليهما بل تتوافق كثيراً لأنه الآن في الداريجة التي نتكلمها هنا بالشمال، اندثرت بعض الكلمات منها، لكن هذه الكلمات ما زالت موجودة في الحسانية.

زودني أحد الأصدقاء في موريتانيا بشريط للموسيقى الموريتانية القديمة، وهي أشربة نادرة، واشترط عليّ أن أزوده بأشرطة من طرب الملحون والأندلسي وقال لي بأن الغناء الأندلسي يشبه في طريقة إلقاءه طريقة الذكر عند قبائل الزوايا في الجنوب، وأنا كنتُ معجباً بشريط لقصيدة «الزردة» لبْنُ عَلِيّ المسفيوي لأن كل

العبارات الموجودة فيه مفهومة بالحسانية. ولهذا لا يجب إهمال الشعر الحساني لأن شعراء أجود بكثير من شعراء القصيدة العربية، وهناك من يزوج بين الإثنين.

23 - ماء العينين النعمة علي

تعقيباً على تدخل الدكتور أحمد رمزي، أشير إلى أن هناك بعض الكلمات في اللهجة الحسانية التي يتكلم بها سكان الصحراء المغربية وسكان الدولة الموريتانية الشقيقة التي تتشابه مع الأمازيغية. فمثلاً أُخْفِنِرُ الذي يطلق على قرية تقع بين مدينة طان طان وطرفاية نجدها تتشابه مع كلمة «إِحْفَنُ» التي تعني بالأمازيغية «الرأس». ونواكشوط عاصمة موريتانيا نجد فيها كلمة «إِنُو» وتعني بالأمازيغية «نضج» و«كشوش» وتعني «الحطب» وموريتانيا نجد فيها كلمة «إِمِي» وتعني بالأمازيغية «الفم» و«ورنان» وتعني «الجنانات» والمعنى الذي نستنتجه من هاتين الكلمتين هو : «نضج الحطب» و«فم الجنانات». أو «فم الجنان». وهناك كلمات أمازيغية قحة منها : أدْرَارُ وتَكَاثُتْ وهي أماكن في موريتانيا، فالأولى تعني بالأمازيغية الجبل والثانية تعني الغابة. وكانت تطلق كذلك على قرية في الجنوب الغربي بمنطقة سوس بين مدينتي كلميم وبويزكارن وأودري وكرزيم وهي أماكن في سوس، وهناك أيضاً أماكن في الصحراء تسمى بهذا الاسم.

بالإضافة إلى هذا فقد وظف عدد من الشعراء الصحراويين الأمازيغية في أشعارهم الحسانية دون أن يخل ذلك بالإيقاع أو البناء من ذلك قول الشيخ مربيه ربه بن الشيخ ماء العينين :

قَالَتْ لِي مَحْبُوبَتِي يَا الْمَجِيدِ	كَأَتْلِي وَلَفِ يَا الْمَجِيدِ
قَبْلَ قَلِيلٍ مِنْ ذَاكَ	كَبَيَّاتٍ مَاتَغَوَانَ
حَبِي يَجِدُهُ كُلَّ جَدِيدِ	غَيَّوَانِي إِجْدُ كُلَّ جَدِيدِ
مِنْ النِّسَاءِ لَهُ طَعْمٌ	مَنْ لَغَيُّودِ إِلَّا لُوبِنٌ

فـ «ما تَغَوَانَ» كلمة أمازيغية وظفها في هذا البيت الشعري وحافظ بها على الوزن والروي والايقاع. ونفس الشيء ينطبق على قوله في البيت التالي :

أَنَا هَذَا مَا دَمْتُ هُنَا	أَنَا هَذَا مَحَدَّ هَوْنُ
أَضَعُ خَمْسَةَ عَلَى فَمِي	دَائِرُ سَمُوسُ عَلَى إِيْمِي
وَأَضَعُ بِسْمِ اللَّهِ عَوْنَا	أُودَائِرُ بِسْمِ اللَّهِ عَوْنُ
وَالرَّحْمَانَ وَالرَّحِيمِ	الرَّحْمَانَ وَالرَّحِيمِ

فـ «سَمُوسُ» و«إِيْمِي» كلمتان أمازيغيتان تعني الأولى خمسة والثانية الفم.

كما وصف شعراء الصحراء كذلك في قصائدهم العربية والحسانية عددا من الأماكن الأمازيغية السوسية وذكروها بالإسم. من ذلك قول مامين بن الشيخ سداتي بن الشيخ ماء العينين معبرا عن حبه لأماكن في الصحراء وسوس.

نَبَّخَ لِرَمَاتٍ أُوتِيغَزْرَتْ
 الْعَيْنُ أُوتَاْفُودَارَتْ
 أُوتِيْمُلَايِ أُوتَانُكْرَتْ
 أُودَايِ أُوتَمَنَارَتْ

فلرماث وتافودارت والعين وتيغزرت أماكن في الصحراء. وتماي وتانكرت وأداي وتمنارت أماكن أمازيغية في سوس.

وقول الشيخ مربيه ربه واصفا ألكست وأملن بمنطقة تافراوت :

توافت مهاري المبتغى للمؤمل بأجبال كست وهي أجبال أمل
فقف وتأمل في الصنائع واعتبر ففي كل صنع عبرة المتأمل

وقول الشيخ النعمة بن الشيخ ماء العينين واصفا أيت الرخا :

مذ تبدت لها بلاد رخاوه لبس الركب بهجة وطلاوة
وتبدي سعد الأخبيات سموسا مند تبدت لنا بلاد رخاوه

وقول ماء العينين يحجب بن خطري واصفا تنالت :

تنالت فيك طاب لنا المقام ومن بالحق يصدع لا يلام
لأنا فيك منذ جننا وبتنا بحمد الله طاب لنا المقام

أما محمد أبو الأنوار بن الشيخ ماء العينين فقد نظم اللسان الأمازيغي في أرجوزة كبيرة وشرحه بالعربية وأحيانا بالحسانية، وهذا يعتبر بدوره مظهراً آخر من مظاهر التواصل بين الصحراء وباقي المناطق المغربية.

يقول في مقدمة هذه الأرجوزة :

قال محمد أبو الأنوار استغفر الله من الأوزار
والحمد لله فهذا النظم من لغة الشلوح فيه العلم
صلى على من علم الأشياء من ربنا وختم الأنبياء

ويعسد ذا فذا نُظِيم يعرب في شلحة بما تقول العرب
وربما يعرب في كيفية بلغة وهي حسانيه

إلى أن يقول :

وَنُكِّ لِلذِّي تَكَلَّم وَكِي	لمن تكلم فلا تك غبي
أَوَالُ لِلْكَلامِ فَبِرْ أَيْ اسكُتْ	أغماس للأخ وأغم للأخت
وَلَأَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ أَكْلِيدُ	امدكأل صحبه وذا مفيد
وَأَمَّا إِدْرُوسُ فَلِلْقَلِيلِ	وأما إكوت فللجزيل
وَالْبَرْدُ أَصْمِيضُ قَدْ قَالُوا لَهُ	والمطر أنزار مما أفضله

24 - أحمد ولد عبد القادر

كتبتُ ثلاثة أبيات شعرية هي خلاصة انطباعي عن هذه الندوة، وأرجو أن لا تحسب تحت مستوى الشعر الحساني ! كما ذكر بعض الزملاء، لأنني لا أقبل ذلك. فالشعر الفصيح في نظري هو الأعلى. وهاكم الأبيات :

أحبة أنوار المعارف والعمل	ومملكة الأشراف والعز والأمل
عرفنا بكم أيام صفوٍ وحكمة	وأفاق علمٍ لا يغيض ولا يمل
عليكم سلام الله يُزجي عبيره	لراية نصرٍ يغمر السهل والجبل

خطاب اختتام أعمال الندوة

أبو بكر القادري

مدير الندوة

لا بد لي في نهاية هذه الندوة أن أتقدم لأخوتكم بشكري الجزيل وتقدير الأكاديمية الكبير على حضوركم معنا في هذه الندوة التي تعتبر بحق من أنجح الندوات التي عقدتها الأكاديمية، نظرا لموضوعها الهام من جهة ونظرا لحضوركم أنتم بالذات من جهة أخرى.

لقد اعتبرت نفسي سعيدا جدا لأنني لأول مرة في حياتي، وقد تجاوزت الثمانين، أحضر في ندوة أرى فيها شبابا من الصحراء ليس متحمسا للوحدة الوطنية فحسب، بل متحمسا للثقافة، ولثقافة الصحراوية بصفة خاصة.

وإني وقد وصلت إلى هذا السن، أعتبر نفسي الآن تلميذا أمام هؤلاء الشباب الجالسين أمامي، وأعتبر نفسي سعيدا بوجودهم، كما سعدت بوجود العنصر النسوي كذلك، وبمشاركته المشاركة الفعالة، بل المؤثرة التي برهنت على أن الثقافة المغربية الأصيلة لم تغب عن هذا البلد، وبقيت مشعة آتية من الصحراء المغربية.

وأنا أستمع للأخوات المشاركات معنا في هذه الندوة، تذكرت، و أنا لست بشاعر ولا متطفل على الشعر، ولكنني برغم ذلك تذكرت قصيدة قالها مصطفى صادق الرافعي في الثلاثينيات وأنا شاب أحفظ بعض الأشعار وبعض الأناشيد

التي كنا ننشدها أو نعلمها لأبنائنا وإخواننا ولتلامذتنا، قصيدة أعتبرها من الروائع، أقول لكم منها أربعة أبيات :

إننا الطُّهْرُ الأماجيد الألى نزلت لنا السَّمَا مُذْ أُنْزِلَا
 ذلك القرآن أخلاقا على كوكب الأرض محمد العُلا
 ليس كالمسلم في الخُلُق أحد ليس خُلُقُ اليوم بل خلق الأبد
 إنما الإسلام في الصحراء امتهد ليجيء كل مسلم أسد

أشكركم مرة أخرى، وأشكر إخوتي في إدارة الأكاديمية وفي طليعتهم السيد أمين السر الدائم وكل الإخوة على صبرهم وتحملهم والسلام عليكم ورحمة الله.